

«كتاب يكسر القلب، ثم
يأسره... أفضل مذكرات
في السنوات الماضية»
USA TODAY

المعالجة

تارا ويستووفر

مذكرات

ترجمة: خالد الجيلي

نور

تم تحويل هذا الكتاب من صيغة (pdf) إلى صيغة نصية (epub) لما لها من مميزات عديدة؛ مثل التحكم في حجم الخط وتحديد الاقتباسات وغيرها من المميزات الأخرى. عملية تحويل الكتاب هي عملية شاقة، وما نبذله من جهد فهو تطوعي تمامًا؛ لأننا نسعى أولاً إلى المساهمة في زيادة محتوى المكتبة العربية النصية. وثانيًا لتوفير سبل القراءة للجميع وتيسير الوصول إليها. وثالثًا لحفظ الكتب؛ فوجود الكتب بصيغة إلكترونية يعني أنها ستظل متاحة للجميع ومحفوظة إلى الأبد، دون أن تؤثر عليها عوامل الزمن.

انضم إلى القناة الآن وتابع المزيد من الكتب النصية الجديدة: <https://t.me/xepub>

القناة الاحتياطية: <https://t.me/xepub1>

المتعلّمة^٣

المؤلف: تارا ويستوفر

ترجمة: خالد الجبيلي

التصنيف: مذكرات

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: يناير ٢٠٢٠م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ٦ - ٧٦٣ - ٤٢٩ - ٦١٤ - ٧٨ ٩ ISBN:

المقدمة

كانت تارا ويستوفر في السابعة عشرة من عمرها عندما وطأت قدمها لأول مرة قاعة درس. ولدت في عائلة من «البقائيين» في أيدياهو، وكانت تحضّر لنهاية العالم من خلال تخزين الدراق المعبأ في البيت، وتنام وتضع «حقيبة الصعود إلى التلال» بجانبها على السرير. وفي الصيف كانت تعدّ الأعشاب لأُمّها، القابلة والمعالجة بالأعشاب، وفي الشتاء، كانت تعمل في جمع المعادن وفرزها في باحة الخردة التي يمتلكها والدها.

وبما أن والدها لم يكن يثق بالمؤسسة الطبية، فلم تر طبيبًا أو ممرضة قط. وكانت جميع الجروح والإصابات، بل حتى الحروق الناجمة عن انفجارات في باحة الخردة، تُعالج في البيت بالأعشاب. وكانت الأسرة منفصلة تمامًا عن المجتمع المحيط حتى لا يعرف أحد بأن الأطفال لا يذهبون إلى المدرسة، ولا يتدخل أحد عندما أصبح الأخ الأكبر عنيقًا.

عندما دخل أخ آخر إلى الجامعة وعاد يحمل أخبارًا عن العالم وراء عالم الجبل، قررت تارا أن تجرّب نوعًا آخر من الحياة. فعلمّت نفسها ما يكفي من الحساب والقواعد والعلوم لتتقدم إلى فحص الشهادة الثانوية، وقُبلت في جامعة بريغهام يونغ التي درست فيها علم النفس والسياسة والفلسفة والتاريخ، وعرفت لأول مرة عن الأحداث المهمة التي جرت في العالم مثل «المحرقة» وحركة الحقوق المدنية. إن سعيها وراء المعرفة غيّرَها ونقلها عبر المحيطات والقارات، ونقلها إلى جامعة هارفارد وجامعة كامبردج. وبدأت تتساءل إن كانت قد سافرت إلى أماكن بعيدة، وهل ما زال هناك طريق عودة إلى البيت.

«المتعلمة» هي حكاية صراع من أجل اختراع الذات. إنها قصة ولاء عنيف للأسرة، والألم الذي يصاحب قطع أوثق العلاقات. بهذه البصيرة الحادة التي تميّز الكتاب العظماء، نسجت ويستوفر قصة نضوج بطلة تصل إلى صميم

ماهية التعليم وما الذي يقدّمه لنا: وجهات النظر التي يبدأ المرء يرى حياته فيها من خلال عيون جديدة، والرغبة في تغيير تلك الآراء ووجهات النظر. الماضي جميل لأن المرء لا يدرك أبدًا عاطفة شعر بها في ذلك الوقت. إنها تتوسع فيما بعد، لذلك لا توجد لدينا عواطف كاملة عن الحاضر، وإنما عن الماضي فقط.

فيرجينيا وولف

أعتقد أخيرًا بأنه يجب أن يُنظر إلى التعليم باعتباره عملية إعادة بناء خبرات مستمرة، وأن عملية التعليم وهدفه هما شيء واحد، وهما والشيء نفسه.

جون ديوي

ملاحظة من المؤلفة

لا تتناول هذه القصّة الطائفة المورمونية، ولا تتعرض أيضًا إلى أيّ شكل من المعتقدات الدينية، فهي تضم شخصيات من خلفيات متعددة، بعضها مؤمن، وبعضها الآخر غير ذلك. وتصرّح المؤلفة بأنه لا توجد أيّ علاقة، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، تربط بين هذين الأمرين.

والأسماء التالية، الواردة في القصّة هي أسماء مستعارة: آرون، أودري، بنجامين، إيميلي، إرين، فاي، جين، جودي، بيتر، روبرت، روبن، سايدي، شانون، شون، سوزان، فينيسا.

كلمة استهلالية

أقف فوق عربة قطار حمراء مهجورة تقبع بجانب الحظيرة. تهبّ ريح، فيتطاير شعري فوق وجهي ويتسلل هواء بارد من فتحة قميصي المفتوحة فتعتريني قشعريرة. إن العواصف التي تهبّ من الجبل قوية جدًّا، كأن قمّة الجبل نفسها تطلق زفيرًا. وينبسط الوادي تحتي، هادئًا، ساكنًا، لكن مزرعتنا ترقص: إذ تتمايل أشجار الصنوبر الثقيلة ببطء، وتهتز أجسام الأشواك وتنحني أعشاب الميرميّة مع كلّ هبّة هواء. وتقبع ورأي هضبة جميلة منحدرّة، تصعد إلى الأعلى وتلتصق بقاعدة الجبل. وإذا رفعتُ عينيّ إلى الأعلى، يمكنني أن أرى هيئة الأميرة الهندية التي يخيم عليها الظلام.

يكسو الهضبة قمح بري. وإذا كانت أشجار الصنوبر ونباتات الميرميّة عازفات منفردات، فإن حقل القمح أشبه بفرقة باليه كاملة، ساق كلّ نبتة يحذو حذو الساق الأخرى في حركة متناغمة، قوية، مليون راقصة باليه تنحني، الواحدة تلو الأخرى، بينما تطعن العواصف الشديدة سنابلها الذهبية، لكن شكل تلك الطعنة لا يستمر إلا لحظة واحدة، تكون قريبة جدًّا، كما يستطيع أي شخص أن يرى الريح.

عندما أستدير نحو بيتنا على سفح الهضبة، أستطيع أن أرى حركات من نوع آخر، ظلال طويلة تندفع بقوة عبر التيارات. أرى إخوتي وقد استيقظوا، يختبرون حالة الطقس. أتخيّل أمّي واقفة عند الموقد، تعدّ فطائر النخالة. وأتصوّر أبي منحنيًا بجانب الباب الخلفي، يعقد رباط حذائه الطويل الذي توجد في مقدمته قطعة فولاذية، ويدخل يديه الخشتين المليئتين بالبثور في قفازات اللحام. وعلى الطريق السريع في الأسفل، أرى حافلة مدرسية تمرّ دون أن تتوقف.

لم أكن قد تجاوزت السابعة من عمري، لكنني أفهم أنّ هذه الحقيقة، أكثر من أي شيء آخر، هي التي تجعل أسرتي مختلفة: وهي أننا لا نذهب إلى المدرسة.

ويخاف أبي أن ترغمنا الحكومة على الذهاب إلى المدرسة، لكنّها لا تستطيع أن تفعل ذلك، لأنها لا تعرف عنّا شيئاً، فلا يوجد لدى أربعة من أبناء والديّ السبعة شهادة ميلاد، ولا يوجد لدى أحدها سجل طبي، لأننا ولدنا في البيت ولم نر طبيباً أو ممرضة قط^[1]. ولا توجد لدينا سجلات مدرسية لأن أقدامنا لم تطأ قاعة دروس قط. وعندما أبلغ التاسعة من عمري، سأحصل على شهادة ميلاد متأخرة، أما الآن فلا يوجد لدي وجود، بحسب قوانين ولاية أيداهو والحكومة الاتحادية.

بالطبع كان لي وجود. فقد رُبيت ونشأت لأستعدّ لليوم الآخر، أراقب الشمس حتى تصبح سوداء، وحتى يقطر القمر قطرات تشبه قطرات الدم، وأمضي فصول الصيف وأنا أملاً حبات الخوخ في مرطبانات، وأمضي فصول الشتاء في تجهيز اللوازم والإمدادات. وعندما ينتهي عالم البشر، ستواصل أسرتي العيش، ولن تصاب بمكروه.

لقد رُبيت ونشأت على إيقاعات الجبل، الإيقاعات التي لا يُعتبر التغيير فيها أمراً جوهرياً، في شكل دائري فقط. ففي صباح كلّ يوم تشرق الشمس نفسها، وتغمر الوادي، ثم تغيب وتختفي وراء قمة الجبل، أما الثلوج التي تهطل في الشتاء فهي تذوب دائماً في الربيع. لم تكن حياتنا سوى دورة -دورة اليوم، دورة الفصول- دوائر من التغيير الدائم التي تعني، عندما تكتمل، أن لا شيء قد تغيّر البتة. وقد آمنت بأن أسرتي هي جزء من هذا النمط الخالد، وأننا، على نحو ما، خالدون. لكن الخلود هو خلود الجبل فقط.

ثمة قصّة حكاها لنا أبي عن الجبل الذي كان شيئاً هائلاً، جبل أشبه بكاتدرائية. ويرتبط الجبل بسلسلة جبال أخرى، أعلى وأكثر مهابة، أما جبل بيكس باك فهو أكثرها روعة، تمتد قاعدته على مسافة ميل، ينبجس شكله المظلم من الأرض، ثم يصعد في شكل برج مدبّب لا تشوبه شائبة. ومن مسافة بعيدة، يمكنك أن ترى في واجهة الجبل صورة جسد امرأة: تتشكّل ساقاها من واديين ضخمين، ويتكوّن شعرها من أغصان أشجار الصنوبر التي تملأ الحافة العليا الشمالية. تقف بجلال ومهابة، ساق تندفع إلى الأمام في حركة قويّة، خطوة واسعة تتجاوز كونها مجرد خطوة.

كان أبي يطلق على قمة الجبل اسم الأميرة الهندية. فهي تنشق كل سنة عندما تبدأ الثلوج بالذوبان، تتجه جنوبًا، تراقب الجواميس العائدة إلى الوادي. وقال أبي إن الهنود الرحّل كانوا يترقّبون ظهورها دلالة على حلول الربيع، وعلى أن الجبل بدأ يذوب، ودليلاً على انتهاء فصل الشتاء، وأن وقت عودتها قد أزف.

كانت جميع القصص التي يحكيها أبي لنا تدور حول جبلنا ووادينا، وحول تلك الرقعة المتعرجة الصغيرة في أياداهو، ولم يقل لي أبي قط ما الذي يمكن أن أفعله إذا غادرت الجبل، وإذا عبرت المحيطات والقارات ووجدت نفسي في أرض غريبة لا يعود بإمكانني أن أبحث في الأفق عن أميرة. ولم يخبرني قط كيف يمكنني أن أعرف متى يحين الوقت لأعود إلى البيت.

الجزء الأول

الفصل الأول

اختر الخير

إن أقوى ذاكرة لي ليست ذاكرة. وإنما شيء كنت قد تخيلته، ثم بدأت أتذكره كما لو أنه حدث فعلاً. وقد تشكلت تلك الذاكرة عندما كنت في الخامسة من عمري، قبل أن أبلغ السادسة بفترة قصيرة، من قصة حكاها أبي بتفصيل شديد إلى درجة أنه كان لكل واحد منّا، أنا وإخوتي وأختي، تصوّره السينمائي عنها، فيه كثير من إطلاق النار والصرخات. وفي الصورة التي أتخيلها، كانت هناك صراير الليل، ذلك الصوت الذي أسمعته كلما اجتمع أفراد أسرتي في المطبخ، الأضواء مطفأة، مختبئين من الشرطة الاتحادية التي تحاصر البيت. امرأة تمدّ يدها لتتناول كأساً من الماء يضيء ضوء القمر خيالها. يتردد صدى طلقة يشبه صوت ضربة سوط، وتسقط. في ذاكرتي أمي هي التي تسقط دائماً، تحمل بين ذراعيها طفلاً رضيعاً.

لا يهم من هو ذاك الطفل -فأنا أصغر أبناء أمي السبعة- لكن كما قلت، لم يحدث شيء من كل هذا.

بعد أن حكى لنا أبي هذه القصة بسنة، تجمّعنا ذات مساء لنستمع إليه وهو يتلو بصوت مرتفع من كتاب أشعيا، نبوءة عن إيمانويل. كان جالساً على الأريكة التي يشبه لونها لون الخردل، وكتاب مقدّس كبير مفتوح فوق حضنه، وأمّي جالسة بجانبه. أما نحن فكنا نجلس متناثرين فوق السجادة البنية المتهترئة. «يأكل زبداً وعسلًا» قرأ أبي بصوت منخفض، رتيب، متعب بعد يوم طويل من جرّ عربة الخردة «حتى يرفض الشرّ ويختار الخير».

ثم ساد صمت ثقيل. جلسنا صامتين.

لم يكن أبي رجلاً طويل القامة لكن كان باستطاعته أن يفرض شخصيته المهيبة على الحاضرين في الغرفة. كان يتمتع بحضور قوي، مهابة كاهن

روحي. كانت يدها سميكتين مثل جلد قاس، مليئتين بالبثور، يدا رجل أمضى كل حياته في ممارسة أعمال شاقة، وقد أمسكتا بالكتاب المقدس بقوة.

قرأ الفقرة بصوت مرتفع مرة ثانية، ثمّ ثالثة، ثمّ رابعة.

وفي كلّ كلمة يكررها، كان صوته يعلو أكثر فأكثر. أصبحت عيناه المتورمتان من شدة الإعياء، واسعتين ويقظتين الآن. توجد هنا عقيدة إلهية، قال، إنه يسأل الرب.

في صباح اليوم التالي، طهّر أبي ثلاثتنا من الحليب واللبن والجبن، وعندما عاد إلى البيت في المساء، كانت شاحنته الصغيرة محمّلة بخمسين غالونًا من العسل.

«أشعيا لا يقول أيهما الشرّ: الزبد أم العسل»، قال أبي، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة بينما كان إخوتي يسحبون الأحواض البيضاء إلى الطابق السفلي. «لكنك إذا سألت، فإن الرب سيجيبك».

عندما قرأ أبي هذه الكلمات لأُمّه، ضحكت في وجهه، وقالت: «توجد في محفظتي بعض السنتات، ومن الأفضل أن تأخذها. عندها سيكون لكلّ ما تملكه معنى».

كان وجه جدّتي نحيفًا، بارز العظام، ولديها معين لا ينضب من المجوهرات الهندية المقلدة، كلّها من الفضة والفيروز، تتدلى من رقبتها الطويلة وتملأ أصابعها النحيلة. وبما أنها كانت تعيش في بيت يقع أسفل التلّ غير بعيد عن بيتنا، بجانب الطريق السريع، فقد كنا نطلق عليها اسم «الجدّة التي تعيش أسفل التلّ» كي نميّزها عن جدّتنا لأُمّنا التي كنّا نسميها «الجدّة التي تعيش في البلدة» لأنها كانت تعيش على بعد خمسة عشر ميلًا جنوبًا، في البلدة الوحيدة في المقاطعة التي توجد فيها إشارة مرور واحدة ومحل بقالية.

كان أبي وأُمّه مثل قطّتين رُبط ذيلاهما معًا. فقد كان باستطاعتهما أن يتجادلا طوال أسبوع ولا يتّفقا على شيء، لكن الشيء الذي يجمعهما هو ولاؤهما للجبل. إذ تعيش أسرة أبي على سفح جبل بيكس باك منذ نصف قرن، لكن بنات جدّتي تزوجن وانتقلن إلى أماكن بعيدة، ولم يبق إلاّ أبي،

وبنى بيتًا أصفر رتًا، لم يمه بناءه قط، فوق التلّ لا يبعد كثيرًا عن بيت أمّه، عند قاعدة الجبل، فيه باحة يجمع فيها خردوات وسيارات محطمة -باحة مؤلفة من عدة باحات بالقرب من حديقة بيتها الجميلة.

وفي كلّ يوم، كانا يتجادلان حول الفوضى التي تسببها تلك الخردوات، لكنهما كانا يتجادلان أكثر حولنا، نحن الأطفال. فقد كانت جدّتي تقول إننا يجب أن نكون في المدرسة، لا، كما كانت تقول، «نجوب الجبل كالهمج». وكان أبي يقول إن المدرسة الحكومية ذريعة صنعتها الحكومة لتبعد الأطفال عن الله، وكان يقول: «إنني مستعد لأن أسلمّ أبنائي إلى الشيطان نفسه، ولا أرسلهم إلى تلك المدرسة التي بجانب الطريق».

وطلب الرب من أبي أن ينقل رسالته هذه إلى الذين يعيشون ويزرعون في ظلّ جبل بيكس باك. ففي يوم الأحد، كان جميع سكان المنطقة تقريبًا يجتمعون في الكنيسة، الكنيسة الصغيرة المشيدة من خشب الجوز، التي تقع بجانب الطريق السريع، ذات البرج الذي يشبه الأبراج المعروفة التي تعلو الكنائس المورمونية. في يوم الأحد ذاك، أوقف أبي الآباء الآخرين الذين كانوا يهيمون بمغادرة مقاعدهم. وبدأ بابن عمه جيم الذي راح ينصت له بطيبة قلب، بينما كان أبي يلوّح بالكتاب المقدّس الذي بيده ويفسّر له شرح الآثام الناجمة عن شرب الحليب. فابتسم جيم ابتسامة عريضة، ثمّ ربّت على كتف أبي وقال له لا يوجد رب عادل يمكن أن يحرم المرء من تناول بوظة بالفريز مصنوعة في البيت بعد ظهر يوم صيفي حار، ثم ضغطت زوجة جيم على ذراعه. وعندما مرّ من أمامنا، هبّت نفحة من رائحة الروث، ثمّ تذكّرت أن مزرعة الألبان الكبيرة التي تبعد ميلًا واحدًا شمال جبل بيكس باك هي مزرعة جيم.

بعد أن بدأ أبي يلقي مواعظه التي تحرّم تناول الحليب، ملأت جدّتي ثلاثتها به. فقد كانت تشرب هي وجدّي الحليب المنزوع الدسم، لكن بعد فترة قصيرة جلبا كلّ أنواع الحليب المنزوع الدسم بنسبة اثنين في المائة، ثم الكامل الدسم، وحتى الشوكولاتة. وبدأ أنها أصبحت تؤمن بأن الحليب شيء مهم يجب أن تتمسك به.

وفي صباح كلِّ يوم، كنا نتحلَّق حول طاولة كبيرة مجدّدة من السنديان الأحمر ونتناول الحبوب مع العسل أو مع العسل الأسود، أو نتناول فطائر مصنوعة من القمح، أيضًا مع العسل أو العسل الأسود. وبما أننا كنا تسعة أفراد، فلم تكن الفطائر تُخبز جيدًا. كنت أتناول رقائق القمح يغمرها الحليب، وأترك القشدة حتى تتسرَّب إلى داخل حبيبات القمح، لكن بعد أن هبط الوحي على أبي، بدأنا نتناول رقائق الحبوب مغمورة بالماء. كنت كما لو كنت أتناول صحنًا مليئًا بالطين.

بعد فترة قصيرة، بدأت أفكّر بكلِّ ذلك الحليب الذي سيفسد في ثلاثة جدّتي، ثمَّ بدأت أتعوّد على ألاَّ أتناول طعام الفطور صباح كلِّ يوم، وأذهب مباشرة إلى الحظيرة، فأطعم الخنازير وأملأ حوض الأبقار والخيول، ثمَّ أقفز فوق السياج، وأدور دورة حول الحظيرة لأدخل من الباب الجانبي لبيت جدّتي.

في صباح أحد الأيام، عندما كنت جالسة إلى الطاولة أراقب جدّتي وهي تصبّ صحنًا من رقائق الحبوب، قالت لي: «ألا ترغبين في الذهاب إلى المدرسة؟»

«لن أحبها»، قلت.

«كيف تعرفين ذلك»، صاحت، «فلم تذهبي إليها قط».

صبّت الحليب وقدّمت لي الصحن، ثمَّ جلست إلى الطاولة، أمامي مباشرة، وراحت تنظر إليَّ وأنا أدفع الملعقة في فمي.

«سنذهب إلى أريزونا غدًا»، قالت لي. كنت أعرف ذلك لأنها كانت تذهب دائمًا إلى أريزونا مع جدّي عندما يبدأ الطقس يتغيّر هنا. فقد كان جدّي يقول إنه تقدم في العمر ولم يعد يحتمل برد الشتاء في أياهاو الذي يسبب له آلامًا شديدة في عظامه. «استيقظي باكراً غدًا»، قالت جدّتي، «عند الخامسة لنأخذك معنا. سنسجلك في المدرسة هناك».

استدرت في مقعدي. حاولت أن أتخيّل المدرسة، لكنني لم أستطع. فبدأت أتصوّر بدلًا منها مدرسة يوم الأحد التي أحضرها كلُّ يوم أحد والتي كنت

أكرهها، لأن صبيًا اسمه آرون أخبر جميع الفتيات أنني لا أستطيع أن أقرأ لأنني لم أذهب إلى المدرسة قط، ولم يعد أحد منهم يكلمني.

«هل قال أبي إنني أستطيع أن أذهب؟» قلت.

«لا»، قالت جدّتي، «لكننا نكون قد ذهبنا قبل أن يدرك أنّك غير موجودة في البيت بوقت طويل». وضعتُ صحنِي في المغسلة ورحت أهدق خارج النافذة.

كانت جدّتي واحدة من قوى الطبيعة: صبورة، قوية، واثقة بنفسها. فعندما تنظر إليها، يجب أن تعود خطوة إلى الوراء. كانت قد صبغت شعرها باللون الأسود فأبرزت قسماتها الحادّة، خصوصًا حاجبيها اللذين كانت تصبغهما صباح كلّ يوم بحبر سميّك، وترسمهما في شكل قوسين كبيرين فيجعلان وجهها يبدو منبسطًا، وترفعهما إلى الأعلى كثيرًا تعبيرًا عن الحرية.

«يجب أن تكوني الآن في المدرسة»، قالت.

«وإذا طلب منك أبي أن تعيديني؟» سألتها.

«لا يستطيع أبوك أن يأمرني بأن أفعل أي شيء لعين». وقفت جدّتي، واستدارت لتواجهني، «إذا كان يريدك، يجب أن يأتي ليأخذك». تردّدت، وللحظة بدا أنها خجلت، «لقد كلّمته البارحة. لن يستطيع أن يعيدك إلّا بعد فترة طويلة، لأنه تأخر كثيرًا في بناء الحظيرة التي يبنّيها في البلدة، وهو لا يستطيع أن يتوقّف عن العمل ويأتي إلى أريزونا، إلّا بعد أن يتغير الطقس ويعمل مع إخوتك أيامًا طويلة».

كانت خطّة جدّتي محكمة. إذ يعمل أبي منذ شروق الشمس حتى غروبها في الأسابيع التي تسبق هطول الثلج، ويحاول أن يجمع مبلغًا كافيًا من المال من العمل في الخردوات وبناء الحظائر حتى انتهاء فصل الشتاء الذي يقلّ فيه العمل كثيرًا. وحتى لو أخذت أمّه أصغر بناته، فإنه لن يتوقّف عن العمل، قبل أن تعلق الرافعة في الجليد.

«يجب أن أطعم الحيوانات قبل أن نذهب»، قلت، «ولا بد أنه سيلاحظ غيابي إذا خرجت الأبقار من الحظيرة تبحث عن ماء».

لم يغمض لي جفن في تلك الليلة. جلست على أرضية المطبخ ورحت أراقب عقارب الساعة وهي تتحرك. الساعة الواحدة صباحًا، الثانية، الثالثة.

في الساعة الرابعة، نهضت ووضعت حذائي الطويل بجانب الباب الخلفي. كان مكسّوًا بالروث والطين، وكنت على يقين بأن جدّتي لن تدعني أصدق إلى سيارتها وأنا فيهما. تخيلت الحذاء وقد تركته أمام باب بيتها، وهربت بلا حذاء إلى أريزونا.

تخيلت ما الذي سيحدث عندما سيكتشف أفراد أسرتي غيابي. فقد كنّا غالبًا، أنا وأخي ريتشارد، نمضي أيامًا في الجبل، فلن يلاحظ أحد غيابي حتى غروب الشمس، عندما يعود ريتشارد إلى البيت لتناول العشاء ولا أعود معه. وتصوّرت إختي يهرعون من البيت ليبحثوا عني. سيبحثون أولًا في باحة الخردة، يرفعون صفائح الحديد الواحدة تلو الأخرى كي لا تكون إحدى تلك الصفائح المعدنية قد سقطت فوقي، ثمّ سيندفعون إلى المزرعة، ويتسلقون جذوع الأشجار، ثم يبحثون في الحظيرة العلوية، وأخيرًا، سيصعدون إلى الجبل.

ثم سيحلّ المساء، قبل أن يخيم الظلام بقليل، عندما يصبح المشهد الطبيعي صفحة مظلمة، وتبدأ تشعر بالعالم من حولك أكثر مما تراه. تخيلت إختي وهم ينتشرون في أرجاء الجبل، يفتّشون في الغابات السوداء، لا ينبس أحدهم بكلمة، لأن الأفكار التي تدور في رأس كلّ منهم هي نفسها. وقد لا تسير الأمور في الجبل على ما يرام، فتظهر الجروف العميقة فجأة. وتجري الخيول غير المروّضة التي يملكها جدّي فوق أعشاب الشكران المائي السامة الكثيفة حيث تقبع أفاع جرسية. كنا قد قمنا بعملية البحث هذه من قبل عندما اختفى عجل من الحظيرة، وستجد في الوادي حيوانًا جريحًا، وستجد في الجبل حيوانًا نافقًا.

تخيلت أمّي واقفة بجانب الباب الخلفي، عيناها تمسحان الحاقّة العليا المظلمة، عندما يعود أبي وإختي إلى البيت ليقول لها إنهم لم يعثروا عليّ.

عندها تقترح أختي أودري أنّ يذهب أحد إختي ويسأل جدّتي، لكن أمّي ستقول إنّ جدّتي ذهبت صباح اليوم إلى أريزونا، وستعلق هذه الكلمات في

الهواء قليلاً، ثم سيعرف الجميع إلى أين ذهبت. وتخيّلت وجه أبي، وقد انكمشت عيناه الداكنتان، وزمّ شفّتيه، متجهماً، ثم يلتفت إلى أمّي ويقول لها: «أتظنين أنّها كانت تريد أن تذهب؟»

يتردد صدى صوته واطناً وحزيباً. ثمّ تغلب عليه أصوات من ذكريات أخرى تستدعيها الذاكرة- صوت صراصير الليل، ثمّ صوت طلقات، ثمّ يخيم الصمت. كانت تلك الحادثة معروفة، كما سأعرف لاحقاً، مثل ركبة مجروحة أو حصار واكو، لكن عندما حكى لنا أبي القصة لأول مرّة، كنّا نظنّ أن لا أحد في العالم يعرف عنها شيئاً، إلّا نحن.

بدأ ذلك عند نهاية موسم التعلّيب الذي يسميه الأطفال الآخرون عطلة «الصيف». فقد كان أفراد أسرتي يمضون الأشهر الحارة دائماً في تعبئة الفواكه وتخزينها لأن أبي يقول دائماً إنّنا سنحتاج إليها في يوم الهلاك. ففي مساء أحد الأيام، كان أبي مضطرباً عندما عاد من باحة الخردة، وأخذ يذرع المطبخ جيئةً وذهاباً أثناء العشاء ولم يكد يتناول شيئاً. يجب أن نكون مستعدين، قال. لم يبق وقت كثير.

أمضينا اليوم التالي في غلي الخوخ وتقشيره. وعند المغرب، ملأنا عشرات مرطبانات مايسون التي صُفّت في صفوف متقنة، لا تزال ساخنة. كان أبي يراقبنا ونحن نعمل، وأحصى عدد المرطبانات وتمتم لنفسه شيئاً، ثمّ التفت إلى أمّي وقال لها: «هذا لا يكفي».

في تلك الليلة دعا أبي إلى عقد اجتماع عائلي، فاجتمعنا حول طاولة المطبخ لأنها عريضة وطويلة، نستطيع أن نجلس حولها كلّنا. قال يحقّ لنا أن نعرف ما الذي سنتعرض له. كان يقف عند رأس الطاولة، أما نحن، فكنا جاثمين على المقاعد، نتفحص ألواح السنديان الأحمر السميكة لخشب الطاولة.

«هناك أسرة تعيش في مكان غير بعيد عنّا» قال أبي، «إنها أسرة مناضلة حقيقية في سبيل الحرّية، قالت إنها لن تسمح للحكومة أن تغسل عقول أطفالها في مدارسها، فلاحقتهم الشرطة الاتحادية». أطلق أبي زفيراً، طويلاً وبطيئاً، ثم تابع قائلاً، «حاصرت الشرطة الاتحادية بيت تلك الأسرة التي

مكثت هناك عدة أسابيع، وعندما تسلل طفل جائع، صبي صغير، وخرج من البيت ليصطاد شيئًا يأكلونه، أطلقوا عليه النار وقتلوه».

دارت عيناى حول إخوتي. لم أر قط خوفًا كهذا يرتسم على وجه لوك من قبل. «ظلوا في البيت»، تابع أبي، «أطفأوا الأضواء وجثموا على الأرض، بعيدًا عن الأبواب والنوافذ. لا أعرف كم يوجد لديهم من الطعام. وقد يموتون جوعًا قبل أن تفكّ الشرطة الائحادية الحصار عنهم».

لم ينبس أحد بكلمة. في النهاية سأل لوك الذي كان في الثانية عشرة من عمره، هل يمكننا أن نساعدهم. فقال أبي: «لا، لا يستطيع أحد أن يساعدهم، فهم محاصرون في بيتهم، لكنهم مسلحون، وأراهن أن الشرطة الائحادية لم تقتحم البيت لهذا السبب». صمت قليلًا ثم جلس، وتكوّم في المقعد الواطئ بحركات بطيئة، متشنجة. بدا في عيني رجلًا طاعنًا في السن، مهدودًا. «لا نستطيع مساعدتهم، لكننا نستطيع أن نساعد أنفسنا. فعندما تأتي الشرطة الائحادية إلى جبل بيكس باك، سنكون مستعدين لهم». في تلك الليلة، أخرج أبي من الطابق السفلي مجموعة من حقائب الجيش القديمة، وقال إنها الحقائب التي «سنصعد بها إلى الجبل». أمضينا تلك الليلة ونحن نملأها بالمعدات والتجهيزات - أعشاب طبية، ومرشحات ماء، وصوان، وفولاذ. وكان أبي قد اشترى علب وجبات طعام جاهزة عسكرية، ملأنا منها بقدر ما تتسع لها حقائبنا، ونحن نتخيّل لحظة تناولها بعد أن نهرب من البيت ونتوارى بين أشجار الخوخ البري القريبة من النهر. ووضع إخوتي أسلحة في حقائبهم، بينما وضعتُ أنا سكينًا صغيرًا، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت حقيبتى كبيرة بحجمى تقريبًا، عندما انتهينا. طلبتُ من لوك أن يرفعها ويضعها على رفّ خزانتي، لكن أبي قال إنني يجب أن أبقياها في مكان منخفض، في متناول يدي، فنمت بجانبها في سريري.

تدربت على حمل الحقيبة على ظهري والجري بها، فلم أكن أريد أن يذهب الجميع وأبقى وحدي. تخيلت كيف سيكون هروبا، في منتصف الليل إلى مكان آمن على قمة الأميرة، وفهمت آنذاك أن الجبل حليفنا. فقد يكون لطيفًا للذين يعرفونه، أما بالنسبة للدخلاء فهو خادع، وهذا يجعلنا نتفوق عليهم. وإذا كنّا سنختبئ في الجبل عندما تداهمنا الشرطة الائحادية، فلم أفهم

لماذا نعبئ كل هذه الكميات من الخوخ لأننا لن نستطيع أن ننقل ألف مرطبان ثقيل إلى قمة الجبل، أم أننا سنحتاج إليها لأننا سنختبئ في البيت، كما فعلت أسرة ويفر، ونقاتل؟

كان يبدو أن محاربة الشرطة الاتحادية أمر محتمل، خصوصًا عندما عاد أبي إلى البيت بعد بضعة أيام يحمل أكثر من اثنتي عشرة بندقية عسكرية أخرى، معظمها من نوع SKS، ذات الحراب الفضيّة الرفيعة المثنية بدقة تحت فوهاتها. كانت تلك البنادق معبأة في صناديق من الصفيح ضيقة مطلية بمادة الكوسمولين، وهي مادة بنية يشبه قوامها شحم الخنزير، وكان علينا أن نزيلها منها. ثم اختار أخي تايلر إحداها ووضعها فوق صفيحة بلاستيكية سوداء، طواها فوق البندقية، ولفّ حولها كمية كبيرة من الشريط اللاصق الفضي اللون، ثم رفع حقيبته على كتفه، وحملها إلى أسفل التلّ ووضعها بالقرب من عربة القطار الحمراء، ثم بدأ يحفر. وعندما أصبحت الحفرة عريضة وعميقة، ألقي فيها البندقية، ورحت أراقبه وهو يغطّيها بالتراب، وقد انتفخت عضلاته من هذا العمل الشاق، وكان فكّه مطبقًا.

بعد فترة وجيزة، اشترى أبي آلة لصنع طلقات من الخراطيش المستخدمة، وقال لقد أصبح بإمكاننا الآن أن نصمد لفترة أطول. فكّرت بحقيبتَي التي سأحملها والتي تنتظرني في سريري، والبندقية المدفونة بجانب عربة القطار، وتساءلت كيف يمكننا أن ننقل آلة صنع الطلقات الضخمة والمثبتة ببراعي في الطابق السفلي. وقلت في نفسي إنهم إذا هاجمونا بغتة فلن يكون أماننا وقت كاف لنقلها، وتساءلت إن كان علينا أن ندفنها مع البندقية أيضًا.

لم نتوقف عن تعبئة الخوخ في مرطبانات. لا أذكر عدد الأيام التي مرّت، أو عدد المرطبانات التي أضفناها إلى ما كان يوجد عندنا قبل أن يحكي لنا أبي مزيدًا من القصة.

«لقد قُتل راندي ويفر»، قال أبي. كان صوته رفيعًا، مرتعشًا، «عندما غادر المنزل ليسحب جثة ابنه، أطلقت الشرطة الاتحادية عليه النار وقتلته». لم أر أبي يبكي من قبل، لكن دموعه كانت تسيل في جدول لا يتوقف فوق أنفه. لم

يجففها، بل تركها تسيل فوق قميصه، «وعندما سمعت زوجته صوت الطلقة جرت نحو النافذة وهي تحمل في يدها طفلهما الرضيع، ثم انطلقت الطلقة الثانية».

كانت أمي جالسة، تضع يداً على صدرها، واليد الأخرى على فمها. كنت أحدّق في المشمّع المبقّع الذي يكسو أرض المطبخ عندما كان أبي يصف لنا كيف أن الطفل الرضيع ارتفع من بين ذراعي أمّه، وتلطّخ وجهه بدمها.

حتى تلك اللحظة، كان جزء ممّي يريد أن تأتي الشرطة الاتحادية لأنني كنت أتوق إلى المغامرة. أما الآن فقد تملكني خوف حقيقي. فتخيّلت إخوتي قابعين في الظلام، أيديهم المبللة بالعرق على بنادقهم، وتخيّلت أمي، متعبة وعطشة، وهي تتبعد عن النافذة، وتصوّرت نفسي مستلقية على الأرض، صامتة لا أتحرك، أنصت إلى صوت صراصير الليل الحادّة المنبعثة من الحقل، ثم رأيت أمي تقف وتمدّ يدها إلى حنفية المطبخ. وميض أبيض، وهدير طلقة، ثم تسقط. أقفز لألتقط الطفل الرضيع.

لم يحدثنا أبي قط عن نهاية القصة. ولم يكن عندنا جهاز تلفزيون أو مذياع. ربما لم يكن يعرف هو نفسه كيف انتهت القصة. آخر شيء أتذكّره يقوله عنها، «في المرة القادمة، قد نكون نحن».

لم تبارحني تلك الكلمات طوال حياتي. فلا أزال أسمع صداها يتردد في أصوات صراصير الليل، في صوت حبات الخوخ وهي تسقط في المرطبان الزجاجي، وفي نقرة بندقية SKS أثناء تنظيفها. أسمعها صباح كلّ يوم عندما أمّر بجانب عربة القطار وأتوقّف قليلاً فوق عشبة الطير وشوك الثور التي نمت فوق المكان الذي دفن فيه تايلر البندقية. بعد أن نسي أبي الوحي في كتاب أشعيا، وعادت أمي تضع في الثلاجة دوارق الحليب البلاستيكية «الخالى من الدسم بنسبة ٢ في المئة»، أتذكّر أسرة ويفر.

كانت الساعة تقارب الخامسة صباحاً.

عدت إلى غرفتي، تملأ رأسي أصوات صراصير الليل وأصوات الطلقات. كانت أودري النائمة في السرير تحتي، تشخر، تنبعث منها همهمة منخفضة، قانعة، شجعتني على أن أفعل الشيء نفسه. لكنني لم أفعل ذلك، وصعدت

إلى سريرى، وجلست القرفصاء وأخذت أنظر من النافذة. مرّت الساعة الخامسة، ثمّ الساعة السادسة. وعند الساعة السابعة، ظهرت جدّتي ورأيّتها تذرع فناء بيتها جيئةً وذهابًا، تتلفّث كل بضعة لحظات، تنظر إلى بيتنا في أعلى التلّ. ثمّ استقلت السيارة مع جدّي وانطلقا على الطريق السريع.

عندما اختفت السيارة عن الأنظار، نزلت من سريرى وتناولت صحفًا من النخالة مع الماء. خارج البيت، حيّتي عنزة لوك الانتحارية، وأخذت تقضم قميصي وأنا متجهة إلى الحظيرة. مررت بجانب سيارة السباق الصغيرة التي كان ريتشارد يصنعها من جزاة عشب قديمة. ملأت حوض الخنازير، ثم نقلت خيول جدّي إلى مرعى جديد.

بعد أن انتهيت، صعدت إلى عربة القطار ورحت أنظر إلى الوادي. كان يسهل عليّ أن أتخيّل أنّ العربة تتحرّك، تنطلق بسرعة إلى مكان بعيد، ويختفي الوادي ورأيّ في أيّ لحظة. أمضيت ساعات وأن أتخيّل ذلك، لكني لم أستطع أن أتخيّل ذلك اليوم. فالتفّثُ نحو الغرب، بعيدًا عن الحقول، في مواجهة قمّة الجبل.

تزداد الأميرة بريقًا ولمعانًا في الربيع، وبعد أن يذوب الثلج تبدأ أشجار الصنوبر بالظهور، فتبدو إبرها الخضراء الداكنة سوداء إزاء لون التربة واللحاء البنيّين، أما الآن فإننا لا نزال في الخريف، أستطيع أن أراها لكثّها بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا: فقد حجب لون الصيف الأحمر والأصفر المحتضر هيئتها الداكنة. وسيهطل قريبًا الثلج، وستذوب الثلوج الأولى تلك في الوادي، لكنها ستظل تغطي قمة الجبل، وتدفن الأميرة حتى الربيع، عندما تظهر ثانية، يقظة.

الفصل ٢ القابلة

«هل يوجد عندك كاليندولا؟» سألت القابلة، وأضافت «وأحتاج أيضًا إلى زهرة اللوبيليا وبندق الساحرة».

كانت تجلس إلى طاولة المطبخ، تراقب أمي التي كانت تبحث في خزانات المطبخ المصنوعة من خشب البتولا. كان يفصل بينهما ميزان كهربائي تستخدمه أمي أحيانًا لوزن النباتات المجففة. كان ذلك في الربيع، وكانت نفحة باردة تهب في الصباح على الرغم من أشعة الشمس المشرقة. «حضرت كمية جديدة من نبتة الكاليندولا الأسبوع الماضي»، قالت أمي، ثم قالت لي: «تارا، اركضي وأحضريها».

عندما أحضرت الصبغة وضعتها أمي في كيس بلاستيكي مع الأعشاب المجففة الأخرى. «أي شيء آخر؟» سألتها أمي وهي تضحك. كانت نبرتها عالية، متوترة. فقد أخافتها القابلة، وعندما تخاف أمي فإنها تفقد وزنها وتبدأ تتحرك بخفة، بينما كانت القابلة تتحرك ببطء، وثقة.

دقت القابلة في قائمتها، وقالت: «هذا سيفي بالغرض».

كانت القابلة امرأة قصيرة، مكتنزة، في أواخر الأربعينات من عمرها، عندها أحد عشر طفلًا وعلى ذقنها ثؤلول زعفراني اللون. كان شعرها أطول شعر رأيته في حياتي، شلال بلون فأر الحقل ينسدل حتى ركبتيها عندما تحلّه وتفكّه من العقدة التي تربطه بإحكام في شكل كعكة. كانت قسماتها ثقيلة، وصوتها مثقلًا بالسلطة. لم تكن قابلة قانونية، ولا توجد لديها أي شهادة رسمية، وإنما هي قابلة، كما تقول، وهذا أكثر من كاف.

كانت أمي ستعمل مساعدة لها في عمليات التوليد. أتذكر ذلك عندما كنت أراقبهما في اليوم الأول ذاك، أقارن بينهما. أمي ببشرتها الوردية وشعرها المعقود في صفائر التي تشب حول كتفيها في تموجات ناعمة، جفناها

يومضان. وكانت أمِّي تضع مكياجًا في صباح كلِّ يوم، وإذا لم تستطع، فإنها تعتذر طوال اليوم، كما لو أنها أزعجت الآخرين لأنها لم تفعل ذلك.

أما القابلة، فكان من الواضح أنها لم تهتم بمظهرها منذ عشر سنوات، ويجعلك سلوكها تشعر بالغباء لأنك لاحظت ذلك.

هزّت القابلة رأسها مودعة، يداها مليئتان بأكياس الأعشاب التي أعطتها لها أمِّي.

عندما جاءت القابلة في المرة الثانية، كانت معها ابنتها ماريا التي ظلت واقفة بجانب أمِّها، تقلّد حركاتها، يلتصق بجسدها النحيل ذي السنوات التسع طفل رضيع. رحت أحذّق بها يغمري الأمل. فلم أكن قد التقيت بفتيات أخريات مثلي، فتيات لا يذهبن إلى المدرسة. اقتربت منها، أحاول أن ألفت انتباهها، لكنّها كانت مستغرقة في الإصغاء إلى أمِّها التي كانت تشرح لأمِّي طريقة استخدام لحاء المَعَص وعشبة ذنب الأسد لمعالجة التقلصات التي تحدث بعد الولادة. كان رأس ماريا يهتز موافقًا، ولم تبارح عيناها وجه أمِّها.

مشيت بتثاقل في الممر عائدة إلى غرفتي، وحيدة، لكن عندما التفت لأغلق الباب ورائي رأيته تقف عند المدخل، لا تزال تسند الطفل على وركها. كان كتلة من اللحم المكتنز، وانحنى جذعها بشدة عند الخصر لتحمل وزنه.

«هل أنتِ ذاهبة؟» قالت.

لم أفهم السؤال.

«أنا أذهب دائمًا»، قالت، ثم أضافت، «هل رأيته طفلاً وهو يولد؟»

«لا»

«لقد رأيته ذلك، مرات كثيرة. هل تعرفين ماذا يعني عندما يولد الطفل مقعدًا؟»

«لا»، قلت بنبرة اعتذار.

أول مرة ساعدت فيها أمِّي القابلة في عملية ولادة، غابت يومين. وعندما عادت إلى البيت دخلت من الباب الخلفي، شديدة الشحوب، فبدت بشرتها

نصف شفافة، واندفعت مباشرة إلى الأريكة وألقت بنفسها عليها وهي ترتجف، ثم همست، «كان ذلك شيئًا فظيغًا»، أغمضت أمي عينيها وأضافت، «حتى جودي قالت إنها كانت خائفة، لكن لم يكن يبدو أنها خائفة».

استرخت أمي بضع دقائق حتى استعادت حيويتها، ثم حكّت لنا القصة. فقد استمر الطلق لفترة طويلة، كان قاسيًا، وعندما خرج الطفل أخيرًا، كانت الأم قد تمرّقت، على نحو سيئ. كان الدم يملأ المكان. لم يتوقّف النزف. ثم أدركت أمي أنّ الحبل السري ملفوف حول عنق الوليد. امتقع لونه ولم يكن يتحرك، فظنّنت أمي أنه ميت. وبينما كانت أمي تحكي هذه التفاصيل، جفّ الدم من على وجهها، ثم جلست، شاحبة مثل بيضة، عاقدة ذراعيها على صدرها.

أعدّت أودري شاي البابونج لأمي ثم أخذناها إلى السرير. عندما عاد أبي إلى البيت في تلك الليلة، حكّت له أمي القصة نفسها. ثم قالت له: «لا أستطيع أن أفعل ذلك. جودي تستطيع، أما أنا فلا أستطيع». وضع أبي ذراعه على كتفها، وقال: «هذه دعوة من الرب، والرب يطلب أحيانًا أشياء صعبة».

لم تكن أمي تريد أن تصبح قابلة. كانت فكرة أن تعمل قابلة، فكرة أبي، إحدى خططه للاعتماد على الذات. فلا يوجد شيء يكرهه أكثر من أن نعتمد على الحكومة في حياتنا. فقد قال سيكون بوسعنا ذات يوم أن نزود أنفسنا بكل شيء. وقال إنه عندما سيتوفر لديه مبلغ كاف، فإنه سيمدّ خطًا من الأنابيب لجلب الماء من الجبل، وسيركّب ألواحًا شمسيّة في المزرعة، عندها سيصبح لدينا ماء وكهرباء في يوم الهلاك، عندما يشرب الناس جميعًا من برك الماء ويعيشون في الظلام، وبما أن أمي خبيرة في الأعشاب، فإنها ستعتني بصحتنا، وإذا أجادت مهنة التوليد، فإنها ستقوم بتوليد أحفادها عندما يأتون.

جاءت القابلة لزيارة أمي بعد مضي أيام عدة على أول عملية ولادة، وأحضرت معها ماريّا التي تبعثني إلى غرفتي مرة أخرى، وقالت وهي تبسم، «للأسف، أن أول تجربة لأمك كانت تجربة سيئة»، وأضافت، «لكنها ستكون أسهل في المرة القادمة».

بعد بضعة أسابيع، وضعت أمِّي على المحك ثانية. كان ذلك في منتصف الليل. وبما أنه لم يكن عندنا هاتف، فقد اتصلت القابلة بجَدَّتِي التي تعيش أسفل التلّ، فصعدت جَدَّتِي التلّ، متعبة، ومعركة المزاج، وصاحت بأعلى صوتها وقالت إن على أمِّي أن تذهب لتؤدي «دور الطيبة». قالت ذلك في بضع دقائق، لكنها أيقظت جميع من في البيت. «لا أعرف لماذا لا تذهبون إلى المستشفى مثل بقية الناس»، صاحت، وصدقت الباب وراءها.

أخذت أمِّي حقيبتها الليلية وعلبة مليئة بقوارير اسودّ لونها من صبغة الأعشاب، وخرجت ببطاء من الباب. شعرت بقلق شديد ولم أُنم جيدًا. عندما عادت أمِّي في صباح اليوم التالي، كان شعرها مشعّنا وظهرت هالات داكنة تحت عينيها. ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت: «كانت فتاة»، ثم أوت إلى الفراش مباشرة ونامت طوال النهار.

مضت شهور على هذا المنوال: تغادر أمِّي البيت في أي ساعة، ثم تعود إلى البيت وهي ترتجف، تشعر بارتياح شديد لأنها أنهت عملها. وعندما بدأت أوراق الأشجار تتساقط، كانت قد شاركت في اثنتي عشرة عملية ولادة. وفي نهاية الشتاء، كانت قد شاركت في عشرات عمليات التوليد. وفي الربيع قالت لأبي إنها لم تعد تحتمل، وإنّها قد تساعد في توليد طفل إذا اضطرّرت إلى ذلك، إذا كان ذلك نهاية العالم، وإن عليها أن تتوقّف الآن.

عندما قالت ذلك لأبي، تجهم وجهه، ثم ذكرها بأنّ هذه مشيئة الرب الذي سيبارك أسرتنا لأنها تفعل ذلك. وقال: «يجب أن تصبّحي قابلة»، وأضاف، «يجب أن تجري عملية توليد بمفردك».

هزّت أمِّي رأسها، وقالت: «لا أستطيع. ومن سيطلب مني أن أقوم بذلك وجودي موجودة؟»

إنها تجلب النحس على نفسها، ترمي بقفاها أمام الله. فبعد فترة قصيرة، قالت لي ماريا إن والدها حصل على عمل جديد في وايمونغ، وقالت لي ماريا: «تقول أمِّي إن على أمك أن تحلّ محلها». تشكّلت صورة مثيرة في مخيلتي، أنا أقوم بدور ماريا، ابنة القابلة، الواثقة، العارفة، لكن عندما التفّ إلى أمِّي التي كانت تقف بجانبني، تبخرت الصورة تمامًا.

لم تكن ممارسة التوليد غير شرعية في ولاية أياداهو، ولم تكن قد حُظرت بعد. لكن إذا لم تجر الولادة بشكل جيد، فقد تُوجّه إلى القابلة تهمة ممارسة الطبّ دون رخصة، وإذا حصل خطأ أثناء عملية التوليد، فقد تُوجّه إليها تهمة القتل غير العمد، وقد تمضي فترة في السجن. وبما أن قلة قليلة من النساء كنّ يجازفن بالقيام بذلك، كان عدد القابلات قليلاً جدّاً: وعندما ذهبت جودي إلى وايمونغ، أصبحت أمّي القابلة الوحيدة على مسافة مئة ميل، وبدأت النسوة ذوات البطون المكوّرة يأتين إلى بيتنا ويتوسلن إلى أمّي بأن تقوم بتوليدهن. كانت أمّي مترددة كثيراً. وأذكر أن امرأة كانت جالسة على حافة أريكتنا الصفراء الباهتة اللون، مطرقة برأسها، وقالت إن زوجها عاطل عن العمل، وأنهم لا يملكون نقوداً للذهاب إلى المستشفى. كانت أمّي جالسة، لا تقول شيئاً، عيناها زائغتان، زامة شفيتها، وقسمات وجهها متشنجة، لكن سرعان ما تلاشى ذلك التعبير، وقالت بصوتها الرفيع، «أنا لست قابلة، أنا مجرد مساعدة».

لكن المرأة عادت مرات عدة، وجثمت على أريكتنا مرات كثيرة وقالت لأمّي إنها ولدت أطفالها الآخرين بسهولة. وعندما كان أبي يلمح سيارة المرأة من باحة الخردة، كان يهرع إلى البيت، ويدخل بهدوء من الباب الخلفي، بحجة أنه يريد أن يشرب ماء، ثم يقف في المطبخ ويأخذ رشقات صامتة بطيئة من الماء، وأذنه مصوبة نحو غرفة الجلوس. وعندما تغادر المرأة، كان أبي يلح على أمّي كثيراً، حتى استسلمت أخيراً. لكن لا أعرف إن كانت قد استسلمت بسبب إلحاح المرأة اليائسة، أو لإرضاء أبي، أو كلا الأمرين.

تمت الولادة بيسر، وكانت لدى المرأة صديقة حامل، فولدتها أمّي أيضاً، ثم كانت لدى تلك المرأة الأخرى صديقة، وهكذا. ثم اتخذت أمّي مساعدة لها. وبعد فترة ليست طويلة، ولدت أمّي أطفالاً كثيرين، وكنت أنا وأودري نرافقها، ونراقبها وهي تفحص الحوامل قبل الولادة وتصف لهن الأعشاب المناسبة. فأصبحت معلّمتنا بشكل ما، لأنها نادراً ما كانت تعلّمنا في البيت، وشرحت لنا جميع العلاجات والمسكنات. فإذا ارتفع ضغط دم إحداهن، يجب أن تتناول نبتة الزعرور البري حتى يستقر الكولاجين وتتسع الأوعية الدموية التاجية، وإذا

كانت المرأة تعاني من تقلصات مبكّرة، فإنها تحتاج إلى حمّام في منقوع الزنجبيل لزيادة ضخ الأوكسجين إلى الرحم.

لقد غيّرت مهنة التوليد أمّي. فقد كانت امرأة بالغة عندها سبعة أطفال، وأصبحت فجأة امرأة تقع على عاتقها مسؤولية كبيرة. وفي الأيام التي تعقب عملية ولادة، كنت اكتشف فيها أحيانًا شيئًا من حضور جودي الثقيل، خصوصًا عندما تدير رأسها بقوة، أو تقوّس حاجبها بشيء من الغطرسة، ولم تعد تضع مكياجًا على وجهها، ولم تعد تعتذر لأنها لم تفعل ذلك.

كانت أمّي تتقاضى حوالي خمسمائة دولار لقاء كلّ عملية توليد، وكان هذا أحد الأسباب الذي جعلها تتغيّر: فقد أصبح لديها فجأة نقود. ومع أن أبي لم يكن يؤمن بأن على المرأة أن تعمل، فإني أظن أنّه لم يكن يمانع من أن تكسب أمّي نقودًا من عملها في التوليد لأن عملها هذا يقوّض عمل الحكومة، إضافة إلى أننا كنّا بحاجة إلى نقود. فعلى الرغم من أن أبي كان يعمل أكثر من أيّ رجل عرفته، فإن عمله في الخردوات وبناء الحظائر لم يكن يدّر عليه مبالغ كثيرة، فأصبح بإمكان أمّي أن تشتري بعض المواد الغذائية لمساعدته. وإذا كنّا قد أمضينا معظم اليوم في التنقل في أرجاء الوادي، نسلم الأعشاب ونزور الحوامل لفحصهن قبل ولادتهن، كانت أمّي تأخذني أنا وأودري إلى مطعم ونتناول الطعام خارج البيت. وكانت جدّتي التي تقيم في البلدة قد أعطتني مجلّة على غلافها صورة دمية دب وردي اللون، كتبتُ عليها أول مرة أخذتنا فيها أمّي إلى المطعم بأنه «مطعم فاخر، يقدمون فيه قوائم طعام، وكلّ شيء»، وسجّلت أيضًا أن ثمن وجبة طعامي كان ثلاثة دولارات وثلاثين سنّا.

واستخدمت أمّي النقود التي كانت تكسبها في تحسين كفاءتها كقابلة أيضًا. فاشترت أسطوانة أوكسجين لاستخدامها في حال لم يستطع الوليد أن يتنفس، وتلقّت دروسًا في الخياطة الجراحية لتخيط النساء اللاتي يُجرّحن. فقد كانت جودي ترسل النساء إلى المستشفى لخياطة جروحهن، أما أمّي فقد صمّمت على أن تتعلّم عمل ذلك بنفسها. يخيّل لي أنها كانت تقول لنفسها إنها يجب أن تعتمد على نفسها.

أما ما تبقى لديها من النقود، فقد أحضرت بها أمّي خطّ هاتف^[2]. ففي أحد الأيام، جاءت شاحنة صغيرة بيضاء، وبدأ رجال يرتدون بدلات عمل غامقة يتسلّقون عواميد الهاتف القريبة من الطريق السريع. فاندفع أبي من الباب الخلفي وأراد أن يعرف ما الذي يجري. «ظننت أنّك تريد أن يصبح عندنا هاتف»، قالت له أمّي، عيناها مليئتان بالدهشة، وظلت تتكلم بسرعة، «قلت لنفسي إنه قد تحدث مشكلة إذا بدأت إحدى النساء الطلق ولم تكن الجدة في البيت لتتلقى المخابرة. كنت أظن أننا نحتاج إلى هاتف! يا لغبائي! لعلّي لم أفهمك جيدًا؟» فوقف أبي بضع ثوان، فاغر الفم، ثم قال: «طبعًا، تحتاج القابلة إلى هاتف»، وعاد إلى عمله في باحة الخردة. كان هذا كلّ ما دار بينهما حول موضوع الهاتف. وكما أذكر، لم يكن عندنا هاتف، وفي اليوم التالي، أصبح عندنا هاتف يقبع فوق قاعدة خضراء، بجانب القناني الداكنة المليئة بنباتات الكوهوش والاسقوتلارية، يلمع كأنه يقبع في مكانه غير المناسب.

كان لوك في الخامسة عشرة من عمره عندما سأل أمّي إن كان باستطاعته الحصول على شهادة ميلاد لأنه يريد أن يتسجل في مدرسة لتعليم قيادة السيارات، لأن توني، شقيقنا الأكبر، كان يكسب مبلغًا جيدًا من قيادة الشاحنات، واستطاع أن يفعل ذلك لأنه حصل على رخصة قيادة. كانت توجد لدى شون وتايلر الأصغر من توني، شهادات ميلاد، أما نحن، الأخوة الأربعة الأصغر: أنا ولوك وأودري وريتشارد، فلم تكن لدينا شهادات ميلاد.

بدأت أمّي تجهّز الأوراق المطلوبة. لا أعرف إن كانت قد كلّمت أبي أولًا في هذا الأمر. فإذا كانت قد كلّمته، فلا أعرف لماذا غيّر رأيه - لماذا انتهى بغتة رفضه تسجيلنا في الحكومة منذ عشر سنوات، لكنّي أظن أن السبب هو ذلك الهاتف، كما لو أن أبي بدأ يقبل الواقع بأنه إذا كان عليه أن يحارب الحكومة، فعليه أن يتحمّل بعض المخاطر. وبما أن أمّي تعمل قابلة فإنها تساهم في تقويض المؤسسة الطبية، وأنه يجب أن يكون عندها هاتف لكي تصبح قابلة جيدة. لعله طبّق المنطق نفسه على لوك: بما أن لوك يحتاج إلى دخل لإعالة أسرته، وشراء التجهيزات اللازمة والاستعداد ليوم الهلاك، فإنه يحتاج إلى شهادة ميلاد، أما الاحتمال الآخر، فهو أن أمّي فعلت ذلك دون أن تستشير

أبي، وقد تكون هي التي اتخذت هذا القرار، وقد قبل أبي قرارها من دون أي جدال. لعلها استطاعت أن تهزم هيئته كرجل يتمتع بشخصية قوية بقوتها المؤقتة التي اكتسبتها.

عندما بدأت أمي تجهز الأوراق الرسمية للحصول على شهادة ميلاد للوك، رأت أن من الأفضل أن تحصل لنا كلنا على شهادات ميلاد. كان الأمر أصعب مما كانت تتوقع. فقد نبشت أرجاء البيت وهي تبحث عن وثائق تثبت أننا أبناءها، لكنها لم تعثر على أي وثيقة. أما أنا، فلم يكن أحد يعرف متى ولدت بالتحديد. فقد تذكرت أمي تاريخًا، وتذكر أبي تاريخًا آخر، وأعطت جدتي التي تعيش أسفل التلّ، والتي ذهبت إلى المحكمة في المدينة وقدمت إقرارًا مشفوعًا بقسم بأني حفيدتها، تاريخًا ثالثًا.

اتصلت أمي بمقر الكنيسة في مدينة سولت لايك التي عثر كاتب الكنيسة فيها على شهادة تعميدي عندما ولدْتُ، وعثر على شهادة أخرى لمعموديتي التي صدرت، شأن جميع الأطفال في الطائفة المورمونية، عندما كنت في الثامنة من عمري. فطلبت أمي نسخًا من هذه الوثائق التي وصلت بالبريد بعد بضعة أيام. «يا إلهي»، صاحت أمي عندما افتضت المغلف، لأن كل وثيقة تذكر تاريخ ميلاد مختلف عن الوثيقة الأخرى، ولم يتطابق التاريخان مع التاريخ الذي ذكرته جدتي في شهادتها المشفوعة بقسم.

طوال ذلك الأسبوع، لم تكن أمي تتوقف عن الحديث على الهاتف لساعات طويلة كل يوم. كانت السماعاة ملتصقة بين رقبتها وكتفها، وشريط الهاتف يمتدّ عبر المطبخ، وهي تطبخ وتنظف، وتعصر الأعشاب وتقتلع الأشواك، تكرر نفس العبارات.

«أعرف أنه كان يجب أن أسجلها عندما ولدت، لكنني لم أفعل ذلك. لهذا السبب فأنا أكلّمك الآن».

كنت أسمع همهمة أصوات على الطرف الآخر من الخطّ.

«لقد أخبرتك للتو، وأخبرت مرؤوسيك، وخمسين شخصًا آخر هذا الأسبوع، لا يوجد لديها سجلات مدرسية أو طبية. لا يوجد لديها! لا، لم تضع. لا أستطيع أن أطلب نسخًا عنها، لأنها غير موجودة أصلًا».

«عيد ميلادها؟ لنقل في السابع والعشرين».

«لا، لست متأكّدة».

«لا، لا توجد عندي وثائق».

«نعم، سأبقى على الخطّ».

كانت تلك الأصوات تجعل أمّي تنتظر دائماً عندما تقول لهم إنّها لا تعرف تاريخ ميلادي، فيحوّلونها إلى رؤسائهم، كأنّ عدم معرفة اليوم الذي ولدت فيه يلغي شرعيّة حصولي على هوية. كأنهم كانوا يقولون لا يمكن أن تكون شخصاً إذا لم يكن لديك تاريخ ميلاد. لم أفهم سبب ذلك، حتى قرّرت أمّي أن تحصل لي على شهادة ميلادي، ولم يخطر ببالها أن تاريخ ميلادي سيبدو غريباً. كنت أعرف أنني ولدت في حوالي نهاية شهر أيلول (سبتمبر)، وفي كلّ سنة، كنت أختار يوماً، يوماً لا يصادف يوم الأحد، لأنه ليس من الممتع أن تمضي عيد ميلادك في الكنيسة. في بعض الأحيان، كنت أريد أحياناً أن آخذ سماعة الهاتف من أمّي وأقول لهم: «يوجد عندي تاريخ ميلاد، كما يوجد عندك»، كنت أريد أن أقول لتلك الأصوات، «لكن عيد ميلادي يتغير. ألا تتمنى أن يتغير عيد ميلادك أيضاً؟»

في النهاية، أقنعت أمّي جدّتي التي تعيش أسفل التلّ بأن تقدم شهادة جديدة تقول فيها إنني ولدت في السابع والعشرين من الشهر، مع أنّ جدّتي كانت لا تزال تعتقد بأنني ولدت في التاسع والعشرين، فأصدرت لي ولاية أياداهو شهادة ميلاد متأخّرة. أذكر اليوم الذي وصلت فيه بالبريد. فقد اعتراني شعور غريب عندما استلمت أول إثبات قانوني بأنني موجودة كشخص: فحتى تلك اللحظة، لم يكن يخطر ببالي أن هذا الإثبات مطلوب.

في النهاية، حصلت على شهادة ميلادي قبل أن يحصل عليها لوّك بفترة طويلة. وعندما كانت أمّي تقول لتلك الأصوات على الهاتف بأنّها تظنّ أنني ولدت في وقت ما من الأسبوع الأخير من شهر أيلول (سبتمبر)، كانوا يلوذون بالصمت، أما عندما كانت تقول لهم إنّها غير متأكّدة تماماً إن كان لوّك قد ولد في شهر أيار (مايو) أو في حزيران (يونيو)، فكانت تلك الأصوات ترتفع.

في فصل الخريف ذاك، عندما كنت في التاسعة من عمري، رافقت أمي في عملية ولادة. كنت ألحّ عليها أن تأخذني معها منذ عدة أشهر، وعندما ذكّرتها بأن ماريا رأت اثنتي عشرة ولادة عندما كانت في عمري، قالت: «أنا لست أمًا مرضعة، ولا يوجد لدي أي سبب يجعلني آخذك معي، كما أن ذلك لن يعجبك».

أخيرًا، طلبت امرأة يوجد عندها عدة أطفال صغار أمي لتوليدها، فأخذتني معها لرعاية هؤلاء الأطفال أثناء عملية التوليد.

جاء الاتصال في منتصف الليل. شقّ صوت رنين الهاتف طريقه حتى الصالون، فحبست أنفاسي، راجية ألا يكون رقمًا خاطئًا. بعد دقيقة وقفت أمي بجانب سريري، وقالت: «هيا لنذهب»، وركضنا معًا إلى السيارة.

خلال الأميال العشرة، درّبتني أمي على ما يجب أن أقوله إذا حدث الأسوأ وجاءت الشرطة الاتحادية، وقالت إنه مهما كانت الظروف، فيجب ألا أخبرهم بأن أمي تعمل قابلة، وإذا سألوني لماذا نحن هناك، فيجب أن أصمت ولا أقول شيئًا، وقالت إن هذا يدعى فنّ السكوت. «قولي لهم دائمًا إنك كنت نائمة ولم تري شيئًا ولا تعرفين شيئًا ولا تتذكرين سبب وجودنا هنا»، ثم أضافت، «لا تمنحهم مزيدًا من الحبل لشنقي أكثر مما يوجد لديهم».

صمتت أمي. رحت أتمعن في وجهها وهي تقود السيارة. كان وجهها يضيء من الضوء المنبعث من لوحة عداد السيارة، فبدأ أبيض شبحيًا في ظلام الطرق الريفية الدامس. كان الخوف باديًا على وجهها، في تقطعية حاجبيها، وشفثتها المزمومتين. فعندما أكون معها، كانت تضع شخصيتها التي تبديها للآخرين جانبًا، وتعود إلى ذاتها القديمة، هشة، تلهث بصوت مرتفع.

سمعتُ همسات ناعمة وأدركت أنها تنبعث منها. كانت تردد لنفسها «ماذا لو». ماذا لو حصل خطأ؟ ماذا لو كان هناك تاريخ طبي للحامل لم يخبروها به، وماذا لو حدثت مضاعفات؟ أو ماذا لو كان الأمر عاديًا، أزمة معروفة، فأصابها الذعر، واضطربت، وتجمّدت، ولم تستطع أن توقف النزيف في حينه؟ سنصل بعد دقائق وستكون بين يديها الصغيرتين المرتعشتين روحان. حتى تلك اللحظة، لم أدرك المخاطرة التي ستقدم عليها. ثم همست، «يموت الناس

في المستشفيات». كانت أصابعها تمسك المقود بقوة، ثم أضافت، «يدعوهم الله إليه أحيانًا، ولا يستطيع أي شخص أن يفعل شيئًا. أما إذا حدث ذلك مع قابلة»، التفتت وراحت تكلمني مباشرة، «مجرد خطأ واحد، وسوف تزوريني في السجن».

عندما وصلنا، تغيّرت أمّي. فراحت تصدر أوامر وتعليمات للأب وللأمّ ولي. كدت أنسى ما كانت قد طلبته مني، ولم أستطع أن أبعد عينيّ عنها. أدرك الآن أنّ تلك الليلة التي رأيته فيها لأول مرة، كانت قوّتها السريّة.

كانت تصدر لنا أوامرها، وكنا ننفذها بصمت. ولد الطفل من دون أي مضاعفات. كان شيئًا أسطوريًا ورومانسيًا أن أكون شاهدة على هذا الانعطاف في دورة الحياة، لكن أمّي كانت على حقّ، فلم يعجبني ذلك. كانت عملية طويلة ومنهكة، تفوح منها رائحة عرق بين الفخذين.

لم أطلب أن أرافقها في الولادة التالية. عادت أمّي في تلك الليلة إلى البيت شاحبة الوجه، جسدها كله يرتجف. أخذ صوتها يرتعش عندما بدأت تحكي لي ولأختي القصة: كيف انخفضت نبضات قلب الطفل الذي لم يكن قد ولد بعد إلى درجة خطيرة، وكيف أنها طلبت سيارة الإسعاف، ثم قرّرت أنهم لا يستطيعون الانتظار فأخذتهما أمّي بسيارتها. قادت أمّي سيارتها بسرعة كبيرة، وعندما وصلت إلى المستشفى، كانت ترافقها سيارة شرطة. وفي غرفة الطوارئ، حاولت أن تقدم للأطباء المعلومات التي يحتاجون إليها دون أن تبين لهم أنها تعرف أشياء كثيرة، ومن دون أن تجعلهم يشكّون بأنّها قابلة غير قانونية.

أُجريت للمرأة عملية قيصرية سريعة، ومكثت مع طفلها في المستشفى أيامًا عدة، وعندما خرجت من المستشفى لم تعد أمّي ترتجف، وبدأت سعيدة وبدأت تحكي القصة بطريقة مختلفة، تستمتع باللحظة التي أوقفها فيها الشرطي الذي فوجئ بوجود امرأة في السيارة تئن. كان من الواضح أنها في حالة مخاض، مستلقية في المقعد الخلفي. «تصرفتُ كما تتصرف امرأة لا تعرف شيئًا»، قالت لي ولأودري، ثم علا صوتها أكثر، «يحبّ الرجال أن

يعتقدوا أنهم أنقذوا امرأة ماتت دماغياً. وكان كلُّ ما عليّ أن أفعله هو أن أتّخى جانباً وأتركه يقوم بدور البطل!»

لكن اللحظة الأكثر خطورة بالنسبة لأمّي جاءت بعد دقائق، في المستشفى، عندما وضعوا المرأة على عربة ونقلوها إلى غرفة العمليات. أوقفت الطبيبة أمّي وسألتها لماذا كنت موجودة أثناء الولادة. ابتسمت عندما تذكّرت ذلك. «سألتها أغبى سؤال يمكن أن يخطر ببالي»، قالت بصوت مرتفع، مرتعش، لا يشبه صوتها. «أوه! هل كان ذلك رأس الطفل الوليد؟ ألا يُفترض أن تخرج أقدام الطفل أولاً أثناء الولادة؟» فاقنتعت الطبيبة بأنّها لا يمكن أن تكون قابلة.

لم يكن يوجد في وايمونغ خبراء أعشاب مثل أمّي، فجاءت جودي بعد بضعة أشهر من حادثة المستشفى، إلى بيتنا لتشتري مجموعة من الأعشاب. كانت المرأتان تتبادلان الحديث في المطبخ. كانت جودي جاثمة فوق مقعد، وأمّي منحنية قليلاً فوق الطاولة، تسند رأسها بتكاسل إلى يدها. أخذت قائمة الأعشاب إلى المخزن. تبعثني ماريا وهي تجرّ وراءها طفلاً غير الطفل السابق. أخرجت الأوراق الجافة وجففت السوائل من فوق الرفوف، ولم أتوقف لحظة عن التحدث عن مآثر أمّي التي كان آخرها المواجهة التي حدثت في المستشفى. كانت لدى ماريا قصصها عن أساليب مراوغة الشرطة الاتحادية، لكنها عندما بدأت تحكي إحدى قصصها، قاطعتها.

«إن جودي قابلة جيدة»، قلت لها، وقد أخذ صدري يعلو، «لكن عندما يتعلق الأمر بالأطباء والشرطة، فلا يستطيع أحد أن يؤدي دور شخص غبي مثل أمّي».

الفصل ٣

الحذاء بلون الكريمة

كانت أمِّي، فاي، ابنة ساعي بريد. نشأت في البلدة، في بيت أصفر اللون له سياج خشبي مدبَّب تحفّه أزهار زنبق أرجوانيّة. وكانت أمّها تعمل خياطة، وكان البعض يقولون إنها كانت أفضل خياطة في الوادي، لذلك كانت الشابة فاي ترتدي ثيابًا جميلة، أنيقة، تفصلها لها أمّها: سترات مخملية وبناطيل من البولستر والصوف وفساتين من قماش الكبردين. وكانت تذهب إلى الكنيسة وتشارك في الأنشطة المدرسية والاجتماعية. كانت حياتها تتسم بنظام شديد، واستقرار، واحترام لا يمكن المساس به.

وقد حرصت أمّها على توفير أجواء الاحترام. وكانت جدتي، لارو، قد بلغت سنّ الرشد في الخمسينات، في العقد الذي سادت فيه حمّى المثالية التي احترقت بعد الحرب العالمية الثانية. وكان والد لارو مدمنًا على الخمر في الزمن في الزمن الذي لم تكن فيه لغة الإدمان والتعاطف قد اختُرعت بعد، عندما لم يكن يُطلق على مدمن الخمر مدمن خمر، وإنما كان يُطلق عليه «سكير». لم تكن تعيش في أسرة «مثالية»، لكنها كانت تعيش وسط مجتمع من الطائفة المورمونية الذي، شأنه شأن الكثير من المجتمعات الأخرى، اُبتلي بإساءات الآباء لأطفالهم، لذلك لم يكن الرجال المحترمون في البلدة يتعبرونها امرأة صالحة للزواج. وعندما التقت بجدي وتزوَّجته - شابّ دمث، حسن الطباع، كان قد أنهى للتو خدمته في البحرية - ركّزت كلّ اهتمامها على تربية أسرة صالحة، أو على الأقل تبدو هكذا. لأن ذلك، في رأيها، سيحمي بناتها من مشاعر الكراهية الاجتماعية التي كانت قد أصابتها بجرح غائر.

كانت إحدى نتائج ذلك السياج الخشبي الأبيض المدبَّب وخزانة الملابس المفصّلة لها، ونتائج أخرى أنّ ابنتها الكبرى أحبّت شابًا صارمًا، عنيقًا، ذا شعر أسود فاحم، وله شهية للأشياء غير التقليدية.

بعبارة أخرى، حظيت أمي بالاحترام المنشود، وكانت جدتي تريد أن تقدم لابنتها الهدية التي لم تحصل عليها هي، وهي أن ترتبط بعائلة جيدة، لكن فاي لم ترغب ذلك. ومع أن أمي لم تكن مناضلة اجتماعية - فحتى في ذروة تمردها، حافظت على معتقداتها المورمونية، وولائها الشديد للزواج والأمومة - وكان يبدو أنه كان للثورات الاجتماعية في سبعينات القرن العشرين تأثير واحد عليها، على الأقل، وهو أنها لم تكن تريد ذلك السياج الخشبي الأبيض المدبب وارتداء الفساتين المصنوعة من قماش الكبردين.

حكى لي أمي عشرات القصص عن طفولتها، وعن القلق الذي كان يعتري جدتي حول الموقف الاجتماعي المناسب لأبكر بناتها، وهل أن الفستان الذي ترتديه لائق، وهل درجة اللون الأزرق للبنطال الذي ترتديه هو اللون المناسب. هذه الأمور حدث بأبي أن يتدخل فأرغمها على ارتداء الجينز الأزرق بدلاً من البناتيل من قماش الكبردين. وقد رسخت إحدى تلك القصص في ذاكرتي. كنت آنذاك في السابعة أو الثامنة من عمري وكنت في غرفتي أردي ثيابي استعداداً للذهاب إلى الكنيسة. أخذت خرقة مبللة مسحت بها وجهي ويدي وقدمي، وفركت أجزاء بشرتي التي ستكون ظاهرة، فرأنتي أمي وكنت أدخل فستاناً قطنياً من رأسي، اخترته لأن كمّيه طويلان حتى لا أضطر إلى غسل ذراعي، فلمعت عيناها غير.

قالت لي: «لو كنت ابنة جدتك، لكنا نغسل شعرك منذ الفجر، ثم نمضي فترة الصباح في تعذيب أنفسنا في اختيار الحذاء المناسب: الأبيض أو لون الكريمة».

ثم تحوّل وجه أمي إلى ابتسامة بشعة، وحاولت أن تمازحني، لكن ذاكرتها كانت مليئة بالمرارة. «وحتى بعد أن نختار اللون الكريمة في نهاية الأمر، كنا نتأخر على الكنيسة لأن جدتك كان ينتابها الذعر في آخر دقيقة، فتهرع إلى ابنة خالتها دونا لتستعير حذاءها بلون الكريمة ذا الكعب الأوطأ».

راحت أمي تحدّق من النافذة. لقد انكفأت على نفسها. «الأبيض أو الكريمة؟» تساءلت، «أليس نفس اللون؟» أما أنا فلم يكن عندي إلاّ الحذاء

الذي أنتعله عندما أذهب إلى الكنيسة، الأسود، أو على الأقل، الذي كان أسود عندما كان لأختي.

بعد أن ارتديت الثوب، استدرتُ إلى المرأة وبدأت أزيل الأوساخ حول عنقي، وقلت لنفسى كم كانت أمي محظوظة لأنها هربت من ذلك العالم الذي كان فيه الفرق بين اللونين الأبيض والكريمة شديد الأهمية، العالم الذي كانت فيه أسئلة كهذه تستغرق فترة الصباح بأكملها، الفترة التي يمكن أن نمضيها في العمل في باحة الخردة مع أبي ورفقة عنزة لوك.

وكان أبي، جين، واحدًا من أولئك الشبان الذين يبدو أنهم جادّون وطائشون في الوقت نفسه. كانت بنيته الجسدية ملفتة للنظر - شعر أسود، وجه حاد القسما، صارم، أنف يشبه سهمًا يتجّه نحو عينيْن حادتين غائرتين، غالبًا ما يزمّ شفّتيه في ابتسامة عريضة لعوبة، كما لو كان يمتلك العالم كلّهُ، بل ويسخر منه.

مع أنّي أمضيت طفولتي في نفس الجبل الذي أمضى فيه أبي طفولته، أضع الطعام للخنازير في نفس الحوض الحديدي كما كان يفعل، لم أكن أعرف سوى النزر اليسير عن أيام صباه. فلم يتحدث عنها قط، وكان كلّ ما عرفته مجرد تلميحات من أمي التي قالت لي إنه عندما كان صغيرًا، كان جدّي الذي يعيش في أسفل التلّ، عنيقًا، عصبيًا. وكان استخدام أمي عبارة «كان» تضحكني دائمًا، لأننا نعرف جميعًا جدّي جيدًا، الذي كان عصبيًا، متوترًا باستمرار، يمكن أن ينفجر في أي لحظة، وهذه حقيقة يعرفها كلّ من يعيش في الوادي. كان رجلًا مهترًا من الداخل والخارج، متوترًا باستمرار، وقاسيًا مثل الخيول البرية التي تجري فوق الجبل.

وكانت والدّة أبي تعمل في مكتب المزرعة في البلدة. وعندما كبر أبي، بدأت تتكون لديه قناعات عنيفة حول النساء اللاتي يعملن، آراء متطرّفة حتى بالنسبة لمجتمعنا المورموني الريفى. «إن مكان المرأة الطبيعي هو البيت»، كان يردد كلّما رأى امرأة متزوجة تعمل في البلدة. وبعد أن كبرتُ قليلًا، كنت أتساءل أحيانًا هل ترتبط مشاعر أبي المتطرّفة تلك بأمّه أكثر من ارتباطها

بالعقيدة التي يؤمن بها، وأتساءل هل كان يتمنى أن تظل أمّه في البيت، كي لا يبقى كلّ تلك الساعات الطويلة وحده مع جدّي الحاد المزاج.

استنفد العمل في المزرعة طفولة أبي الذي أشكّ في أنه كان يتوقع أن يذهب إلى المدرسة. وبحسب رواية أمّي، فقد كان أبي آنذاك يطفح بالحيوية والضحك والعمل، وكان يقود سيارة فولكسفاغن «خنفساء» زرقاء صغيرة، ويرتدي بدلات غريبة ذات أقمشة ملوّنة، ويزيّن وجهه شارب عصري كث.

التقيا في البلدة. كانت فاي تعمل نادلة في نادي البولينغ في ليلة أحد أيام الجمعة عندما كان جين يتسكع في النادي مع أصدقائه. كانت تلك أول مرة تراه فيها، فعرفت في الحال بأنّه ليس من البلدة ولا بد أنه جاء من الجبال المحيطة بالوادي. فقد جعلت الحياة في المزرعة جين يبدو مختلفًا عن الشبان الآخرين: كان جدّي بالنسبة لعمره، قويًا جسديًا، ومستقلًا فكريًا.

كان هناك إحساس بالرهبة في الحياة في الجبل، إحساس بالخصوصية والعزلة، وحتى بالهيمنة. ففي ذلك الفضاء الرحب، يمكنك أن تبهر فيه وحدك ساعات طويلة، تطوف بين أشجار الصنوبر والأجمات والصخور. سكونية تتّولد من ذلك الامتداد الشاسع، ضخامته تهدّي الإنسان. لقد تشكّل جين في تلك البيئة الجبلية، في سكون الدراما الإنسانية.

في الوادي، حاولت فاي أن تصمّ أذنيها عن سماع الثرثرة التي لم تكن تتوقف في تلك البلدة الصغيرة، والتي كانت آراء سكانها تتسلل عبر النوافذ وتزحف تحت الأبواب. وكان على أمّي أن ترضي الجميع: كانت تقول إنها لم تكن تعرف كيف يريد الناس أن تكون، وكانت تحاول، على الرغم منها، وبدون وعي منها، أن تفعل أي شيء لإرضائهم. فقد كانت تعيش في بيتها الجميل في وسط البلدة الذي تلتصق به أربع بيوت أخرى حيث لا يستطيع أحد أن ينظر من النافذة أو يهمس برأي أو يحكم على أي شيء. كانت فاي تشعر بأنها في مصيدة.

غالبًا ما كنت أتخيّل اللحظة التي أخذ فيها جين فاي إلى جبل بيكس باك، فلم تعد، لأول مرة في حياتها، ترى وجوه أهل البلدة الذين أصبحوا بعيدين عنها أو تسمع أصواتهم. لقد قزّمهم الجبل، وأسكتتهم الريح.

بعد فترة قصيرة، أصبحا مخطوبين.

كانت أمي تحكي لنا القصة منذ الفترة التي سبقت زواجهما. وبما أنها كانت مقرّبة جدًّا من أخيها لين، فقد أخذته لتعرّفه على الرجل الذي تأمل في أن يصبح زوجها. كان ذلك في مساء يوم صيفي، وكان أبناء عم أبي يمرحون بصخبهم المعتاد بعد الحصاد. عندما وصل لين، ورأى غرفة مليئة بشبان من الرعاع ذوي سيقان مقوّسة، يصرخ أحدهم في وجه الآخر، قبضاتهم مشدودة باستمرار، تلوّح في الهواء، ظنّ أنه يشاهد مشاجرة من أحد أفلام جون واين. فهمّ بالاتصال بالشرطة.

«طلبت منه أن يستمع إلى ما يقولونه»، قالت أمي، وقد طفرت الدموع من عينيها من شدّة الضحك.

كانت تحكي لنا دائمًا هذه القصة بالطريقة نفسها، وإذا انحرفت قليلاً عن القصة المعتادة، كنّا نقول لها، «قلت له أن يصغي للكلمات الحقيقية التي يقولونها كأنهم يصرخون، فهم شبان متحمسون وصاخبون كالزنابير، لكنهم في الواقع، كانوا يتبادلون أحاديث ودية في ما بينهم. يجب أن تنصت إلى ما يقولونه، لا إلى الطريقة التي يقولونها بها. وقلت له، هكذا يتحدّث أبناء عائلة ويستوفر».

عندما كانت أمي تنهي رواية القصة، نكون جالسين عادة على الأرض. كنّا نضحك حتى تؤلمنا أضلاعنا، نتخيّل كيف التقى خالنا لين المتشدد، الجدّي، بأقارب أبي الجموحين، ووجد أن المشهد مقيئاً ولم يأت مرة أخرى، ولم أراه يزورنا في البيت طوال حياتي. إنه يستحق ذلك، كنا نقول لأنفسنا، لأنه تدخل في شؤون أمنا، وحاول أن يسحبها ويعيدها إلى عالم فساتين الكبردين والأحذية البيضاء أو بلون الكريمة. وأدركنا أنّ انتهاء أسرة أمي كان بدء أسرتنا، وأنه لا يمكن للأسرتين أن تجتمعا معاً. لا يمكن أن تحتوي أمي إلّا أسرة واحدة منهما.

لم تقل لنا أمي قط أنّ أسرتها عارضت هذا الزواج، لكنّا عرفنا ذلك. وآثار ذلك لم تمحها السنون. فلم تطأ قدما أبي بيت جدّتي التي تعيش في البلدة إلّا نادراً، وعندما كان يذهب إلى هناك، يكون متجهم الوجه ولا يبعد عينيّه عن

الباب. وعندما كنتُ طفلة، لم أكن أعرف خالاتي أو أخوالي أو بناتهم وأبناءهم جيدًا، وقلما كنتُ نزورهم، حتى إنني لم أكن أعرف أين يعيش معظمهم، وكان مجيئهم إلى الجبل أكثر ندرة. لكن خالتي آنجي، أصغر أخوات أمي التي تعيش في البلدة، كانت استثناء، وكانت تصرّ على زيارة أمي.

كانت المعلومات التي عرفتُها عن خطوبة أمي وأبي تأتي بالتدريج، معظمها من القصص التي كانت ترويها لنا أمي. فقد عرفت أنها وضعت خاتم الخطوبة قبل أن يذهب أبي في مهمّة -المهمة التي يتوقّع أن يؤديها جميع الذكور في الطائفة المورمونية الأتقياء- وأمضى سنتين في دراسة العقيدة في فلوريدا. واستغل خالي لين فترة غياب أبي، فراح يعرّف أخته على رجل مناسب للزواج، لكن أحدًا لم ينسها فتى المزرعة الصارم الذي يهيمن على الجبل. وعندما عاد جين من فلوريدا، تزوّجا، وخاطبت لارو لأمي فستان الزفاف.

لم أر شيئًا عن حفلة الزفاف إلا صورة واحدة فقط. صورة تُظهر أبي وأمّي وهما يقفان أمام ستارة رقيقة بلون العاج الفاتح. كانت أمي ترتدي فستانًا تقليديًا من الحرير الموشّى بالخرز والدانتيل الفينيسي تغطي ياقته عظم ترقوتها، وتضع على رأسها حجابًا مطرّزًا. أما أبي فكان يرتدي بدلة فاتحة اللون مع سترة سوداء ذات طيّات عريضة. كانا سعيدين، تعلو وجه أمي ابتسامة بهيجة، وأبي يتسم ابتسامة عريضة تبرز من تحت زوايا شاربه الكثّ.

يصعب عليّ أن أصدق أنّ الشاب المطمئن، الواثق، في تلك الصورة هو أبي، الرجل الخائف، القلق، المرهق، في متوسط العمر الذي أراه الآن وهو يخزّن الطعام والذخيرة.

لا أعرف متى تغيّر الرجل الذي يظهر في هذه الصورة والذي أصبح الرجل الذي أعرف أنه أبي. قد لا يكون التغيير قد حدث في لحظة واحدة. فقد تزوّج أبي عندما كان في الحادية والعشرين، وأنجب ابنه الأول، أخي توني، وهو في الثانية والعشرين، وعندما بلغ الرابعة والعشرين، سأل أمي إن كان بوسعهما إحضار قابلة تقوم بتوليد أخي شون، فوافقت. هل كان ذلك أول تلميح منه، أم أن جين الشاب الغريب الأطوار وغير التقليدي، كان يحاول أن يصدم أهل

زوجته الذين لم يوافقوا على زواجه من ابنتهم؟ لكن تايلر الذي ولد بعد عشرين شهرًا، ولد في المستشفى. وعندما بلغ أبي السابعة والعشرين، ولد لوك في البيت على يد قابلة. ومنذ ذلك الحين قرّر أبي ألاّ يستخرج شهادة ميلاد، وفعل ذلك مع أودري ومع ريتشارد ومعى. وبعد بضع سنوات، عندما بلغ الثلاثين من العمر، أخرج إخوتي من المدرسة. لا أتذكّر ذلك لأنه حدث قبل أن أولد، لكنني أتساءل هل بدأت نقطة التحوّل منذ ذلك الحين. ففي السنوات الأربع التي تلت ذلك، تخلّص أبي من الهاتف وقرّر ألاّ يجدد رخصة السواقة، ولم يجدّد تسجيل سيارة الأسرة والتأمين عليها، ثمّ بدأ يخزّن الطعام.

هذا الجزء الأخير يشبه أبي كثيرًا، لكنّه ليس الأب الذي يتذكّره إخوتي الأكبر مني سنًا. فقد كان أبي في الأربعين من عمره عندما حاصرت الشرطة الاتحادية أسرة ويفر، الحدث الذي أكّد أسوأ مخاوفه. ثم دخل في حالة حرب، مع أنها كانت حربًا تجري في مخيلته فقط. ربّما لهذا السبب ينظر توني إلى تلك الصورة ويرى والده، أما أنا فأرى شخصًا غريبًا.

بعد أربع عشرة سنة من حادثة عائلة ويفر، أراني جالسة في قاعة الدروس في الجامعة أستمع إلى أستاذ علم النفس وهو يصف شيئًا يدعى الاضطراب الثنائي القطب. حتى تلك اللحظة لم أكن قد سمعت شيئًا يُدعى مرضًا عقليًا. فقد كنت أعرف أنّ الأشخاص الذين يفقدون صوابهم - يضعون قِططًا مميّنة على رؤوسهم أو يقعون في حبّ نبتة لفت - لكن فكرة أن يكون الشخص نشيطًا، مقنّعًا، يفكر بطريقة جيدة، وعلى الرغم من ذلك، لعله كان يعاني من مشكلة ما، فلم تخطر ببالي قط.

سرد البروفيسور الحقائق بصوت واطئ، رتيب: إن العمر المتوسط لبدء ظهور هذا المرض هو الخامسة والعشرون من العمر، لكن أعراضه قد تظهر قبل ذلك.

من سخرية القدر أنه لو كان أبي مصابًا باضطراب ثنائي القطب، أو بأي اضطراب من بين عشرات الاضطرابات التي يمكن أن تفسّر سلوكه، فلن يُشخّص الخوف الذي يعتريه والذي هو إحدى علامات المرض، ولن تتم معالجته، ولن يعرف أحد به أبدًا.

ماتت جدّتي التي تعيش في البلدة منذ ثلاث سنوات وهي في السادسة والثمانين.

لم أكن أعرفها جيدًا.

طوال تلك السنوات كنت أدخل وأخرج من مطبخها، ولم تخبرني قط ماذا يعني ذلك بالنسبة لها، وهي ترى ابنتها تنكفى على نفسها، تحيط نفسها بجدران من الأوهام والشكوك.

عندما أتصوّرُها الآن، أستجمع صورة واحدة، كما لو أنّ ذاكرتي جهاز عرض سلايدات لكن الصور علقت في جهاز العرض. أراها جالسة على أريكة تتكئ على وسادة، شعرها ينبعث من رأسها في صفائر مشدودة رفيعة، وترتسم على شفتيها ابتسامة مهذبة. عيناها جميلتان لكنهما خاويتان، كما لو أنّها تشاهد مسرحية على خشبة مسرح.

لا تفارقني تلك الابتسامة أبدًا. فقد كانت دائمة، الشيء الأبدي الوحيد، غامضة، منعزلة، فاترة. أما الآن، بعد أن كبرت وبذلك جهدًا لكي أعرفها أكثر، خصوصًا عن طريق خالاتي وأخوالي، بدأت أعرف أنّها لم تكن أيّا من تلك الأشياء.

حضرْتُ الجنازة. كان التابوت مفتوحًا ووجدتني أفتّش في وجهها. لم ينجح المحنّطون في رسم شفتيها جيدًا، فقد انتزعت منها تلك الابتسامة اللطيفة التي كانت ترتسم على وجهها مثل قناع حديدي. كانت تلك المرة الأولى التي أراها دون تلك الابتسامة، وكان ذلك عندما خطر لي أخيرًا: ربما كانت جدّتي الشخص الوحيد التي فهمت ما الذي كان يجري لي، كيف أن الخوف والتعصب كانا يشطران حياتي، يبعدان عني الناس الذين أحبّهم وأهتم بهم، لتحلّ محلّهم الشهادات والدرجات الجامعية، شعور بالاحترام. إن ما يحدث الآن كان قد حدث من قبل. هذا هو الانفصال الثاني بين الأم وابنتها. الشريط الذي علق وأخذ يلتف حول نفسه.

الفصل ٤ نساء أباتشي

لم ير أحد السيارة وهي تنحرف عن الطريق. فقد غفا أخي تايلر الذي كان يقود السيارة. كان في السابعة عشرة من عمره. كانت الساعة السادسة صباحًا وكان يقود عربة الستايشن عبر أريزونا ونيفادا ويوتا بصمت معظم الليل. كنّا في كورنبيش، البلدة الزراعية التي تبعد قرابة عشرين ميلًا إلى جنوب جبل بيكس باك، عندما انحرفت السيارة وتجاوزت الخطّ الذي يقسم الطريق إلى نصفين، وانحرفت إلى المجاز الآخر، ثمّ ابتعدت عن الطريق السريع. قفزت السيارة فوق خندق، وارتطمت بعموديّ كهرباء من خشب الأرز السميك، ولم تتوقف إلّا عندما اصطدمت بجزار زراعي.

كانت أمّي صاحبة فكرة القيام بالرحلة.

منذ بضعة أشهر، عندما بدأت أوراق الأشجار الهشّة تتساقط على الأرض، مؤذنة بنهاية الصيف، كان أبي منشرح الصدر، في حالة معنوية عالية. كان ينقر بقدميه بعض الألحان عندما يجلس لتناول طعام الفطور، وعند العشاء كان يشير إلى الجبل في أحيان كثيرة، عيناه تلمعان، ويشرح لنا من أين سيّمد الأنابيب لجلب الماء من الجبل إلى البيت.

وكان أبي قد وعدنا بأنه سيصنع أكبر كرة ثلج في ولاية أيداهو عندما يهطل الثلج، وقال إنه سيصعد إلى قاعدة الجبل ويجمع كرة صغيرة من الثلج، ثمّ يدحرجها إلى أسفل السفح، ويراقبها وقد تضاعف حجمها ثلاث مرات كلّما تدرجت فوق رابية وهي تهبط إلى أسفل الوادي. وعندما تصل إلى آخر بيت فوق التلّ قبل أن تصل الوادي، تكون قد كبرت وأصبحت بحجم حظيرة جدّي، وسينظر الناس من الطريق السريع إلى الأعلى ويحدّقون بها بدهشة. وقال إن كلّ ما نحتاج إليه هو هطول نوعية الثلج المناسب. ندف سميكة، لزجة. وكنا كلما هطل ثلج، نجلب له حفنات من الثلج ونراقبه وهو يفرك الندف بين

أصابه، ثم يقول هذا ناعم جدًّا، وهذا رطب جدًّا، لنتنظر بعد عيد الميلاد، عندما يهطل الثلج الحقيقي.

لكن بعد عيد الميلاد، بدا أن أبي بدأ يتراجع، وينكفى على نفسه. فلم يعد يقول شيئًا عن كرة الثلج، ثم توقّف عن الحديث عنها تمامًا. وتجمّع ظلام في عينيه حتى ملأهما. وأصبح يمشي وذراعاه مرخيتان، وكتفاه منحنيان، كما لو أنّ شيئًا يمسك به ويشدّه إلى الأرض.

في شهر كانون الثاني (يناير) لم يعد أبي يستطيع مغادرة السرير. كان يستلقي على ظهره، يحدّق في الجصّ الذي يكسو سقف الغرفة بأشكاله المتشابكة. وعندما كنت أجلب له طبق العشاء كلّ ليلة، لم يكن يرّف جفنه. لم أكن متأكدة إن كان يعرف أنني موجودة في الغرفة.

عندها قالت أمّي إنّنا سنذهب إلى أريزونا. وقالت إنّ والدنا مثل زهرة عبّاد الشمس- سيموت في الثلج، وعندما يأتي شهر شباط (فبراير) يجب أن نأخذه إلى مكان بعيد تغمره الشمس. تكوّمنا في سيارة الستايشن وسرنا لمدة اثنتي عشرة ساعة، ننعطف حول وديان عميقة ونسرع في الطرق السريعة المظلمة، حتى وصلنا إلى البيت المتنقّل في صحراء أريزونا الجافّة الذي يقيم فيه جدّي وجدّتي حتى انتهاء الشتاء.

وصلنا بعد ساعات من شروق الشمس. استلقى أبي في باحة بيت جدّتي وظل مستلقيًا هناك طوال اليوم، ووضعه وسادة تحت رأسه، ووضع يده السميكة فوق بطنه. ظلّ هكذا لمدة يومين، عيناه مفتوحتان، لا ينبس بكلمة، ساكنًا مثل شجيرة في تلك الحرارة الجافة.

في اليوم الثالث، بدا أنه بدأ يستعيد صحته، وبدأ يدرك ما الذي يجري من حوله، فبدأ ينصت إلى أحاديثنا أثناء الطعام ولم يعد يحدّق في الفراغ، لا يستجيب إلى شيء، وهو مستلق على السجادة. في تلك الليلة، بعد العشاء، بدأت جدّتي تستمع إلى الرسائل الصوتية المسجلة في هاتفها التي كانت معظمها رسائل من الجيران والأصدقاء، ثم انطلق صوت امرأة يذكر جدّتي بموعدها مع الطبيب في اليوم التالي. كان لتلك الرسالة وقع كبير على أبي.

في البداية سأل أبي جدّتي أسئلة عدة: لماذا هذا الموعد، ومع من، ولماذا ترى طبيبًا بينما تستطيع أمي أن تصف لها بعض الأعشاب التي تحضّرها.

كان أبي يؤمن إيمانًا راسخًا بالأعشاب التي تحضّرها أمي، لكن في تلك الليلة بدا شخصًا مختلفًا، كما لو أن شيئًا في داخله بدأ يتغيّر، يحلّ محله مذهب جديد. فقال إن التداوي بالأعشاب إيمان روحي يفصل بين حبات الحنطة والزّوان، يفصل المؤمنين عن الكافرين، ثمّ استخدم كلمة لم أسمعها من قبل: التنويريين (Illuminati). بدت لي الكلمة قوية وغريبة، مع أنني لم أفهم ماذا تعني. وقال إن جدّتي تنتمي إلى التنويريين لكنها لا تعرف ذلك.

وقال أبي إن الله لا يحبّ الجاحدين، والآثمون الكارهون هم الذين لم يحسموا أمرهم بعد، هم الذين يستخدمون الأعشاب والدواء معًا، الذين يأتون لاستشارة أمي يوم الأربعاء ثم يذهبون إلى الطبيب يوم الجمعة، أو كما وصفهم أبي، «الأشخاص الذين يتعبّدون أمام مذبح الربّ في يوم ويقدّمون أضحية إلى الشيطان في اليوم التالي». هؤلاء الناس هم مثل الإسرائيليين القدامى الذين أنزل عليهم دين حقيقي، لكنهم ظلوا يتوقون إلى عبادة أصنام زائفة.

«الأطباء وأقراص الدواء»، قال أبي، يكاد يصيح، «هذا هو إلههم، وهم يجرون خلفه بعهر».

كانت أمي تحدّق في طعامها. عندما سمعت كلمة «عهر» نهضت، ورمقت أبي بنظرة غاضبة، ثمّ دخلت إلى غرفتها وشفقت الباب وراءها. لم تكن أمي توافق أبي دائمًا. فعندما لا يكون أبي موجودًا، كنت أسمعها تقول أشياء بالله -أو على الأقل هذا التجسيد الجديد له- يقول إنها تدنيس للمقدسات، أشياء من قبيل «أن الأعشاب ليست إلا مكملات غذائية، أما عندما يصاب المرء بمرض خطير، فيجب أن يذهب إلى الطبيب».

لم يلاحظ أبي كرسي أمي الفارغ، فقال لجدّتي، «إن هؤلاء الأطباء لا يحاولون إنقاذك، وإنما يحاولون قتلك».

عندما أتذكّر ذلك العشاء، يعود إلى ذاكرتي هذا المشهد بوضوح شديد. أنا جالسة إلى الطاولة. أبي يتكلّم، بحماسة شديدة. جدّتي تجلس قبالي، تمضغ

الهلين في فكها الملتوي، كما قد تفعل العنزة، وترشف الماء المثلج، لا تبدي أي إشارة بأنها سمعت أي كلمة يقولها أبي، باستثناء النظرة الغاضبة التي تلقيها بين حين وآخر على الساعة لتعرف إن كان الوقت قد حان حتى تؤدي إلى الفراش. «إنك تشاركين في مخططات الشيطان وأنت تعرفين ذلك جيداً»، قال لها أبي. كان هذا المشهد يتكرر كل يوم، أحياناً مرات عدة في اليوم الواحد، حتى انتهت زيارتنا التي كانت كلها متشابهة. أبي بمشاعره المتأججة، لا يتوقف عن الهمهمة لمدة ساعة أو أكثر، يكرر ذات العبارات، تدفعه في ذلك عواطف داخلية جياشة احترقت بعد فترة طويلة من إلقاء المحاضرات علينا فأصبحنا نستمع إليها ببرود.

كانت لجذتي طريقة مميزة في الضحك عندما ينهي أبي مواعظه. كانت ضحكتها تلك أشبه بتنهيدة، تأخذ نفساً طويلاً كأنه يتسلل من فمها وينتهي بأن تزوغ عينيها وترفعهما إلى الأعلى في تقليد كسول للغضب، كما لو كانت تريد أن ترفع يديها في الهواء، لكنها متعبة جداً لا تستطيع أن تكمل هذه الحركة، ثم تبتسم -ليست ابتسامة مريحة للشخص الآخر، وإنما تبتسم لنفسها، متعة حائرة، ابتسامة تبدو كأنها تقول دائماً، لا يوجد شيء ممتع أكثر من الحياة الحقيقية، أقول لك.

كان بعد الظهر لاهباً، شديد الحرارة إلى درجة أنك لا تستطيع أن تمشي حافياً على الرصيف عندما أخذتنا جذتي، أنا وريتشارد، في جولة بالسيارة في الصحراء، بعد أن قبلنا على مريض أن نضع حزام المقعد لأننا لم نضعه قبل الآن قط. وقادت السيارة حتى بدأ الطريق ينعطف، ثم مضت في طريقها حتى أصبح الطريق الإسفلتي درباً ترابياً تحت عجلات السيارة، وظلت جذتي تصعد باتجاه التلال البيضاء، وتوقفت عندما انتهى الدرب الترابي وبدأ مسلك ضيق للسير على الأقدام. ثم بدأنا نمشي. وبعد دقائق عدة من السير، بدأت جذتي تلهث، فجلست على صخرة حمراء مسطحة، وأشارت لنا إلى صخرة بعيدة من الحجر الرملي، مشكّلة من قمم مستدقة متداخلة، وطلبت منا أن نسير نحوها. عندما وصلنا إليها، رحنا نبحت عن قطع صغيرة من الصخور السوداء.

«إنها تُدعى دموع الأباتشي»، قالت. دسّت يدها في جيبها وأخرجت منه حجرة صغيرة سوداء، وسخة ومتعرجة، تغطّيها عروق رمادية وبيضاء مثل زجاجة متشققة». يصبح شكلها هكذا بعد أن تُصقل قليلاً، ثم أخرجت من جيبها الآخر قطعة حجر ثانية، سوداء كالحبر، ملساء جدًا.

قال ريتشارد إنهما من حجر السج، زجاج بركاني أسود، «إنهما صخرتان بركانيتان»، قال بصوته الموسوعي، «أما هذه فليست بركانية»، وركل قطعة حجر باهتة وأشار إليها وقال: «إنها راسب». كان ريتشارد يقرأ مواضع علمية. كثيرة لكنني لم أكن ألقى عادة بالآ على ما يقوله، لكنني أعجبت به اليوم وبهذه الأرض العطشة الغربية كثيرًا. سرنا حول تلك الصخور حوالي ساعة، ثم عدنا إلى جدّتي مثقلين بالأحجار. سرّرت جدّتي، لأنه أصبح بإمكانها أن تبيعها، ووضعتها في صندوق السيارة الخلفي. وفي طريق عودتنا، حكّت لنا قصة أسطورة دموع الأباتشي.

بحسب ما قالته جدّتي، فقد حاربت قبيلة أباتشي منذ مئة سنة قوات الخيّالة الأمريكية فوق تلك الصخور المتآكلة. وكان عدد أفراد القبيلة قليلًا، فخسروا المعركة، وانتهت الحرب، وكان كلّ ما تبقى عليهم أن يفعلوه انتظار الموت. وبعد اندلاع المعركة بقليل، حوَصر المحاربون عند حافة الجبل، لكنهم لم يرغبوا في أن تلحق بهم هزيمة مهينة، بعد أن قُتلوا الواحد تلو الآخر في أثناء محاولتهم اختراق فرقة الخيّالة، فامتطوا صهوات جيادهم واتجهوا نحو الجبل. وعندما وجدت نساء الأباتشي جثثهم ملقاة على الصخور، رحن يولولن ويبكين وذرفن دموعًا كثيرة يائسة، تحوّلت إلى حجارة عندما لامست الأرض.

لم تخبرنا جدّتي ما الذي جرى لتلك النسوة. فقد وجدت قبيلة أباتشي نفسها في حرب لكن لم يكن لديها عدد كاف من المحاربين، لذلك، ربما كانت ترى أن النهاية كئيبة ومأسوية فلم تستطع أن تحكيها لنا. وتبادرت إلى ذهني كلمة «مذبحة»، لأن كلمة «مذبحة» هي الكلمة الملائمة لها، لوصف معركة لا يستطيع فيها أحد الجانبين أن يدافع عن نفسه، وهي العبارة التي نستخدمها في المزرعة. فقد كنّا نذبح الدجاجات، ولم نكن نحاربها. إن المذبحة هي النتيجة المحتملة لشجاعة المحاربين الذين ماتوا أبطالًا، أما نساؤهم فقد متن كالجواري.

عندما وصلنا إلى المقطورة، كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، وكانت أشعتها الأخيرة قد وصلت إلى الطريق السريع، فكّرت بنساء الأباتشي. ومثل مذبج الحجر الرملي الذي لقين حتفهن فوقه، كان شكل حياتهن قد تقرّر قبل سنوات - قبل أن تبدأ الخيول تخب، وقبل أن تصبح أجسادهن السمراء المشوبة بالحمرة مقوّسة في تلك المجابهة النهائية. وقبل أن يحارب الرجال بزمان بعيد، كان قد تقرّر كيف ستعيش تلك النسوة وكيف سيمتن على يد المحاربين، على يد النساء أنفسهن. لقد قرّر الأمر. فقد صوّتت خيارات لا تعد ولا تحصى بعدد حبات الرمل بجانب بعضها وضُغطت على بعضها، ثم تحوّلت إلى راسب، ثم استحالت صخرة، حتى تحوّلن هن أنفسهن إلى صخرة.

لم أغادر الجبل من قبل وكنت متشوقة لأن أعود إليه، لأن صورة الأميرة محفورة في أشجار الصنوبر التي تنتشر على امتداد سلسلة الجبال الصخرية. وجدت نفسي أنظر إلى سماء أريزونا الصافية، واشتقت إلى رؤية شكلها الأسود المتكور المنثق من الأرض، وهي تحتل نصف السماء، لكنها لم تكن موجودة هنا. ولم أكن في شوق إلى رؤيتها فحسب، وإنما إلى مداعبتها أيضًا - الريح التي ترسلها عبر الوديان والسهول وتتخلل شعري صباح كل يوم. أما في أريزونا، فلا تهبّ ريح، ولا يوجد فيها إلاّ الحرّ الشديد ساعة بعد ساعة.

أمضيت أيامي هناك وأنا أتجول من جانب المقطورة إلى الجانب الآخر، ثم أخرج من الباب الخلفي إلى الباحة، وأذهب إلى الأرجوحة، ثم أنعطف إلى الفناء الأمامي، فأخطو فوق هيئة أبي الغائب عن الوعي ثم أعود وأدخل مرة أخرى. وشعرت براحة كبيرة في اليوم السادس عندما تعطلت عربة جدّي ذات الأربع عجلات، ففكّكها تايلر ولوك ليعرفا سبب العطل. جثمت فوق برميل بلاستيكي أزرق كبير، أراقبهم، وأتساءل متى سنعود إلى البيت، ومتى سيكّف أبي عن التحدّث عن التنويريين، ومتى ستوقّف أمّي عن مغادرة الغرفة عندما يدخل أبي إليها.

في تلك الليلة، قال أبي بعد العشاء إن الوقت قد حان للعودة إلى بيتنا. قال: «جهّزوا أنفسكم، سنسافر بعد نصف ساعة». كان ذلك في بداية المساء، لكن جدّتي قالت إننا لا يمكن أن نسافر لمدة اثنتي عشرة ساعة في

الليل، وقالت أمي إننا يجب أن ننتظر حتى الصباح، لكن أبي أراد أن نعود إلى البيت الآن لبدأ العمل مع إخوتي صباح اليوم التالي. وقال: «لا أستطيع أن أتحمّل خسارة يوم عمل آخر».

أظلمت عينا أمي قلقًا، لكنّها لم تقل شيئًا.

صحت عندما ارتطمت السيارة بأول عمود كهرباء. كنت نائمة على أرضية السيارة تحت قدمي أختي، بطانية تغطي رأسي. حاولت أن أعتدل في جلستي، لكن السيارة كانت تهتزّ، تندفع إلى الأمام -بدا كأنها ستتفكك وتتناثر إلى قطع- ثم سقطت أودري فوقي. لم أستطع أن أرى ما الذي يجري لكنّ كنت أحسّ وأسمع ما يجري. صوت خبطة عالية أخرى، تمايل، صوت أمي تصرخ، «تايلر» من المقعد الأمامي، ثم هزة عنيفة أخيرة قبل أن يتوقّف كلّ شيء ويسود الصمت.

مرّت ثوان عدة لم يحدث خلالها شيء.

ثمّ سمعت صوت أودري. كانت تنادينا بأسمائنا واحدًا تلو الآخر، ثمّ قالت: «الجميع هنا ما عدا تارا».

حاولتُ أن أصرخ لكن وجهي كان عالقًا تحت المقعد، خدي مضغوط على أرضية السيارة. كافحت تحت وزن أودري وهي تنادي اسمي بصوت عالٍ. أخيرًا، قوّست ظهري ودفعتها، ثمّ أخرجت رأسي من تحت البطانية وقلت: «أنا هنا».

نظرتُ حولي. كان الجزء الأعلى من جسم تايلر منحنيًا يريد أن يتسلّق إلى المقعد الخلفي، عيناه متورمتان. كان يتفحص كلّ جرح، كلّ كدمة، كلّ عين من العينين المفتوحتين على وسعهما. رأيت وجهه لكنه لم يكن يشبه وجهه، وكان الدم ينزف من فمه ويسيل على قميصه. أغمضتُ عيني، أحاول أن أنسى شكل أسنانه الملتوية الملطخة بالدم. ثم فتحتهما مرة أخرى لأتأكد من أن الجميع موجودون. كان ريتشارد يمسك برأسه، يضع يده فوق كلّ أذن كما لو أنه يحاول ألا يسمع الضجيج، وكان أنف أودري معقوفًا بشكل غريب والدم يسيل منه إلى ذراعها، وكان لوك يرتجف لكنّي لم أر أي نقطة دم تسيل منه. أما أنا فقد أصبّت بجرح عميق في ساعدي من إطار المقعد.

«هل الجميع بخير؟» جاء صوت أبي. سُمعت همهمة من الجميع.

«توجد أسلاك كهرباء فوق السيارة»، قال أبي، «فلا يخرج أحد من السيارة حتى يُبطلون مفعولها». فُتح الباب من جانبه، ولوهلة خيل إليّ أنّه كُهرّب، لكنني رأيته قد ابتعد مسافة كافية ولم يلمس جسده السيارة أو الأرض. أذكر أنني كنت أنظر إليه من وراء نافذتي المهشمة بينما كان يدور حول السيارة، وقد دفع قبعته الحمراء إلى الوراء فارتفعت حافتها وراحت تلحق الهواء. بدا لي كأنه صبي بشكل غريب.

دار حول السيارة ثمّ توقّف. انحنى إلى الأسفل وأصبح رأسه على مستوى المقعد الأمامي، وقال: «هل كلّ شيء على ما يرام». قال ثانية، وعندما كررها في المرّة الثالثة، ارتعش صوته.

عندما ملت فوق المقعد لأرى مع من يتكلّم، أدركت مدى خطورة الحادث. فقد كان نصف مقدمة السيارة معجوّناً، وكان المحرّك مقوّساً، ملوّناً إلى الخلف على نفسه، مثل صخرة صلبة مثنية.

كان الزجاج الأمامي يلمع من بريق أشعة شمس الصباح. رأيت أشكالا متقاطعة من الأتلام والشقوق. كان المشهد مألوفاً. فقد كنت قد رأيت مئات السيارات التي تهشم زجاجها الأمامي في باحة الخردة. كان زجاج كلّ سيارة فريد في شكله، يختلف عن الآخر بخيوطه الرفيعة المنبثقة من نقطة التصادم، أما الشقوق التي كانت تملأ زجاج سيارتنا الأمامي فإنها تحكي قصّتها الخاصة بها. فقد كان مركزها حلقة صغيرة من الشقوق تدور نحو الخارج، وكانت تلك الحلقة تقبع أمام المقعد الأمامي مباشرة.

«هل أنت بخير»، قال أبي متوسلاً، «حبيبتى، هل تسمعينني؟»

كانت أمّي جالسة في المقعد الأمامي. كان جسمها بعيداً عن النافذة. لم أستطع أن أرى وجهها، لكن الطريقة التي كانت تستلقي فيها على مقعدها تشير الفزع.

«هل تسمعينني؟» قال أبي. كرّر هذه العبارة عدّة مرات. وأخيراً، وبحركة صغيرة جدّاً لا تكاد تُرى، رأيت طرف شعر أمّي الذي تعقده في شكل ذيل

حصان عندما هزّت رأسها.

نهض أبي وأخذ ينظر إلى خطوط الكهرباء التي لا تزال الكهرباء تسري فيها، ينظر إلى الأرض، ثم إلى أمّي. كان يبدو عاجزًا، لا يستطيع أن يفعل شيئًا. «هل تظنين.. هل يجب أن أطلب سيارة الإسعاف؟».

أظنّ أنّي سمعته يقول ذلك. وإذا كان قد قال ذلك، وهذا ما كان يجب أن يقوله، لا بدّ أن أمّي قد همست ردًا، أو ربما لم تكن قادرة على أن تهمس شيئًا، لا أعرف. أتخيّل دائمًا أنّها قالت إنها تريد أن تعود إلى البيت.

سمعتُ لاحقًا أنّ المزارع الذي اصطدمت سيارتنا بجوّاره هرع من بيته، واتّصل بالشرطة. كنّا نعرف أن ذلك سيسبب لنا مشكلة لأنه لا يوجد تأمين على السيارة، ولم يكن أحد مّا يضع حزام المقعد. قد تكون قد مرّت عشرون دقيقة بعد أن اتصل المزارع بشركة الكهرباء في يوتا حتى يبطلوا مفعول تلك الأسلاك. ثمّ أخرج أبي أمّي من السيارة، فرأيت وجهها، كانت عيناها مخفيتين تحت دوائر داكنة بحجم حبة الخوخ، وقد شوّه الانتفاخ قسّمات وجهها الناعمة التي كان بعضها يضغط على بعضها الآخر.

لا أعرف كيف وصلنا إلى البيت، أو متى، لكنّي أتذكّر أنّ واجهة الجبل كانت متوهّجة بلون برتقالي في ضوء الصباح. عندما دخلنا إلى البيت، رأيت تايلر يبصق جداول قرمزية اللون في مغسلة الحمام. كانت أسنانه الأمامية قد ارتطمت بمقود السيارة فانزاحت من أماكنها، ونتاجت إلى الخلف باتجاه سقف حلقه.

تمدّدت أمّي على الأريكة، وتمتعت بأن الضوء يؤلم عينيها، فأسدلنا الستائر. قالت إنها تريد أن تستلقي في الطابق السفلي حيث لا توجد نوافذ، فحملها أبي إلى الطابق السفلي ولم أرها بعد ذلك لساعات عدة، حتى ذلك المساء، عندما استخدمتُ مصباحًا كاشفًا باهتًا لأجلب لها طعام العشاء. عندما رأيته، لم أعرفها. كان لون عينيها أرجوانيًّا داكنًا، داكنًا إلى درجة أنه بدا أسود، وكانتا متورمتين فلم أعرف إن كانتا مفتوحتين أم مغمضتين. نادتني باسم أودري. وحتى بعد أن صحّحتها مرّتين، قالت لي: «شكرًا يا أودري، العتمة

والهدوء فقط، هذا جيّد. العتمة. الهدوء. شكرًا لك. عودي بعد قليل يا أودري لتطمئني عليّ».

بعد أسبوع غادرت أمّي الطابق السفلي. كان الورم يزداد سوءًا يوميًا بعد يوم، واسودّت الهالات حول عينيها أكثر. وفي كلّ ليلة، كنت أزداد يقينًا بأن وجهها قد تشوّه بأسوأ ما يمكن، وكان وجهها يزداد اسودادًا وتورمًا. وبعد أسبوع، عند غروب الشمس، أطفأنا الأضواء وصعدت أمّي إلى الطابق العلوي. كان يبدو كأنّ شيئين قد عُلقا على جبينها، شيئان كبيران بحجم تفاحة، أسودان كالزيتون.

لم يُثر أي حديث حول الذهاب إلى المستشفى بعد ذلك. فقد انقضت لحظة اتخاذ قرار كهذا، وكانت العودة إليه تعني العودة إلى كلّ الغضب والخوف الذي رافق الحادث نفسه، وقال أبي إن الأطباء لا يستطيعون أن يفعلوا لها شيئًا، لأنها بين يدي الله.

في الأشهر التي أعقبت ذلك، أصبحت أمّي تناديني بأسمائي المتعددة. فعندما نادتنني باسم أودري لم أقلق عليها، لكنني بدأت أقلق عندما كانت تناديني وأنا أتحدّث معها باسم لوك أو توني. وساد شعور بيننا حتى أمّي نفسها، بأنّها لم تعد كما كانت قبل الحادث. ورحنا نطلق عليها، نحن الصغار، عيون الراكون. كنّا نظن أنها مزحة مضحكة عندما بقيت الهالات السود حول عينيها أسابيع عدة، مدة تكفي لنجعلها موضوع تنذّرنا، ولم نكن نعرف أنه مصطلح طبّي. عيون الراكون. إشارة إلى إصابة المرء إصابة خطيرة في الدماغ.

كان شعور تايلر بالذنب مدمّرًا. فقد بدأ يلوم نفسه بأنه السبب في وقوع الحادث، وظلّ يلوم نفسه كلّما اتخذ قرارًا بعد ذلك، وكلّ نتيجة، وكلّ انتكاسة تحصل بعد سنوات. فقد كان يعتبر أنه هو السبب فيما حدث في تلك اللحظة والعواقب التي نجمت عن الحادث، كما لو أن الزمن نفسه قد بدأ في اللحظة التي انحرفت فيها سيارتنا عن الطريق، وكأنه لم يكن هناك تاريخ، أو ظروف، أو أي سبب يمكن أن يكون قد أدى إليه، ولم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من العمر، لأنه غفا عندما كان يقود السيارة. وحتى الآن، عندما تنسى أمّي أيّ

تفصيل، مهما كان صغيرًا، فإن تلك النظرة تلمع في عينيه، نفس النظرة التي بدت في عينيه في اللحظات التي أعقبت الحادثة، عندما بدأ الدم يسيل من فمه عندما رأى المنظر، مركزًا عينيه على ما كان يتخيّل أنه من صنع يديه.

أما أنا، فلم أنح باللائمة على أي شخص لهذا الحادث، لاسيما تايلر. فقد كان حادثًا من بين حوادث عدة أخرى. لكن بعد عشر سنوات، سيتحوّل فهمي للأمور، جزءًا من تحوّلي الثقيل إلى سنّ الرشد، وسيجعلني الحادث أفكر دائمًا بنسوة الأباتشي وبجميع القرارات التي تتدخل في صنع حياة ما، الخيارات التي يتخذها البشر، سواء معًا أم منفردين، التي تجتمع لتسبب وقوع أيّ حدث. حبات الرمل التي لا تعد ولا تحصى، تتجمع وتتحوّل إلى راسب، ثمّ تستحيل صخرة.

الفصل ٥

وسخ شريف

ذاب الثلج عن الجبل وبان وجه أميرة. كان رأسها يلامس السماء. كان ذلك يوم الأحد، بعد مضي شهر على الحادث، وكثّا مجتمعين كلّا في غرفة الجلوس. كان أبي قد بدأ يشرح لنا أحد فصول الكتاب المقدّس عندما تنحج تايلر، وقال إنّ سيغادر البيت.

«سأ - سأ - سأذهب إلى الجامعة»، قال، متشنج الوجه، وانتفخ عرق في رقبتة عندما كان يرغم الكلمات على الخروج من فمه، يظهر ويختفي كل بضع ثوان، أفعى ضخمة، تكافح.

نظر الجميع إلى أبي. كانت تعابير وجهه هادئة. كان الصمت أسوأ من الصياح.

سيكون تايلر ثالث أخ من إخوتي سيغادر البيت. فقد غادر أخي الأكبر، توني ليعمل سائق شاحنة ينقل الحصى أو الخرّدة ليجمع مبلغًا يمكّنه من الزواج من الفتاة التي تقيم في آخر الشارع. وشون، الأصغر منه الذي تشاجر مع أبي منذ أشهر وترك البيت، ولم أره منذ ذلك الحين، لكنه كان يتصل بأُمّي بالهاتف كل بضعة أسابيع يطمئنّها عن نفسه، ويقول لها إنّّه يعمل في اللحم أو في قيادة الشاحنات. فإذا ذهب تايلر أيضًا، فلن يعود لدى أبي عدد كاف من العمال الذين بدونهم لن يتمكن من بناء حظائر أو سقوف من القشّ، وسيضطر للعودة إلى العمل في الخرّدة.

«أيّ جامعة؟» سألته.

«الجامعة مدرسة إضافيّة للأغبياء الذين لا يستطيعون أن يتعلّموا في المرّة الأولى»، قال أبي. أطرق تايلر برأسه وراح يحدّق في أرضيّة الغرفة، عابسًا. ثمّ تهدلت كتفاه، واسترخى وجهه ونظر إلى الأعلى. بدا لي أنّه خرج من نفسه. كانت عيناه لطيفتين، جذابتين. لم أره من قبل هكذا قط.

أنصت إلى أبي الذي بدأ يلقي عليه محاضرة. قال له أبي: «يوجد نوعان من أساتذة الجامعة، الأساتذة الذين يعرفون أنهم يكذبون، والذين يظنون أنهم يقولون الحقيقة». ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وأضاف، «ولا تعرف من هو الأسوأ، فكّر في الأمر، شخص صادق النية من التنويريين يعرف، على الأقل، أنه مدرج في قائمة رواتب الشيطان، أو بروفيسور يحمل مبادئ سامية ويدّعي أن حكمته أعظم من حكمة الله». كان أبي لا يزال يبتسم تلك الابتسامة العريضة. لم يكن الأمر خطيرًا، وإنما كان يريد أن يغرس أفكاره في ابنه.

قالت أمي إن أبي يضيق وقته، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقنع تايلر بأن يعدل عن أي قرار يتخذه، وقالت: «يمكنك أيضًا أن تأخذ مكنسة وتبدأ تكنس التراب من الجبل». ثم صمتت، استغرقت بضع لحظات لتقف بثبات، ثم هبطت وهي تتمايل إلى الطابق السفلي.

كانت أمي مصابة بداء الشقيقة. كانت تعاني من صداع نصفي على نحو يكاد يكون دائمًا. كانت لا تزال تمضي أيامها في الطابق السفلي، لا تصعد إلى الطابق العلوي إلا بعد غروب الشمس، وحتى عندما كانت تصعد، لم تكن تبقى أكثر من ساعة لأن الضوضاء والإرهاق كانا يسببان ألمًا شديدًا في رأسها. كنت أراقب حركتها البطيئة، الحذرة، وهي تهبط الدرج، ظهرها محني، تمسك الدرابزين بكلتا يديها، كما لو كانت فاقدة البصر وعليها أن تتلمّس طريقها. كانت تنتظر أن تثبت قدميها بقوة فوق الدرجة قبل أن تنقلهما إلى الدرجة التالية، وكان الانتفاخ في وجهها قد اختفى تقريبًا، وعاد إلى طبيعته، ما عدا الهالات تحت عينيها التي تغيّر لونها شيئًا فشيئًا من اللون الأسود إلى الأرجواني الداكن، وأصبح لونها الآن مزيجًا من البنفسج والزيب.

بعد ساعة لم يعد أبي يبتسم تلك الابتسامة العريضة. ولم يكرر تايلر رغبته في الذهاب إلى الجامعة، لكنه لم يعد بأن سيبقى أيضًا. كان يجلس هناك، وراء ذلك التعبير الخاوي، ساهمًا. قال له أبي: «لا يستطيع الرجل أن يكسب رزقه من الكتب وقصاصات الورق. ستصبح رب أسرة. كيف ستعيل زوجة وأطفالًا من الكتب؟»

أمال تايلر رأسه، مبدئياً أنه يستمع إليه، لكنه لم يقل شيئاً.
«ابني، يصطف في الرتل حتى يقوم جواسيس اشتراكيون وتنويريون
بغسل دماغه...».

«الجامعة تديرها الكنيسيسسيسة»، قاطعه تايلر، «كيف يمكن أن تكون
سبباً؟»

فتح أبي فمه وانطلقت منه دفقة من الهواء، وقال: «ألا ترى أن التنويريين
قد تغلغلوا في صفوف الكنيسة؟» بدأ صوته يعلو، وكانت كل كلمة تمتلئ
بطاقة قوية. «ألا تظن أن أول مكان سيتوجهون إليه هو الجامعة ليتمكنوا من
تنشئة جيل كامل من المورمون الاشتراكيين؟ لقد ربيتك أفضل من ذلك!».

سأذكر دائماً أبي في تلك اللحظة، قوته واليأس الذي كان يملكه. ينحني
إلى الأمام، مطبقاً فكّه، عيناه ضيقتان، يفتش في وجه ابنه عن إشارة تدل
على وجود موافقة، ثنية تشير إلى اعتقاد يمكن أن يجمعهما. لكنه لم يجده.

إن قصة كيف قرّر تايلر أن يغادر الجبل قصة غريبة، مليئة بالفجوات
والثغرات. إنها تبدأ بتايلر نفسه، بحقيقة غرابته هو نفسه. فقد يحدث أحياناً
في إحدى العائلات: ألا يكون أحد أبنائها منسجماً مع باقي أفراد الأسرة،
ويكون لديه إيقاع لا ينسجم مع إيقاع الآخرين، ويعزف لحناً مغايراً. في
أسرتنا، فإن هذا الشخص هو تايلر الذي كان يرقص الفالز بينما كنا نرقص
جميعاً قفزاً. لم يكن يستمع إلى موسيقى حياتنا النشار، وكنا نصم آذاننا كي لا
نسمع موسيقاه الهادئة.

كان تايلر يحب الكتب، وكان يحب الهدوء. كان يحب التنظيم والترتيب
وتصنيف الأشياء. فقد وجدت أمي ذات يوم في خزانة ملابسه رقاً كاملاً من
علب الثقاب جمعها خلال سنة. قال تايلر إنه جمع فيها بروات أقلام الرصاص
طوال السنوات الخمس الماضية، وقال إنه جمعها لإشعال النار عندما نصعد
إلى التلال. ودهش الجميع في البيت: أكوام الثياب الوسخة المبقعة بالأسود
وبالزيت من العمل في باحة الخردة، متناثرة في غرفة النوم؛ وفي المطبخ،
أزاح القناني المسوّدة من صبغات الأعشاب التي تملأ كل طاولة وخزانة،
ووضع مكانها مشاريع أسوأ وأكثر فوضى، ربّما لسلخ جيفة طبي أو إزالة مادة

الكوسمولن من البندقية، لكن في غمرة هذه الفوضى، كان تايلر قد جمع بروات أقلام الرصاص طوال خمس سنوات، ورتبها بحسب السنة التي جمعها فيها.

كان إخوتي أشبه بقطيع من الذئاب، لا يتوقف أحدهم عن الشجار مع الآخر، وكانت هذه المشاجرات تندلع كلما حاول جرو صغير أن يشبّ عن الطوق ويحلم بالصعود. وعندما كنت فتاة صغيرة، كانت هذه المشاجرات تنتهي عادة عندما تصرخ أمي لأن أحداً كسر مصباحاً أو مزهرية، لكن عندما كبرت، لم تعد هناك أشياء كثيرة يمكن أن تُكسر. وسمعت أمي تقول إنه كان عندنا جهاز تلفزيون في الماضي، عندما كنت طفلة رضيعة، حتى دفع شون رأس تايلر في داخله.

عندما كان إخوته يتصارعون، كان تايلر يستمع إلى الموسيقى. كان لديه جهاز التسجيل الوحيد الذي رأيته في حياتي، وكان يضع بجانبه كومة طويلة من الأقراص المدمجة كُتبت عليها كلمات غريبة مثل «موزار» و«شوبان». وفي عصر يوم أحد، عندما كان في السادسة عشرة، رأي أنظر إليها. حاولت أن أبتعد بسرعة لأنني ظننت أنه سيؤنبني لأنني دخلت إلى غرفته، لكنه أخذني من يدي وقادني إلى تلك الكومة، وقال: «أ..أيّ واحدة من هذه تحبين أكثر؟».

كان لون أحد تلك الأقراص أسود وعلى غلافه صورة مئة رجل وامرأة يتشحون بالبياض. أشرت إليه. نظر إليّ تايلر بريبة وقال: «ه.. هذه موسيقى كورال».

أدخل القرص في الصندوق الأسود، ثمّ جلس إلى طاولته وراح يقرأ. قرفت على الأرض بجانب قدميه، أرسم أشكالا على السجادة. انطلقت الموسيقى: أنفاس آلات وترية، ثمّ أصوات هامسة، تنشد، ناعمة كالحرير، لكنها حادة على نحو ما. كانت الترتيلة مألوفة لي -فقد كنّا قد أنشدناها في الكنيسة، جوقة من الأصوات غير المنسجمة التي علت أثناء الصلاة- أما هذه الأصوات فكانت مختلفة: قدسية، مبجلة، وكانت شيئاً آخر أيضاً، شيئاً له علاقة بالدراسة والانضباط والتعاون. شيء لم أفهمه بعد.

انتهت الأغنية وجلسْتُ، مشلولة، بينما بدأت المعزوفة الثانية، ثم تلتها أخرى حتى انتهى القرص. بدت الغرفة مَيَّتة بدون الموسيقى. سألت تايلر إن كان باستطاعتنا أن نسمعها مرة أخرى، وبعد ساعة، عندما توقفت الموسيقى، رجوته أن يعيدها. كان الوقت قد تأخَّر، وكان السكون يخيم على البيت، عندما وقف تايلر من وراء طاولته وضغط على زر التشغيل، وقال هذه آخر مرّة.

«يمك.. يمك.. يمكننا أن نستمع إليها مرة أخرى غدًا»، قال.

أصبحت الموسيقى لغتنا. عائق تايلر في الكلام جعله هادئًا، جعل لسانه ثقيلًا. لذلك لم نتكلّم، أنا وهو، كثيرًا. لم أكن أعرف أخي. أما الآن، فقد بدأت أنتظر مساء كل يوم حتى يعود من باحة الخردة. بعد أن يستحمّ، ويزيل عنه أوساخ النهار، يجلس إلى طاولته ويقول، «ما.. ما.. ماذا سنستمع الليلة؟» فأختار أحد الأقراص، ويبدأ يقرأ، بينما أتمدّد على الأرض بجانب قدميه، عيناى مثبتتان على جوره، وأنا أصغي إلى الموسيقى.

كنت فتاة مشاغبة أحب الشجار مثل جميع إخوتي، لكن عندما أكون مع تايلر فإنني أتغيّر. ربما كانت الموسيقى، المهابة التي تضيء على الأجواء، أو ربما المهابة التي كان يضيفها هو. بشكل ما، بدأت أرى نفسي من خلال عينيه. بدأت أحاول ألا أصرخ، وكنت أحاول أن أتفادى الشجار مع ريتشارد، خصوصًا ذلك الشجار الذي ينتهي بأن يتدحرج كلانا على أرضية الغرفة، يشدّ شعري، وأخرمش وجهه الناعم بأظافري.

كان عليّ أن أعرف أنّ تايلر سيغادر ذات يوم، فقد ذهب توني وشون اللذان ينتميان إلى الجبل أكثر مما ينتمي تايلر إليه. كان تايلر يحبّ دائمًا ما يطلق عليه أبي «التعلّم من الكتب» الذي لم نكن نحن، ما عدا ريتشارد، نبدي اهتمامًا كبيرًا به.

مرّ زمن، عندما كان تايلر صبيًا صغيرًا، كانت أمّي متحمسة لتعليمنا، وكانت تقول دائمًا إنّنا لم نذهب إلى المدرسة لأننا في البيت نحصل على تعليم أفضل مما يحصل عليه الأطفال الآخرون. كانت أمّي تقول ذلك، أما أبي فكان يرى إنّنا يجب أن نتعلّم مهارات عملية أكثر. عندما كنت صغيرة جدًّا،

كان يدور بينهما هذا الجدل: تحاول أمي أن تدرّسنا صباح كل يوم، لكن ما إن تدير ظهرها حتى يجمع أبي إخوتي ويأخذهم إلى باحة الخردة.

لكن أمي خسرت هذه المعركة في نهاية الأمر. فقد بدأ ذلك بلوك، الابن الرابع من أبنائها الخمسة. كان لوك ذكيًا عندما يتعلق الأمر بالجبل - فقد كان يتعامل مع الحيوانات كما لو أنه يكلمها - لكنه كان يعاني من صعوبة شديدة في التعلّم، ولم يكن قادرًا على تعلّم القراءة. وقد أمضت أمي خمس سنوات تجلس معه إلى طاولة المطبخ في صباح كل يوم، تعيد له شرح الأصوات، لكن عندما بلغ لوك الثانية عشر من العمر، كان كل ما استطاع أن يتعلمه طوال فترة دراسة الكتاب المقدّس في البيت هو أن ينطق جملة واحدة من الكتاب المقدّس. لم تستطع أمي أن تفهم سبب ذلك، لأنها لم تجد مشكلة في تعليم توني وشون القراءة، وتمكّن الجميع من تعلّمها بطريقة ما. وقد علّمني توني القراءة وأنا في الرابعة من عمري، ليربح رهائًا مع شون، كما أظن.

عندما أصبح بإمكان لوك أن يكتب اسمه ويقرأ عبارات بسيطة قصيرة، بدأت أمي تعلّمه الرياضيات. وكانت الرياضيات التي تعلّمتها عندما كنت أغسل صحون الفطور وأستمع إلى أمي وهي تشرح له الدرس، مرارًا وتكرارًا، ما هو الكسر أو كيفية استخدام الأرقام السالبة. لم يحرز لوك أيّ تقدّم، وبعد سنة، استسلمت أمي، ولم تعد تقول إننا نحصل في البيت على تعليم أفضل مما يحصل عليه الأطفال الآخرون في المدرسة. وبدأت تردد كلمات أبي. فقد قالت لي صباح أحد الأيام، «المهم أن تتعلّموا القراءة، أما الهراء الآخر فهو مجرد غسيل دماغ». وبدأ أبي يعود إلى البيت في وقت مبكر ليجمع إخوتي، وعندما بلغت الثامنة من عمري، وبلغ تايلر السادسة عشرة، توقف التعليم في البيت كلية.

لكن أمي لم تتبنّ فلسفة أبي تمامًا، فقد كانت تستعيد حماسها القديمة بين الحين والآخر. في تلك الأيام، عندما كنا نجتمع حول المائدة عند الفطور، كانت أمي تقول إنها ستعلّمنا اليوم. وكان يوجد في الطابق السفلي رف مليء بالكتب عن الأعشاب، وفيه بضعة كتب ذات أغلفة ورقية قديمة، وكتب مدرسية قليلة عن الرياضيات كنا نتقاسمها، وكتاب عن التاريخ الأمريكي لم أر

أحدًا يقرأ فيه إلا ريتشارد، وكان يوجد أيضًا كتاب علوم، لا بد أنه كان مخصصًا للأطفال الصغار لأن صفحاته كانت مصقولة ومليئة بالرسوم الإيضاحية.

كان العثور على جميع الكتب يستغرق عادة نصف ساعة، ثم نقسمها بيننا ندخل إلى غرف منفصلة «لندرس». لا أعرف ماذا كان يفعل أشقائي عندما يدخلون إلى غرفهم ليدرسوا، أما أنا فكنت أفتح كتاب الرياضيات وأمضي عشر دقائق في قلب صفحاته، أكرر أصابعي حتى أصل إلى منتصف الصفحة، وعندما أصل إلى خمسين صفحة، أذهب إلى أمي وأقول لها إنني أنهيت خمسين صفحة من كتاب الرياضيات.

فتقول لي: «رائع! أترين؟ فالدراسة بهذه السرعة غير ممكنة في المدارس العامة. لا يمكنك أن تفعل ذلك إلا في البيت، حيث يمكنك أن تجلسي وتركزي دون أن يلهيك أي شيء».

لم تكن أمي تعطينا محاضرات أو تجري لنا اختبارات، ولم تكن تكلفنا بكتابة أي موضوع. وكان يوجد في الطابق السفلي جهاز كمبيوتر فيه برنامج يسمى «مافيس بيكون»، لتعليم الطباعة على الكمبيوتر.

في بعض الأحيان، عندما كانت أمي تذهب لتوصيل بعض الأعشاب، كانت تأخذنا بعد أن ننهي عملنا إلى مكتبة كارنيجي التي تقع في وسط البلدة والتي توجد فيها غرفة مليئة بكتب الأطفال فنقرأها. وكان ريتشارد يأخذ أحيانًا كتبًا من الطابق العلوي الذي يوجد فيه كتب مخصصة للكبار، ذات عناوين ثقيلة عن التاريخ والعلوم.

كان التعلّم في بيتنا تعليمًا ذاتيًا محصًا: فقد كان بإمكان أحدنا أن يعلم نفسه أي شيء بعد أن ينهي عمله. وكان بعضنا أكثر انضباطًا من الآخرين، أما أنا فكنت أقلهم انضباطًا. وعندما بلغت العاشرة، كان الموضوع الوحيد الذي درسته بانتظام هو رموز المورس الذي أصرّ أبي على أن أتعلّمه. فقد كان يقول: «إذا قُطعت خطوط الهاتف، سنكون الأشخاص الوحيدين في الوادي الذين يستطيعون التواصل فيما بينهم»، مع أنني لم أكن متأكدة تمامًا من أننا الأشخاص الوحيدون الذين يتعلّمونه، والذين سيتواصلون بواسطته.

كان إخوتي الصبية الذين يكبرونني -توني وشون وتايلر- قد نشأوا في زمن مختلف، كما لو كان عندهم أب وأم مختلفان. فلم يكن والدهم قد سمع بعائلة ويفر، ولم يكن يتحدث عن التنويريين، وسجل أبناءه الثلاثة في المدرسة. ومع أنه أخرجهم من المدرسة بعد سنوات، وتعهّد بتعليمهم في البيت، فقد سمح لتوني أن يعود إلى المدرسة عندما طلب ذلك، وظل توني في المدرسة حتى المرحلة الثانوية. وبما أنه كان يمضي أيامًا كثيرة في باحة الخردة، فلم يتمكن من التخرّج من المدرسة.

وبما أن تايلر كان الابن الثالث، فلم يكن يتذكّر المدرسة كثيرًا، وكان سعيّداً بالدراسة في البيت. وعندما بلغ الثالثة عشرة، طلب تايلر من أبي أن يُسجّل في الصف الثامن، ربّما لأن أمّي كانت تمضي معظم وقتها في تعليم لوك القراءة.

ظل تايلر في المدرسة طوال تلك السنة، من خريف عام ١٩٩١ حتى ربيع عام ١٩٩٢، فتعلّم الجبر الذي كان يرى أنه طبيعي بالنسبة لعقله كما أن الهواء طبيعي لرئتيه. ثمّ جاء حصار عائلة ويفر في شهر آب (أغسطس) ذاك. لا أعرف إن كان تايلر قد عاد إلى المدرسة، لكن ما أعرفه هو أنه بعد أن سمع أبي ما حدث لعائلة ويفر، لم يعد يسمح لأحد من أبنائه الذهاب إلى مدرسة حكومية، لكن تايلر ظل مهتمًا بالدراسة. وعندما توفرت له نقود كافية، اشترى كتابًا مدرسيًا قديمًا في حساب المثلثات، وظل يدرس وحده، وكان يريد أن يدرس بعده حساب التفاضل والتكامل، وعندما لم يتوفر له ثمن كتاب آخر، ذهب إلى المدرسة وطلب من أستاذ الرياضيات أن يعطيه كتابًا، فضحك الأستاذ في وجهه وقال له: «لا يمكنك أن تتعلّم حساب التفاضل والتكامل وحدك، هذا مستحيل». لكن تايلر أصرّ وقال: «أعطني كتابًا، وسترى أنني أستطيع». وخرج تايلر من المدرسة ومعه الكتاب.

كان التحديّ الحقيقي يتمثّل في العثور على وقت للدراسة. ففي الساعة السابعة من صباح كلّ يوم، كان أبي يجمع أولاده، ويقسّمهم إلى فرق، ويرسلهم لأداء المهمات التي أوكلها إليهم، وبعد ساعة تقريبًا، كان أبي يلاحظ غياب تايلر، فيندفع بقوة من الباب الخلفي إلى البيت ويرى تايلر جالسًا في غرفته يدرس. «ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟» يصيح، مائلًا سجادة تايلر

النظيفة بكتل التراب، «لقد تركت لوك يحمل الأعمدة وحده -رجل واحد يؤدي عمل رجلين، وأنت جالس هنا على مؤخرتك؟»

كنت أخاف أن يراني أبي أحمل كتابًا في الوقت الذي يُفترض أن أعمل فيه، أما تايلر فلم يكن يخشاه وكان يبقى ثابتًا، فيقول له: «بابا، سا... سا... سأعمل بعد الغ... الغداء، لكن يجب أن أدرس في الصباح». وكانا يتجادلان بضع دقائق في معظم أوقات الصباح، ثم يضع تايلر قلمه الرصاص، وبكتفيه المتهديلين ينتعل حذاءه الطويل ويضع قفازات اللحم. وفي أيام أخرى -أيام تشير دهشتي- كنت أرى أبي يخرج من الباب الخلفي وحده محتدماً من دون تايلر.

لم أكن أصدّق أن تايلر سيذهب فعلاً إلى الجامعة، وأنّ يتخلّى عن الجبل لينضم إلى فئة التنويريين. طننت أنه يوجد لدى أبي فصل الصيف بأكمله حتى يقنع تايلر بأن يغيّر رأيه ويعيده إلى رشده، وهذا ما كان يفعله غالبًا عندما نعود من العمل لتناول طعام الغداء. كان إخوتي يجوبون المطبخ، يملؤون صحنهم مرتين وثلاث مرات، بينما يتمدد أبي على أرضية المطبخ الصلبة، لأنه يكون مرهقًا، وبما أن ثيابه تكون وسخة جدًا فإنه لا يستلقي على أريكة أمّي، ويبدأ محاضرتة عن التنويريين وهو مستلق على الأرض.

لا أزال أتذكّر ذلك الغداء، عندما كان تايلر يجمع التاكو الذي أعدّه أمّي: كان يصفّ المحارات في صحنه، ثلاث محارات في صفّ منتظم، ثم يضيف الهامبرغر والخسّ والبندورة (الطماطم) بعناية، يقيس المقادير، ثم يضع فوقها الكريمة الحامضة بشكل متواز، ولم يتوقف أبي عن الكلام، وعندما وصل إلى آخر محاضرتة وأخذ نفسًا ليبدأ محاضرتة التالية، وضع تايلر قطع التاكو الثلاثة في الخلاط الذي تستخدمه أمّي لتجهيز الأعشاب، وشغلّه، فملأ هدير صاحب المطبخ، وفرض نوعًا من الصمت. وعندما توقف الهدير، استأنف أبي كلامه. صبّ تايلر السائل البرتقالي في كأس وراح يشربه، بعناية، بهدوء، لأن أسنانه الأمامية كانت لا تزال مخلخلة، لا تزال تحاول أن تقفز خارج فمه. يمكنني أن أستدعي ذكريات عديدة تصوّر هذه الفترة من حياتنا، لكن هذه هي الذكرى الوحيدة التي ظلّت عالقة في رأسي: صوت أبي يرتفع وهو مستلق على أرضية المطبخ، بينما كان تايلر يشرب عصير التاكو الذي أعدّه بنفسه.

عندما ودّعنا الربيع واستقبلنا الصيف، تحوّل تصميم أبي إلى إنكار، فقد بدأ يسلك وكأن الخلاف بينهما قد انتهى وأنه انتصر، فلم يعد يتحدث عن مغادرة تايلر، ولم يوظف أحدًا ليعمل مكان تايلر.

بعد ظهر يوم قائظ، أخذني تايلر إلى بيت جدّتي التي تعيش في البلدة، وهو نفس البيت الذي تربّيت فيه أمّي، البيت الذي لا يشبه بيتنا. ولم يكن ديكور البيت مكلفًا، لكنّه أنيق، معتنى به: سجادة بلون الكريمة تغطي الأرضية، والجدران مكسوة بورق جدران موشى بأزهار ناعمة، وتُسدل على النوافذ ستائر سميكة ذات ثنيات. ولم يُستبدل أيّ شيء من أثاث البيت تقريبًا -السجادة، ورق الجدران، طاولة المطبخ، أسطح المناضد- كان كلّ شيء كما هو في الصور التي رأيتهما عندما كانت أمّي فتاة صغيرة.

لم يكن أبي يحب أن نمضي في بيت جدّتي وقتًا طويلًا. وكان جدّي يعمل ساعي بريد قبل أن يحال على التقاعد، وكان أبي يقول عن جدّي إن شخصًا عمل لدى الحكومة لا يستحق احترامنا. وكان أبي يقول أيضًا إن جدّتي أسوأ منه، لأنها امرأة مستهترّة. لم أكن أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، لكنّه كان يقول ذلك كثيرًا حتى ربطتُ جدّتي بها -بسجادتها بلون الكريمة وورق الجدران الموشى بأزهار ناعمة.

كان تايلر يحبّ زيارة بيت جدّتي. فقد كان يحبّ الهدوء والترتيب والطريقة التي يتحدّث فيها جدّي وجدّتي بلطف. كان ثمة شيء في ذلك البيت يجعلني أشعر بشكل غريزي، دون أن يطلب مني أحد، بأنني يجب ألا أرفع صوتي، وألا أضرب أحدًا، وألا أجري في المطبخ بسرعة، وكان يُطلب مني، مرارًا وتكرارًا، أن أخلع حذائي الملوّث بالوحل عند الباب.

«إدّا ستذهب إلى الجامعة»، قالت جدّتي عندما جلسنا على الأريكة الموشاة بالأزهار، ثم التفتت إليّ وقالت: «يجب أن تكوني فخورة بأخيك»، ثم أغمضت عينيها قليلًا لتجاري ابتسامتها. استطعت أن أرى كلّ أسنانها. دعي جدّتي تظن بأن دماغك قد غُسل، قلت في نفسي.

«أريد أن أذهب إلى الحمّام»، قلت.

سرت في الممر ببطء. كنت أتوقّف عند كلّ خطوة لأترك أصابع قدمي تغوص في السجادة. ابتسمتُ عندما تذكرت قول أبي إنّ جدّتي حافظت على سجّادتها بيضاء نظيفة لأنّ جدّي لم يفعل شيئًا حقيقيًا في حياته. «قد تكون يداي وسختين»، قال أبي، وهو ينظر إليّ وبريني أظافره المسوّدة، «لكنه وسخ شريف».

مضت أسابيع وأصبحنا في منتصف الصيف. وفي أحد أيام الأحد، دعانا أبي لعقد اجتماع. قال: «توجد لدينا كميات وافرة من الطعام. فقد خزّنا كميات من الوقود والماء، أما الشيء الذي لا نملكه فهو المال»، وأخرج أبي من محفظته ورقة من فئة العشرين دولارًا، وجعّدها، ثم قال، «لا أقصد هذه النقود المزيفة. ففي اليوم الآخر، لن تكون لهذه النقود قيمة، وعندها سيستبدل الناس ورقة المئة دولار بلقّة ورق مراحيض».

تخيّلت عالمًا تتناثر فيه الدولارات الخضراء فوق الطريق السريع مثل علب الصودا الفارغة. نظرت حولي. خيّل إليّ أن الآخرين جميعًا يتخيّلون ذلك أيضًا، خصوصًا تايلر، الذي كانت عيناه مركّزتين، مصممتين. ثم تابع أبي قائلاً، «لقد وفّرت بعض النقود، وقد وفّرت أمّكم بعض النقود. سنستبدلها كلها بالفضة، وهذا ما سيتمّى الناس أن يكونوا قد فعلوه بعد فترة ليست ببعيدة، الفضة والذهب».

بعد بضعة أيام، عاد أبي إلى البيت ومعه كمية كبيرة من الفضة، وقليل من الذهب في شكل قطع نقدية معدنية مملوءة في صناديق ثقيلة صغيرة، ووضعتها في الطابق السفلي. لم يسمح لي أن أفتح تلك الصناديق، وقال مؤنبًا: «إنها ليست للعب».

بعد فترة قصيرة، أخذ تايلر آلاف الدولارات القليلة -المذخرات التي بقيت لديه بعد أن سدد للمزارع ثمن الجرّار ولأبي ثمن سيارة الستايشن- واشترى مجموعته من الفضة التي كدّسها في القبو بجانب صندوق البندقيّة. وقف هناك طويلًا، يحدّق في العلب، كما لو أنه معلق بين عالمين.

كان تايلر هدقًا أسهل: عندما رجوته أعطاني قطعة فضّية كبيرة بحجم راحة كفي. جعلتني هذه القطعة أشعر بالسكينة. قلت لنفسي إن شراء تايلر

هذه المجموعة إعلان عن ولاءه، وتعهّد لأسرتنا بأنه، على الرغم من الجنون الذي أصابه، وجعله يريد أن يذهب إلى الجامعة، فإنه سيختارنا في نهاية الأمر، وسيقاتل إلى جانبنا عندما يحلّ يوم الهلاك. وعندما بدأ لون أوراق الأشجار يتغيّر، من خضرة شجر العرعر في الصيف إلى الأحمر العقيق والذهبي البرونزي في الخريف، كانت تلك القطعة الفضية تلمع حتى عندما يكون الضوء خافتًا جدًّا، وقد صقلتها ألف لمسة من إصبعي. جعلتني طبيعتها الخام أشعر براحة كبيرة، وكنت على يقين من أنه إذا كانت هذه القطعة الفضية حقيقية، فلن يتمكن تايلر من الذهاب.

عندما استيقظت في صباح أحد أيام شهر آب (أغسطس) وجدت تايلر يحزم ثيابه وكتبه وأقراصه المدمجة في صناديق. كان قد أنهى ذلك عندما جلسنا لتناول الفطور. تناولت طعامي بسرعة، ثمّ دخلت إلى غرفته ونظرت إلى رفوف مكتبته التي أصبحت فارغة الآن ولم يبق عليها إلّا قرص مدمج واحد، وهو القرص الأسود الذي توجد عليه صورة أشخاص متشحين بالبياض، التي عرفت الآن أنها فرقة كورال المعبد المورمونية. وقف تايلر عند الباب، وقال: «أ...أ...أنا ذاهب، وه.. هذا لك»، ثمّ غادر البيت وشغلّ سيارته، وانطلق بسرعة ونثر وراءه غبار أياداهو كما لو أنه لم ير في حياته دربًا تراثيًا.

أنهى أبي فطوره وغادر دون أن ينبس بكلمة. فهمت السبب. فقد أفقدتني رؤية تايلر وهو ينقل الصناديق إلى سيارته صوابي. أردت أن أصبح بملء صوتي، لكنني خرجت من الباب الخلفي ورحت أجري أصعد التلال نحو قمّة الجبل. ركضت حتى أصبح صوت الدم الذي ينبض في أذني أعلى من الأفكار التي تجول في رأسي، ثمّ استدرت وأنا أجري ورحت أدور حول المرعى باتجاه عربة القطار الحمراء. صعدت إلى سطحها في الوقت المناسب ورأيت تايلر يغلق غطاء صندوق السيارة، ثم دار بسيارته دورة كاملة كما لو أنه يريد أن يودع أحدًا، لكن لم يكن هناك أحد يودّعه. تخيلته وهو يناديني باسمي وتصوّرت وجهه حزينًا عندما لم أجبه.

عندما نزلت من سطح العربة، كان قد أصبح وراء المقود، وكانت السيارة تقرقع فوق الطريق الترابي عندما قفزت من وراء خزان حديدي، فتوقّف تايلر، ثمّ ترجّل من السيارة وعانقني.. لا ذلك العناق الذي يقرفص فيه

البالغون عندما يعانقون الأطفال في معظم الأحيان، وإنما النوع الآخر من العناق. كنا واقفين، وشدّني إليه وقرب وجهه من وجهي. قال إنه سيشتاق إليّ كثيرًا، ثمّ تركني، وركب سيارته وقاد بسرعة إلى أسفل التلّ ثم انعطف إلى الطريق السريع. ثم رأيت الغبار يعود ويستقر على الأرض.

بعد ذلك لم يعد تايلر إلى البيت إلّا نادرًا، فقد بدأ يبني لنفسه حياة جديدة عبر خطوط العدو. كانت زيارته إلى البيت قليلة جدًّا. لا أكاد أذكر أنني رأيته إلّا بعد خمس سنوات، عندما أصبحت في الخامسة عشرة، عندما اقتحم حياتي في لحظة حاسمة. لكن قبل ذلك الوقت كنّا غريبين.

لم أفهم ما الذي كلّفته مغادرته البيت في ذلك اليوم إلّا بعد سنوات عدة، عندما لم يكن يعرف إلى أين سيذهب. فقد كان توني وشون قد غادرا الجبل، لكنهما غادرا ليفعلا ما علّمهما أبي أن يفعله: قيادة شاحنات، العمل في اللحام، أو في باحة الخردة. أما تايلر فقد ذهب إلى المجهول. لا أعرف لماذا فعل ذلك، ولم يكن هو يعرف أيضًا. فلم يستطع أن يفسّر من أين أتته هذه القناعة، أو كيف أنها احترقت لتضيء له الطريق إلى عدم اليقين الأسود. لكنّي كنت أفترض دائمًا بأنّها الموسيقى التي كانت تجول في رأسه، لحن متفائل لم يكن بإمكاننا أن نسمعه نحن، نفس اللحن السري الذي كان يدندنه عندما اشترى كتاب حساب المثلثات، أو عندما كان يخبئ بروة أقلام الرصاص.

بدأ الصيف يتلاشى، وبدا أنه تبخّر بفعل حرارته. كان النهار لا يزال حارًّا، لكن برودة لطيفة كانت تحلّ عند المساء، وبدأت الساعات الباردة بعد الغروب تزداد يومًا بعد يوم. كان قد مضى على غياب تايلر شهرًا.

كنت أمضي فترات بعد الظهر مع جدّتي التي تعيش في البلدة. كنت قد تحمّمت في صباح ذلك اليوم، مع أنّه لم يكن يوم أحد، وارتديت ثيابًا خاصة لا توجد فيها ثقوب أو بقع، وبما أنها كانت مغسولة ونظيفة، فقد كان بإمكانني أن أجلس في مطبخ جدّتي وأراقبها وهي تصنع بسكويت اليقطين. كانت أشعة

الشمس الخريفية تتسلل من خلال الستائر الشفافة وتستقر فوق البلاطات الموشاة بالزهرة المخملية، وقد منحت الغرفة كلها بريقًا من الكهرمان.

بعد أن وضعت جدّتي أول مجموعة من البسكويت في الفرن، ذهبتُ إلى الحمام. عبرت الصالة التي تكسو أرضيتها السجادة البيضاء الناعمة، لكنني أحسست بدفقة من الغضب يسري في جسدي عندما تذكّرت أنني رأيتهَا آخر مرّة عندما كنت مع تايلر. بدا لي الحمام غريبًا. رحت أتمعن في المغسلة اللؤلؤية، والبساط الوردي. حتى المرحاض كان يحدّق فيّ من تحت الغطاء الموشّى بزهرة الربيع. نظرت إلى انعكاس صورتي، المؤطّرة ببلاطات مائلة إلى اللون الأصفر، خيّل إليّ أنني لا أشبه نفسي، وتساءلت لوهلة هل هذا ما يريده تايلر، بيت جميل فيه حمام جميل وأخت جميلة تزوره فيه. ربما غادر ليحقق ذلك، لكنني كرهته لأنه فعل ذلك.

بجانب الصنبور كانت توجد اثنتا عشرة صابونة وردية وبيضاء، في هيئة بجعات وأزهار، تقبع في صدفة عاجية اللون. التقطت لوح صابون في هيئة بجعة، وشعرت أن ملمسه الطري الناعم يستسلم تحت ضغط أصابعي. كان اللوح جميلًا وأردت أن آخذه. تخيلت أنها موجودة في حمام بيتنا في الطابق السفلي، جناحها الرهيفان يرفرفان فوق الإسمنت الخشن. تخيلته يقبع في بركة موحلة فوق المغسلة، تحيط به أشرطة ورق الجدران المتقشرة المصفّرة. أعدته إلى صدفتها.

خرجت من الحمام، وعدت إلى جدّتي التي كانت تنتظرني في الصالة.

«هل غسلت يديك؟» سألتني. كانت نبرتها حلوة وناعمة كالزبدة.

«لا»، قلت.

ردّي كدّر النعومة في صوتها. «لماذا لم تغسليهما؟»

«ليستا وسختين».

«يجب أن تغسلي يديك دائمًا بعد أن تستعملي المرحاض».

«ليس الأمر مهمًا»، قلت، «حتى إنه لا يوجد صابون في حمام بيتنا».

«هذا غير صحيح»، قالت، «فقد ربّيت أمك أفضل من ذلك».

تَعَنُّتُ في موقفِي. كنت مستعدة للجدال مع جدّتي وأقول لها ثانية إننا لا نستعمل الصابون في حمّام بيتنا، لكن عندما رفعت عينيَّ إليها، لم تكن المرأة التي رأيتهَا هي المرأة التي توقّعت أن أراها. فلم تكن امرأة عصبية، ولم تبد لي أنها تلك المرأة التي تمضي يومها قلقة على سجادتها البيضاء. لقد تغيّرت في نظري في تلك اللحظة. ربما كان شيئًا في شكل عينيها، في الطريقة التي راحت تحدّق بي غير مصدقة، أو ربما كان ذلك الخط القاسي في فمها، الذي أُغلق، بتصميم، أو ربما لم يكن شيئًا على الإطلاق، وإنما تلك المرأة العجوز التي تشبه نفسها وتقول الأشياء التي تقولها دائمًا. ربما كان تحوّلها مؤقت في رأيي في تلك اللحظة بالذات، وقد يكون رأيي ذاك هو رأيّه هو، رأي الأخ الذي كنت أكرهه وأحبّه في وقت واحد.

أخذتني جدّتي إلى الحمّام وراحت تراقبني وأنا أغسل يدي، ثمّ طلبت مني أن أجففهما بالمنشفة الوردية اللون. كانت أذناي تحترقان، وأحسست بحنجرتي حارة، جافة.

بعد قليل جاء أبي الذي كان عائداً من العمل. توقّف في شاحنته الصغيرة وأطلق الزمور كي أخرج. خرجت مطرقة الرأس. تبعثني جدّتي. عندما هرعت وصعدت إلى المقعد الأمامي، وأزحت صندوق العدّة وقفازات اللحم لكي أجلس، قالت جدّتي لأبي إنني لم أغسل يدي عندما خرجت من الحمّام. أنصت أبي وهو يمتصّ خديه، بينما كانت يده اليمنى تعبث بمغيّر السرعة. كان ثمة ضحكة تفور في داخله.

بعد أن عدت إلى أبي، استسلمت لقوة شخصيته. عدسة مألوفة انزلقت فوق عيني، وفقدت جدّتي القوّة الغريبة التي كان لها تأثير عليّ منذ ساعة. «ألا تعلّم أطفالك أن يغسلوا أيديهم بعد أن يستعملوا المرحاض؟» قالت له جدّتي.

لكن أبي غيّر ذراع السرعة. وبينما بدأت السيارة تتقدم إلى الأمام، لوّح بيده وقال لجدّتي: «أعلّمهم ألاّ يتبوّلوا على أيديهم».

الفصل ٦ الترس والدرع

في الشتاء بعد أن غادر تايلر، بلغت أختي أودري الخامسة عشرة من عمرها، وحصلت على رخصة القيادة من مبنى المحكمة في المقاطعة، وفي طريق عودتها إلى البيت، حصلت على عمل في مطعم للبيرغر، ثم حصلت على عمل آخر في مزرعة لحلب الأبقار منذ الساعة الرابعة صباح كل يوم. وظلت طوال سنة في شجار مع أبي، تقاوم بعناد القيود التي كبلها بها. وبعد أن أصبحت تملك نقودًا، وأصبحت لديها سيارة، لم نعد نراها إلا نادرًا، وهكذا بدأت الأسرة تتقلص، وأخذت التراتبية القديمة تنكمش.

لم يعد يوجد لدى أبي عدد كاف من العمال لبناء حظائر التبن، فعاد إلى العمل في باحة الخردة. وبذهاب تايلر، رُقّي ما تبقى منا: فقد أصبح لوك الذي كان في السادسة عشرة الابن الأكبر، يد أبي اليمنى، وحللنا أنا وريتشارد محله كمساعدين.

أذكر صباح أول يوم ذهبت فيه للعمل في باحة الخردة. كان الجليد يكسو الأرض، وكان الهواء شديد البرودة. كنّا في الباحة فوق المرعى الأوطأ التي امتلأت بمئات السيارات والشاحنات الصغيرة التي كان بعضها قديمًا ومعطلاً بينما كان معظمها مهشمًا، وكانت مثنية، مقوّسة، ملتوية، ويتكوّن لديك انطباع بأنها مثل أوراق مجعّدة، وليست قطعًا من الفولاذ. وتوجد في وسط الباحة بحيرة من الركام، واسعة وعميقة: مليئة بالسوائل المتسربة من بطاريات السيارات، وأسلاك نحاسية متشابكة معزولة، وناقلات حركة مهجورة، وصفائح صدئة من القصدير المتموّج، وحنفيات قديمة، ومشعّات محطّمة، وأنابيب نحاسية مسننة تلمع، وأشياء أخرى وأخرى. لم يكن لها نهاية، كتلة لا شكل لها.

قادني أبي إلى حاقة الباحة.

«هل تعرفين الفرق بين الألمنيوم والفولاذ الذي لا يصدأ؟» قال.

«أظنّ ذلك».

«تعالى إلى هنا». كانت في نبرة صوته مسحة من الصبر. فقد اعتاد على أن يصدر أوامره وتعليماته للرجال البالغين، لكن قيامه بشرح طريقة العمل لفتاة في العاشرة من العمر جعلنا نبدو كلانا صغيرين بشكل ما.

التقط قطعة معدنية لامعة وقال: «هذه قطعة ألمنيوم، انظري كيف تلمع؟ تحسسيها بيدك وانظري كم هي خفيفة؟» ووضع أبي القطعة في يدي. كان محققًا، فلم تكن ثقيلة كما كانت تبدو. ثم أعطاني أبي أنبوبًا مثقوبًا، وقال: «هذا فولاذ».

بدأنا نفرز الحطام إلى أكوام -ألمنيوم، حديد، فولاذ، نحاس- لبيعها. التقطتُ قطعة حديد. يكسوها الصدأ البرونزيّ، ووخزت زواياها الناتئة راحة يدي. كنت أضغ قفازات جلدية، لكن عندما رأي أبي، قال إن القفازات تبطل سرعتي في العمل، «سرعان ما ستظهر بثور حقيقية في يديك»، قال وأنا أعيدها له. وكنت قد وجدت خوذة صلبة، فأخذها مني أبي أيضًا، وقال: «إذا وضعت هذا الشيء السخيف على رأسك فإن حركتك ستصبح بطيئة».

كان أبي يعيش في خوف من الزمن. كان يشعر بأنه يطارده. كان باستطاعتي أن أرى ذلك في نظراته القلقة إلى الشمس وهي تتحرّك عبر السماء، بنفس الطريقة القلقة التي يقدر فيها طول كلّ أنبوب أو قطعة فولاذ. كان أبي ينظر إلى كلّ قطعة خرّدة بحسب الثمن الذي يمكن أن يبيعها به، إضافة إلى الوقت الذي يستغرقه فرزها وقصّها وتوريدها. فقد كانت كلّ كتلة حديد، وكلّ أنبوب نحاسي يساوي خمسة سنتات، أو عشرة سنتات، أو دولارًا -إلا إذا تجاوزت عملية استخراجها وفرزها أكثر من اثنتين- وكان يزن دائمًا هذه الأرباح الضئيلة مقابل نفقات كلّ ساعة في إدارة المنزل. فقد كان يحسب أنه لكي تبقى الأضواء مضاءة، ويظل البيت دافئًا، يجب أن يعمل بسرعة. لم أر أبي قط يحمل شيئًا ويلقي به في الصندوق الذي نضع فيه الخرّدة، وإنما كان يرميه بكلّ ما أوتي من قوة من المكان الذي يقف فيه.

أول مرة رأيته يفعل ذلك، حُيِّل إليّ أنه حادث، مصيبة لا يمكن تفاديها. لم أكن قد فهمت قواعد هذا العالم الجديد بعد. فعندما انحنيت لألتقط قطعة

نحاسية، انطلق شيء هائل في الهواء بقوة من جانبي. وعندما التفّْتُ لأرى مصدر الصوت، أصابتني أسطوانة فولاذية في بطني.

أوقعتني شدة الضربة على الأرض. «أوووو»، صاح أبي. رحت أتقلّب فوق الجليد، أتنفس بصعوبة. وعندما نهضت ووقفت على قدمي بصعوبة، رمى أبي شيئاً آخر. انحنيت لكن قدميَّ انزلقتا وسقطتُ على الأرض. هذه المرة بقيت منحنية. رحت أرتجف لكن ليس من البرد. كان جلدي حيّاً يدغدغه يقين الخطر، وعندما بحثت عن مصدر ذلك الخطر، كان كلّ ما استطعت أن أراه رجلاً مسنّاً مرهقاً، ملقى فوق جهاز إنارة مكسور. أتذكّر تلك الأوقات عندما رأيت أحد إخوتي وهو يُلقى بقوة عبر الباب الخلفي، يصرخ، وقد جُرح جزء من جسمه أو سُحق أو كُسِر أو احترق. أتذكّر قبل سنتين، عندما فقد رجل يُدعى روبرت كان يعمل مساعداً عند أبي، إصبعًا. أتذكّر صراخه الحاد كأنه آت من العالم الآخر وهو يجري إلى المنزل.

أتذكّر عندما رحت أحدّق في الجذعة الدامية، ثمّ إلى الإصبع المقطوع الذي أحضره لوك ووضعه على المنضدة. بدا لي مثل قطعة أخرجها ساحر في خدعة سحرية. فوضعت أمّي في الثلج وأخذت روبرت بسرعة إلى البلدة كي يتمكن الأطباء من خياطته وإعادته إلى مكانه. لم يكن إصبع روبرت الوحيد الذي بُتر في باحة الخردة. فقبل سنة من حادثة روبرت، دخلت إيماء، صديقة شون، من الباب الخلفي وهي تصرخ. كانت تساعد شون وبُترت نصف سبابتها، فأخذتها أمّي بسرعة إلى البلدة أيضًا، لكن اللحم كان قد سُحق، ولم يتمكن الأطباء من عمل شيء.

نظرْتُ إلى أصابعي الوردية، وفي تلك اللحظة، أصبحت باحة الخردة شيئاً مختلفًا بالنسبة لي. فعندما كنّا أطفالاً، كنت أنا وريتشارد نمضي ساعات طويلة بين الحطام، نقفز من سيارة محطّمة إلى أخرى، ننهب بعضها، نترك بعضها الآخر. كانت ساحة ألف معركة متخيّلة بين الشياطين والسحرة، وبين الحوريّات والحمقى، وبين الأقزام والعمالقة، أما الآن فقد تغيّر كلّ ذلك، فلم تعد ساحة لعب طفولتي وإنما أصبحت حقيقة ما هي، قوانينها غامضة، عدوانية.

أتذكّر الشكل الغريب الذي رسمه الدم عندما كان يسيل من رسغ إيما إلى ساعدها، عندما وقفت، ما أزال أرتعش، أحاول أن أزيل الأنبوب النحاسي الصغير. كنت على وشك أن أخرجه عندما ألقى أبي بمحوّل حفاز. قفزت جانبًا، فجرحت يدي من حافة الحوض المسنّنة المثقوبة. مسحت الدم على بنطلوني الجينز وصحت، «لا ترمها إلى هنا! أنا هنا!»

رفع أبي عينيه، متفاجئًا. كان قد نسي أنني هناك. عندما رأى الدم، هُرع إليّ ووضع يده على كتفي. وقال: «لا تقلقي يا حبيبتي. إن الله وملائكته موجودون هنا، يعملون إلى جانبنا، ولن تصابي بأذى».

لم أكن الشخص الوحيد الذي كانت قدماه تبحثان عن أرض صلبة. وبعد ستة شهور من حادثة السيارة، بدأت أمّي تتحسنّ باضطراب، وخيّل إلينا أنها ستشفى تمامًا، فخطّت حدّة الصداع التي تتابها، وأصبحت تمكث في الطابق السفلي يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع فقط. ثمّ عاد وأصبح الشفاء بطيئًا. كانت قد مرّت تسعة شهور الآن على الحادث، لكن الصداع لم يتوقف، ولم تعد ذاكرة أمّي مستقرة. فكانت تطلب مني مرتين في الأسبوع على الأقل أن أعدّ لها طعام الفطور بعد أن يكون الجميع قد تناولوا الطعام ونُظفت الصحون، وكانت تطلب مني أن أزن باوندًا من نبات اليارو لإحدى الزبونات، فأذكّرها بأننا سلمناها لها البارحة. وعندما تبدأ بخلط بعض الأعشاب، تنسى بعد دقيقة المكونات التي أضافتها، فنضطر إلى رمي الخلطة كلها. وكانت تطلب مني أحيانًا أن أقف بجانبها وأراقبها لأقول لها: «لقد أضفت زهرة اللوبيليا. وبعدها نبتة الفيرفين الأزرق».

بدأ الشكّ يساور أمّي إن كانت ستتمكن من مواصلة عملها كقابلة، وبينما كان ذلك يحزنها، كان أبي يشعر بالدمار. وكان وجهه يتغضن كلّما رفضت أمّي أن تقوم بتوليد امرأة. «ماذا لو جاءني نوبة داء شقيقة عندما تدخل المرأة في مرحلة مخاض؟» كانت تقول له، «ماذا لو لم أستطع أن أتذكّر ما هي الأعشاب التي أعطيتها لها، أو نسيت معدّل نبضات قلب الرضيع؟».

في النهاية، لم يكن أبي هو الذي أقنع أمّي بأن تتوقف عن مزاولة التوليد، وإنما أقنعت نفسها، ربّما لأن ذلك كان جزءًا منها، هي التي لم تكن تستسلم

دون قدر من الصراع. ففي ذلك الشتاء، ولدت طفلين كما أذكر. وبعد أن ولدت الطفل الأول، عادت إلى البيت تبدو مريضة، شاحبة الوجه، كما لو أن جلب تلك الحياة إلى العالم سلب منها جزءًا من حياتها. كانت معتكفة في الطابق السفلي عندما جاءها الطلب الثاني. قادت سيارتها وهي تضع نظارات سوداء، تحاول أن تنظر عبر الموجات التي تحرف رؤيتها. وعندما وصلت إلى بيت المرأة، انتابها صراع شديد، وكان رأسها يخفق بقوة، طارداً كل قدرة على التفكير. فجلست في غرفة خلفية وأجرت مساعدتها عملية التوليد. بعد ذلك، لم تعد أمي القابلة. ففي الولادة التالية، أحضرت قابلة أخرى ودفعت لها معظم أجرها لتشرف عليها. كان يبدو أن الجميع أصبحوا يشرفون عليها الآن.

أمي الخبيرة التي لم يكن ينازعها أحد، أصبحت تسأل الآن ابنتها ذات العشر سنوات هل تناولت طعام الغداء. كان ذلك الشتاء طويلًا ومعتماً، وتساءلت هل كانت أمي تمكث في الفراش أحيانًا حتى لو لم يكن ينتابها داء الشقيقة.

في عيد الميلاد، أهداها أحدهم قارورة فيها مزيج من الزيوت الأساسية، ساعدها في التخفيف من حدة صداعها، لكن ثمن ثلث الأونصة من ذلك المزيج بلغ خمسين دولارًا، وبما أنه لم يكن بإمكاننا شراءها، قرّرت أمي أن تقوم بإعداد الخلطة بنفسها. فبدأت تشتري بعض الزيوت -أوكالبتوس وهيلشريسوم وخشب الصندل والرافنسارا- وأصبح البيت الذي كانت تفوح فيه منذ سنوات رائحة اللحاء الترابي وأوراق الأشجار المرّة، أصبحت تعبق فيه فجأة رائحة الخزامى والبابونج. وصارت أمي تمضي أيامًا كاملة في مزج الزيوت، تُجري تعديلات حتى تتوصل إلى خواص معيّنة من العطور. وأصبحت تعمل ويدها ورقة وقلم لتسجّل كل خطوة تتخذها. كان ثمن الزيوت أغلى بكثير من ثمن الصبغات التي كانت تعدّها، وكانت تشعر بالإحباط عندما تضطرّ لرمي خلطة لأنها نسيت إن كانت قد أضافت زيت الراتنجية أم لا. فصنعت زيتًا لداء الشقيقة، وزيتًا للتشنجات في أثناء الحيض، وآخر لتصلب العضلات، وآخر لخفقان القلب. وبعد سنوات عدة، كانت قد استنبطت عشرات الزيوت الأخرى.

ولكي تتوصل إلى الخلطات المناسبة، كانت أمِّي تتبع طريقة أطلقت عليها اسم «اختبار العضلة» وأوضحت أمِّي لي بأنها «سؤال الجسد عن الشيء الذي يحتاج إليه وتدعه يجيب». فقد كانت أمِّي تقول لنفسها بصوت مسموع، «أنا مصابة بداء الشقيقة، ما هو الشيء الذي يمكن أن يشفيه؟» ثم تأخذ قارورة زيت، وتضغطها على صدرها، وبعينها مغمضتين، تقول، «هل أحتاج إلى هذا؟» فإذا مال جسدها إلى الأمام، فإن ذلك يعني نعم، بأن الزيت سيساعدها في الشفاء من وجع رأسها، أما إذا مال جسمها إلى الخلف، فهذا يعني لا، فتجرب شيئاً آخر.

عندما اكتسبت أمِّي مزيداً من الخبرة، تحوّلت من استخدام جسمها كلّ إلى استخدام أصابعها فقط. فقد كانت تصالب إصبعها الوسطى وسباباتها، ثم تنهيهما قليلاً وتحاول إبعادهما، وتسال نفسها سؤالاً، فإذا ظل الإصبعان متشابكين فهذا يعني نعم، وإذا افترقا فهذا يعني لا. وكان الصوت المنبعث بهذه الطريقة خفيفاً لكنه واضح: فكلّما انزلق باطن إصبعها الأوسط عبر سبابتها، تُسمع نقرة تنبعث من اللحم.

وكانت أمِّي تستخدم اختبار العضلة لتجرب أساليب أخرى للشفاء، وكانت مخططات الشاكر ونقاط الضغط تتناثر في أرجاء البيت، ثم بدأت تطلب من الزبونات مبلغاً من المال أطلقت عليه اسم «عمل الطاقة». لا أعرف ما الذي كانت تعنيه بذلك، حتى دعتنا أنا وريتشارد إلى الغرفة الخلفية، حيث كانت توجد امرأة اسمها سوزان. كانت عينا أمِّي مغمضتين وبدها اليسرى مسترخية فوق يد سوزان، وكانت أصابعها على يد المرأة الأخرى متصالبة، وكانت تهمس لنفسها أسئلة. ثم التفتت إلى المرأة وقالت لها: «علاقتك مع أبيك تسبب ضرراً لكليتيك. فكّري بذلك ريثما نعدّل نقطة الشاكر». وقالت أمِّي إنّ عمل الطاقة يكون فعالاً أكثر في وجود أشخاص آخرين. وقالت: «لكي تتمكن من سحب الطاقة من كل شخص». وأشارت أمِّي إلى جيني وطلبت مني أن أنقر في وسطه، في النقطة الكامنة بين حاجبيّ، وأن أمسك ذراع سوزان بيدي الأخرى، وطلبت من ريتشارد أن يضغط على نقطة معينة في صدره ويمدّ يده الأخرى لي، بينما تضغط أمِّي إصبعاً على نقطة في راحة يدها،

وتلمس في الوقت نفسه ريتشارد بقدمها. «هكذا»، قالت عندما أمسك ريتشارد بذراعي. وقفنا صامتين لمدة عشر دقائق، سلسلة بشرية.

عندما أتذكر بعد ظهر ذلك اليوم، فإن أول ما أتذكره هو سخافة الأمر: فقد قالت أمي إنها تشعر بالطاقة الحارة تسري في أجسامنا، لكنني لم أشعر بشيء مما قالته. ووقفت أمي وريتشارد من دون أن يأتيا بحركة، وقد أغمضا عينيهما، وكان تنفسهما ضحلاً. كانا يشعران بالطاقة. أما أنا فقد تململت، وحاولت أن أركز، ثم أحسست بالقلق لأنني لا أعمل على مساعدة سوزان، وأقف عقبة في هذه السلسلة، وقوة أمي وريتشارد الشافية لن تصلها لأنني لم أتمكن من إيصالها عبر جسدي. وعندما انتهت الدقائق العشر، أعطت سوزان أمي عشرين دولارًا، ودخلت الزبونة التالية.

إذا كان الشك قد ساورني في كل ذلك، فلم يكن هذا الشك بسببي فقط، وإنما بسبب عدم قدرتي على أن أثق بأي شيء تفعله أمي. فقبل سنة من وقوع الحادث، عندما سمعت أمي لأول مرة عن اختبار العضلة وعمل الطاقة، لم تصدّق ذلك، وقالت إنها مجرد تمنيّات. «يريد الناس أن تحدث معجزة»، قالت لي، «وسيقبلون أي شيء إذا كان سيجلب لهم بصيص أمل، إذا كان سيجعلهم يعتقدون بأنّ حالتهم ستتحسّن. لكن لا يوجد شيء يدعى السحر، أما التغذية والرياضة والدراسة المتأنية لخصائص الأعشاب، فهي كل شيء. لكن عندما يشعر الناس بالألم، فإنهم يتقبلون ذلك».

أما الآن فقد بدأت أمي تقول إنّ أساس الشفاء روحي ولا توجد له حدود. وشرحت لي أن اختبار العضلة نوع من الصلاة، تضرّع إلهي، عمل إيماني، يتكلّم فيه الله من خلال أصابعها. في بعض اللحظات كنت أصدّقها، هذه المرأة العاقلة التي توجد لديها أجوبة على جميع الأسئلة، لكنني لن أنسى أبدًا كلمات المرأة الأخرى، أمي الأخرى تلك، التي كانت عاقلة أيضًا. لا يوجد شيء يدعى السحر.

في أحد الأيام، قالت أمي إنها بلغت مستوى جديدًا من المهارة، وقالت: «لم يعد عليّ أن أسأل السؤال بصوت مسموع، بل أصبح بإمكانني الآن أن أفكر به فقط».

كان ذلك عندما بدأت أرى أمي تتحرك في أرجاء البيت، تلمس بيدها بخفة أشياء عدة، وتتمتم لنفسها، ثم تشني أصابعها في إيقاع ثابت. فإذا كانت تخبز خبزًا ونسيت كمية الطحين التي أضافتها: تك، تك، تك. وإذا كانت تخلط بعض الزيوت ونسيت إن كانت قد أضافت اللبان أم لا: تك، تك، تك. وإذا جلست لتقرأ الكتاب المقدس لثلاثين دقيقة، ونسيت متى بدأت، أو كم دام اختبار العضلة: تك، تك، تك.

بدأت أمي تمارس اختبار العضلة، غير مدركة أنها تفعله، حينما تتعب من حديث، أو عندما تجعلها ذاكرتها مشوشة، أو حتى عندما يجعلها غموض الحياة الطبيعية غير راضية. تتهدل قسماتها، وتصبح تعابير وجهها خاوية، وتصدر صوتًا يشبه صوت صراصير الليل عند الغسق.

كان أبي سعيدًا جدًا. «لا يستطيع الأطباء أن يعرفوا ما هي المشكلة من مجرد لمسك»، قال، وجهه متوردًا، «أما أمك فإنها تستطيع أن تعرف».

في ذلك الشتاء لازمتني ذكرى تايلر. تذكّرت اليوم الذي غادر فيه البيت. كم كان غريبًا أن أرى سيارته وهي تجري أسفل التلّ محمّلة بالصناديق. لم أكن أتخيّل أين هو الآن، لكنني كنت أتساءل أحيانًا هل المدرسة أقلّ شرًا مما يقوله أبي، لأن تايلر أقلّ الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي شرًا، وكان يحبّ المدرسة، ويبدو أنه كان يحبّها أكثر مما يحبّها نحن.

لقد بُذرت بذرة حبّ الفضول، ولم تكن تحتاج إلى شيء أكثر من الزمن وازدياد الإحساس بالضرر. في بعض الأحيان، عندما أقوم بنزع النحاس من جهاز تبريد محرك أو أرمي الخمسمائة قطعة من الفولاذ في صندوق النفايات، أجد نفسي أتخيّل قاعات الدروس التي يمضي فيها تايلر أيامه. وكان اهتمامي يزداد مع كلّ ساعة مميتة أمضيها في باحة الخردة، حتى خطرت لي فكرة غريبة ذات يوم وهي أنني يجب أن أتسجّل في المدرسة.

كانت أمي تقول دائمًا إننا نستطيع أن نذهب إلى المدرسة إذا أردنا، وما علينا إلّا أن نسأل أبي.

لكنني لم أسأله. كان ثمة شيء في صلابة وجه أبي، في تنهيدة التضرع الهادئة التي يطلقها صباح كلّ يوم قبل أن يبدأ الصلاة العائلية، جعلني أفكر

بأن فضولي ليس إلا فاحشة، إهانة لكل ما ضحى به حتى يربّني.

كنت أبذل جهدًا لأواصل تعليمي في أوقات الفراغ التي تتاح لي بين فترات العمل في باحة الخردة ومساعدة أمّي في إعداد صبغات الأعشاب وخلطات الزيوت. كانت أمّي قد توقفت عن تعليمنا في البيت في ذلك الحين، لكن كان لا يزال لديها جهاز كمبيوتر، وكانت توجد كتب في الطابق السفلي. وجدت كتاب العلوم الذي توجد فيه رسوم إيضاحية ملوّنة، وكتاب الرياضيات الذي تذكّرت منذ سنوات. حتى أنني وجدت كتاب تاريخ أخضر اللون مهترئًا. لكن عندما كنت أجلس لأدرس، كنتُ أغفو. أصبحت الصفحات مصقولة وناعمة، أكثر نعومة من الساعات التي كنت أمضيها في سحب الخردة وفرزها.

عندما كان أبي يراني أقرأ في أحد تلك الكتب، كان يحاول جاهدًا أن يبعدني عنه. ربّما كان ذلك يذكّره بتايلر. ربّما كان يظن أنه إذا استطاع أن يصرف انتباهي عن الكتب لبضع سنوات، فإنه سيتجاوز الخطر. لذلك كان يخلق لي أعمالًا إضافية، سواء أكانت هناك حاجة إليها أم لا. وفي مساء أحد الأيام، رأي أقرأ في كتاب الرياضيات، فأمضينا، أنا وهو، ساعة كاملة في جرّ دلاء الماء عبر الحقل لسقاية الأشجار المثمرة، ولم يكن ذلك شيئًا غير عادي لولا أننا فعلنا ذلك أثناء هبوب عاصفة مطرية.

لكن لو كان أبي يحاول أن يصرف انتباه أطفاله عن المدرسة وعن الكتب -لكي لا يغويهم التنويريون، كما حدث لتايلر- لكان من الأفضل أنه يوجه انتباهه إلى ريتشارد الذي كان من المفترض أن يمضي فترات بعد الظهر في إعداد صبغات الأعشاب لأمّي، لكنّه لم يكن يفعل ذلك في غالب الأحيان، بل كان يختفي. لا أعرف إن كانت أمّي تعرف أين كان يختفي، لكنّي كنت أعرف المكان الذي يلجأ إليه. فخلال بعد الظهر، كان ريتشارد يهبط عادة إلى الطابق السفلي المظلم، ويحشر نفسه في الفراغ بين الأريكة والحائط، وموسوعة مفتوحة أمامه. وإذا صادف أن مرّ أبي ورأى الضوء مضاء، كان يطفئه، ويتمتم شيئًا عن هدر الكهرباء. فأجد عذرًا لأنزل إلى الطابق السفلي لأشعل الضوء له، وإذا جاء أبي مرة أخرى، كانت تُسمع صيحة في أرجاء البيت، فتلقي علينا أمّي محاضرة حول ترك الأضواء منارة في الغرفة الفارغة. لم توبّخني قط،

وكان هذا يجعلني أتساءل إن كانت تعرف المكان الذي يختبئ فيه ريتشارد. وإذا لم أتمكن من العودة لأشعل له الضوء، كان ريتشارد يقرب الكتاب إلى أنفه ويقرأ في العتمة. كان يستमित في القراءة. كانت لديه رغبة ملحة في قراءة الموسوعة.

ذهب تايلر. لم يكذ يوجد أثر بأنه كان يعيش في هذا البيت، سوى أثر واحد وهو أنني كنت في كل ليلة، بعد العشاء، أغلق باب غرفتي وأسحب جهاز تسجيل تايلر القديم من تحت سريري. فقد كنت قد سحبت طاولته إلى غرفتي، وبينما كانت الجوقة تغني كنت أجلس على كرسيه وأدرس، تمامًا كما كنت أراه يفعل منذ ألف ليلة. لكنني لم أكن أدرس التاريخ أو الرياضيات، وإنما كنت أدرس الديانة.

قرأت كتاب المورمون المقدس مرّتين. قرأت العهد الجديد، مرّة بسرعة، ومرّة ثانية بتأن أكثر. كنت أتوقّف لأدوّن ملاحظات، وأقارن، بل حتى كنت أكتب مقالات قصيرة حول عقائد من قبيل الإيمان والتضحية. لم يقرأ أحد المقالات التي كنت أكتبها. كنت أكتبها لنفسني، تخيلت فيها أنّ تايلر قد درس نفسه، ولنفسه فقط. ثمّ درستُ العهد القديم، ثمّ قرأتُ كتب أبي التي كان معظمها تجميع لخطابات ورسائل وأخبار أنبياء المورمون الأوائل. كانت لغتهم لغة القرن التاسع عشر -قاسية، ملتوية، لكنها دقيقة- في البداية، لم أفهم منها شيئًا، لكن مع مرور الوقت، اعتادت عينايا وأذنايا، حتى بدأت أشعر بألفة مع تلك الأجزاء من تاريخ شعبي: قصص الرواد، أسلافي وهم يجتازون البراري الأمريكية. وعلى الرغم من أن القصص كانت واضحة تضجّ بالحيوية، فقد كانت المحاضرات جامدة ومجردة، أطروحات تدور حول مواضيع فلسفية مبهمة، وقد كرّست معظم دراستي لهذا التجريد.

عندما تعود بي الذكريات إلى الماضي، أرى أنّ هذا كان تعليمي، التعليم الذي كان مهمًّا: الساعات التي أمضيتها وأنا جالسة إلى طاولة مستعارة، أبذل جهدي لأجمع الخيوط الرفيعة حول العقيدة المورمونية لمحاكاة أخ هجرني. كانت المهارة التي أتعلّمها باللغة الأهمية، الصبر لقراءة أشياء لا أستطيع حتى أن أفهمها.

عندما بدأ الثلج الذي يكسو الجبل يذوب، كانت يداي مليئتين بالثور. فقد شحذ الموسم الذي أمضيته في باحة الخردة ردود فعلي: إذ تعلّمت أن أنصت إلى النخير المنخفض الذي ينبعث من شفتي أبي عندما يرمي شيئًا ثقيلًا، وعندما أسمعه وهو يرتطم بالتراب. أمضيت وقتًا طويلًا وأنا مستلقية في الطين، لم أنجز أشياء كثيرة. وكان أبي يقول مازحًا إنني بطيئة كالسلحفاة وهي تجري صاعدة التلّ.

بدأت ذاكرتي عن تايلر تبهت، وبهتت معها موسيقاه التي حلّ محلها صوت احتكاك المعدن على المعدن. أصبحت هذه هي الأصوات التي تعزف في رأسي في الليل: قعقة القصدير المتموّج، والطرق على الأسلاك النحاسية القصيرة، وجعجة الحديد.

ولجت إلى الواقع الجديد. كنت أرى العالم من خلال عيني أبي. كنت أرى الملائكة، أو على الأقل كنت أتخيل أنني رأيتهما، تراقبنا ونحن نفرز الخردة، نخطو إلى الأمام وتمسك ببطاريات السيارات أو الأنابيب الفولاذية المثلمة التي يلقي بها أبي إلى الباحة. لم أعد أصيح لأطلب من أبي أن يتوقف عن رميها، بل كنت أصلي عوضًا عن ذلك.

أصبحت أعمل بسرعة أكبر عندما بدأت أعمل وحدي. ففي صباح أحد الأيام، عندما كان أبي في الطرف الشمالي من الباحة، بالقرب من الجبل، ذهبت إلى الطرف الجنوبي بالقرب من المرعى. ملأت ألف باوند من الحديد في برميل، وعندما شعرت بألم في ذراعيّ، جريت أبحث عن أبي. كان يجب تفريغ البرميل، ولم يكن باستطاعتي أن أشغل جهاز التحميل -رافعة شوكية ضخمة ذات ذراع ضخمة وعجلات سوداء عريضة أطول مني. وكان جهاز التحميل يرفع البرميل خمسًا وعشرين قدمًا في الهواء، ثمّ بذراع ممتدّة، تميل الشوكات لتنزلق منها الخردة، وتفرّغ حمولتها في المقطورة مصدرة ضجيجًا شديدًا. ويبلغ طول المقطورة المسطحة خمسين قدمًا لاحتواء الخردة، جدرانها مصنوعة من صفائح حديدية سميكة يزيد ارتفاعها على ثمانية

أقدام من الجزء المسطح، وتتسع المقطورة من خمسة عشرة برميل إلى عشرين برميلًا، أو حوالى أربعين ألف رطل من الحديد.

رأيت أبي في الحقل، يشعل نارًا لإحراق عوازل الأسلاك النحاسية المتشابكة. أخبرته أن البرميل امتلأ وأصبح جاهزًا، فعاد معي وصعد إلى جهاز التحميل. لَوَّح لي عند المقطورة، ثم قال: «لا يزال يوجد فيه مكان لمزيد من الحديد. هيا اصعدي».

لم أفهم. هل كان يريد أن يلقي بمحتوى البرميل وأنا فيه؟ «سأصعد بعد أن تلقي بالحمل»، قلت.

«لا، هذا أسرع»، قال أبي، «سأتوقف عندما يصبح مستوى البرميل عند مستوى جدار المقطورة كي تتمكني من النزول منه، ثمّ يمكنك أن تركضي على طول الجدار وتجلسي فوق الرافعة حتى تنتهي عملية التفريغ».

ثَبَّث نفسي فوق قطعة حديد. وضع أبي الرافعة الشوكية تحت البرميل، ثمّ رفعتني مع الخردة وبدأ يسوقها، بسرعة كبيرة نحو رأس المقطورة. لم أستطع أن أتشبَّث جيدًا. في الدورة الأخيرة، تأرجحت القاعدة بقوة كبيرة وطار مسمار من الحديد نحوي، وأحدث جرحًا عميقًا في ساقي، أسفل ركبتني بقليل، وانسلّ في النسيج كما تنسلّ سكين في زبدة دافئة. حاولت أن أسحبه بيدي، لكن الرافعة بدأت تتحرك، فغاص جزء منه في لحمي. سمعت أنين المضخات الهيدروليكية الناعم عندما امتدّ ذراع الرافعة. توقّف الأنين عندما أصبح البرميل على مستوى المقطورة. كان أبي يمنحني وقتًا لأتسلّق جدار المقطورة، لكنني لم أستطع أن أتحرك. «أنا عالقة هنا»، صحتُ، لكن هدير محرك جهاز التحميل كان صاخبًا. تساءلتُ هل سينتظرنني أبي ولا يلقي بحمولة البرميل قبل أن يراني جالسة بأمان على مقدمة الرافعة، لكن حتّى عندما تساءلت، كنت أعرف بأنه لن يفعل ذلك. كان الوقت ما زال يسير ببطء.

ظلت الرافعة تتنّ وارتفعت ثمانية أقدام أخرى حتى أصبحت في وضعية إلقاء حمولتها. صحت مرة أخرى، بصوت أعلى هذه المرة، ثمّ بصوت أخفض، في محاولة لأن أجد طبقة صوت تستطيع أن تثقب هدير المحرّك. بدأ البرميل

يميل، ببطء في البداية، ثم بسرعة. كنت ملتصقة بالقرب من المؤخرة. لففتُ يديّ حول الجدار الأعلى للبرميل، ظناً مني أن ذلك سيمكنني من التمسك بالحافة عندما يصبح البرميل في وضع عمودي. وعندما ظلَّ البرميل يميل، بدأت الخردة تنزلق إلى الأمام، شيئاً فشيئاً، كتلة حديدية ضخمة انفلقت. كان المسمار الحديدي لا يزال يغوص في ساقي، يشدّني إلى الأسفل. انزلقت قبضتي وبدأت أنزلق عندما خرج المسمار من ساقي وسقط بعيداً، وارتطم بالمقطورة محدثاً صوتاً هائلاً. أصبحت حرّة الآن، لكنني بدأت أسقط. فتحت ذراعي كي أمسك شيئاً لا ينزلق. فأمسكت راحة يدي بجدار البرميل الجانبي الذي كان يكون عمودياً الآن. سحبت نفسي نحوه ورفعت جسمي فوق حافّته، ثم استمرّ سقوطي. وبما أنني كنت أسقط الآن من جانب البرميل وليس من الأمام، رجوت-صلّيت- بأنّ أسقط نحو الأرض وليس نحو المقطورة التي كانت في تلك اللحظة تطحن المعدن بغضب. غصت وأنا لا أرى سوى سماء زرقاء، أنتظر حتى أشعر بطعنة قطعة حديد حادة أو أن أسقط فوق أرض صلبة.

ارتطم ظهري بقطع الحديد: بجدار المقطورة. وأصبحت قدماي فوق رأسي، واستمرّ هبوطي المشؤوم إلى الأرض. كان أول سقوط لي من ارتفاع سبعة أو ثمانية أقدام، وربما الثاني من ارتفاع عشرة أقدام. تنفست الصعداء عندما ذقت طعم التراب.

استلقيتُ على ظهري ربّما لمدة خمس عشرة ثانية قبل أن يسكت هدير المحرّك وأسمع صوت خطوات أبي الثقيلة.

«ماذا حدث؟» قال، وجثا بجانبني.

«سقطتُ»، قلت وأنا ألهث. كانت الريح تلسعني، وكان ظهري يؤلمني بشدة، كما لو أنني سُطرت إلى نصفين.

«كيف حصل ذلك؟» قال أبي. كان سؤاله متعاطفاً لكنه محبط. أحسست بأنني غبية. كان عليّ أن أفعل ذلك، قلت لنفسي. كان عملاً بسيطاً.

تفحصّ أبي الجرح العميق في ساقي الذي اتسع عندما خرج المسمار الحديدي منها. بدا مثل حفرة، ولم يعد يُرى النسيج. خلع أبي قميصه القطني

وضغطه على ساقي، ثم قال: «أذهبي إلى البيت، أمك ستوقف النزيف».

مشيتُ وأنا أعرج في المرعى حتى غاب أبي عن ناظري، ثم تهالكت بين أعشاب القمح الطويلة. كنت أرتعش، لأغبّ ما أستطيع من الهواء الذي لم يكن يصل إلى رئتي. لم أفهم لماذا كنت أبكي، فأنا لا أزال على قيد الحياة. سأكون على ما يرام. لقد فعلت الملائكة ما يجب أن تفعله. إذًا لماذا لم أتوقّف عن الارتجاف؟

اعتراني شعور بدوار عندما اجتزت الحقل الأخير واقتربت من البيت، لكنني اندفعت من الباب الخلفي، عندما رأيت إخوتي يفعلون، كما فعل روبرت وإيما، ينادون أمي. عندما رأت الآثار القرمزية على مشمّع الأرضية، جلبت الأدوات التي تستعملها لمعالجة حالات النزيف والصدمة التي تطلق عليها اسم «علاج الإنقاذ»، ووضعت اثنتي عشرة قطرة من السائل الشفاف الذي لا طعم له تحت لساني. ثم وضعت يدها اليسرى برفق فوق الجرح الغائر وصلّبت أصابع يدها اليمنى. أغمضت عيناها. تك، تك، تك. «لا توجد إصابة بداء الكزاز»، قالت، «سيلتئم الجرح لكنّه سيتترك ندبة سيئة».

استلقيت على بطني وفحصت الكدمة -بقعة أرجوانية داكنة بحجم رأس إنسان- تشكّلت فوق وركي ببضع بوصات. مرة أخرى صلّبت أصابعها وأغمضت عينيها. تك، تك، تك.

«لقد أصيبت كليتك بضرر»، قالت، ثم أضافت، «من الأفضل أن نصنع عجينة طازجة من شجر العرعر وزهرة مولين».

شكّل الجرح الغائر تحت ركبتي قشرة داكنة ولماعة، نهر أسود يتدفّق عبر لحم وردي، عندما توصلت إلى قرار.

اخترت مساء يوم أحد، عندما كان أبي مستلقيًا على الأريكة، والكتاب المقدّس مفتوح في حضنه. وقفت أمامه لما أحسست بأنه ساعات، لكن لم يرفع عينيه، فقلت ما جئت لأقوله: «أريد أن أذهب إلى المدرسة».

بدا أنه لم يسمعني.

«لقد صلّيت، وأريد أن أذهب»، قلت.

أخيرًا، رفع أبي عينيه ونظر إلى الأمام مباشرة. كانت نظرتة مركزة على شيء خلفي. ساد صمت ثقيل، ثم قال: «في هذه الأسرة، نطيع وصايا الرب».

أمسك الكتاب المقدّس ولمعت عيناه عندما راحتا تقفزان من سطر إلى سطر. استدرت لأخرج، لكن قبل أن أصل إلى باب الغرفة، تكلم أبي ثانية: «هل تتذكّرين يعقوب وعيسو؟».

«أتذكّر»، قلت.

عاد إلى قراءته، وخرجت من الغرفة بهدوء. لم أحتج إلى أي تفسير. كنت أعرف ما الذي تعنيه القصة. أقصد أنني لست الابنة التي ربّأها، ابنة الإيمان. وأحاول أن أبيع حق ولادتي مقابل شيء تافه.

الفصل ٧

الرب يتدبر

لم تهطل أمطار في هذا الصيف. كانت الشمس مشرقة تسطع في السماء بعد ظهر كل يوم، تحرق الجبل بحرارتها اللاهبة الجافة، المجففة، وعندما كنت أسير في الحقل صباح كل يوم إلى الحظيرة، أشعر بسوق القمح البري الجافة تطقطق وتتكسر تحت قدمي.

أمضيت صباحًا ساطعًا وأنا أعدّ لأمي «علاج الإنقاذ». كنت آخذ خمس عشرة قطرة من الصيغة الأساسية، التي تحتفظ بها في خزانة خياطة أمي لكي لا تُستعمل أو تُلوّث، وأضيفها إلى قنينة صغيرة من الماء المقطر. ثمّ أرسم دائرة بسبابتي وإبهامي، وأدفع القنينة داخل الدائرة. كانت أمي تقول إن قوة المعالجة البديلة، تتوقف على عدد المرات التي أمّرر فيها أصابعي على القارورة، وعدد المرات التي استمدت الطاقة مني. كنت أتوقّف عادة عند خمسين مرة.

كان أبي ولوك على الجبل، في باحة الخردة في المرعى في الأعلى، على مسافة ربع ميل عن البيت. كانا يجهّزان السيارات ريثما تصل الكسارة التي كان أبي قد استأجرها في ذلك الأسبوع. لم يكن لوك قد تجاوز السابعة عشرة من عمره. كان نحيلًا، تكسو جسمه عضلات. وعندما يخرج من البيت، كانت ترتسم على وجهه ابتسامة مريحة. كان لوك وأبي يُفرغان خزانات السيارات من البنزين، لأنه يجب تفريغ السيارات من الوقود قبل وصول الكسارة لتفادي خطر حدوث انفجار. كانت عملية بطيئة: ثقب خزان السيارة بواسطة مطرقة ووتد، ثمّ الانتظار حتى يفرغ الوقود كله لإزالة خزان الوقود بأمان بواسطة حملاج قطع، لكن أبي توصل إلى طريقة مختصرة: استخدام سيخ ضخّم من الحديد السميك طوله ثمانية أقدام. كان أبي يرفع السيارة بالرافعة، ويوجّه لوك حتى يصبح خزان السيارة فوق الوتد مباشرة، ثمّ يُنزل أبي الشوكات. وإذا سار كل شيء على ما يرام، تصبح السيارة فوق الوتد

مباشرة ويتدفق البنزين من الخزان ويسيل إلى دلو يوضع في الأسفل ليتجمع فيه.

عند الظهر، كانا قد أفرغا حوالى ثلاثين أو أربعين خزان سيارة، وجمع لوك البنزين في دلاء سعة كل منها خمسة غالونات وجرّها عبر الباحة إلى شاحنة أبي. وفي إحدى المرات تعثّر لوك، فامتلاً بنطاله الجينز بغالون من البنزين. لكن بنطاله جفّ بعد دقائق من حرارة الشمس الصيفية. وعندما انتهى من جرّ الدلاء، عاد إلى البيت ليتناول طعام الغداء.

أتذكّر وجبة الغداء تلك بوضوح شديد. أتذكّر رائحة حساء البطاطا ولحم البقر الشهية، وصوت قرقرة قطع الثلج وهي توضع في الكؤوس الطويلة التي تعرّقت من حرارة الصيف القائظة. أتذكّر أن أمي قالت لي إنّ عليّ أن أغسل الصحون لأنها ستذهب إلى يوتا بعد الغداء لتبحث عن قابلة أخرى لتساعدها في عملية ولادة معقّدة، وقالت إنّها قد لا تستطيع أن تعود إلى البيت عند العشاء، لكنها تركت لنا قطع هامبرغر في الثلاجة.

أتذكّر أننا ضحكنا لمدة ساعة. كان أبي مستلقياً على أرضيّة المطبخ يحكي لنا نكاتاً عن أمر صدر مؤخراً بشأن قربتنا الزراعية الصغيرة. فقد عضّ كلب ضالّ صبيّاً، فأصدر رئيس البلدية قراراً حدّد فيه أن تمتلك كل أسرة كلباً أو كلبين على الأكثر، مع أنّ الكلب الذي عضّ الصبي لم يكن يملكه أحد من القرية. «هؤلاء الاشتراكيون العباقرة»، قال أبي، «يغرقون من التحديق إلى الأعلى في المطر إذا لم تبين فوقهم سقفاً». أذكر أنني ضحكت كثيراً حتى شعرت بألم في بطني.

كان لوك قد نسي البنزين الذي جفّ على بنطاله عندما عاد مع أبي إلى الجبل. وجهّز حملاج القطع. لكنه عندما أسند الحملاج على وركه وراح يطرّق الفولاذ، انطلقت شرارة صغيرة فاشتعلت في ساقه.

لقد أصبح الجزء الذي تتذكّره، الذي نرويه ونعيد روايته مراراً وتكراراً من فولكلور الأسرة، وهو أن لوك لم يتمكن من خلع بنطاله الجينز المبلل بالبنزين. ففي صباح ذلك اليوم، مثل صباح كلّ يوم، كان لوك يربط بنطاله بحبل مجدول طويل، ناعم، وكان يربطه في عقدة معقدة لكي تثبت في

مكانها، ولم يساعده حذاؤه أيضًا: فقد كان ينتعل حذاء طويلًا في مقدمته قطعة فولاذية كبيرة، مهترئًا يربطه منذ أسابيع بشريط لاصق في الصباح، ثم يقطعه بسكين عندما يعود إلى البيت في الليل. كان بإمكان لوك أن يقطع الحبل ويخلع حذاءه في ثوان، لكنّه لم يكن يعرف ماذا يفعل من شدة الخوف الذي تملكه فراح يركض مثل ظبي، مشعلًا النار في سنابل القمح وشجيرات الميرمية الجافة والهشة من حرارة الصيف الجاف.

كنت قد كدّست الصحون الوسخة في مغسلة المطبخ وملأتها بالماء عندما سمعتها: صرخة عالية، مخنوقة بدأت بصوت معين وانتهت بصوت آخر. لم يكن لديّ أدنى شك بأنها صرخة شخص، فلم أسمع قط حيوانًا يجأ بهذا الشكل، بهذه التقلبات في النبرة والحدة.

ركضتُ إلى خارج البيت ورأيتُ لوك يجري بين الأعشاب. كان يصرخ ينادي أمي، ثمّ انهار. في تلك اللحظة أدركت أنّ ساق بنطاله الجينز اليسرى قد اختفت، ذابت. وكانت أجزاء من الساق مزرّقة، حمراء، مليئة بالدم، وأجزاء أخرى كانت بيضاء وميتة، والتفتّ حبال ورقية رقيقة من الجلد حول فخذه وفي أسفل ريلة ساقه، مثل شمع ينقط من شمعة رخيصة. زأغت عيناه في رأسه.

هرعت إلى البيت. جمعت قناني علاج الإنقاذ الجديدة. كانت الخلطة الأساسية لا تزال على الطاولة. اختطفتها وعدت بسرعة إلى لوك وأفرغت نصف محتويات القارورة بين شفّتي لوك المرتعشتين. لم يحدث شيء. كان لون عينيه أبيض كالرخام.

بدت قزحية بنية اللون، ثمّ القزحية الأخرى. بدأ يهمهم، ثمّ أخذ يجأر، «إنها تحترق! إنها تحترق!» وسرت في جسده رعشة باردة وبدأت أسنانه تصطك. كان يرتجف.

كنت في العاشرة من عمري، وكنت أشعر آنذاك بأنني طفلة. كان لوك أخي الأكبر، وظننت أنه يعرف ما يجب أن يفعله أكثر مني، فأمسكته من كتفيه ورحت أهزّه بقوة، «هل يجب أن أجعلك تشعر بالبرد أم بالحرارة؟» رحت أصيح، فأجابني بشهقة.

قلت في نفسي إنه مصاب بحروق ومن المنطقي معالجته. أحضرت علبة ثلج من المجمّدة في فناء المنزل، لكن ما إن لامست علبة الثلج ساقه، حتى صرخ صرخة قوية جعلت ظهره يتقوس وعيناه تخرجان من محجريهما. كدت أفقد صوابي. كان عليّ أن أجرب طريقة أخرى لأبرد ساقه. فكّرت في أن أفرغ المجمّدة وأضع لوك في داخلها، لكن المجمّدة لا تعمل إلا إذا أغلق الغطاء، وعندها سيختنق.

بحثت في عقلي عن أي شيء يمكن أن أجلبه من البيت. توجد لدينا علبة قمامة كبيرة من نوع الحوت الأزرق. وبما أنها كانت ملطخة ببقايا الطعام المتعفن، كنّا نضعها في خزانة مغلقة. جريت إلى داخل البيت وأفرغتها فوق أرضية المطبخ، ورأيت الفأر الميت الذي كان ريتشارد قد ألقاه فيها البارحة، أخرجت العلبة وغسلتها بخرطوم الحديقة. كنت أعرف أنني يجب أن أنظّفها بشكل أفضل، ربما بصابون تنظيف الصحون، لكنني عندما نظرت إلى لوك وهو يتلوى على العشب، أدركت أنه لا يوجد لديّ وقت. بعد أن أزلت آخر قطعة من الفضلات، ملأت العلبة بالماء.

كان لوك يجري نحوي ليضع ساقه في العلبة عندما سمعت صدى صوت أمّي وهي تقول إن المشكلة الحقيقية في الحروق ليس النسيج التالف، وإنما إمكانية حدوث التهاب.

«لوك! «صحت، «لا! لا تضع ساقك فيها!»

لكنه تجاهلني وظل يزحف نحو العلبة. كانت في عينيه نظرة باردة تقول لا يهم شيء الآن إلا إطفاء النار التي كانت تشتعل من ساقه حتى دماغه. تحرّكت بسرعة. دفعت العلبة، فاندلقت كمية كبيرة من الماء فوق العشب. انبعث من لوك صوت غرغرة قوية كأنه يختنق.

جريت إلى المطبخ بسرعة ووجدت الأكياس التي توضع في العلبة. فتحت واحدًا منها وطلبت من لوك أن يضع ساقه فيه. لم يتحرّك، لكنّه تركني أضع الكيس فوق اللحم المهترئ. عدّلت العلبة ووضعت خرطوم الحديقة في داخلها. وبينما كانت العلبة تمتلئ بالماء، ساعدت لوك على أن يقف على قدم واحدة ويُنزل ساقه المحروقة، الملفوفة الآن بالبلاستيك الأسود، في علبة

القمامة. كان هواء بعد الظهر لاهبًا، وكان الماء يسخن بسرعة، فألقيت كيس الثلج فيها.

لم يستغرق ذلك فترة طويلة -عشرون دقيقة، أو ثلاثون- قبل أن يبدو أن لوك استعاد صوابه وهدوءه، وأصبح بإمكانه أن يرفع نفسه. ثم خرج ريتشارد من الطابق السفلي. كانت علبة القمامة في وسط العشب، على مسافة عشرة أقدام من أيّ ظلّ، وكانت شمس بعد الظهر لاهبة. كانت علبة القمامة المليئة بالماء ثقيلة جدًا لم نستطع أن نحركها، ورفض لوك أن يخرج ساقه منها، حتى لدقيقة واحدة. أحضرت قبعة مكسيكية عريضة من القشّ كانت جدّتي قد أعطتنا إياها عندما كنّا في أريزونا. كانت أسنان لوك لا تزال تصطك فجلبت بطانية صوف أبيضًا. وقف لوك هناك، القبعة على رأسه، وبطانية الصوف حول كتفيه، وساقه في علبة القمامة. بدا مثل شخص متشرّد وشخص في إجازة في آن معًا.

سخّنت الشمس الماء. بدأ لوك يتحرك بثقل. عدّت إلى صندوق المجمّدة التي لم يعد فيها ثلج، بل وجدت اثني عشر كيسًا من الخضراوات المجمّدة، فألقيتها في العلبة. كانت النتيجة حساء موحلاً من حبات البازلاء وقطع الجزر.

عاد أبي بعد كلّ ذلك، لا أعرف متى بالتحديد، على وجهه نظرة شخص مكتئب، مهزوم. كان لوك قد هدأ الآن وبدأ يشعر بالارتياح، أو بشيء قريب من الارتياح لأنه استطاع أن يقف. دفع أبي العلبة إلى الظلّ لأنه، على الرغم من القبعة على رأسه، كانت يدا وذراعا لوك قد احمرّت بسبب احتراقها بالشمس. قال أبي إن أفضل شيء هو أن نترك الساق في مكانها حتى تعود أمّي إلى البيت.

لاحت سيارة أمّي على الطريق السريع في حوالى الساعة السادسة. جريت إليها ولقيتها في منتصف الطريق فوق التلّ وأخبرتها بما جرى. فهرعت إلى لوك وقالت إنّها يجب أن ترى الساق، فأخرجها من العلبة وهي تقطر ماء. كان الكيس البلاستيكي لا يزال ملتقًا حول الحرق. لم تشأ أمّي أن تمرّق النسيج الهشّ، فقصّت الكيس ببطء، وبناية شديدة، حتى بدت الساق. لم يكن هناك دم كثير، وكانت البثور أقل بكثير، لأنّ كليهما بحاجة إلى جلد ولم

تعد توجد لدى لوك كمية كبيرة منه. اصفرّ وجه أمّي، لكنّها حافظت على هدوئها. أغمضت عينيها وصلّبت أصبعيها، ثمّ سألت بصوت مسموع إن كان الجرح قد أصيب بالتهاب. تك، تك، تك.

«كنتِ محظوظة هذه المرة يا تارا»، قالت، «لكن ما الذي جعلك تفكرين في أن تضعي ساقًا محروقة في علبة قمامة؟».

حمل أبي لوك إلى داخل البيت، وجلبت أمّي مبضعها. أمضت أمّي وأبي معظم فترة المساء في إزالة اللحم الميت. حاول لوك جاهدًا ألاّ يصرخ، لكن عندما كانا ينظران ويبعدان قطعًا من جلده، في محاولة منهما رؤية أين ينتهي اللحم الميت وأين يبدأ اللحم الحي، كان يطلق زفرات طويلة والدموع تسيل من عينيه.

دهنت أمّي الساق بمرهم نبات المولين، وصفتها الخاصّة. كانت تجيد التعامل مع الحروق، فقد كانت الحروق من اختصاصها، لكنّي أستطيع أن أقول إنها كانت قلقة. فقد قالت إنها لم تر حرقًا أسوأ من حرق لوك، ولا تعرف ما الذي يمكن أن يحدث له.

بقيت أنا وأمّي بجانب سرير لوك طوال الليلة الأولى تلك. لم يكد يغمض له جفن. كان يهذي من شدّة الحمّى والألم. وللتخفيف من شدّة الحمّى، وضعنا ثلجًا على وجهه وصدره، وللتخفيف من حدّة الألم أعطيناه منقوع زهرة اللوبيليا، والفيرفين الأزرق والاسقوتلارية. كانت هذه وصفة أخرى من الوصفات التي استنبطتها أمّي والتي أعطتني إياها عندما وقعت من فوق صندوق الخردة، لتخفف الألم في ساقي ولكي يلتئم الجرح، لكن يمكنني أن أقول إنه لم يكن لها أي تأثير عليّ.

كنت أوّمن بأنّ الأدوية التي يصفونها في المستشفى إساءة للرب، لكن لو كان عندي مورفين في تلك الليلة لأعطيته للوك، لأن الألم حرمه القدرة على التنفس. كان مستلقيًا في سريريه، حبات العرق تسقط من جبينه إلى صدره، حابسًا أنفاسه حتى امتقع لونه وأصبح أحمر، ثمّ أصبح أرجوانيًا، كما لو كان منع وصول الأوكسجين إلى دماغه الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تنقله إلى

اللحظة التالية. وعندما جاوز الألم في رثتيه ألم الحرق، كان ينفث الهواء في صيحة عظيمة، لاهثة، صيحة ارتياح لرثتيه من الألم من ساقه.

في الليلة الثانية قمت على خدمته وحدي كي ترتاح أمي. كنت أنام نومًا خفيًا، أستيقظ عند أول صوت ينبعث منه، وعندما يحرك جسمه قليلًا، كنت أنهض وأجلب له الثلج ودواء الأعشاب قبل أن يستيقظ لوك ويشدّ عليه الألم. وفي الليلة الثالثة، أخذت أمي ترعاه، ووقفت أنا عند المدخل، أنصت إلى لهاته، أراقب أمي وهي تنظر إليه، وجهها شاحب، عيناها متورمتان من شدة القلق والإعياء. وعندما غفوت، حلمت. حلمت بالنار التي لم أرها، حلمت بأنني أنا التي أستلقي في ذلك السرير، جسمي ملفوف بضمادات، محتطة، وأمّي تجثو على الأرض بجانبني، تضغط على يدي المغطاة بالجص كما كانت تضغط على يد لوك، تلمس جيني، وتصلّي.

لم يذهب لوك إلى الكنيسة يوم الأحد ذاك، ولا في يوم الأحد الذي تلاه، أو الذي أعقبه. وطلب منّا أبي أن نقول للناس إن لوك مريض، وقال إنه يمكن أن تحدث مشكلات إذا عرفت الحكومة بما حدث لساق لوك، فإن الشرطة الاتحادية ستأخذنا، نحن الأطفال، وسيضعون لوك في المستشفى حيث ستصاب ساقه بالتهاب ويموت.

بعد حوالى ثلاثة أسابيع قالت أمي إنّ الجلد حول حافات الحرق بدأ ينمو من جديد، وقالت إنّها تأمل أن يحدث ذلك في أسوأ مناطق الحرق. في ذلك الوقت، بدأ لوك ينتصب في جلسته، وبعد أسبوع، عندما هبّت أول موجة برد، أصبح بإمكانه أن يقف دقيقة أو دقيقتين على عكازين. ولم تمض فترة طويلة، حتى بدأ يتمشى حول البيت، نحيقًا مثل فاصولياء رفيعة، يتناول كميات كبيرة من الطعام ليستعيد الوزن الذي فقده. في ذلك الوقت، أصبح الحبل الذي يلصقه حول خصره أسطورة الأسرة.

«على الرجل أن يضع حزامًا حقيقيًا»، قال أبي عند الفطور عندما تحسّنت صحة لوك وأصبح بوسعه العودة إلى العمل في باحة الخردة، وأعطاه حزامًا له إبريم فولاذي.

«ليس لوك»، قال ريتشارد، «فهو يفصل الحبل، فأنت تعرف كم هو شاب أنيق».

ابتسم لوك ابتسامة عريضة، وقال: «الجمال هو كل شيء».

طوال ثمانية عشر عامًا لم أتذكر ذلك اليوم، لكن الشيء الذي أعادت ذاكرتي إلى عصر ذلك اليوم القائن، هو الحزام. وقلت لنفسى، لوك، أيها الكلب البري. ترى ألا تزال تضع حبلًا بدل الحزام؟

الآن، وقد بلغت التاسعة والعشرين من العمر، أجلس لأكتب، لأتذكر تلك الحادثة من أصدقاء وصيحات ذاكرة متعبة. أمحوها. عندما أصل إلى النهاية، أتوقف. ثمة تناقض، شبح في هذه القصة.

قرأتها. أعدت قراءتها. وها هي.

من الذي أطفأ النار؟

صوت طويل خامد يقول: أبي فعل ذلك.

لكن لوك كان وحده عندما رأيته. لو كان أبي مع لوك في الجبل، لكان قد أحضره إلى البيت وعالج الحرق. كان أبي في مكان بعيد يعمل، فاضطر لوك لأن يهبط من الجبل وحده. لماذا عالجت ساقه فتاة في العاشرة من عمرها. لماذا انتهى ذلك بعلبة قمامة.

قررت أن أسأل ريتشارد لأنه يكبرني سنًا، ولا بد أن ذاكرته أقوى من ذاكرتي. بالإضافة إلى ذلك، فقد سمعت مؤخرًا أنه لا يوجد لدى لوك هاتف.

اتصلت. كان أول شيء يتذكره ريتشارد هو الحبل الذي كان يشير إليه بأنه «أداة يحزم بها بنطاله»، ثم تذكر البنزين الذي سال على بنطاله. سألته كيف استطاع لوك إطفاء النار والهبوط من الجبل، مع أنه كان في حالة صدمة شديدة عندما رأيته. كان أبي معه، قال ريتشارد بصورة قاطعة.

صحيح.

إدًا لماذا لم يكن أبي في البيت؟

قال ريتشارد لأن لوك أخذ يجري بين الأعشاب في الجبل وأشعل النار فيها. إنك تتذكّرين ذلك الصيف. كان جافًا، لاهبًا. لا يمكنك أن تشعلي حريقًا في مزرعة ريفية في صيف جاف، لذلك، وضع أبي لوك في الشاحنة الصغيرة وطلب منه أن يعود بها إلى البيت، لتعالجه أمنا. لكن أمنا كانت قد ذهبت. صحيح.

توقفت عن التفكير في الأمر لبضعة أيام، ثمّ جلست ثانية لأكتب. في البداية كان أبي هناك، الذي كان يحكي نكاته المضحكة عن الاشتراكيين والكلاب والسقف حتى لا يغرق الليبراليون تحته، ثمّ عاد أبي ولوك للعمل في الجبل، وذهبت أممي، وفتحت الصنبور لأملاً مغسلة المطبخ. مرة أخرى. للمرة الثالثة يبدو لي الأمر هكذا.

فوق الجبل حدث شيء. أستطيع أن أتخيله فقط لكنني أراه بوضوح، بوضوح أكبر مما لو كان مجرد ذاكرة. كانت السيارات مكدّسة تنتظر، وكانا قد ثقبا خزاناتها وأفرغاهما من البنزين. أشار أبي إلى برج من السيارات وقال: «لوك، انزع تلك الخزانات»، فقال له لوك: «بالتأكيد يا أبي». أشعل الحملج فانطلقت منه شرارة النار وأمسكت به. صرخ، حاول أن يفك الحبل الذي يلفّ به بنطلونه. صرخ مرة أخرى، وبدأ يجري فوق الأعشاب.

جرى أبي وراءه، وطلب منه أن يقف في مكانه. ربما كانت تلك أول مرة في حياته لا ينفذ فيها لوك أوامر أبي. كان لوك سريعًا لكن أبي رجل ذكي، فسلك طريقًا مختصرة عبر هرم السيارات وأمسك بلوك، وألقى به على الأرض.

لا أستطيع أن أتصوّر ما الذي جرى بعد ذلك، لأن أحدًا لم يقل لي كيف أطفأ أبي النار في ساق لوك. ثمّ طفت ذاكرة إلى السطح -عن أبي، في تلك الليلة في المطبخ، وهو يصرخ بينما كانت أممي تدهن يديه الحماوين المتقرحتين بمرهم- وعرفت ما الذي فعله.

لم يعد لوك يحترق.

أحاول أن أتخيّل لحظة القرار. راح أبي ينظر إلى الأعشاب التي أخذت تحترق بسرعة، عطشة في تلك الحرارة اللاهبة. ينظر إلى ابنه. وقال في نفسه إنه إذا تمكن من إخماد النار التي لا تزال في بدايتها، فإنه يستطيع أن يمنع وقوع حريق هائل، وربما ينقذ البيت.

كان يبدو أن لوك لم يستوعب ما الذي جرى بعد، فلم يكن الألم قد بدأ. الربّ سيتدبر الأمر، أظن أن أبي كان يقول لنفسه. فقد ترك له الرب قوة الإدراك.

أتخيّل أبي وهو يصليّ بصوت عال، عيناه مصوبتان نحو السماء، وهو يحمل ابنه إلى الشاحنة ويضعه وراء المقود. شغلّ أبي المحرّك ووضع ذراع تغيير السرعة على الأول، فبدأت الشاحنة تتدحرج. ثم أصبحت تسير بسرعة جيّدة الآن. كان لوك يمسك بالمقود، ثم قفز أبي من الشاحنة المتحرّكة، وارطم بقوة بالأرض وراح يتدحرج، ثم أخذ يجري بسرعة عائداً إلى العشب الذي بدأ يحترق والذي ازدادت رقعته طولاً وعرضاً. الربّ سيتدبر الأمر، راح يصيح، ثم نزع قميصه وبدأ يضرب به لهب النيران*.

*منذ كتابة هذه القصّة، تحدّثت مع لوك عن هذا الحادث. لكن روايته تختلف عن روايتي ورواية ريتشارد. ففي ذاكرة لوك، أخذ أبي لوك إلى البيت، وأعطاه الدواء لتخفيف الصدمة، ثمّ وضعه في حوض ماء بارد، وتركه وذهب ليطفئ النار. هذا بعكس ذاكرتي، وبالعكس ذاكرة ريتشارد. ربما كانت ذاكرتانا مخطئتين. ربما وجدت لوك في حوض الماء، وحده، وليس على العشب. والغريب أن الشيء الذي يتفق عليه الجميع، هو أن لوك وصل إلى الحديقة الأمامية للبيت، وساقه في علبة قمامة.

الفصل ٨

عاهرات صغيرات

أردت أن أبتعد عن باحة الخردة ولم تكن أمامي إلا طريقة واحدة لعمل ذلك، وهي الطريقة التي اتبعتها أودري: أن أحصل على عمل لكي لا أكون في البيت عندما يجمعنا أبي للعمل في باحة الخردة. لكن المشكلة تكمن في أنني كنت في الحادية عشرة من عمري.

قطعت مسافة ميل على دراجتي الهوائية إلى وسط قريتنا الصغيرة المتربة التي لا توجد فيها أشياء كثيرة: كنيسة، ومكتب بريد، ومحطة بنزين تدعى «بابا جاي». دخلت إلى مكتب البريد. كانت تجلس وراء الكاونتر سيدة مسنة أعرف أن اسمها ميرنا مويل، لأن ميرنا وزوجها جاي (بابا جاي) يملكان محطة البنزين. قال أبي إنهما وراء الأمر الذي أصدرته البلدية والذي يقضي بأن تمتلك كل أسرة في البلدة كلبًا أو كلبين كحد أقصى، وقال لنا إنهما اقترحا أشياء أخرى أيضًا. وكل يوم أحد، عندما كان أبي يعود من الكنيسة، كان يحدثنا أشياء عن ميرنا وجاي مويل، وأنهما من مونتيري أو من سياتل أو من أي مكان آخر، ويظنّان أنهما يستطيعان أن يفرضا اشتراكية الساحل الغربي على سكان أياداهو الطيبين.

سألتُ ميرنا إن كان بإمكانني أن أضع بطاقة على اللوحة، فسألتني لماذا، فقلت، آمل أن أجد عملًا كجليسة أطفال.

«ما هي الأوقات التي تستطيعين أن تعملي فيها؟»
سألتني.

«في أي وقت، جميع الأوقات.»

«تقصدين بعد المدرسة؟»

«أقصد جميع الأوقات.»

نظرت ميرنا إليّ ومالت رأسها، وقالت: «ابنتي ماري بحاجة إلى أحد لرعاية أبنائها الصغار. سأسألها».

كانت ماري تدرّس التمريض في المدرسة، وكان أبي يقول عنها إنها امرأة مغسولة الدماغ لأنها تعمل في مؤسسة طبيّة ولدى الحكومة. ظننت أنه لن يسمح لي بأن أعمل عندها، لكنّه سمح لي. وبعد فترة قصيرة بدأت أذهب لرعاية ابنة ماري صباح أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. وكانت هناك صديقة لماري، إيف، بحاجة إلى جليسة لأطفالها الثلاثة في يومي الثلاثاء والخميس.

وعلى مسافة ميل على الطريق، كان هناك رجل يدعى راندي يدير عملاً من بيته. كان يبيع اللوز والكاشيو وجوز مكاداميا. في أحد الأيام، جاء إلى مكتب البريد، وقال لميرنا إنه تعب من تعبئة الصناديق وحده، وقال إنه يتمنى أن يساعده أحد الصبية لكنّ جميع الصبية منهمكون في لعب كرة القدم.

فقالت له ميرنا: «توجد طفلة واحدة على الأقل في هذه البلدة ليست مشغولة بلعب الكرة، وأظن أنها ستكون متحمسة للعمل عندك»، وأشارت إلى البطاقة التي كنت قد وضعتها على اللوحة. وبعد فترة قصيرة، أصبحت أعمل جليسة أطفال من الساعة الثامنة صباحًا حتى الظهر من يوم الاثنين حتى يوم الجمعة، ثمّ أذهب إلى بيت راندي لأساعده في تعبئة اللوز حتى المساء. كان يدفع لي مبلغًا زهيدًا، لكن بما أنني لم أحصل على أي مبلغ من قبل، فقد كان يبدو لي مبلغًا كبيرًا.

كان الناس في الكنيسة يقولون إنّ ماري تجيد العزف على البيانو، وكانوا يستخدمون كلمة «محترفة». لم أكن أعرف ما الذي تعنيه هذه الكلمة، حتى يوم الأحد ذاك، عندما رأيت ماري تعزف بمفردها على البيانو في الكنيسة. حبست الموسيقى أنفاسي. كنت قد سمعت كثيرًا عزفًا على البيانو ترافق التراتيل، لكن عزف ماري لم يكن يشبه تلك القرقعة، وإنما كان عزفًا جميلًا، سلسًا كالهواء. كان مثل صخرة في لحظة، وريح في اللحظة التالية.

في اليوم التالي، عندما عادت ماري من المدرسة، سألتها إن كان بإمكانها أن تعطيني دروسًا في العزف على البيانو عوضًا عن النقود. جلسنا على مقعد البيانو وأررتني بعض تمارين الأصابع، ثمّ سألتني ما الذي أتعلمه إضافة إلى

البيانو. كان أبي قد علّمني ما الذي يجب أن أقوله عندما يسألني أحد عن تعلّمي في المدرسة، فقلت لها: «إني أذهب إلى المدرسة كلّ يوم».

«هل تلتقين بأطفال آخرين؟» سألتني، «هل لديك أصدقاء؟»

«طبعًا»، قلت لها. فعادت ماري إلى الدرس. عندما انتهى الدرس، قالت، «أختي كارولين تعطي دروسًا في الرقص كلّ يوم أربعاء وراء محطة بنزين بابا جاي. تتدرب معها فتيات كثيرات من عمرك. يمكنك أن تنضمّي إلينا».

في يوم الأربعاء ذاك، غادرت محل راندي في وقت مبكر وذهبت بالدراجة إلى محطة البنزين. كنت أرتمي بنطال جينز وفانيلة رمادية واسعة، وحذاء طويلًا تغطي مقدمته قطعة فولاذية، أما الفتيات الأخريات فكنّ يرتدين ثياب رقص سوداء ضيقة تلتصق بأجسادهن، وتنانير شفافة، براقة، ومشدّات بيضاء، وأحذية لرقص الباليه صغيرة بلون الحلوى. كانت كارولين أصغر سنًا من ماري، وكان مكياجها جميلًا، تومض من صفائر شعرها الكستنائي أقواس ذهبية.

اصطففنا في صفوف، ثمّ شغلّ جهاز تسجيل مكون في الزاوية وانطلقت منه أغنية لم أسمعها من قبل لكن الفتيات الأخريات كنّ يعرفنها. نظرْتُ إلى صورتنا المنعكسة في المرآة، إلى الفتيات الاثنتي عشرة، ناعمات، براقات، في ألوان مختلفة: أسود وأبيض ووردي. ثمّ نظرت إلى نفسي. كنت ضخمة ورمادية اللون.

عندما انتهى الدرس، طلبت مني كارولين أن أشتري ثوب رقص ضيقًا وحذاء.

«لا أستطيع»، قلت لها.

«أوه»، بدا أنها ارتبكت، وقالت، «قد تعيرك إحدى الفتيات ثوبًا».

لم تفهم قصدي. فقد طلّت أنه لا توجد لديّ نقود، فقلت: «إنها غير محتشمة». افترت شفتها بدهشة. عائلة مويل الكاليفورنية هذه، قلت في نفسي.

«حسناً، لا يمكنك أن ترقصي بهذا الحذاء الطويل»، قالت، «سأكلّم أمك». بعد بضعة أيام، أخذتني أمي بسيارتها وقطعت مسافة أربعين ميلاً إلى محل صغير اصطففت على رفوفه أحذية وبدلات أكريليك غريبة الشكل. لم تكن بينها بدلة محتشمة واحدة. اتجهت أمي إلى البائع مباشرة وقالت إننا نبحث عن ثوب رقص أسود، وجوارب بيضاء وحذاء رقص.

«احتفظي بهذه الأشياء في غرفتك»، قالت أمي عندما غادرنا المحل. لم يكن عليها أن تقول لي شيئاً آخر، فقد فهمت أنني يجب ألا أري ثوب الرقص هذا لأبي.

في يوم الأربعاء ذاك، ارتديت ثوب الرقص والجوارب ولبست فوقهما القميص القطني ذا الكمين القصيرين. كاد القميص يصل حتى ركبتني، وعلى الرغم من ذلك، فقد شعرت بالخجل عندما رأيت جزءاً كبيراً من ساقي مكشوفين. فقد كان أبي يقول إنّ المرأة الفاضلة لا تُظهر شيئاً فوق كاحليها.

لم تكن الفتيات الأخريات يكلمنني إلا نادراً، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أحب أن أكون معهن. لقد أحببت الشعور بالانسجام والتوافق. أدركت أن تعلّم الرقص أشبه بتعلّم أن تنتمي إلى فريق. كان باستطاعتي أن أحفظ الحركات، وعندما كنت أفعل ذلك، كنت أفعل مثلهن، أندفع عندما يندفعن، أرفع ذراعي إلى الأعلى عندما يرفعن أذرعهن. وعندما كنت أنظر أحياناً في المرأة وأرى هيئاتنا المختلطة مع بعضها وهي تدور، لم أكن أُميّز نفسي بينهن فوراً، ولم يكن مهمّاً أنني أرتدي قميصاً رمادي اللون - إوِزة في وسط بجعات. كنّا نتحرّك معاً، كقطيع واحد.

بدأنا التدريب من أجل عيد الميلاد. اتصلت كارولين بأمي وناقشها في مسألة الثياب. «كم سيكون طول التنورة؟» سألتها أمي. «وهل هي شفافة؟ لا، هذا لا يمكن». سمعت كارولين تقول شيئاً عن الثياب التي تريد الفتيات الأخريات ارتداؤها. «لا تستطيع تارا أن ترتدي مثل هذه الثياب»، قالت لها أمي، «وإذا كان هذا ما سترتيه الفتيات الأخريات، فإنها ستبقى في البيت».

في يوم الأربعاء الذي أعقب اتصال كارولين بأمي، وصلتُ إلى «بابا جاي» قبل الموعد المحدد بدقائق. كان صفّ الفتيات الأصغر سناً قد انتهى، وامتلأ

المحل بفتيات في السادسة من عمرهن، يتبخترن أمام أمهاتهن وهن يرتدين قبعات حمراء مخملية وتنانير براقه مطرزة بترتر قرمزي. رحت أراقبهن وهن يتقافزن بين الممرات، تغطي سيقانهن النحيلة جوارب شفافة. قلت في نفسي إنهن يشبهن عاهرات صغيرات.

وصلت باقي الفتيات في فرقتي. عندما رأين البدلات، هُرعن إلى داخل الغرفة ليشاهدن ماذا أعدت لهن كارولين التي كانت تقف بجانب صندوق من الورق المقوّى مليئًا بلوزات رمادية واسعة. بدأت توزعها على الفتيات. «ها هي بدلاتكن»، قالت. رفعت الفتيات بلوزاتهن، وارتفعت حواجبهن غير مصدقات ما رآته أعينهن، فقد كنّ يتوقّعن فساتين من الشيفون الشفاف أو عليه شرائط، لكنهن لم يتوقعن ثيابًا تشبه ثيابًا داخلية. حاولت كارولين أن تضيفي مزيدًا من الجاذبية على البلوزات بأن خاطت صورة بابا نويل كبيرة على الصدر موشاة بحليّ صغيرة، براقه، لكن ذلك جعل القطن السيئ يبدو أسوأ.

لم تخبر أمّي أبي شيئًا عن الحفلة، ولم أخبره أنا أيضًا. ولم أطلب منه أن يأتي. كان ثمة شعور غريزي يعتمل في داخلي، حدس واع. وفي يوم الحفلة، قالت أمّي لأبي إنه يوجد عندي «شيء» في تلك الليلة. سأل أبي أسئلة كثيرة، وقد فوجئت أمّي بأسئلته الكثيرة، وبعد دقائق اعترفت له بأنها حفلة رقص. فتجّهّم وجه أبي عندما قالت له أمّي إن كارولين مويل كانت تعطيني دروسًا، فظننت أنّه سيبدأ مرة أخرى خطبة عن اشتراكية كاليفورنيا، لكنه لم يفعل ذلك، وإنما أخذ معطفه وسرنا ثلاثتنا إلى السيارة.

كانت الحفلة ستقام في الكنيسة. كان الجميع هناك، معهم كاميرات تومض وكاميرات فيديو ضخمة. غيّرت ثيابي وارتديت بدلة الرقص في الغرفة التي كنت أحضر فيها دروس مدرسة يوم الأحد. كانت الفتيات الأخريات يتكلمن مبتهجات. ارتديت بلوزتي، وحاولت أن أشدّ القماش بضع بوصات أخرى إلى الأسفل. كنت لا أزال أشدّها عندما اصطفنا فوق خشبة المسرح.

بدأت الموسيقى تعزف من مسجلة ستيريو وضعت فوق البيانو وبدأنا نرقص. كانت أقدامنا تنقر على خشبة المسرح بشكل متتال، ثم كان علينا أن

ثب، نرتفع في الهواء ونجري دورة بسرعة. لكن قدماي ظلتا ملتصقتين بالأرض، وبدلاً من أن أرفع ذراعي إلى فوق رأسي، رفعتهما حتى كتفيّ فقط، وعندما أقعت الفتيات الأخريات ليضربن بأيديهن على خشبة المسرح، انحنيت قليلاً فقط، وعندما كان علينا أن نتشقلب على أيدينا، تمايلتُ، ولم أسمح للجاذبية أن ترفع البلوزة فوق ساقيّ.

انتهت الموسيقى. عندما غادرنا خشبة المسرح راحت الفتيات الأخريات يحدّقن بي -لقد أفسدتُ عليهن الرقص- لكنّي لم أكن أرى أيّاً منهن، لأن الشخص الوحيد في هذه القاعة الذي يبدو لي حقيقياً هو أبي. فتشّط عنه بين الجمهور وميّزته بسهولة. كان يقف في الصفوف الخلفية، أضواء المسرح تلمع على نظّارته المربّعة. كانت قسمت وجهه متشنجة، سلبية، لكنّي استطعت أن أرى فيها غضباً.

لم تكن المسافة إلى البيت تتجاوز ميلاً واحداً، لكنها بدت لي مئة ميل. جلست في المقعد الخلفي ورحت أستمع إلى أبي يصرخ. كيف يمكن أن تسمح لي أمّي أن أرتكب خطيئة أمام الجميع؟ ألهذا السبب لم تخبره بالحفلة؟ أنصتت أمّي لحظة، وهي تعضّ على شفّتيها، ثم رفعت يديها وقالت إنها لم تكن تعرف أن الثوب لن يكون محتشماً بهذا الشكل، وقالت: «أنا غاضبة من كارولين مويل».

ملت إلى الأمام لأرى وجه أمّي، أردتها أن تنظر إليّ لترى السؤال الذي كنت أسألها إياه في عقلي، لأنني لم أفهم، أبداً. كنت أعرف أنّ أمّي لم تكن غاضبة من كارولين، لأنني أعرف أنّ أمّي رأت البلوزة قبل أيام من الحفلة، بل إنها اتصلت بكارولين وشكرتها لأنها اختارت ثوباً يمكنني أن أرتديه. لكن أمّي أدارت رأسها نحو النافذة.

حدّقْتُ في الشعرات الرمادية في مؤخرة رأس أبي. كان جالساً بهدوء، ينصت إلى أمّي التي لم تتوقف عن توجيه الإهانات إلى كارولين، وتقول إنها صُدّمت عندما رأت تلك الثياب الفاضحة وغير المحتشمة. عندما وصلنا إلى مدخل البيت المكسو بالجليد، كان أبي يهز رأسه وكان غضبه يخفّ مع كلّ كلمة تقولها أمّي.

أمضينا ما تبقى من تلك الليلة في سماع محاضرة ألقاها علينا أبي. فقد قال إنّ الصفّ الذي تعلّم فيه كارولين هو مكيدة من مكائد الشيطان، مثل المدارس الحكومية التي تدّعي شيئاً وتضمّر شيئاً آخر. فهي تدّعي بأنها تعلّم الرقص، بينما هي في حقيقة الأمر تعلّم الفجور، الإباحية. وقال أبي إنّ الشيطان ذكي، الذي تمكن باسم «الرقص» من إقناع المورمون الطيبين أن يقبلوا رؤية بناتهم وهن يقفزن هنا وهناك كالعاهرات في بيت الربّ، ما جعل أبي يشعر بالإهانة أكثر من أي شيء آخر: أن يجري هذا العرض المخلّ بالآداب في كنيسة.

بعد أن شعر بالإنهاك وأوى إلى سريره، زحفت تحت أغطيتي ورحت أحدّق في السواد. سمعت نقراً على باب غرفتي. كانت أمّي. قالت: «كان عليّ أن أعرف أكثر، كان عليّ أن أرى ذلك الصفّ على حقيقته».

لا بدّ أن أمّي أحسّت بالذنب بعد الحفلة، لأنها بدأت تبحث في الأسابيع التالية عن شيء آخر يمكنني أن أفعله، شيء لا يحرمه أبي. فقد لاحظت أنني أمضي ساعات طويلة في غرفتي مع جهاز تسجيل تايلر القديم، أستمع إلى فرقة كورال المعبد المورمونية، فبدأت تبحث عن معلّمة تدّرّيني على الغناء. بعد أسابيع عدّة وجدت معلّمة، واستغرقت أسابيع أخرى لإقناع المعلّمة بأن تقبل أن تدّرّسني. ومع أن الدروس كانت أغلى بكثير من دروس الرقص، فقد دفعت أمّي أجراها من النقود التي تكسبها من بيع الزيوت الأساسية.

كانت المعلّمة طويلة القامة ونحيفة، لها أطافر طويلة ينبعث منها صوت عندما تلامس مفاتيح البيانو. عدّلت وقفتي بأن شدّت شعري عند قاعدة رقبتني، ثمّ مددتني على الأرض ووقفت فوق بطني لتقوّي الحجاب الحاجز لديّ. كانت مهووسة بالتوازن، وكثيراً ما كانت تصفع ركبتي لتذكّرني بأن أقف منتصبه القامة، حتى أملأ فضائي.

بعد عدة دروس، أعلنت أنني أصبحت جاهزة للغناء في الكنيسة، وقالت إنها اتخذت الترتيبات لأن أنشد أمام المصلين بعد صلاة يوم الأحد.

مضت الأيام بسرعة، كما تمضي عندما تكون خائفاً من شيء. وفي صباح يوم الأحد، وقفت أمام المنبر ورحت أحدّق في وجوه الناس في الأسفل.

رأيت ميرنا وبابا جاي، وكانت تجلس وراءهما ماري وكارولين. بدا كأنهم يرثون لحالي، كما لو أنهم كانوا يفكرّون بأنني وضعت نفسي في مأزق.

عزفت أمّي المقدمة. توقّفت الموسيقى. حان وقت الغناء. في تلك اللحظة، ربّما كانت أفكار عدة تدور في رأسي. فربما كنت أفكرّ بمعلّمتي وبأساليبها: أن أف منتصبّة القامة، ظهري مستقيم، فكّي هابط. لكني رحت أفكرّ بتايلر، كيف كنت أستلقي على السجادة بجانب طاولته، أحدّق في قدميه المكسوين بجوارب صوفية بينما كانت فرقة كورال المعبد المورمونية تنشد. كان رأسي ممتلئًا بأصواتهم التي كانت بالنسبة لي أجمل من أيّ شيء ما عدا جبل بيكس باك.

ررفت أصابع أمّي فوق مفاتيح البيانو. أصبح السكوت محرّجًا. تمللم الحاضرون بضيق. فكّرت بالأصوات، بتناقضاتها الغريبة، بالطريقة التي تجعل الصوت يطوف في الهواء، وكيف يكون الصوت ناعمًا مثل ريح دافئة، لكنه حادّ جدّا فيثقب. رحت أبحث عن تلك الأصوات التي تغلّغت في ثنايا عقلي.. لقد وجدتها. لم يد شيء طبيعيًا أكثر من ذلك. كان كما لو أنني بدأت أفكرّ بالصوت، فجلبه التفكير إلى الوجود، مع أن الواقع لم يستسلم لأفكاري من قبل قط.

انتهت الأغنية، وعدت إلى المقعد الذي نجلس فيه. ثم أقيمت صلاة لاختتام الحفل، ثمّ اندفع الناس نحوي. فابتسمت لي النساء اللاتي يرتدين ثيابًا مطرّزة باللورود وشبكن يدي، وربّت الرجال الذي يرتدون بدلات سود على كتفي. وطلب مني مدير الفرقة أن أنضم إلى الكورال، وطلب مني الأخ ديفيس أن أغني في نادي الروتاري، وقال الأسقف، الذي يوازي مرتبة قسّ في الطائفة المورمونية، إنه يريدني أن أنشد هذه الأغنية في جنازة، وقلت لهم كلهم نعم.

ابتسم أبي للجميع. لم يكن هناك شخص في الكنيسة لم يكن أبي يطلق عليه اسم مسيحي كافر -لأنه يذهب إلى الأطباء أو لأنه يرسل أطفاله إلى المدرسة العامة- أما في ذلك اليوم، فقد كان يبدو أنه نسي مسألة اشتراكية كاليفورنيا والتنويريين، ووقف بجانبني، ووضع يده على كتفي، وراح يتلقّى

المجاملات والإطراءات بلطف. «إننا مباركون»، لم يتوقف عن القول، «مباركون جدًّا». عبر بابا جاي المصلى ووقف أمام مقعدنا. قال إنني غنّيت كما تغني ملائكة الرب. نظر أبي إليه للحظة، ثمّ أشرقت عيناه وصافح بابا جاي كما لو كانا صديقين قديمين.

لم أر هذا الجانب من أبي قط، لكنني سأراه كثيرًا عندما أغنّي. ومهما طالّت فترة وجوده في العمل في باحة الخردة، لم يكن يتعب ليعبر الوادي للاستماع إليّ. ومهما كانت مشاعره المفعمة بالمرارة تجاه الاشتراكيين مثل بابا جاي، فلم تكن كذلك إذا أثنى هؤلاء الناس على صوتي، لكنه لم يكن يضع المعركة العظيمة التي يحاربها ضدّ التنويريين جانبًا لمدة طويلة، فيقول: «نعم، لقد باركنا الله، إننا مباركون جدًّا». عندما كنت أغنّي، كان يبدو أنّ أبي ينسى للحظة أنّ العالم مكان مخيف، وأنه سيفسدني، وأنه يجب أن يحفظني في مكان أمين، وأن يكون البيت ملاذي فقط. كان يريد لصوتي أن يُسمع.

كان المسرح في البلدة يعرض مسرحيّة، آني، وقالت معلّمتي إنه إذا سمعني مدير المسرح أغنّي فإنه سيمنحني الدور الرئيسي. حدّرتني أمّي بأنّ لا آمل كثيرًا، وقالت إننا لا نستطيع أن نقطع مسافة الاثني عشر ميلًا إلى البلدة، أربع ليال في الأسبوع لحضور التدريبات، وحتى لو استطعنا، فلن يسمح لي أبي بأن أمضي وقتًا في البلدة، وحدي مع أناس لا يعلم أحد من أي طينة هم.

لكنني تدربت على الأغاني لأنني كنت أحبها. وفي مساء أحد الأيام، كنت في غرفتي أغني أغنية «الشمس ستشرق غدًا»، عندما جاء أبي على العشاء. كان يمضغ رغيف اللحم بهدوء، ويستمع.

«سأجد النقود»، قال لأُمّي عندما أويا إلى الفراش في تلك الليلة. «أوصلها إلى مكان التدريب».

الفصل ٩ مثالي بين أجياله

غُيِّت الدور الرئيسي في صيف عام ١٩٩٩. كان أبي في حالة تأهب شديدة. فمنذ أن كنت في الخامسة من عمري، وعندما كانت أسرة ويفر محاصرة، كان متيقنًا بأن أيام الهلاك أضحت وشيكة.

أطلق عليها أبي اسم «مشكلة الألفية» (Y2K). قال إن أنظمة الكمبيوتر في جميع أنحاء العالم ستتوقف في ١ كانون الثاني (يناير)، ولن تكون هناك كهرباء أو هواتف. سيغرق كل شيء في الفوضى، وسيؤذن ذلك بالقدوم الثاني للمسيح.

«كيف عرفت في أي يوم؟» سألته.

فقال أبي إنّ الحكومة برمجت نظم الكمبيوتر بتقويم سنّة أرقام، وهذا يعني أن للسنة رقمين فقط، وقال: «وعندما يصبح الرقم تسعة -تسعة أوه- أوه، فلن تعرف أجهزة الكمبيوتر ما هي السنة، وستتوقف كلّها عن العمل».

«ألن يتمكنوا من إصلاحها؟»

«لا، لن يتمكنوا من إصلاحها»، قال أبي، «لأن البشر وثقوا بقوّتهم، وقوّتهم ضعيفة».

في الكنيسة، بدأ أبي يحذّر الجميع من مشكلة الألفية، ونصح بابا جاي بأن يضع على محطة البنزين التي يملكها أقفالاً متينة، وربما أسلحة دفاعية، وقال له أبي «لأن مخزنك سيكون أول شيء يتعرض للنهب عندما تحدث المجاعة»؛ وقال للقس مومفورد بأنه يجب على كلّ رجل ورع أن يخزّن كميات من الطعام والوقود والأسلحة والذهب تكفيه لما لا يقلّ عن عشر سنوات، فردّ القس مومفورد: «لا يمكننا أن نكون كلّنا أتقياء مثلك يا جين، لأن بعضنا ارتكب خطايا». لم ينصت له أحد، وواصل الجميع حياتهم تحت شمس الصيف.

في هذه الأثناء، لم يتوقف أفراد أسرتي عن تقشير وغلي الخوخ والمشمش المنزوع البذرة وعصر التفاح. كان كل شيء يُطهى بطنجرة الضغط، ثم يُغلق بإحكام، ويوضع عليه ملصق، ثم يُخزّن في قبو كان أبي قد حفره في الحقل، وأخفى مدخله بكومة من التراب، وطلب مني أبي ألا أخبر أحدًا عن هذا المكان.

في عصر أحد الأيام، صعد أبي إلى الحفارة وحفر حفرة بالقرب من الحظيرة القديمة. وبرافعة تحميل، أنزل في الحفرة صهريجًا يتسع ألف غالون ثم دفنه بمجرفة، وزرع نبات القراص فوقه كي لا يظهر مكان الصهريج. عندما كان يهيل التراب فوق الحفرة، كان يصفّر لحن أغنية «أبدو جميلة» من فيلم «قصّة الويست سايد». كان يدفع قبعته إلى خلف رأسه، وارتسمت على شفّتيه ابتسامة رائعة، ثم قال: «سنكون الأشخاص الوحيديين الذين نمتلك وقودًا عندما تحلّ أيام الهلاك»، وأضاف، «حتى إنه سيكون باستطاعتنا أن نقود سيارتنا بينما يركض الجميع، لا بل يمكننا أن نذهب إلى يوتا لنحضر تايلر».

في معظم الليالي كنت أجري تدريبات في دار أوبرا وورم كريك، وهي مسرح متهاك يقع بالقرب من إشارة المرور الوحيدة في البلدة. كانت المسرحيّة عالمًا آخر، لا يتحدّث فيها أحد عن مشكلة الألفية.

لم يكن التواصل مع أهالي بلدة وورم كريك على النحو الذي اعتدت عليه في أسرتي. بالطبع، كنت قد أمضيت وقتًا مع أشخاص لا ينتمون إلى أسرتي، لكنّهم كانوا جميعًا مثلنا: النساء اللاتي يطلبن من أمّي أن تولدّهن، أو اللاتي يأتين لشراء الأعشاب التي تحصّرها أمّي لأنهن لا يثقن بالمؤسسة الطبية. كانت عندي صديقة واحدة، اسمها جيسيكّا، كان أبي قد أقنع والديها، روب وديان، منذ بضعة سنوات، بأن المدارس العامة ليست سوى برامج لنشر الدعاية الحكومية، فأخرجها من المدرسة ومكثت في البيت. قبل أن يخرجها والداها من المدرسة، كانت جيسيكّا واحدة منهم، ولم أحاول أن أكلّمها قط، أما بعد أن خرجت من المدرسة، فقد أصبحت واحدة منّا، ولم يعد الأطفال العاديون يقبلونها بينهم، فبقيت معي.

لم أتعلّم قط كيف أتكلّم مع الذين ليسوا مثلنا.. الأشخاص الذين يذهبون إلى المدرسة ويزورون الأطباء، الأشخاص الذين لا يستعدون كلّ يوم ليوم الهلاك. وكانت بلدة وورم كريك مليئة بهؤلاء الناس، أناس كانت كلماتهم تبدو منفصلة تمامًا عن الواقع الآخر. هكذا كان شعوري عندما كلّمني مدير المسرح أول مرة، كما لو كان يتكلّم من عالم آخر. كان كلّ ما قاله، «أذهبي وابحثي عن FDR». لم أتحرك.

حاول مرة أخرى. «FDR» [3].

«هل هي تشبه JCB؟» قلت. «هل تريد رافعة شوكية؟» فضحك الجميع. حفظت دوري بالكامل، لكن في أثناء التدريبات كنت أجلس وحدي، أظاهر بأنني أحفظ دوري. وعندما يأتي دوري على المسرح، كنت أتلو المقطع المخصص لي بصوت عال ودون تردّد. جعلني ذلك أشعر بالثقة. فإذا لم يكن لديّ شيء أقوله، كان لدى آني، بطلة المسرحية، شيء تقوله على الأقل.

قبل أسبوع من ليلة الافتتاح، صبغت أمّي شعري البني بلون الكرز الأحمر. قال المخرج إنه رائع وأن كلّ ما أحتاج إليه الآن هو الثياب التي يجب أن ارتديها قبل العرض التجريبي الأخير يوم السبت.

عثرت في الطابق السفلي في بيتنا على كنزة صوفية كبيرة واسعة جدًّا عليّ، مبقعة مليئة بالثقوب، وفستانًا أزرق قبيحًا كانت أمّي قد صبغته وأصبح لونه بنيًا كالحا، يلائم فتاة يتيمة، وتذكّرت أن آني، في المسرحية، يجب أن ترتدي في الفصل الثاني فساتين جميلة يشتريها لها بابا واربوكس، ولم يكن يوجد لدينا أي ثوب جميل.

قلت ذلك لأمّي فتجهم وجهها. أخذتني بالسيارة في رحلة ذهاب وإياب لمسافة مئة ميل، وبحثنا في جميع محلات الألبسة المستعملة على طول الطريق، لكننا لم نجد شيئًا مناسبًا. عندما توقفنا في باحة موقف سيارات المحل الأخير، زمّت أمّي شفتيها، وقالت: «يوجد مكان آخر نستطيع أن نجربه».

أخذتني إلى بيت خالتي آنجي وتوقّفنا أمام السياج الخشبي الأبيض المدبّب الذي يفصل بيتها عن بيت جدّتي. طرقت أمّي الباب، ثمّ ابتعدت قليلاً عن الباب، وسوّت شعرها. بدا أن آنجي فوجئت برؤيتنا، فلم تكن أمّي تزور أختها إلّا نادراً، لكنّها ابتسمت لنا بحرارة ودعتنا إلى بيتها. ذكرّتني غرفتها الأمامية بصالات الفنادق الفخمة في الأفلام التي ترى فيها الكثير من الحرير والدانتيل. جلسْتُ أنا وأمّي على أريكة لونها وردي فاتح وحكت لها أمّي سبب زيارتنا. فقالت آنجي إن لدى ابنتها فساتين عدة قد تكون مناسبة.

انتظرت أمّي على الأريكة الوردية بينما أخذتني آنجي إلى غرفة ابنتها في الطابق العلوي ووضعت أمامي مجموعة من الفساتين، كلّها جميلة، مطرّزة برسوم وأشكال متشابكة وأقواس لطيفة، خشيت في البداية أن ألمسها. ساعدتني آنجي في ارتداء كلّ واحد منها، تعقد لي الأحزمة، تزرر الأزرار، تنفش الأقواس. «يجب أن تأخذي هذا»، قالت، وأعطتني فستاناً أزرق فاتحاً له خيوط بيضاء مصفورة عبر الصدرية، ثم أضافت، «لقد خاطت جدّتك هذه الضفائر». أخذت الفستان مع فستان آخر من المخمل الأحمر حول ياقته دانتيل أبيض، وعدنا أنا وأمّي إلى البيت.

افتُتحت المسرحيّة بعد أسبوع. كان أبي يجلس في الصف الأمامي. عندما انتهى العرض، توجّه إلى شباك التذاكر مباشرة واشترى تذاكر لليلة التالية. كان حديثه يوم الأحد في الكنيسة عن ذلك العرض، ولم يتحدّث عن الأطباء، أو عن التنويريين، أو عن مشكلة الألفية، وإنما كان كلّ حديثه عن المسرحيّة التي عرضت في البلدة والتي كانت أصغر بناته تؤدي الدور الرئيسي في الغناء فيها.

لم يمنعني أبي من إجراء اختبار للمسرحيّة القادمة، أو التي بعدها، مع أنه كان قلقاً لأنني أمضي وقتاً طويلاً خارج البيت. «لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في ذلك المسرح»، قال، «فقد يكون وكراً للزناة والفجرة».

عندما طلّق مخرج المسرحيّة التالية زوجته، أكّد ذلك شكوك أبي. فقال إنه لم يبعدني عن المدرسة العامة طوال هذه السنوات ليراني أفسد على خشبة المسرح. لكنه استمرّ في توصيلي إلى التدريب. وكان يقول في كلّ

ليلة إنه لن يدعني أذهب، وإنه سيأتي مساء أحد الأيام إلى وورم كريك ويجرّني إلى البيت، لكن كلما عُرضت المسرحيّة كان يأتي ويجلس في الصف الأمامي.

كان أحيانًا يقوم بدور الوكيل أو المدير، فيصحّ أسلوبه في الأداء، أو يقترح الأغاني التي يجب أن أغنيها، وكان يقدّم لي نصائح تتعلق بصحتي. فقد أصبت في ذلك الشتاء بالتهاب دائم في حلقي، فلم أستطع أن أغني. وذات ليلة ناداني أبي وطلب مني أن أفتح فمي ليفحص لوزتيّ.

قال: «إنهما متورّمتان، كبيرتان بحجم حبة مشمش». وعندما لم تتمكن أمي من معالجة الالتهاب بنبتة الإشنسا والأذريون، اقترح أبي أسلوبه في العلاج. فقال: «لا يعرف الناس هذه الطريقة، لكن الشمس هي أقوى دواء، لهذا السبب لا يصاب الناس بالتهاب في الحلق في الصيف». ثم هزّ رأسه كما لو كان يصدّق ما يقوله، ثم أضاف، «لو كانت لوزتاي مثل لوزتيك، لخرجت صباح كلّ يوم ووقفت تحت الشمس وفتحت فمي لتملأ أشعة الشمس فمي لمدة نصف ساعة، عندها ستنكمشان في وقت لا يمكنك تصوّره»، ودعا ذلك علاجًا.

فعلت ذلك طوال شهر.

لم يكن الوضع مريحًا، وأنا واقفة وفمي مفتوح ورأسي مائل إلى الورااء حتى تتسلل أشعة الشمس إلى حنجرتي. لم أتمكن من مواصلة ذلك لأكثر من نصف ساعة. فقد كان فكّي يؤلمني بعد عشر دقائق، وكنت أكاد أتجمّد من الوقوف بلا حركة في برد شتاء إيدياهو، ولم أشف من التهاب الحلق. وكلما لاحظ أبي أن صوتي مبحوح، كان يقول: «حسنًا، ماذا تتوقّعين؟ لم أرك تطبقين العلاج هذا الأسبوع!»

رأيتّه أول مرة في دار أوبرا وورم كريك: فتى لم أكن أعرفه، يضحك مع مجموعة من فتيان المدرسة الحكومية، ينتعل حذاء أبيض ضخّمًا، ويرتدي شورت كاكي وعلى وجهه ابتسامة عريضة. لم يكن يشارك في المسرحيّة، لكن لم تكن هناك أشياء كثيرة يمكن القيام بها في البلدة، فرأيتّه مرات عدة في ذلك الأسبوع عندما كان يأتي لزيارة أصدقائه. ذات ليلة، بينما كنت أمشي

في أروقة المسرح الخلفية المظلمة، انعطفت إلى زاوية فرأيته يجلس فوق الصندوق الخشبي الذي اعتدت الجلوس عليه. وبما أن الصندوق كان يقبع في مكان منعزل، فقد كنتُ أحبُّ أن أجلس عليه.

تحرك إلى اليمين، ليفسح لي مكانًا. جلست ببطء، أشعر بالتوتر، كما لو كان المقعد مصنوعًا من إبر.

«أنا تشارلز»، قال. ثم صمت منتظرًا أن أعرفه على اسمي، لكنني لم أقل شيئًا. ثم أضاف بعد لحظة، «رأيتك في المسرحية الأخيرة، وأريد أن أقول لك شيئًا». هيات نفسي لسماع شيء لم أكن متأكدة من سماعه، ثم قال: «أريد أن أقول لك إنَّ غنائك هو أفضل صوت سمعته في حياتي».

عندما عدت إلى البيت بعد ظهر أحد الأيام، وجدت أبي وريتشارد يقفان حول صندوق معدني كبير، كانا قد رفعاه ووضعا على طاولة المطبخ. وبينما كنت أنا وأمِّي مشغولتين في طهي الطعام، قاما بجمع المحتويات. استغرق ذلك أكثر من ساعة، وعندما انتهيا رجعا خطوات إلى الوراء، وكشفا عن شيء بدا أنه منظار عسكري أخضر ضخم، ثبت على حامل ثلاثي عريض قصير. كان ريتشارد شديد الحماسة وكان يقفز من قدم إلى أخرى، ويشرح لنا ما يمكن أن يقوم به هذا المنظار، فقال: «يبلغ مداه أكثر من ميل! وباستطاعته أن يسقط طائرة مروحية!»

وقف أبي بهدوء، عيناه تلمعان.

«ما هذا؟» سألتُ.

«إنها بندقيّة عيار خمسين»، قال، «هل تريدان أن تجربيهما؟»

نظرت من فتحة المنظار إلى سفح الجبل، وركزته على شعيرات القمح المتشابكة.

نسينا اللحم الذي كنّا نطبخه. اندفعنا إلى الخارج. كان الوقت بعد الغروب. كان الأفق مظلمًا. رحت أنظر عندما أقعى أبي على الأرض المتجمّدة، وثبتت عينه على فتحة المنظار، وبعد ما بدا لي ساعة، ضغط على الزناد. كان الانفجار مدوّيًا. وضعت راحة يدي على أذنيّ. وعندما رفعتهما بعد الدوي

الأول، سمعت صدى صوت الطلقة يتردد في الوديان. أطلق مرة أخرى، وأخرى، إلى حدّ أننا عندما دخلنا إلى البيت كان الطنين لا يزال في أذنيّ. لم أكد أسمع ردّ أبي عندما سألته لماذا جلب هذه البندقية.

«للدفاع»، قال.

في الليلة التالية ذهبت للتدريب في أوبرا وورم كريك. كنت جالسة على الصندوق الذي اعتدت الجلوس عليه، أنصت إلى المناجاة على المسرح، عندما جاء تشارلز وجلس بجانبني.

«أنتِ لا تذهبين إلى المدرسة»، قال.

لم يكن سؤالاً.

«يجب أن تنضمي إلى فرقة الكورال. ستحبينها».

«ربما»، قلت. ابتسم ثم جاء بعض أصدقائه ونادوه. نهض وودعني. رأيته ينضم إليهم، ورأيت كيف أنهم يمازحون بعضهم بسهولة كبيرة وتخيلت واقعاً بديلاً أكون فيه واحدة منهم. تخيلت تشارلز وهو يدعوني إلى بيته، لنلعب لعبة أو نشاهد فيلمًا، وأحسست بدفقة ممتعة في داخلي. لكن عندما تخيلت تشارلز وهو يزور بيتنا في جبل بيكس باك، تملكني شعور آخر، شيء يشبه الرعب. فماذا لو اكتشف المخبأ في الحقل؟ وماذا لو اكتشف خزان الوقود؟ ثم فهمت، أخيرًا، سبب وجود البندقية. تلك السبطانة الطويلة التي يمكن أن يصل مداها من الجبل إلى الوادي، محيط الدفاع عن بيتنا، وتجهيزاتنا، لأن أبي قال إنه سيكون بوسعنا أن نقود السيارة بينما سيهرول الآخرون على أقدامهم، وسيتوفر عندنا الطعام بينما سيتضوّر الآخرون جوعًا، ينهبون ويسلبون المحلات. مرة أخرى، تخيلت تشارلز يتسلّق التلّ إلى بيتنا. لكن في مخيلتي، كنت أقف فوق الحافة العليا، أراقبه وهو يقترب من خلال شعيرات القمح المتشابكة.

كان عيد الميلاد في تلك السنة زهيدًا. لم نكن فقراء، فقد كان عملي أمّي يسير بشكل جيد، ولا يزال أبي يعمل في باحة الخردة، لكننا أنفقنا كلّ ما نملك على الإمدادات والتجهيزات.

قبل عيد الميلاد، واصلنا تحضيراتنا كما لو أنّ كلّ تصرف، وكلّ إضافة بسيطة إلى مخزوننا من الطعام ستكون حاسمة بين البقاء على قيد الحياة، وبين الموت. وانتظرنا انقضاء عيد الميلاد. «عندما تحين ساعة الحاجة» قال أبي، «يكون زمن التحضير قد ولّى».

مضت الأيام، ثمّ جاء يوم ٣١ كانون الأول (ديسمبر). كان أبي هادئًا عند الفطور، لكنني أحسست بأنه توجد حماسة شديدة تحت هدوئه، وشيء أشبه بالهفة والترقب. فقد كان ينتظر هذا اليوم منذ سنوات، يخبئ أسلحة ويكدّس الطعام ويطلب من الآخرين أن يحذوا حذوه. فعلى الرغم من أن جميع الذين يرتادون الكنيسة قرأوا عن النبوءات ويعرفون بأن أيام الهلاك آتية، فقد كانوا يستفزون أبي ويسخرون منه. لكنه سيأخذ حقه وسينتقم منهم هذه الليلة.

بعد العشاء، أمضى أبي ساعات في قراءة سفر أشعيا. وفي الساعة العاشرة تقريبًا أغلق الكتاب المقدّس وفتح التلفزيون. كان جهاز التلفزيون جديدًا. فقد كان زوج خالتي أنجي يعمل في شركة لبيع أجهزة استقبال القنوات الفضائية، وقدم لأبي عرضًا جيدًا إذا اشترك فيها. لم يصدّق أحد منّا عندما وافق أبي، لكن عندما أعود بذاكرتي، فإني أتذكّر أن أبي انتقل، في سحابة يوم، من رفض وجود جهاز تلفزيون أو مذياع في بيتنا إلى الاشتراك بالكابل. كنت أتساءل أحيانًا هل رضي أبي إحضار التلفزيون في تلك السنة لأنه يعرف أنّ كلّ شيء سيختفي في ١ كانون الثاني (يناير). ربما فعل ذلك ليمنحنا مذاقًا صغيرًا عن العالم، قبل أن ينهار ويختفي من الوجود.

كان البرنامج المفضّل لأبي هو مسلسل «العرسان»، الذي كانوا يعرضون حلقات عدة منه في تلك الليلة. كنّا نشاهد المسلسل، ننتظر النهاية. كنت أنظر إلى ساعة الحائط كلّ بضع دقائق، من الساعة العاشرة حتى الحادية عشرة، ثمّ كلّ بضع ثوان حتى منتصف الليل. حتى أبي الذي لم يكن يحركه أي شيء، كان ينظر إلى الساعة بين الحين والآخر.

١١:٥٩

حبست أنفاسي. بعد دقيقة، قلت لنفسي، سيتلاشى كلّ شيء.

ثم أصبحت الساعة الثانية عشرة. كان جهاز التلفزيون لا يزال يصدر طنينًا، أضواؤه تتراقص فوق السجادة. تساءلت إن كانت ساعتنا تجري بسرعة. ذهبت إلى المطبخ وفتحت الصنبور. ما زال لدينا ماء. ظلّ أبي ساكنًا في مكانه، عيناه مثبتتان على الشاشة. عدت إلى الكنبه.

١٢:٠٥

إلى متى ستظل الكهرباء حتى تنقطع تمامًا؟ هل يوجد لديهم احتياطي يجعلها تستمر بضغ دقائق أخرى؟

كان خيال رالف وأليس كرامدن بالأبيض والأسود وهما يتجادلان على قطعة لحم لا يزال باديًا على الشاشة.

١٢:١٠

انتظرت حتى تومض الشاشة ثم تختفي. كنت أحاول أن أستوعب الأمر برمته، هذه اللحظة الأخيرة، الباذخة، من الضوء الأصفر الحاد، من الهواء الدافئ الذي يتدفق من جهاز التدفئة. بدأت أشعر بالحنين إلى الحياة التي عشتها والتي سأفقدّها في أي لحظة، عندما يزول العالم ويلتهم نفسه.

جلست ساكنة لا آتي بحركة لمدة أطول، أتنفس بعمق، أحاول أن أتنشق آخر عبير ينبعث من العالم الذي سيهوي، وكرهت صلابته المستمرة، وسرعان ما تحوّل الحنين إلى إرهاق.

بعد الساعة ١٢:٣٠ بقليل أويت إلى الفراش. نظرت إلى أبي وأنا أغادر الغرفة. كان وجهه متصلبًا في العتمة، الضوء المنبعث من شاشة التلفزيون يتقافز عبر نظارته المربعة. كان يجلس ساكنًا، لا يبدو عليه الغضب، أو الشعور بالحر، كما لو أن هناك تفسيرًا دنيويًا كاملاً يبرر سبب سهره وحده حتى الساعة الثانية صباحًا، وهو يشاهد رالف وأليس كرامدن يستعدان للاحتفال بعيد الميلاد.

بدا لي أبي أصغر حجمًا مما كان عليه في الصباح. بدت خيبة الأمل التي لاحت على وجهه طفولية، ولوهلة تساءلت، كيف يمكن أن يخذه الله. هو، الخادم التقي، المخلص الذي عانى بمحض إرادته ليبنى السفينة.

لكن الله أوقف الطوفان.

الفصل ١٠ درع من الريش

عندما أطلّ الأول من كانون الثاني (يناير) مثل صباح أيّ يوم آخر، تحطّمت روح أبي الذي لم يعد يذكر مشكلة الألفية (Y2K)، ودخل في حالة يأس شديدة، وأصبح يمشي بتثاقل من باحة الخردة. وأصبح يجلس كلّ ليلة أمام شاشة التلفزيون لساعات طويلة، تحوم فوقه سحابة سوداء.

قالت أمّي لقد حان الوقت للذهاب إلى أريزونا مرة أخرى. كان لوك يقوم بمهمّة من أجل الكنيسة، فلم يبق إلّا ريتشارد وأودري وأنا، فتكوّنا في شاحنة أبي الصغيرة القديمة «شيفي أسترو». كان أبي قد أزال منها المقاعد الخلفية، وترك المقعدين الأماميين، ووضع مكان المقاعد التي أزالها فرشاة متوسطة الحجم استلقى عليها ولم يتحرّك طوال الرحلة. وكما حدث منذ بضعة سنوات، فقد أنعشت شمس أريزونا أبي الذي أمضى أيامه وهو مستلق في الشرفة على الأرضية الإسمنتية الصلبة، يعرّض جسمه لأشعة الشمس، بينما كنا نقرأ أو نشاهد التلفزيون. وبعد بضعة أيام بدأ أبي يشعر بالتحسّن، وبدأنا نعدّ أنفسنا للمجادلات الليلية بينه وبين جدّتي التي كانت تزور عدة أطباء خلال هذه الفترة بعد إصابتها بسرطان في نخاع العظم.

«سيقتلك هؤلاء الأطباء بسرعة أكبر»، قال أبي لجدّتي ذات مساء عندما عادت من زيارة أحد الأطباء. وكانت جدّتي قد رفضت أن تتخلّى عن العلاج الكيميائي، ومع ذلك فقد سألت أمّي عن سبل التداوي بالأعشاب. وكانت أمّي التي جلبت معها بعض الأعشاب، تأمل أن تطلب جدّتي منها بعضًا منها لتجربّها - نقع القدمين في طين أحمر، تناول أكواب من شاي البقدونس المرّ، وخلاصة أعشاب ذيل الحصان والأرطنسية.

«لن تفيدك هذه الأعشاب في شيء»، قال أبي، «لأن الأعشاب تعمل بقوة الإيمان. فلا يمكنك أن تضعي ثقتك في الطبيب، ثمّ تطلبين من الربّ أن يشفيك».

لم تتفوّه جدّتي بأي كلمة. لم تفعل شيئًا سوى أنها شربت شاي البقدونس.

أتذكّر أنني كنت أنظر إلى جدّتي، أفتش عن دلائل تشير إلى أنّ جسدها قد بدأ يضعف، لكنني لم أر شيئًا من ذلك. فما زالت جدّتي نفس تلك المرأة المتماسكة، التي لا تهزم.

لا تزال تلوح في ذاكرتي صورة غير واضحة عن الأيام المتبقية من تلك الرحلة، وتركت لي بعض لقطات فقط - عن أمّي وهو تجرّب أدويتها على جدّتي، وجدّتي وهي تستمع بصمت إلى أبي، وأبي وهو مستلق تحت أشعة الشمس الجافّة.

ثمّ أتذكّر نفسي جالسة على أرجوحة في الشرفة الخلفية، أتأرجح بتكاسل في ضوء غروب الصحراء البرتقالي، عندما جاءت أودري وقالت إن والدنا يريد أن نحزم أمتعتنا لنغادر، فصاحت جدّتي بارتياب، «بعد ما حدث آخر مرّة. ستقود السيارة طوال الليل مرة أخرى؟ وماذا عن العاصفة؟» فقال لها أبي إنّنا سنهزم العاصفة. وعندما كنّا ننقل أغراضنا إلى سيارة أبي، كانت جدّتي تذرّع المكان، تطلق اللعنات، ثم قالت إن أبي لم يتعلّم شيئًا لعيّنًا.

في الساعات الستّ الأولى قاد ريتشارد السيارة. استلقيت على الفراش مع أبي وأودري في مؤخرة السيارة.

كانت الساعة الثالثة صباحًا، وكنا متجهين من جنوبي يوتا إلى شمالها، عندما تغيّر الطقس بغتّة، وتحوّل من برودة الصحراء الجافة إلى عواصف الشتاء الجبلية المتجمّدة. واكتسى الطريق بالجليد. وأخذت ندف الثلج السميكة ترتطم بالزجاج الأمامي للسيارة مثل حشرات صغيرة. في البداية كانت خفيفة، لكنها ازدادت كثافة وقوة فلم نعد نرى الطريق أمامنا. أخذنا نشقّ طريقنا في قلب العاصفة. بدأت السيارة تنزلق وتهتز. كانت الريح عنيفة، وتحوّل المشهد خارج النافذة إلى أبيض ناصع. فتوقف ريتشارد وقال لا يمكننا مواصلة الرحلة. فحلّ أبي محله وراء المقود، وجلس ريتشارد في المقعد بجانبه، واستلقت أمّي على الفرشة بجانبني أنا وأودري. وانطلق أبي

على الطريق السريع بسرعة، كما لو كان يريد أن يثبت رأيه، لا بل ضاعف السرعة التي كان يسير بها ريتشارد.

«ألا يجب أن تبطئي؟» سألت أمي. فابتسم أبي ابتسامة عريضة، وقال لها: «أنا لا أقود أسرع مما تستطيع ملائكتنا أن تطير»، وزاد من سرعته حتى خمسين ميلاً، ثم إلى ستين ميلاً في الساعة.

كان ريتشارد يجلس خائفاً يتشبّث بيديه بالمسند، أطرافه ترتعش كلّما انزلقت العجلات على الجليد. استلقت أمي على جانبها، وأصبح وجهها لصق وجهي، ترشف رشقات صغيرة من الهواء كلّما تأرجحت السيارة، ثمّ تحبس أنفاسها عندما يتمكن أبي من تصحيح مسارها فتتلوّى قليلاً حتى تعود إلى الطريق. كانت متوترة جدّاً، حتى خيل إليّ أنها قد تتهشم. وكان جسدي يتشنج ويتوتر مع جسدها، وكنا نستعد معاً مرة لوقوع حادث.

ثم حادت السيارة عن الطريق الرئيسي أخيراً.

عندما صحت رأيت سواداً. سرت قشعريرة شديدة البرودة أسفل ظهري. إننا في بحيرة! قلت لنفسي. كان هناك شيء ثقيل فوقي. إنها الفرشة. حاولت أن أركلها بعيداً عني لكنني لم أستطع، فزحفت تحتها، يداي وركبتي تضغط على سقف السيارة المقلوبة. زحفت إلى نافذة مهشمة. كانت مليئة بالثلج. ثمّ فهمت: كنّا في حقل، لا في بحيرة. زحفت عبر الزجاج المهشم ونهضت واقفة، أترجّح. بدا أنني لم أتمكن من استعادة توازني. تطلعت حولي لكنني لم أر أحداً. كانت السيارة فارغة. لقد ذهب جميع أفراد أسرتي.

درت حول السيارة المحطمة مرّتين قبل أن أرى أبي منحنيّاً فوق رابية من بعيد. ناديته، فنادى الآخرين الذين كانوا منتشرين في الحقل. سار أبي بتناقل نحوي فوق أكوام الثلج، وعندما وقف أمام ضوء السيارة المكسور رأيت في ساعده جرحاً طوله سِتّة إنشات والدم يسيل منه على الثلج.

أخبروني في ما بعد أنني غبت عن الوعي، وبقيت تحت الفرشة بضع دقائق. نادوني باسمي. وعندما لم أجب، ظلّوا أنني قُذفت من السيارة، من النافذة المهشمة، فخرجوا يبحثون عني.

عاد الجميع إلى السيارة المحطمة ووقفوا حولها، مذهولين، يرتجفون، إمّا من شدّة البرد أو من شدّة الصدمة. لم ينظر أحد منا إلى أبي، لأننا لم نشأ أن ندينه.

وصلت سيارة الشرطة، ثمّ تلتها سيارة الإسعاف. لا أعرف من الذي اتصل بهم. لم أخبرهم بأنني كنت فاقدة الوعي، لأنني خشيت أن يأخذوني إلى المستشفى. جلست في سيارة الشرطة بجانب ريتشارد، متدثرة ببطانية طوارئ تشبه البطانية الموجودة في حقيبتني التي سنصعد بها «إلى التلال». استمعنا إلى جهاز اللاسلكي عندما سألت الشرطة أبي لماذا لم تكن السيارة مؤمنة، ولماذا أزال منها المقاعد وأحزمة المقاعد.

كنّا لا نزال بعيدين عن جبل بيكس باك، فأخذتنا الشرطة إلى أقرب مركز للشرطة. اتصل أبي بتوني، لكن توني كان مشغولاً، فحاول أن يتصل بشون، لكنه لم يردّ. ثم عرفنا لاحقاً أنّ شون كان موقوفاً في تلك الليلة لأنه كان متورطاً في مشاجرة.

عندما لم يتمكن أبي من الاتصال بأبنائه، اتصل بروب ودايان هاردي التي ولدت أمّي خمسة من أولادهما الثمانية. وصل روب بعد بضع ساعات، وقال: «ألم تكونوا على وشك أن تقتلوا أنفسكم في آخر مرّة؟»

بعد عدة أيام من الحادث، تشنّجت رقبتني.

استيقظت صباح أحد الأيام ووجدت أنني لا أستطيع تحرّيكها. لم تكن تؤلمني، ليس في البداية، لكنني مهما حاولت أن ألفت رأسي، لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك أكثر من بوصة، ثم امتدّ الشلل إلى الأسفل، وبدأت أشعر كأنّ قضيباً معدنياً يسري في ظهري ويتسلل إلى داخل جمجمتي. وعندما لم أعد أستطيع أن أنحني إلى الأمام أو أدير رأسي، بدأ الألم يزداد، وبدأ ينتابني صداد شديد متواصل، ولم أعد أستطيع أن أقف من دون أن أستند إلى شيء.

اتصلت أمّي باختصاصية في الطاقة تدعى روزي. كان قد مضى عليّ وأنا مستلقية في سريري أسبوعين عندما ظهرت عند باب الغرفة، متموّجة ومشوّهة، كما لو أنني كنت أنظر إليها من خلال بركة الماء. كانت نبرة صوتها عالية، مرحة. طلبت مني أن أتخيّل نفسي موفورة الصحة، داخل فقاعة

بيضاء تحميني، وأن أضع كلّ الأشياء التي أحبّها في تلك الفقاعة، وكلّ الألوان التي تجعلني أشعر بهدوء وسلام مع نفسي. تخيلت الفقاعة. تخيلت نفسي في وسطها، قادرة على أن أقف، وأركض. وورائي معبد مورموني، وعنزة لوك التي نفقت منذ زمن بعيد. وهج أخضر أضاء كلّ شيء.

«تخيلي الفقاعة لبضع ساعات كلّ يوم»، قالت، «وستشفين». وربتت على ذراعي وسمعت الباب يُغلق وراءها.

بدأت أتخيّل الفقاعة في صباح وظهر وليل كلّ يوم، لكن رقبتني ظلت ثابتة، لا تتحرك. وشيئًا فشيئًا، على مدار شهر، تعودت على الصداق. تعلّمت كيف أقف، ثمّ كيف أمشي. وكنت أستخدم عينيّ لأظل واقفة، وإذا أغمضتهما حتى للحظة، كان العالم يدور من حولي وأقع على الأرض. عدت إلى العمل مع راندي، وأحيانًا في باحة الخردة، وكلما كنت أخلد إلى النوم في كلّ ليلة، كنت أتخيّل تلك الفقاعة البيضاء.

في الشهر الذي مكثت فيه في السرير، سمعت صوتًا آخر. تذكّرت له لكنّه لم يعد مألوفًا لي. فلم أسمع تلك الضحكة الشيطانية التي تردّد صداها في البهو منذ ستّ سنوات.

كان صوت أخي شون الذي تشاجر مع أبي عندما كان في السابعة عشرة وترك البيت وزاول أعمالًا صغيرة متنوعة، كان معظمها في قيادة الشاحنات وأعمال اللحام. فقد عاد إلى البيت بعد أن طلب منه أبي أن يساعده. ومن سريري، سمعت شون يقول إنه سيبقى في البيت حتى يتمكنّ أبي من جمع طاقم حقيقي لمساعدته. قال إنه يسدي لأبي معروفًا حتى يقف أبي على قدميه مرة أخرى.

كان من الغريب أن أجده في البيت، هذا الأخ الذي كاد يكون غريبًا عليّ، والذي كان يبدو أن أهالي البلدة يعرفونه أكثر مما أعرفه أنا. وقد سمعت عنه في وورم كريك إشاعات كثيرة. فهم يقولون إنه شاب مشاغب، مثير للمشكلات، بلطجي، شخص سيئ، وأنه يطارد المشاغبين ويبعدهم عن يوتا أو حتى إلى أماكن أبعد. وسمعت أنه يحمل مسدسًا يخبئه في جسمه أو يضعه في دراجته النارية السوداء الكبيرة. وسمعت ذات يوم أحدهم يقول إنّ شون

شخص غير سيئ، وإِنَّه يدخل في شجارات لأنه يُعرف بأنه شخص لا يستطيع أحد أن يهزمه، لأنه يجيد فنون الدفاع عن النفس، ويقاتل كرجل لا يعرف الألم، فكان جميع من في الوادي يريدون تقليده ويطنون أنهم سيصبحون مشهورين إذا هزموه. لم يكن ذلك خطأ شون حقًا. عندما كنت أسمع هذه الإشاعات، كان يبدو في مخيلتي أسطورة أكثر من كونه شخصًا من لحم ودم. تبدأ ذاكرتي عن شون في المطبخ، ربّما بعد مضي شهرين على الحادث الثاني.

كنتُ أعدّ حساء الذرة. أحدث الباب صريرًا فالتفتُ من خصري لأرى من القادم، ثم عدت وأوصل تقطيع البصل.

«ستكونين عودة مصاصة متحركة؟» قال لي شون.
«لا».

«أنت بحاجة إلى اختصاصي بتقويم العمود الفقري يدويًا»، قال.
فقلت: «أمّي ستفعل ذلك».

«أنت بحاجة إلى اختصاصي بتقويم العمود الفقري يدويًا»، كرر قائلاً.

تناولنا الطعام، ثم تفرّقنا. بدأت أغسل الصحون. كانت يداي مغمورتين في ماء الصابون الساخن عندما سمعت خطوة ورائي، وأحسست بيد سمكة تلتفّ حول جمجمتي، وأدارت رأسي بحركة سريعة متوحشة. كراك! كان صوتًا عاليًا. كنت متيقنة من أن رأسي انفصل عن جسدي. ثم انثنى جسدي. انهار. أصبح كلّ شيء أسود يدور حولي. عندما فتحت عينيّ بعد لحظات، كانت يداه تحت إبطي ترفعان جسدي بشكل منتصب.

«ربما كنت بحاجة إلى فترة قبل أن تتمكني من الوقوف»، قال، «لكن عندما تستطيعين الوقوف، عليّ أن أفعل لك الجانب الآخر».

انتابني دوار شديد، غثيان، لأن ما فعله كان مفاجئًا. لكنني بدأت ألاحظ في المساء حدوث تغييرات طفيفة. فقد أصبح بإمكانني أن أرفع رأسي وأنظر إلى السقف، وأصبح بإمكانني أن أرفع رأسي لأمازح ريتشارد. وعندما جلست على الأريكة، استطعت أن ألتفت وأبتسم للشخص الجالس بجانبني.

كان ذلك الشخص شون. كنت أنظر إليه لكنني لم أكن أراه. لا أعرف ما الذي رأيته -أي مخلوق تستدعيه ذاكرتي من ذلك العمل العنيف، الشفوق- لكنني أظن أنه كان أبي، أو ربّما كان أبي لأنني كنت أتمنى أن يكون هو، الرجل الذي كنت أرجو أن يحميني، بطل خيالي، الرجل الذي لا يلقي بي في أتون عاصفة، والرجل الذي إذا تألمت فإنه سيخفف من حدّة ألمي.

الفصل ١١ الغريزة

عندما كان جدّي الذي يعيش أسفل التلّ شابًا، كانت تملأ الجبل قطعان الأبقار التي تُرعى من فوق ظهور الخيل. وكانت الخيول المستخدمة لتربية المواشي التي يملكها جدّي أشبه بأسطورة. متمرسه، تحرّك أجسامها الضخمة برهافة ولياقة كبيرة، كما لو كانت أفكار فارسها هي التي توجهها.

هذا ما سمعته على الأقل، لأنني لم أرها قط. ومع تقدّم جدّي في العمر، بدأ يقلل من تربية الأبقار ويزرع أكثر، حتى جاء يوم توقّف فيه عن الزراعة تمامًا. وعندما لم يعد بحاجة إلى الخيول، باع الخيول المرتفعة الثمن وأطلق الخيول الباقية التي تكاثرت. وعندما ولدتُ، كان على الجبل قطع كامل من الخيول البرية.

كان ريتشارد يطلق عليها اسم الخيول المعدة لطعام الكلاب. ومرة في السنة، كنت أنا ولوك وريتشارد نساعد جدّي في جمع حوالي اثني عشر حصانًا ونأخذها للبيع في مزاد يقام في البلدة. وكانت تباع من أجل لحمها. وكان جدّي يبحث بين القطيع الخائف عن الحصان الذي سيقاد إلى مطحنة اللحم، وينظر إلى الخيول الصغيرة وهي تخب، تقبل أول أسر لها، فيبدو جوع في عينيه، ثمّ يشير إلى أحدها ويقول: «لا تأخذوا هذا. إنه سيتحطم».

لكن الخيول البرية لا تستسلم بسهولة، حتى إلى رجل مثل جدّي. وكنت أمضي مع إخوتي أيامًا، لا بل أسابيع، حتى نكسب ثقة الحصان، لنتمكن من لمسها فقط، ثمّ نمسّد وجهه الطويل، وشيئًا فشيئًا، على مدى أسابيع أخرى، نتمكن من وضع أيدينا حول عنقه العريض وأسفل جسمه المكسو بالعضلات. وعندما كنا نأتي بالسرج بعد شهر، يلقي الحصان رأسه فجأة إلى الوراء، وبهذه الحركة العنيفة يُكسر الرسن أو يُقطع الحبل. وفي إحدى المرات، حطم حصان ضخم نحاسي اللون سياج الحظيرة، وانطلق كما لو أن السياج لم يكن موجودًا، وخرج من الجانب الآخر مليئًا بالدم والكدمات.

كنا نحاول ألا نطلق أسماء على تلك الوحوش التي كنّا نأمل أن نتمكن من ترويضها، لكن كان علينا أن نشير إليها بطريقة ما. وكانت الأسماء التي نختارها وصفية: الأحمر الكبير، الفرس الأسود، العملاق الأبيض. وقد أُلقيت من فوق عشرات هذه الخيول عندما كانت تشب، أو تجفل، أو ترجع إلى الخلف، أو تتدحرج، أو تقفز، وسقطت على التراب مئة مرة على بطني، وفي كلِّ مرّة كنت أنهض بسرعة وأجري وأحتمي وراء جذع شجرة أو خلف جرّار أو سياج، خوفًا من انتقام الحصان.

لم ننصر عليه قط. فقد كانت إرادتنا تفتر بعد فترة طويلة أمام إرادة قوتها. كنّا نمسك بعض الأحصنة كي لا تجفل عندما ترى السرج، وكانت قلة قليلة من الأحصنة تتحمّل أن يمتطئها أحد حتى في نزهة قصيرة حول الحظيرة، وحتى جدّي لم يكن يجرؤ على ركوبها في الجبل. لم تتغير طبيعة هذه الحيوانات، فهي آلهة عديمة الرحمة، قوية جاءت من عالم آخر. ولكي تتمكن من ركوبها عليك أن تستسلم لها، أن تلج إلى عالمها، وأن تجازف بأن تُلقي بك بعيدًا.

كان أول حصان مروّض رأيته في حياتي فرس منزوع الخصيتين. كان واقفًا بجانب الحظيرة، يقضم مكعبات سكر من يد شون. كان الفصل ربيعًا، وكنت في الرابعة عشرة من عمري. لم أكن قد لمست حصانًا منذ سنوات.

كان الحصان المخصي ملكيًا، هدية قدمها لي خال أمّي. اقتربت منه بحذر، وأنا أعرف أنني لو اقتربت منه أكثر فإنه سيجفل، أو يركل، أو يندفع إلى الأمام. لكنه راح يتشمم قميصي، وترك بقعة رطبة طويلة عليه. ألقى لي شون مكعب سكر. شمّ الحصان قطعة السكر، ودغدغت الشعيرات الشائكة على ذقنه أصابعي حتى فتحت راحة كفي.

«هل تريد أن تروضه؟ سألني شون.

لم أكن أريد. كنت أخاف من الخيول، أو أرتعب مما كنت أتخيّل بأن الخيول شياطين تزن ألف رطل تطمح لأن تسحق رؤوس البشر بالصخر. طلبت من شون أن يروضه وقلت إنني سأراقبه من وراء السياج.

رفضت أن أطلق اسمًا على الحصان، فسميناه «يرلينغ». كان يرلينغ قد رُوِّض على وضع الرسن والزمَام، فأحضر شون السرج في اليوم الأول ذاك. لكن عندما رآه يرلينغ راح ينبش الأرض بحافريه، فتحرك شون نحوه ببطء، وتركه يتشمم الركاب ويقضم جلد السرج. ثم فرك شون جلد صدره الواسع الناعم، وراح يتحرك بخطى ثابتة بطيئة.

«لا تحبّ الخيول الأشياء التي لا تستطيع أن تراها»، قال شون، «أفضل شيء هو أن تجعله يتعود على رؤية السرج، وعندما يشعر بارتياح حقيقي له، بعد أن يشمّه ويتحسسّه، يمكننا أن نضعه على ظهره».

بعد قرابة ساعة كان شون قد حزم السرج على الحصان، وقال لقد حان الوقت لركوبه. صعدت إلى سطح الحظيرة، لأنني كنت واثقة من أنه سيجد صعوبة. لكن ما إن امتطى شون الحصان وجلس فوق السرج، حتى بدأ يرلينغ يتحرك بخفة، فرفع حافريه الأماميين بضع بوصات عن الأرض، كما لو كان يفكر بأن يشبّ، لكنه سرعان ما خفض رأسه واسترخت قوائمه. وبعد لحظة، قبل الحصان رغبتنا في أن نمتطيه. لقد قبل العالم كما هو، العالم الذي هو فيه شيء مملوك. وبما أنه لم يكن حصانًا بريًا قط، فلم يسمع نداء الجنون القادم من العالم الآخر ذاك، على الجبل، العالم الذي لا يستطيع أحد أن يمتلكه، ولا يمكن أن يمتطيه أحد.

سميته «بود». وكنت في كلّ ليلة، طوال أسبوع، أراقب شون وهو يمتطي بود الذي يخب حول الحظيرة في ضباب الغسق الرمادي. وفي مساء أحد أيام الصيف اللطيفة، وقفت بجانب بود، وأمسكت بالزمَام بيدي بينما أمسك شون الرسن بإحكام، وصعد وجلس فوق السرج.

قال شون إنه يريد أن يضع حدًا لحياته القديمة، وأن الخطوة الأولى للقيام بذلك تكمن في أن يبتعد عن أصدقائه. وبدأ يعود إلى البيت مساء كلّ يوم، يبحث عن شيء يفعله. بدأ يوصلني بالسيارة إلى المسرح في وورم كريك لأتدرب. وعندما كان يأخذني بسيارته، كان يعاملني بلطف، ورقة، وكان يمازحني، وكان يقدّم لي أحيانًا نصائح، معظمها «لا تفعلي ما فعلته». لكن ما إن نصل إلى المسرح حتى يتغيّر تمامًا.

في البداية، كان يراقب الفتیان الصغار بحذر شديد، ثم أخذ يضايقهم. لم يكن عدوانًا واضحًا، وإنما محاولة لاستفزازهم. فقد يدفع قبعة أحد الفتیان أو يدفع علبة صودا من يده فيضحك عندما يرى بقعة قد انتشرت على جينز الفتى. وإذا تحدّاه أحدهم -وهذا لا يحدث عادة- كان يأخذ دور الشرير، ويقول بعنف، «وماذا يمكنك أن تفعل؟» وتتغيّر قسمات وجهه. وعندما أصبح وحدنا، يزيل القناع عن وجهه، وتزول طبقة التبجح من وجهه، ويعود أخي.

كان أكثر شيء أحبّه في شون ابتسامته. فلم تكن أسنانه النابتة العليا قد نمت إلى الداخل، ولم يلاحظ ذلك أطباء الأسنان الذين أخذاه إليهم والدايَّ لمعالجته عندما كان طفلًا إلاّ في وقت متأخر. وذهب إلى مختص في جراحة الفم عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، فدخلت أسنانه بشكل جانبي في لثته واخترقت النسيج تحت أنفه. وطلب منه الجراح الذي أجرى له العملية أن يحتفظ بأسنانه الأولى لأطول فترة ممكنة، وأنها عندما تصاب بالنخر، يمكنه أن يستبدلها بأسنان أخرى، لكن أسنانه لم تصب بالنخر، وبقيت آثار ذلك لتذكّر كلّ من شهد عدوانية لا نهائية، عديمة الجدوى، بأنّ هذا الرجل كان ذات يوم صبيًّا^[4].

كان مساء صيفيًا غائمًا، قبل أن أبلغ الخامسة عشرة بشهر. كانت الشمس قد مالت وراء جبل بيكس باك، لكن كان لا يزال لدى السماء بضع ساعات من الضوء. كنت أنا وشون في الحظيرة. بعد ترويض «بود» في ذلك الربيع، بدأ شون يبدي اهتمامًا جدّيًا بالخيول. وأمضى الصيف كلّهُ في شراء الخيول، خيول أصيلة، وخيول باسو فينو التي معظمها غير مروض لأنها تكون أرخص. كنّا لا نزال نروّض «بود»، وأخذناه اثنتي عشرة مرة في جولة في المرعى المفتوح، لكنّه كان حصانًا قليل الخبرة، يجفل بسرعة، متقلّبًا.

في ذلك المساء، أسرج شون حصانًا جديدًا، فرسًا ذات لون نحاسي. كانت تلك المرة الأولى. إنها مستعدة لجولة قصيرة، قال شون. امتطى شون الفرس، وامتطيت أنا «بود». سرنا حوالي نصف ميل فوق الجبل، نسير ببطء وحذر شديد لكي لا نخيف الحصانين، وقمنا بدورة حول حقول القمح. ثم فعلت شيئًا غبيًّا. فقد اقتربت كثيرًا من الفرس التي لم تكن تريد أن يسير

وراءها حصاني. وفجأة قفزت إلى الأمام، ورَكَزَت وزنها على قائمتيها الأماميتين، وبقائمتيها الخلفيتين رفست «بود» في صدره. فجفل «بود».

كنت قد عقدت الزمام في يدي لكن قبضتي لم تكن قويّة عليه. اهتز «بود» بعنف وبدأ يشب ويدور بجسمه في دوائر ضيّقة. طار الزمام فوق رأسه، فتشبّث بقرن السرج وضغطت فخذيّ بقوة حول بطنه المكورة، وقبل أن أثبت نفسي، انطلق «بود» وجرى إلى أعلى أحد الواديين. كان يقفز أحيانًا، لكنه أخذ يجري بلا توقف، وانزلقت قدمي في الركاب حتى ربله ساقِي.

في فصول الصيف التي كنّا نروّض خلالها الخيول مع جدّي، كانت النصيحة الوحيدة التي يعطيها لنا والتي تذكّرتها في تلك اللحظة هي: «مهما حدث، لا تدع قدمك تعلق في الركاب». لم أكن بحاجة لأن يفسر لنا السبب لأنني كنت أعرف أنني سأكون في أمان، على الأقل سألقى على الأرض، أما إذا علقت قدمي في الركاب، فإن الحصان سيجرّني حتى يرتطم رأسي بصخرة ويُنشّق.

لم يتمكن شون من مساعدتي وهو يمتطي تلك الفرس. لأن الهستيريا التي تصيب حصانًا تنتقل عدواها بسرعة إلى الخيول الأخرى، خصوصًا إلى الخيول الصغيرة النشيطة. ومن بين جميع خيول شون، كان هناك حصان واحد فقط، عمره سبع سنوات، لون جلده رمادي مائل إلى الأصفر، اسمه أبولو، الذي كان في عمر كاف يجعله يفعل ذلك: أن ينطلق بسرعة كبيرة، منخراه يخفقان، ثمّ يخفف سرعته عندما يبعد الخيال جسده عنه، ويُخرج إحدى قدميه من الركاب ويمدّ يده إلى الأرض ليمسك زمام الحصان الآخر الذي يجري مدعورًا. لكن أبولو كان في الحظيرة، على مسافة نصف ميل أسفل الجبل. دفعنتي غريزتي لأن لا أترك قرن السرج، الشيء الوحيد الذي يبقيني فوق الحصان، لأنني إذا تركته ساقع على الأرض، لكن ستتاح لي لحظة ثمينة إذا تمكنت من الإمساك بالزمام الذي كان يلوح أو أسحب ربله ساقِي من الركاب. حاولي ذلك، صاحت غريزتي.

كانت غريزتي هي ملاكي الحارس. فقد أنقذتني قبل الآن، ووجّهت حركاتي عندما كنت أمتطي اثني عشر حصانًا جافلاً، فهي تخبرني متى يجب

أن أتمسك بالسرّج ومتى يجب أن أبتعد عن حوافر الحصان التي قد تسحقني. إنها الغريزة نفسها التي دفعتني، قبل سنوات، لأن أرفع نفسي من الحاوية عندما كان أبي يلقي بالخرّدة فيها، لأنها كانت تعرف، حتى قبل أن أعرف أنا، أن من الأفضل أن أسقط من ذلك الارتفاع. وقد علمتني هذه الغريزة طوال حياتي هذا المبدأ الوحيد: وهو أن الفرص تكون أفضل إذا اعتمدت على نفسك فقط.

شبّ «بود» ورفع رأسه كثيرًا إلى حدّ أنني ظننت أنه سيقع إلى الخلف. سقط بقوة ثم نهض وقفز. أحكمت قبضتي على قرن السرج، وقررت غريزيًا، بأن لا أسلم مقاليدي لأحد.

لحق بي شون على تلك الفرس غير المروّضة. كان يحاول أن يقوم بمعجزة. حتى الفرس لم تفهم الأمر عندما صاح، «غيدي - ياب»، عندما وخز بطنها بحذائه بقوة لم يخزها أحد مثلها من قبل، فشبت واستدارت بقوة، لكنه دفع رأسها إلى الأسفل، وعندما لامست حوافرها التراب، نخزها مرة ثانية، بقوة أكبر، عارقًا أنها ستشبّ مرة أخرى، وظل يفعل ذلك حتى قفزت وراحت تجري إلى الأمام. رحبّ بسرعتها البرية، وراح يوجّهها مع أنها لم تتعلّم بعد رقصة الحركات الغربية التي ستصبح، مع مرور الوقت، نوعًا من اللغة المشتركة بين الفرس والفارس. حدث ذلك كلّ في ثوان، سنة من التدريب اختزلت في لحظة مستميتة واحدة.

كنت أعرف أن ذلك سيكون مستحيلًا. كنت أعرف ذلك حتّى عندما تخيلتها. لكنّي لم أترك قرن السرج من يدي.

ازداد هيجان «بود». فقفز بعنف، وقوّس ظهره وراح يشبّ إلى الأعلى، ثمّ ألقى برأسه عندما لامست حوافره الأرض. لم تكد عيناى تدرّكان ما الذي تراهما، وأخذت سنابل القمح الذهبية تتطاير في جميع الاتجاهات، وأخذت السماء الزرقاء والجبل يترنحان بصورة غير طبيعية.

كنت في حالة ارتباك شديدة حتى شعرت، لكني لم أر، الفرس القوية تجري بجانبى. رفع شون جسده عن السرج وانحنى نحو الأرض، ممسكًا بزمام فرسه بيد بإحكام، والتقط باليد الأخرى زمام «بود» من فوق الأعشاب،

وشدّ الأشرطة الجلدية بقوة، ذلك الجزء القليل الذي أرغم «بود» على أن يرفع رأسه إلى الأعلى وإلى الأمام. عندما رفع رأسه، لم يعد بإمكان «بود» أن يشبّ فراح يخب بشكل إيقاعي، سلس، وشدّ شون زمامه بقوة، وسحب رأس الفرس نحو ركبته، وأجبرها على أن تجري في دائرة. وفي كلّ مرة، كان يشدّ رأسها بقوة أكبر، ولفّ الشريط حول ساعده، مقلصًا الدائرة حتى أضحت صغيرة جدًّا، حتى توقفت الحوافر القاصفة. نزلت من السرج وأقعيت بين سنابل القمح التي كانت تخزني من خلال قميصي، وكان الحصانان، فوق رأسي، يلهثان، بطن كلّ واحد منهما منتفخة ومتهدلة، حوافر كلّ منهما تنبش في التراب.

الفصل ١٢ عينا السمكة

حصل أخي توني على قرض لشراء شاحنة طويلة، ولكي يتمكن من تسديد الدفعات، كان عليه أن يعمل عليها طوال الوقت، لذلك كان يعيش عمليًا على الطريق. حتى مرضت زوجته وطلب منها الطبيب الذي ذهبت لاستشارته (لقد ذهبت لاستشارة طبيب) أن تستريح فترة في السرير، فاتصل توني بشون وسأله إن كان بإمكانه أن يقود الشاحنة لمدة أسبوع أو أسبوعين.

كان شون يكره الشاحنات الطويلة، لكنّه وافق على القيام بذلك إذا رافقته. لم يكن أبي يحتاج إليّ للعمل في باحة الخردة، وكان بإمكان راندي أن يستغني عن خدماتي لبضعة أيام، فانطلقنا باتجاه لاس فيغاس، ثمّ اتجهنا شرقًا إلى البوكيرك، غربي لوس أنجلوس، ثمّ صعودًا إلى ولاية واشنطن. كنت أظن أنني سأرى المدن، لكنني لم أر في معظم الأحيان سوى الأماكن التي تقف فيها الشاحنات والطريق السريعة التي تربط بين الولايات. كان الزجاج الأمامي للشاحنة ضخمًا ومرتفعًا مثل قمرة الطائرة، فتبدو السيارات في الأسفل كأنها ألعاب. وكانت مقصورة النوم التي توجد فيها الأسرة معتمة مثل مغارة، عطنة، مليئة بأكياس رقائق الدوريتوس الفارغة والأوساخ.

قاد شون الشاحنة لأيام عدة ولم ينم إلا قليلًا، يبحر بالشاحنة التي يبلغ طولها خمسين قدمًا بسهولة كبيرة. وكان يزور السجلات عندما نمرّ عبر نقطة تفتيش، فيجعلها تبدو كأنه نام فترة أطول مما كان ينام فعلًا. وبين يوم وآخر، كنّا نتوقّف لنستحمّ ونتناول وجبة طعام غير الفاكهة المجففة والغرانولا.

بالقرب من البوكيرك، كانت مستودعات محلات Walmart مليئة بالشاحنات فلم نستطع تفريغ حمولتنا إلّا بعد يومين. كنّا خارج المدينة -لم أكن أرى إلّا شاحنات ورمل أحمر في كل مكان- تناولنا التشيتوس ولعبنا ماريو كارت في مقصورة النوم في الشاحنة. وفي اليوم الثاني عند المغرب، شعرنا بالآلم بسبب جلوسنا لفترة طويلة، قال شون إنه يريد أن يعلمني فن الدفاع

عن النفس. أعطاني أول درس عند غروب الشمس عند موقف السيارات. قال: «إن كنت تعرفين ماذا تفعلين، فإنك تستطيعين أن تسلي أي رجل قدرته على المقاومة بأدنى جهد. يمكنك أن تسيطر على جسم شخص تمامًا باستخدام إصبعين فقط، لذلك يجب أن تعرفي النقاط الضعيفة، وكيف تستغلينها». أمسك برسغي وثناه، ثم لوى أصابعي إلى الأسفل حتى أصبحت قريبة من ساعدي بشكل مؤلم، وظل يضغط حتى انحنيت قليلًا، ثم ثنى ذراعي وراء ظهري للتخفيف من شدة الألم.

قال: «أترين؟ هذه نقطة ضعيفة، فإذا ثنيتها أكثر، فإنها ستشَلَّ حركتك». ابتسم ابتسامته الملائكية، وأضاف، «لكني لن أفعل ذلك لأنها ستؤلمك كثيرًا».

أفلتني وقال: «جربِّي أنتِ الآن».

ثنيتُ رسغه وضغطتها بقوة، محاولة أن أجعل الجزء العلوي من جسمه يتهاوى كما فعل لي، لكنه لم يتحرَّك.

«ربما تكون هذه الطريقة الأخرى مفيدة لك»، قال.

أمسك برسغي بطريقة مختلفة - الطريقة التي قد يمسك بها أي مهاجم، كما قال لي، وعلمني كيف أفلت من قبضته، عندما تكون الأصابع في أقصى حالات ضعفها، وتكون عظام ذراعي الأقوى، لأتمكن خلال بضع دقائق من لوي أصابعه السميكة، وعلمني كيف أتفادى لكمة، وأين يمكنني أن أسحق القصبة الهوائية.

في صباح اليوم التالي، عندما فُرِّغت الشاحنة، أخذنا شحنة جديدة وقدنا يومين آخرين، نراقب الخطوط البيض وهي تختفي تحت غطاء المحرك الذي لونه بلون العظم. لم تكن عندنا وسائل تسلية كثيرة، فلعبنا لعبة الكلام التي توجد لها قاعدتان: الأولى هي أن كل جملة يجب أن تحتوي على ما لا يقل عن كلمتين تُقلب فيها الحروف الأولى.

«أنتِ لستِ my little sister»، قال شون، «أنتِ my sittle lister». نطق الكلمات بتكاسل، محوِّلاً حرف t إلى d، فبدت «siddle lister».

أما القاعدة الثانية، فيجب تغيير كل كلمة تشبه الرقم، أو يبدو أن فيها رقمًا، ليصبح الرقم أعلى. مثل كلمة «to» (إلى) لأنها تُنطق كما يُنطق الرقم «two» (اثنان)، فتصبح «ثلاثة».

«Siddle Lister»، كان شون يقول، «يجب أن ندفع a-eleven-tion. هناك نقطة تفتيش أماننا ولا أستطيع أن أدفع مخالفة a-five-d. الوقت ثلاثة ضعي حزام المقعد».

عندما مللنا من هذه اللعبة، فتح جهاز اللاسلكي واستمعنا إلى النكات التي يتبادلها سائقو الشاحنات على الطرق السريعة.

«انتبهوا إلى عربة بأربع عجلات خضراء»، قال صوت أجش، عندما كنّا في مكان بين مدينتي ساكرامنتو وبورتلند. إنه يقود برعونة في النقطة العمياء من شاحنتي منذ نصف ساعة».

فسّر لي شون أن سائقي الشاحنات يطلقون اسم «العربة ذات الأربع عجلات» على السيارات والشاحنات الصغيرة.

انبعث صوت آخر من جهاز اللاسلكي يشتمكي من سيارة من طراز فراري حمراء تتجاوز السيارات بسرعة ١٢٠ ميلًا بالساعة. «كاد هذا اللقيط أن يصطدم بسيارة شيفروليه زرقاء صغيرة» جأر الصوت العميق خلال الخشخشة. «خراء، هناك أطفال في تلك السيارة. هل يوجد أحد في المقدمة يستطيع أن يهدئ من غلواء هذا الشاب المتهور؟» وحدّد الصوت موقع تلك السيارة.

نظر شون إلى مؤشر السرعة. كنّا في المقدمة، ثم قال: «أنا أقود شاحنة بيتربيلت، بيضاء، أسحب مقطورة براد». ساد صمت بينما راح كل سائق منهم يتفحص مراياه ليرى شاحنة بيتربيلت تجرّ مقطورة برّاد. ثم انطلق صوت ثالث، أكثر خشونة من الأول، وقال: «أنا أقود كي دبليو زرقاء».

«إني أراك»، قال شون، ولكي يريني إياها، أشار إلى شاحنة كينورث زرقاء فاتحة اللون تسبقنا ببضع سيارات.

عندما ظهرت سيارة الفراري في مرايانا العديدة، زاد شون سرعته وراح يسير بجانب شاحنة الكينورث حتى أصبحت المقطورتان التي يبلغ طول الواحدة منهما خمسين قدمًا تسيران جنبًا إلى جنب، وسدّتا كلا المسارين. أخذ سائق الفراري يطلق زمور سيارته عاليًا، يتقدم إلى الأمام ثم يعود إلى الوراء، ثم يضغط على فرامله، ويطلق زموره مرة أخرى.

«إلى متى سنبقى في الخلف؟» قال الصوت الأجشّ، مع ضحكة عميقة.

«حتى يهدأ قليلًا»، أجابه شون. وبعد خمسة أميال، تركاه يمرّ.

استمرت الرحلة حوالى أسبوعًا، ثمّ أخبرنا توني بأن يجد لنا شحنة إلى أيدياهو.

«حسنًا، سيدل ليستر» قال شون عندما توقفنا في باحة الخردة، «لقد عدنا إلى العمل».

أعلنت دار أوبرا وورم كريك عن بدء مسرحيّة جديدة: كاروسيل. بدأ شون يوصلني بسيارته للتدريب، ثمّ فاجأني بأنه بدأ يتدرب هو أيضًا. وكان تشارلز هناك أيضًا، يتحدث مع فتاة في السابعة عشرة من عمرها، اسمها سادي. كان تهزّ رأسها موافقة على ما يقوله لها تشارلز، لكن عينيها كانتا مصوبتين نحو شون.

خلال البروفة الأولى، جاءت سادي وجلست بجانبه، ووضعت يدها على ذراعه وهي تضحك وتلقي بشعرها إلى اليمين واليسار. كانت جميلة جدًّا، لها شفتان مكتنزتان ناعمتان، وعينان سوداوان كبيرتان، لكن عندما سألت شون هل أعجبه، قال لا.

«لها عينا سمكة»، قال.

«عينا سمكة؟»

«نعم، عينا سمكة. تلك الأسماك غبية تخلو من أي حياة. إنها جميلة لكن رؤوسها خاوية مثل عجلة سيارة».

بدأت سادي تتردد على باحة الخردة عند انتهاء العمل تقريرًا، وكانت تجلب لشون عادة كوكتيل الحليب أو بعض البسكويت أو قالب كيك. ولم يكد شون

يكلّمها، وإنما يأخذ ما تجلبه له ويسير نحو الحظيرة. كانت سادي تتبعه وتحاول أن تكلّمه بينما ينشغل بخيوله، حتى سألتها ذات مساء إن كان بوسعه أن يعلّمها ركوب الخيل. حاولت أن أوضح لها أنّ خيولنا ليست مروضة جيّدًا، لكنّها كانت مصممة، فوضعها شون على الحصان «أبولو» وسرنا ثلاثتنا نحو الجبل. لكن شون تجاهلها هي وأبولو، ولم يساعدها كما ساعدني عندما علّمني كيف أقف وقدماي في الركاب عندما أهبط الوديان الشديدة الانحدار، أو كيف أضغط فخذي حول بطن الحصان عندما يقفز فوق غصن. كانت سادي ترتجف طوال الجولة، لكنّها تظاهرت بأنها مستمتعة بركوب الخيل، وكانت تستعيد ابتسامتها بشفتيها المطليتين بأحمر الشفاه كلّما نظر نحوها.

أثناء البروفة التالية، سأل تشارلز سادي شيئًا عن أحد المشاهد في المسرحية، فآههما شون يتحدّثان. وعندما عادت سادي بعد دقائق عدة رفض شون أن يكلّمها، وأدار لها ظهره فراحت تبكي.

«لماذا تفعل ذلك؟» سألتها.

«لا شيء»، قال.

لكن بدا أن شون نسي ذلك في البروفة التالية بعد بضعة أيام. اقتربت منه سادي بحذر، فابتسم لها، وبعد دقائق، رأيتها يتحدّثان ويضحكان. ثم طلب منها شون أن تعبر الشارع وتشتري له قطعة شوكولاته سنيكرز من المحل قبالة الشارع. بدا أنها سُرّت لأنّه طلب منها ذلك، فأسرعت لتحضّرها له، وعندما عادت بعد عدة دقائق وأعطته قطعة الشوكولاته، قال لها: «ما هذا الخراء؟ لقد طلبت منك شوكولاته ميلك واي».

«لا»، قالت، «طلبت شوكولاته سنيكرز».

«أريد شوكولاته ميلك واي».

فعدت سادي مرة أخرى وأحضرت له شوكولاته ميلك واي. أعطتها له وضحكت ضحكة متوترة، فقال لها شون، «أين الشوكولاته سنيكرز؟ ماذا، هل نسيت مرة أخرى؟»

«قلت إنك لم تردها!» قالت، عيناها تلمعان كالزجاج، وأضافت، «لقد أعطيتها لتشارلز!»

«اذهبي واجلبوها».

«سأشتري لك قطعة أخرى».

«لا»، قال شون. كانت عيناها جامدتين. أسنانه الطفولية التي تمنحه عادة مظهرًا لعبًا شيطانيًا، جعلته يبدو الآن شخصًا مزاجيًا، لا يستطيع أحد أن يتوقع ماذا يمكن أن يفعل. «أريد تلك. هيا اذهبي وأحضريها، أو لا تعودي أبدًا».

سالت دمعة على خدّ سادي لطّخت مجمل الرموش في عينيها. توقفت لحظة لتجففها وابتسمت، ثم سارت نحو تشارلز، وبدأت تضحك كما لو أنه لم يكن هناك شيء، وسألته إن كان بوسعها أن تستعيد منه قطعة شوكلاته السنيكرز. فمدّ يده إلى جيبه وأخرجها، وراح يراقبها عندما سارت عائدة إلى شون. وضعت سادي قطعة الشوكلاته سنيكرز في راحة يد شون كأنها هدية لاسترضائه. كانت مطرقة الرأس، تحدّق في السجادة. فشدها شون إلى حضنه وأكل لوح الشوكلاته في ثلاث قضمات.

«عيناك جميلتان»، قال لها، «تشبهان عينا السمكة».

كان والدا سادي على وشك الطلاق، وانتشرت في البلدة شائعات عن أبيها. عندما سمعت أمّي تلك الشائعات، قالت إنها فهمت الآن لماذا أصبح شون يبدي اهتمامًا بسادي، وقالت: «إنه يحمي دائمًا الملائكة المكسورة الجناح».

وجد شون برنامج صفّ سادي في المدرسة وحفظه غيبًا، وبدأ يذهب إلى مدرستها مرات عدة في اليوم، خصوصًا في الفترات التي يعرف أنها تنتقل فيها من مبنى إلى آخر. كان يركن سيارته بجانب الطريق السريع ويراها من بعيد، من مكان بعيد جدًا كي لا تستطيع أن تأتي إليه، لكن من مسافة تستطيع أن تراه فيها. كنّا نفعل ذلك معًا، أنا وهو، كلّما ذهبنا إلى البلدة. وكنا نذهب أحيانًا عندما لا نكون بحاجة إلى الذهاب إلى البلدة. وفي أحد الأيام، رأينا

سادي واقفة على درج المدرسة مع تشارلز. كانا يضحكان معًا. ولم تر سادي سيارة شون.

رأيت وجهه يتصلّب، ثمّ يسترخى. ابتسم في وجهي، وقال: «لديّ العقاب المناسب»، وأضاف، «بكل بساطة لن أراها مرة أخرى. كلّ ما عليّ أن أفعله هو أنني لن أراها، وستعاني من ذلك».

كان محقّقًا. فعندما لم يعد يردّ على مكالماتها، أصبحت سادي يائسة، وطلبت من الصبية في مدرستها بالألّا يسيروا معها، لكي لا يراها شون معهم، وعندما كان شون يقول لها إنه لا يحبّ أحد أصدقائها، كانت سادي تتوقف عن رؤيته.

بدأت سادي تأتي إلى بيتنا يوميًا بعد انتهاء المدرسة، وكنت أرى حادثة شوكولاته سنيكرز تتكرر باستمرار، لكن بأشكال مختلفة، ومتعددة. فقد كان شون يطلب من سادي أن تجلب له كأس ماء، وعندما تجلبه، يقول لها إنه يريد قليلًا من قطع الثلج، وعندما تجلب له قطع الثلج، يطلب منها أن تحضر له كأس حليب، ثمّ ماء، ثم ثلج، ثم لا يريد الثلج، ثمّ يقول لها إنه يريد كأس عصير. وقد يستمرّ ذلك لمدة ثلاثين دقيقة قبل أن يسألها، في اختبار نهائي، عن شيء غير موجود في البيت، فتنتقل سادي بسيارتها إلى البلدة لشراؤه - بوظة بالفانيليا، بطاطا مقلية، وبوريتو- وعندما تعود يطلب منها شيئًا آخر. وكنت أشعر بالراحة عندما يخرجان.

ذات ليلة، عاد إلى البيت في وقت متأخر وكان معكّر المزاج. كان الجميع يغطون في النوم ما عداي. كنت جالسة على الأريكة، أقرأ فصلًا من الكتاب المقدّس قبل أن آوي إلى الفراش. انسلّ شون بجانبني وقال لي: «أحضري لي كأس ماء».

«وهل كسرت ساقك؟» قلت له.

«أحضريها، وإلا لن أوصلك إلى البلدة غدًا».

أحضرتُ له كأس الماء. عندما أعطيته الكأس، رأيته يبتسم، وفجأة دلق الماء على رأسه. جريت في الممر، لكنه أمسك بي عندما اقتربت من

غرفتي.

قال: «اعتذري». كانت قطرات الماء تسيل من أنفه على قميصه القطني.
«لن أعتذر».

أمسك قبضة من شعري، قدرًا كبيرًا منه. كانت قبضته ملتصقة بجذر شعري لتمنحه قوة أكبر، وراح يشدني إلى الحمام. تمسكت بقبضة إطار الباب، لكنه رفعني عن الأرض، وأمسكني من كلتا ذراعي وأسقط رأسي في فتحة المرحاض. «اعتذري»، قال. لم أفتح فمي. دفع رأسي أكثر في الفتحة، فاحتك أنفي ببورسلان المرحاض المبقّع. أغمضت عيني، لكن الرائحة لم تنسني أين أنا.

حاولت أن أتخيل شيئًا آخر، شيئًا يخرجني من نفسي، لكن الصورة التي تبادرت إلى ذهني كانت صورة سادي، وهي جاثمة، مطيعة. ملأني ذلك بالشعور بالكراهية. ظل ممسكًا بي في تلك الوضعية، أنفي يلامس حوض المرحاض، ربّما لدقيقة، ثم رفعني. كانت أطراف شعري مبلّلة، فروة رأسي تؤلمني.

خيّل إليّ أن الأمر انتهى. فبدأت أخطو إلى الوراء عندما أمسك برسغي ثانية وقتله، وثنى أصابعي وراحة كفي في شكل لولب. ظلّ يثنيها حتى بدأ جسمي يتلوى، وراح يضغط أكثر، فانحنيت، بدون تفكير، وبدون إدراك، مثل قوس، ظهري محنّي، يكاد رأسي يلمس الأرض، ذراعاي مثبتتان وراء ظهري.

عندما كان شون يريني هذه الحركة عند موقف السيارات، استطعت أن أتحرّك قليلًا فقط، مستجيبة لوصفه أكثر من استجابتي لأيّ ضرورة جسدية. لم تكن تبدو مؤلمة جدّا آنذاك، أما الآن فقد فهمت ماذا تعني هذه المناورة: السيطرة. لم أكد أستطيع أن أتحرّك، لم أكد أستطيع أن أتنفّس، دون أن يكسر رسغي. أمسكني شون بإحدى يديه، فلم أعد أستطيع أن أتحرّك، ودلّى الأخرى إلى جانبه، ليريني كم هي سهلة.

سأظل أكثر صلابة من سادي، قلت في نفسي.

كما لو أنه قرأ ما يجول في رأسي، لوى رسغي أكثر. كان جسمي ملوياً
بشدة، وجهي يحتك بالأرض. فعلت كل ما بوسعي لأخفف من حدّة الضغط
على رسغي، لأنه إذا استمر في ليّ، فإنه سينكسر.

«اعتذري»، قال.

مرّت لحظة طويلة أحرقت فيها النار ذراعي ووصلت إلى دماغي.
«أنا آسفة»، قلت.

أفلت رسغي فوقعت على الأرض. سمعت وقع خطواته في البهو.
استويت واقفة، وأقفلت باب الحمام بهدوء، ثمّ رحت أحدّق في المرأة إلى
الفتاة التي تمسك رسغها. كانت عيناها زجاجيتين قطرات تسيل على خديها.
كرهتها لأنها فتاة ضعيفة، لأن لها قلب سيتحطم. أنّ يكون بإمكانه أن يؤذيها،
أن يكون بإمكان أي شخص أن يؤذيها، شيء لا يمكن تبريره.

أنا أبكي من الألم فقط، قلت لنفسي: من الألم في رسغي، لكن ليس من
أيّ شيء آخر.

هذه اللحظة ستحدّد ذاكرتي عن تلك الليلة، وعن ليالي كثيرة تشبهها،
على مدى عشر سنوات. فقد رأيت فيها نفسي بأنني لا أكسر، طرية مثل
حجرة. في البداية اعتقدت بذلك فقط، حتى أصبح ذات يوم حقيقة، ثمّ
أصبحت قادرة على أن أقول لنفسي، بدون كذب، بأنها لم تؤثر فيّ، بأنّه لم
يؤثر عليّ، لأن لا شيء أثر فيّ. لم أفهم كم كنت مصيبة في ذلك. كيف فرّغت
نفسي من الداخل. لأنه بالرغم من كلّ مخاوفي من عواقب تلك الليلة، لم
أفهم الحقيقة الجوهرية: وهي أنها لم تؤثر فيّ، وأن هذا هو تأثيرها.

الفصل ١٣

صمت في الكنائس

في أيلول (سبتمبر)، سقط البرجان التوأم. لم أكن قد سمعت عنهما من قبل حتى سقطا. عندما رأيت الطائرات تخرقهما، رحت أحدّق، مشوشة، في شاشة التلفزيون عندما بدأ المبنى الطويلان بشكل لا يمكن تصوّره يتمايلان، ثمّ انهارا. وقف أبي الذي هرع من باحة الخردة ليرى المشهد أيضاً، بجانبى. لم يفه بكلمة واحدة. في ذلك المساء، قرأ بصوت مرتفع من الكتاب المقدّس، فقرات من أسفار أشعيا ولوقا والرؤيا عن الحروب والشائعات عن نشوب حروب.

بعد ثلاثة أيام، عندما بلغت أودري التاسعة عشرة، تزوّجت - من شاب أشقر الشعر، اسمه بنجامين، يعمل في مزرعة قريبة، كانت قد تعرّفت عليه عندما كانت تعمل نادلة في أحد المطاعم في البلدة. كان الزفاف رسمياً ومهيباً، وصلىّ أبي الذي جاءه وحي وقال: «سينشب صراع، صراع نهائي فوق الأرض المقدّسة، وسيُرسَل أبنائي إلى الحرب، ولن يعود بعضهم إلى البيت».

منذ ما جرى تلك الليلة في الحَمّام، بدأت أتحاشى شون الذي اعتذر مما جرى. فقد جاء إلى غرفتي بعد ساعة، عيناه جامدتان، صوته متهدج، وطلب أن أسامحه. قلت له إني سأسامحه، وأُثني سامحته للتو. لكنّي لم أسامحه.

عندما رأيت إخوتي في بدلاتهم السوداء، أثناء زفاف أودري، تحوّل غضبي إلى خوف، إلى إحساس بأنني لا بد أن أفقدهم، فسامحت شون. كان من السهل أن أغفر: لأن نهاية العالم باتت وشيكة، وعشتُ الشهر حابسة أنفاسي. ثمّ لم يُستدعَ إخوتي إلى الجيش، ولم تحدث هجمات أخرى. ولم تُظلم السماء، ولم يتحوّل القمر إلى دم. كانت تدور همهمات عن الحرب من بعيد، لكن الحياة في الجبل استمرت كما هي ولم يطرأ أي تغيير. لكن أبي قال إننا يجب أن نطلّ حذرين، وعندما حلّ الشتاء، عدت إلى مسيرة حياتي المعتادة.

كنت قد بلغت الخامسة عشرة، وبدأت أشعر بذلك، وانتابني إحساس بأنني أسابق الزمن. فقد بدأت تطرأ تغييرات على جسدي: ينتفخ، يتورّم، يتمدد، يمتلئ. تمنيت أن يتوقّف ذلك، لكن بدا أن جسمي لم يعد ملكًا لي، وإنما أصبح ملكًا لنفسه، ولم يعد يهتم بالأحاسيس التي تنتابني حول هذه التغيرات الغريبة، على الرغم من أنني كنت أريد أن أتوقّف عن أن أكون طفلة، وأصبح شيئًا آخر.

أثار ذلك الشيء الآخر بهجتي، لكنه أثار خوفي أيضًا. فقد كنت أعرف دائمًا أنني سأنمو بشكل مختلف عن إخوتي، لكنني لم أفكر قط ماذا يمكن أن يعني ذلك. وقد استحوذ على تفكيري. فبدأت أبحث عن إشارات وعلامات لأفهم هذه الاختلافات، وعندما بدأت أبحث، بدأت أجدها في كل مكان.

ذات يوم، كنت أساعد أمّي في تحضير الشواء للعشاء. كان أبي يخلع حذاءه ويحلّ ربطة عنقه. لم يتوقف عن الكلام منذ أن غادرنا الكنيسة.

قال أبي: «كان طرف ثوب لوري فوق ركبتها بثلاث بوصات. بماذا تفكر المرأة عندما ترتدي ثوبًا كهذا؟» هزّت أمّي رأسها بشرود وهي تقطّع الجزر لأنها اعتادت على سماع هذا النوع من المحاضرات.

ثم أضاف: «أما جانيت بارني. فعندما ترتدي امرأة بلوزة ذات فتحة واسعة عند الصدر، فيجب ألاّ تنحني». هزّت أمّي رأسها موافقة. تخيلت البلوزة الفيروزية اللون التي كانت جانيت ترتديها في ذلك اليوم. كانت فتحة بلوزتها تصل إلى أسفل عظم ترقوتها بحوالي سنتيمترين ونصف فقط، لكنّها كانت واسعة، وتخيلت أنها عندما تنحني سيظهر كل شيء. عندما خطر لي ذلك، اعتراني شعور بالقلق، لأنها لو كانت ترتدي بلوزة أضيق فلن يظهر شيء عندما تنحني، لكن الضيق نفسه ليس شيئًا محتشمًا، لأن النساء التقيات لا يرتدين ثيابًا ضيقة، أما النساء الأخريات فإنهن يفعلن ذلك.

كنت أحاول أن أعرف كم يجب أن تكون البلوزة ضيقة لكي تكون مقبولة، عندما قال أبي، «لقد انحنت جانيت لتتناول كتاب التراتيل حتى أنظر إليها. كانت تريد أن أراها». فصكّت أمّي أسنانها باستهجان، ثمّ واصلت تقطيع البطاطا.

سيلازمني هذا الكلام طويلًا. وقد تذكّرت هذه الكلمات كثيرًا في السنوات التالية، وكلما فكّرت بها أكثر، ازداد شعوري بالقلق بأنني قد أكبر ولا أصبح تلك المرأة الصالحة. ولم أكن أتحرّك كثيرًا عندما أكون في غرفة لأنني أخشى دائمًا أن أمشي أو أنحني أو أجلس مثلهن، ولم يعلّمني أحد الطريقة المحتشمة التي يجب أن أتبعها إذا انحنيت، وكنت أعرف أنني قد أفعل ذلك بطريقة غير ملائمة.

أجرينا أنا وشون اختبارًا لمسرحية ستُعرض في أوبرا وورم كريك. رأيت تشارلز في البروفة الأولى وأمضيت نصف المساء وأنا أستجمع شجاعتي لكي أكلمه. وعندما كلمته أخيرًا، أفضى إليّ بالله يحبّ سادي. لم يكن ذلك شيئًا مثاليًا، لكنّه أتاح لنا شيئًا نتحدّث عنه.

عدت مع شون إلى البيت. جلس وراء المقود وراح يحدّق في الطريق أمامه كما لو أن أحدًا قد أساء إليه.

«رأيتك تكلمين تشارلز»، قال، «لا أظن أنك تريدين أن يظنّ الناس بأنك من ذلك النوع من الفتيات».

«النوع الذي يتكلّم مع الآخرين؟»

«تعرفين ماذا أقصد»، قال.

في الليلة التالية، دخل شون إلى غرفتي فجأة ورآني أضع مجلّ الرموش القديم الذي تركته أختي أودري.

«هل تضعين مكياجًا الآن؟» قال.

«أظنّ ذلك».

استدار بسرعة ليغادر الغرفة لكنه توقّف عند مدخل الباب، وقال: «كنت أظنّ أنّك أفضل منهن، لكنك لا تختلفين عن الأخريات».

لم يعد يناديني سيدل ليستر. وعندما كنا في المسرح ذات مساء صاح لي من آخر الصالة، «هيا نذهب، يا صاحبة عيون السمكة!» نظر تشارلز باستغراب. بدأ شون يشرح معنى الاسم، فبدأت أضحك بصوت عالٍ لأغطي على صوته. رحت أضحك كما لو أنني أحبّ هذا الاسم.

في أول مرة وضعت فيها ملمّع شفاه، قال شون إنني قحبة. كنت في غرفة نومي، أقف أمام مرآتي، أجربّه، عندما ظهر شون عند الباب، قالها كما لو كان يقول نكتة لكّني مسحته من شفّتي. عندما ذهبنا إلى المسرح في تلك الليلة، لاحظت تشارلز يحدّق في سادي، وضعت ملمّع الشفاه ثانية، ورأيت تعابير شون قد تغيرت. كانت عودتنا إلى البيت في تلك الليلة مفعمة بالتوتر. كانت درجة حرارة الجو قد انخفضت إلى ما تحت الصفر بكثير. قلت له إنني أشعر بالبرد، فتحرك شون ليرفع درجة الحرارة في السيارة، لكنه توقّف، ثم ضحك وفتح جميع نوافذ السيارة فهبّت عليّ ريح كانون الثاني (يناير) مثل دلو مليء بالثلج. حاولت أن أغلق النافذة التي بجانبني، لكنه أغلق مفتاح التحكم بالنوافذ. طلبت منه أن يغلق النافذة. «أشعر ببرد شديد»، ظللت أقول له، «أشعر بالبرد». لكنه كان يضحك، وأمضى مسافة الاثني عشر ميلاً هكذا، يضحك كما لو كان يلعب لعبة، كما لو كنّا نلعبها معًا، كما لو أن أسناني لم تكن تصطك من شدة البرد.

ظننت أن الأمور ستتحسّن عندما ترك شون سادي -أظن أنني أقنعت نفسي بأنها هي المسؤولة عن ذلك- فلولا الأشياء التي فعلها لكان شخصًا مختلفًا. وبعد أن ترك سادي، عاد إلى صديقة قديمة اسمها إرين. كانت تكبره في العمر، ولم تكن مستعدة لتنفيذ أعباءه. في البداية، ظننت إنني محقّة، وأنّ تصرفاته بدأت تتحسن.

ثمّ دعا تشارلز سادي إلى العشاء، فقبلت دعوته، وسمع شون بذلك. كنت أعمل في محل راندي في وقت متأخر من تلك الليلة عندما جاء شون، يرغي ويزبد. غادرت معه. ظننت أنني أستطيع أن أهدئ من روعه، لكّني كنت مخطئة. دار بسيارته حول البلدة لمدة ساعتين وهو يبحث عن سيارة تشارلز الجيب. كان يلعن ويقسم بأنّه عندما يجد ذلك النغل فإنه سيجعل له «وجهًا جديدًا». جلست في المقعد الأمامي في شاحنته الصغيرة، أنصت إلى دوران المحرّك وهو يبتلع الديزل، أراقب الخطوط الصفراء وهي تختفي تحت غطاء المحرك. رحت أفكّر بأخي كما عهدته، كما تذكّرتّه، كما أردت أن أتذكّره. تذكّرت بوكيرك ولوس أنجلوس، والأميال التي قطعناها معًا على الطريق السريع. كان يضع مسدّسًا على المقعد بيننا، وكلما غيّر شون السرعة، كان

يرفعه أحيانًا ويمسده بيده ويفتله حول سباته قبل أن يعيده إلى مكانه على المقعد حيث تضيء الأضواء المنبعثة من السيارات العابرة فوهته الفولاذية.

استيقظت وأنا أشعر بإبر تخز دماغي. آلاف الإبر، تلسعني، تحجب رؤية أي شيء، لكن بعد لحظة مبهرة، تلاشت تلك الإبر، واستعدتُ توازني.

كان ذلك في وقت مبكر من الصباح، وكانت أشعة الشمس الكهرمانيّة تتسلل عبر نافذة غرفة نومي. وقفت لكن ليس بقوة. كانت يدان تمسكان بحنجرتي، وتهزّاني. عادت الإبر، وكاد دماغي ينسحق فوق جمجمتي. كانت أمامي بضع ثوان فقط قبل أن أتساءل لماذا عادت الإبر ثانية، تمرّق أفكاري. كانت عيناى مفتوحتين لكنّي لم أكن أرى سوى ومضات بيض. لم تصلني إلّا بضعة أصوات.

«قحبة!»

«عاهرة!»

ثمّ صوت آخر. أمّي. كانت تبكي. «توقّف! ستقتلها! توقّف!»

لا بدّ أنها أمسكت به لأنني أحسست بجسدي يلتوي. وقعت على الأرض. عندما فتحت عيني، كانت أمّي وشون يواجه أحدهما الآخر. كانت أمّي ترتدي رداء حمّام مهترئًا.

سُحبت حتى أقف على قدميّ. أمسك شون بقبضة من شعري، كما فعل من قبل، وأمسك كتلة شعري من فروة رأسي ليتمكن من السيطرة عليّ بالكامل، وشدّني إلى الممر. كان رأسي مضغوطًا على صدره. وكان كلّ ما أستطيع أن أراه قطعًا من السجادة تتطاير تحت قدميّ المتأرجحتين. كان رأسي يقصف بقوة، وكنت أجد صعوبة في التنفّس، لكنّي كنت قد بدأت أفهم ما الذي يجري. ثمّ كانت هناك دموع في عينيّ.

من الألم، ظننّت.

«الكلبة تبكي الآن»، قال شون، «لماذا؟ لأن أحدًا يرى العاهرة فيك؟»

حاولتُ أن أنظر إليه، لأبحث في وجهه عن أخي، لكنّه دفع برأسي نحو الأرض فوقعت. زحفْتُ مبتعدة، ثم نهضت بصعوبة. كان المطبخ يدور، نقاط

غريبة باللونين الوردي والأصفر تلوح أمام عيني.

كانت أمي تنشج، تشدّ شعرها.

«إني أراك على حقيقتك»، قال شون. كانت عيناه وحشيتين، «تتظاهرين بأنك قديسة وتذهبين إلى الكنيسة. لكنني أراك على حقيقتك. رأيت كيف كنت تتصرفين مع تشارلز مثل مومس». والتفت إلى أمي ليرى تأثير كلماته عليها. كانت قد انهارت على طاولة المطبخ.

«لا، إنها ليست كذلك»، همست أمي.

كان شون لا يزال متجهًا نحوها. قال لها إنها لا تعرف الأكاذيب التي أكذبها، وكيف أنني أخدعها، وكيف أنني ألعب دور الفتاة الصالحة في البيت، لكنني أصبحت في البلدة عاهرة كاذبة. بدأت أتحرك نحو الباب الخلفي.

قالت لي أمي أن آخذ سيارتها وأذهب، لكن شون التفت إليّ وقال: «ستحتاجين إلى هذه»، ورفع مفاتيح سيارة أمي.

«لن تذهب إلى أي مكان قبل أن تعترف بأثها عاهرة»، قال شون.

أمسك برسغي وانزلق جسمي إلى الوضعية المألوفة، رأسي مدفوع إلى الأمام، وذراعي ملتفة وراء أسفل ظهري، رسغي مثنية بقوة حول رسغه. ومثل خطوة في رقصة، تذكرت عضلاتي فأسرعت لأتناغم مع الموسيقى. واندفع الهواء من رئتي عندما حاولت أن أنحني أكثر، لأريح عظمة رسغي بأقصى ما يمكنني.

«انطقها»، قال.

لكنني كنت في مكان آخر. كنت في المستقبل. وبعد بضع ساعات، كان شون جاثيًا بجانب سريري، يتأسف. كنت أعرف أنه سيفعل ذلك.

«ماذا يحدث هنا؟» تنهأ صوت رجل من بئر الدرج في البهو.

أدرت رأسي ورأيت وجهًا يحوم بين الدرايزين الخشبي. إنه تايلر.

لا بد أنني كنت أهلوس. فلم يعد تايلر إلى البيت منذ أن غادره قط. عندما فكرت بذلك، بدأت أضحك بصوت عال، قهقهة عالية. أي مجنون يعود إلى هذا

المكان بعد أن هرب منه؟ كانت تغشى بصري الآن نقاط وردية وصفراء كثيرة. كنت أشعر بأنني أقيع داخل كرة من الثلج. هذا جيّد. أقصد أنني كنت على وشك أن أغيب عن الوعي. كنت أتطلّع لحدوث ذلك.

ترك شون رسغي فسقطت مرة أخرى. رفعت عينيّ ورأيت نظرتة مصوبة نحو بئر الدرج. عندها فقط أدركت أن تايلر كان حقيقياً.

خطا شون خطوة إلى الوراء. كان قد انتظر حتى غادر أبي ولوك البيت، وابتعدا وانهما في عملهما، لكي لا يوقفه أحد من ممارسة سلطته عليّ. كانت مواجهة شقيقه الأصغر -أقل شراً لكنه كان قوياً بطريقته الخاصة- شيئاً لم يكن يتوقعه.

«ما الذي يجري هنا؟» كرّر تايلر سؤاله، ورمق شون وهو يتقدم إلى الأمام ببطء، كما لو كان يقترب من أفعى الجرس.

توقّفت أمّي عن البكاء. كانت محرّجة. فقد كان تايلر غريباً الآن. فقد غادر البيت منذ زمن، وأصبح من فئة الناس الذين لا نفضي لهم بأسرارنا، الناس الذين نخبئ عنهم ما يجري في بيتنا.

صعد تايلر الدرج، وراح يتقدّم نحو أخيه. كان وجهه متجهماً، تنفّسه ضحلاً، لكن تعابير وجهه لم تكن تشي بأنه فوجئ. بدا لي أنّ تايلر يعرف ما الذي يفعله شون، وأنّه قد فعل ذلك من قبل، عندما كانا أصغر، وكانا أقلّ توافقاً. توقف تايلر وراح يحدّق في شون كأنّه يريد أن يقول، إن ما يجري هنا، كان قد جرى من قبل.

بدأ شون يدمدم شيئاً عن ثيابي وما الذي فعلته في البلدة، فقاطعه تايلر بحركة من يده، وقال: «لا أريد أن أعرف شيئاً»، ثمّ التفت إليّ وقال: «اذهبي، اخرجي من هنا».

«لن تذهب إلى أيّ مكان»، كرّر شون، ملوّحاً بحلقة المفاتيح. ألقي تايلر لي مفاتيحه، وقال: «هيا اذهبي». جريت إلى سيارة تايلر المحشورة بين شاحنة شون وقرن الدجاج. حاولت أن أعود إلى الوراء، لكنني ضغطت بقوة على دواسة البنزين فأخذت الدواليب تدور وتلقي بالحصى على جانبها. في

محاولتي الثانية، نجحت. فاندفعت السيارة إلى الوراء ودرت دورة، ثم حوّلت ناقل الحركة، وأصبحت مستعدة للانطلاق إلى أسفل التلّ عندما خرج تايلر إلى الشرفة. فتحت النافذة. صاح، «لا تذهبي إلى مكان عملك لأنه سيُجِدُك هناك».

في تلك الليلة، عندما عدت إلى البيت، كان شون خارج البيت. كانت أمّي في المطبخ تخلط الزيوت. لم تقل شيئاً عما حدث في ذلك الصباح، وكنت أعرف أنّني يجب ألاّ أذكر عنه شيئاً. أويت إلى فراشي، لكن لم يغمض لي جفن طوال ساعات حتى سمعت صوت هدير شاحنة صغيرة فوق التلّ. وبعد دقائق عدة، أصدر باب غرفة نومي صريراً وفُتح. سمعت نقرة المصباح، ورأيت الضوء يتقافز على الحيطان، وأحسست بوزنه يهبط فوق سريري. استدرت وأصبحت في مواجهته. وضع علبة مخملية سوداء بجانبني. عندما لم ألمسها، فتح العلبة وأخرج منها سلسالاً فيه لآلئ حليبية اللون. قال إنّّه يستطيع أن يرى الدرب الذي أسير فيه، وهو ليس درباً جيّداً. وقال إنّني أخسر نفسي، وسأصبح مثل الفتيات الأخريات، الطائشات، المتلاعبات، اللاتي يستخدمهن مظهرهن ليحصلن على ما يردن.

رحت أفكّر بجسدي، بكلّ الطرق التي تغيّر فيها. لم أكن أعرف تمامًا كيف كانت مشاعري نحوه: ففي بعض الأحيان كنت أريد أن يلاحظه الآخرون، أن يُبدوا إعجابهم به، لكنني عندما أتذكّر جانبيت بارني، أشعر بالاشمئزاز منه.

«أنت فتاة خاصّة يا تارا»، قال شون.

هل أنا كذلك؟ أردت أن أصدّق أنني كذلك. كان تايلر قد قال لي ذات يوم إنّني فتاة خاصّة، منذ سنوات. كان قد قرأ لي فقرة من كتاب المورمون المقدّس قصة عن طفل ذكي سريع الملاحظة. «إنه يذكّرني بك»، قال لي تايلر آنذاك.

كانت تلك الفقرة تصف نبي المورمون العظيم، حقيقة وجدها مشوشة. فلا يمكن أن تكون المرأة نبية أبداً، ومع ذلك، قال تايلر إنّني ذكّرتّه بأحد أعظم الأنبياء من بين جميع الناس. ما أزال لا أعرف ما الذي كان يقصد بذلك، لكن ما فهمته في ذلك الحين هو أنّني أستطيع أن أثق بنفسني: بأنّ هناك شيئاً فيّ،

شيئًا يشبه الأشياء التي توجد لدى الأنبياء، وهو أنه ليس ذكرًا أو أنثى، ليس مسنًا أو شابًا، وإنما نوع له قيمة متأصلة ثابتة.

أما الآن، بينما أحدّق في ظلّ شون المنعكس على حائط غرفتي، أدرك نضوج جسدي، وأدرك آثامه ورغبتني في أن أرتكب خطيئة من خلاله، فقد تغيّر معنى تلك الذاكرة. وفجأة بدت تلك القيمة شرطية، كما لو أنها يمكن أن تؤخذ أو تُرمى جانبًا. فهي ليست متأصلة، راسخة، وإنما مكتسبة. لست أنا الشيء القيم هنا، لكن غشاوة القيود والعبادات قد حجبته.

نظرت إلى أخي. بدا لي أكبر سنًا في تلك اللحظة، أكثر حكمة، يعرف ما الذي يجري في العالم. يعرف عن النساء الدنيويات، فطلبت منه أن يمنعني من أن أصبح واحدة منهن.

«حسنًا، يا صاحبة عيون السمكة»، قال، «سأفعل».

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كانت رقبتني مزوّقة تؤلمني بشدة ورسغي متورمًا. وكان ينتابني صداع -لم يكن ألمًا في دماغي وإنما ألم حقيقي ينبعث من دماغي، كما لو كان العضو نفسه طريحًا. ذهبت إلى العمل لكنني سرعان ما عدت، وقبعت في زاوية مظلمة في القبو، أنتظر انتهاء الألم. تمددت على السجادة، أشعر بالضربات في دماغي، عندما رأيّ تايلر وانحنى فوق الأريكة عند رأسي. لم أكن سعيدة لأنه رأيّني. كانت رؤية تايلر لي وأنا في هذا الحال أسوأ من أن أجزّ من شعري في غرف البيت. وإن كنت قد خيّرت بين أن يحدث ذلك، وأن يأتي تايلر ليمنع حدوثه، فإنني أختار أن يحدث ذلك. من الواضح أنني سأختار ذلك، لأنني سأغيب عن الوعي، وسأنسى ما حدث، ولن يعود ذلك شيئًا حقيقيًا بعد يوم أو يومين، وإنما سيتحوّل إلى حلم سيئ، وسيغدو بعد شهر مجرد صدى حلم سيئ. أما عندما رأى تايلر ذلك، فقد أصبح شيئًا حقيقيًا.

«هل فكرتِ بمغادرة البيت؟» سألني تايلر.

«وإلى أين سأذهب؟»

«إلى المدرسة»، قال.

شعرت بالبهجة وقلت: «سأُسجِّل في المدرسة الثانوية في أيلول (سبتمبر)» وأضفت، «مع أن أبي لا يريد أن أذهب إلى المدرسة، فإني سأذهب». ظننت أن تايلر سيكون مسرورًا بما قلته، لكن وجهه تجهم.

«قلت ذلك من قبل».

«سأذهب».

«ربما» قال تايلر، ثم أضاف، «لكن ما دمت تعيشين تحت سقف أبي، فمن الصعب أن تفعلي ذلك إذا طلب منك أن لا تذهبي. من السهل أن تتأخري سنة أخرى، حتى لا تبقى أمامك سنوات. فإذا لم تصبحي طالبة في الجامعة، فكيف يمكنك أن تتخرجي؟».

كنا نعرف أنني لا أستطيع.

«لقد آن الأوان لتذهبي يا تارا»، قال تايلر، «وكلما انتظرت أكثر، قلت احتمالات مغادرتك».

«أترى أنني يجب أن أغادر؟».

فقال تايلر دون تردد: أظن أن هذا أسوأ مكان يمكن أن تعيشي فيه». كان يتكلم بهدوء، لكنني أحسست كأنه يصيح هذه الكلمات.

«إلى أين يمكنني أن أذهب؟».

«اذهبي إلى حيث ذهبت أنا»، قال تايلر، «اذهبي إلى الجامعة».

«كيف؟».

«إن جامعة بريغهام يونغ تقبل التلاميذ الذين تعلّموا في البيت»، قال.

فقلت «وهل نحن كذلك؟» هل تلقينا تعليمًا في البيت؟» حاولت أن أتذكر آخر مرّة قرأت فيها كتابًا مدرسيًا.

«لن يعرف أعضاء مجلس القبول إلّا ما نقوله لهم»، قال تايلر، «فإذا قلنا لهم إنك تعلّمت في البيت، فإنهم سيصدّقون ذلك».

«لن يقبلوني».

«سيقبلونك»، قال، «انجحي فقط في امتحان الشهادة الثانوية».

نهض تايلر واقفًا يهّم بالذهاب، ثم قال: «يوجد عالم هناك يا تارا، وستصبحين مختلفة تمامًا عندما لن تسمعي والدنا يهمس آراءه في أذنك».

في اليوم التالي ذهبت إلى مخزن الأدوات في البلدة واشترت قفلًا له مزلاج لأضعه على باب غرفة نومي. وضعته على سريري، ثم أحضرت من الورشة مثقابًا وبدأت أثبت البراغي. ظننت أن شون لم يكن في البيت، لأنني لم أر شاحنته الصغيرة عند مدخل البيت، لكن عندما استدرت والمثقاب بيدي، رأيته واقفًا عند الباب.

«ماذا تفعلين؟» سألني.

«قبضة الباب مكسورة» كذبت عليه، «والباب يُفتح من تلقاء نفسه. هذا القفل رخيص لكنه يفي بالغرض».

لمس شون الفولاذ السميكة بأصابعه الذي كان يعرف أنه لم يكن قفلًا رخيصًا. وقفت صامتة، يشلّني الخوف، وإحساس بالشفقة أيضًا. في تلك اللحظة كرهته، وأردت أن أصرخ في وجهه. تصوّرت كيف أنه سينهار، وكيف أن ثقل كلماتي ستهزمه وسيكره نفسه. في تلك اللحظة، فهمت حقيقة وهي أن شون يكره نفسه أكثر مما أستطيع أن أكرهه بكثير.

«ليست هذه هي البراغي المناسبة»، قال، «يجب أن تستخدمى براغي طويلة للحائط، وقابضات لتثبيتها في الباب، وإلا فإنه سيُكسر فورًا».

عدنا إلى الورشة. غاب شون بضع دقائق، ثم عاد ويده حفنة من البراغي الفولاذية. رجعنا إلى البيت وركّب القفل، وهو يدمدم لنفسه ويتسّم، كاشفًا عن أسنانه الطفولية.

الفصل ١٤

لم تعد قدماي تلامسان الأرض

في تشرين الأول (أكتوبر) حصل أبي على عقد لبناء مستودعات في مالاد سيتي، البلدة الزراعية المتربة الواقعة على الجانب الآخر من جبل بيكس باك. كان عملاً كبيراً بالنسبة لمجموعة صغيرة -فقد كان فريق العمل يتكوّن من أبي وشون ولوك وبنجامين، زوج أودري- وبما أن شون كان مشرقاً ناجحاً على العمل، فقد اكتسب أبي سمعة جيدة بأنه ينجز العمل بسرعة، وأصبح موضع ثقة. ولم يكن شون يسمح لأبي أن ينفذ العمل بطريقته المعهودة. وكنت أسمع في أحيان كثيرة أحدهما يصيح في وجه الآخر. فقد كان أبي يقول إن شون يضيق الكثير من الوقت، ويصرخ شون إن أبي لا يعامل الآخرين جيداً.

أمضى شون أياماً عدة في تنظيف المواد الأولية وقصّها ولحمها لبناء تلك المستودعات، وعندما بدأ البناء أصبح يأتي إلى موقع العمل في مالاد. وعندما كان يعود مع أبي إلى البيت، بعد الغروب بساعات عادة، كانا يتشاجران في معظم الأحيان، لأن شون يريد أن يكون العمل جَرفياً، وأن يشتري من الأرباح معدّات جديدة، بينما كان أبي يريد أن يبقى كل شيء على حاله. وكان شون يقول إن أبي لا يفهم أنه توجد منافسة في أعمال البناء أشدّ مما هي في العمل في الخردة، وأنهم إذا أرادوا الحصول على عقود حقيقية، فعليهم أن ينفقوا أموالاً حقيقية لشراء معدّات حقيقية، خصوصاً شراء جهاز لحام جديد ورافعة كبيرة لها سلة.

«لا يمكننا أن نواصل العمل باستخدام رافعة شوكية وسقالة متحركة»، قال شون، «هذا كله خراء، إضافة إلى أنها خطيرة».

ضحك أبي من فكرة شراء رافعة لها سلة، لأنه يستخدم رافعة شوكية وسقالة عادية منذ عشرين سنة.

في معظم الليالي كنت أعمل حتى ساعة متأخرة. ثم قرر راندي أن يقوم برحلة طويلة إلى بعض المدن ليستطلع آفاقاً جديدة، وطلب مني أن أدير

المحل أثناء فترة غيابه، وعلمني كيف أستخدم جهاز الكمبيوتر لتسجيل الحسابات، وتجهيز الطلبات، ووجد المواد. كنت قد سمعت عن الإنترنت لأول مرة من راندي الذي علمني كيف أدخل إلى الإنترنت، وكيف أزور صفحة ما على شبكة الانترنت، وكيف أكتب رسالة إلكترونية. وعندما غادر، أعطاني هاتفًا خلويًا ليتصل بي.

ذات ليلة اتصلت بتايلر بالهاتف وأنا عائدة إلى البيت من العمل. سألتني إن كنت قد بدأت أحضر لامتحان الشهادة الثانوية، فقلت له: «لا أستطيع أن أجري هذا الامتحان، لأنني لا أعرف شيئًا عن الرياضيات».

قال تايلر: «لديك نقود الآن، اذهبي واشتري كتبًا وادرسوها».

لم أقل شيئًا. فلم تكن الجامعة تهمني لأنني أعرف كيف سيكون مسار حياتي: فعندما أبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، سأ تزوج، وسيعطيني أبي قطعة في زاوية المزرعة نبنى فيها أنا وزوجي بيتًا، وستعلمني أمي التداوي بالأعشاب والتوليد الذي عادت لمزاولته بعد توقف داء الشقيقة. وعندما أنجب أطفالًا، فإن أمي ستولدّهم، وأغلب الظن أنني سأصبح ذات يوم، القابلة. فلم أرى أي مكان لي للدراسة.

يبدو أن تايلر قرأ أفكاره، فقال: «هل تعرفين الأخت سيرس؟». كانت الأخت سيرس قائدة فرقة الكورال في الكنيسة. «كيف تظنين أنها أصبحت قائدة فرقة الكورال؟»

كنت معجبة جدًا بالأخت سيرز، وكنت أحسدها لأنها تعرف الموسيقى، لكنني لم أفكر قط كيف تعلمتها.

«لقد درست»، قال تايلر، «هل تعرفين أنك تستطيعين أن تحصلي على شهادة في الموسيقى؟»

وعندما تحصلين عليها، يمكنك أن تعطي دروسًا، وأن تقودي فرقة كورال الكنيسة. حتى أبي لن يجادلك في هذا الأمر، ليس كثيرًا في أي حال».

كانت أمي قد اشترت مؤخرًا نسخة تجريبية من إنترنت AOL، ولم أكن قد استخدمت الإنترنت إلا في مخزن راندي من أجل العمل، لكن ما إن أغلق

تايلر الهاتف، حتى فتحتُ الكمبيوتر في البيت وانتظرت قليلاً حتى فتح المودم. كان تايلر قد ذكر شيئاً عن موقع جامعة بريغهام يونغ. أمضيت بضع دقائق لإيجاد على الموقع، ثمّ امتلأت الشاشة بالصور -مبان جميلة مشيّدة من الآجر بلون الشمس- حجارة تحيط بها أشجار زمردية اللون، وأشخاص في هيئات جميلة يتجولون ويضحكون، يحملون كتباً تحت أذرعهم، ويلقون على أكتافهم حقائب ظهر. بدا لي ذلك شيئاً أشبه بمشهد من فيلم سينمائي. فيلم سعيد.

في اليوم التالي، قطعْتُ مسافة أربعين ميلاً وذهبت إلى أقرب مكتبة واشتريت دليل امتحان الشهادة الثانوية. كان كتاباً من الورق المصقول. جلستُ على سريري ورحت أقلب صفحاته حتى وصلت إلى قسم نموذج امتحان الرياضيات. حدّقت في الصفحة الأولى. لم يكن الأمر يقتصر بأنني لا أعرف كيف أحلّ المعادلات، وإنما لم أكن أُميّز أيضاً الرموز، وتكرر الشيء نفسه في الصفحة الثانية، ثم الثالثة.

أخذتُ الكتاب إلى أمّي، وسألتها، «ما هذا؟»

«إنها رياضيات»، قالت.

«إذاً أين هي الأرقام؟»

«هذا جبر. الأحرف تقوم مقام الأرقام.»

«كيف يمكنني أن أحلّها؟»

خربشت أمّي بالقلم على الورقة بضع دقائق، لكنّها لم تستطع أن تحلّ أيّ معادلة من المعادلات الخمس الأولى.

في اليوم التالي قطعت الأربعين ميلاً نفسها، ثمانين ميلاً ذهاباً وإياباً، وعدت إلى البيت ومعني كتاب الجبر الضخم.

في مساء كلّ يوم، كان أبي يتصل بالبيت قبل أن يغادر هو وإخوتي موقع العمل في مالاد ويطلب من أمّي أن تجهزّ العشاء. كنت أنتظر هذا الاتصال بفارغ الصبر. فما أن كان يتصل حتى أخذ سيارة أمّي وأذهب. لا أعرف لماذا كنت أفعل ذلك. كنت أذهب إلى أوبرا وورم كريك، وأجلس في الشرفة

أراقب التدريبات، أسند قدميَّ على حافة المقعد أمامي، وكتاب الرياضيات مفتوح أمامي. لم أدرس الرياضيات منذ زمن، لذلك كانت المفاهيم غريبة عليّ. لقد فهمت نظرية الكسور لكنني وجدت صعوبة في حلّها، وكانت دقائق قلبي تتسارع عندما تقع عيني على الأعداد العشرية. وظللت أجلس هكذا كلّ ليلة طوال شهر في الأوبرا، على مقعد وثير من المخمل الأحمر، أتدرب على العمليات الأساسية -طرق مضاعفة الكسور، وكيفية استخدام العدد المقلوب، وطرائق الجمع والضرب والتقسيم بالأعداد العشرية- بينما كان الأشخاص يتدربون على الشخصيات التي سيؤدونها على المسرح.

بدأت في دراسة حساب المثلثات. كان ثمة عزاء في صيغها ومعادلاتها الغريبة. جذبتني نظرية فيثاغورث ووعدتها بالشمولية - القدرة على توقّع طبيعة أيّ ثلاث نقاط تضم زاوية قائمة، في أيّ مكان، دائماً. أما الأشياء التي أعرفها عن الفيزياء، فقد تعلّمتها أثناء العمل في باحة الخردة، حيث يبدو العالم الفيزيائي غالباً غير مستقر، متقلّب. أما هنا فيوجد مبدأ يمكن تعريف أبعاد الحياة من خلاله، وإدراكه. قد لا تكون الحقيقة متقلّبة بالكامل. ربما يمكن شرحها وتوقّعها. ربما يمكن تنفيذها حتى تصبح ذات مغزى.

بدأت المعاناة الحقيقية عندما تجاوزت نظرية فيثاغورث إلى جيب الزاوية، وجيب التمام والظلّ. لم أتمكن من فهم هذه المفاهيم المجردة. كان بإمكانني أن أحسّ بالمنطق الذي ينطوي عليها، أن أحسّ بقوّتها لإضفاء النظام والتماثل، لكنني لم أتمكن من فتح مغاليقها. وظلت تخبئ أسرارها عني، وأصبحت أشبه ببوابة يقبع وراءها عالم من القانون والمنطق. لكنني لم أستطع اجتياز تلك البوابة.

قالت أمّي إنها ستعلّمني حساب المثلثات، إذا أردت أن أتعلّمها. فخصصت لي وقتاً في المساء. جلسنا إلى طاولة المطبخ، نخربش في قصاصات أوراق، ونشدّ شعرنا. أمضينا ثلاث ساعات في حلّ مسألة واحدة، وكانت جميع الحلول التي توصلنا إليها خاطئة.

«لم أكن تلميذة جيدة في مادة المثلثات في المدرسة الثانوية»، قالت أمّي وأغلقت الكتاب بقوة، «وقد نسيت الأشياء القليلة التي كنت أعرفها».

كان أبي في غرفة الجلوس، يقلّب مخطّطات المستودعات ويدمدّم نفسه. رحت أنظر إليه وهو يرسم تلك المخطّطات، ويجري الحسابات، يعدّل هذه الزاوية أو يزيد طول ذلك العمود. لم يكن أبي قد حصل على تعليم رسمي جيد في الرياضيات، لكن كان من المستحيل أن أشكّ في كفاءته: كنت أعرف أنني إذا وضعت المعادلة أمام أبي، فإنه سيتمكن من حلّها.

عندما كنت أقول لأبي إنني أنوي الذهاب إلى الجامعة، كان يقول إنّ مكان المرأة هو البيت، وأنني يجب أن أتعلّم التداوي بالأعشاب «صيدلية الرّب»، كما كان يطلق عليها، ويتسم لنفسه لكي أحلّ محلّ أمّي. وكان يقول أكثر من ذلك بكثير، طبعًا، حول كيف أنني أجري وراء معارف البشر مثل عاهرة بدلًا من أن أسعى وراء معرفة الرّب، وعلى الرغم من ذلك، كنت مصممة على أن أسأله عن حساب المثلثات. فهنا تكمن معرفة الإنسان التي كنت على يقين بأنه يمتلكها.

خربشت المسألة على ورقة جديدة. لم يرفع أبي نظره عندما اقتربت منه، وبهدوء شديد، وببطء، وضعت الورقة فوق المخطّطات التي يدرسها وقلت له: «أبي، هل تستطيع أن تحلّ هذه؟»

نظر إليّ بقسوة، ثمّ لانت عيناه. أدار الورقة، حدّق فيها للحظة، ثم بدأ يخربش أرقامًا ودوائر وخطوطًا مقوسة كبيرة. لم يكن حلّه يشبه شيئًا يرد في كتابي المدرسي، ولم يكن يشبه أيّ شيء رأيته من قبل. ارتعش شاربه، متمم، ثمّ توقّف عن الخربشة، ونظر إلى الأعلى، وأعطاني الجواب الصحيح.

سألته كيف حلّها، فقال: «لا أعرف كيف أحلّها»، وأعطاني الورقة، وأضاف، «كلّ ما أعرفه أن هذا هو الجواب».

عدت إلى المطبخ، ورحت أقارن المعادلة المتوازنة النظيفة مع فوضى الحسابات غير المنتهية والرسوم التي تصيني بالدوار. لقد دُهِشت من غرابة تلك الصفحة: يستطيع أبي أن يتقن هذا العلم، يستطيع أن يحلّ شفرة لغته، يفكّ شفرة منطقته، ويستطيع أن يستخرج منها الحقيقة، لكن إذا تجاوز ذلك، فإن كلّ شيء يتحوّل إلى فوضى.

درست حساب المثلثات لمدة شهر. كنت أحلم أحيانًا بجيب الزاوية وجيب التمام والظلّ، وأحلم بزوايا غامضة وحسابات مرتجة، وعلى الرغم من ذلك، فلم أحرز أي تقدم حقيقي. لم أتمكن من أن أعلم نفسي حساب المثلثات، لكنني كنت أعرف شخصًا يعرف.

طلب مني تايلر أن ألتقي به في بيت خالتي ديبى التي تسكن في مكان قريب من جامعة بريغهام يونغ. كان الطريق يأخذ ثلاث ساعات بالسيارة. لم أكن مرتاحة لأن أقرع باب بيت خالتي التي أقام تايلر في بيتها في سنته الأولى في تلك الجامعة. كان ذلك كل ما أعرفه عنها.

فتح تايلر الباب. جلسنا في غرفة الجلوس بينما كانت ديبى تعدّ الطعام. حلّ تايلر المعادلات بسهولة، وكتب شروحات وتفسيرات منظّمة لكل خطوة. كان تايلر يدرس الهندسة الميكانيكية وكان من بين الخريجين الأوائل، وكان سعيّ للحصول على الدكتوراه في جامعة بوردوا. كانت معادلات المثلثات شديدة السهولة بالنسبة له، وإذا أحسّ بالملل، لم يكن يبدي ذلك، بل كان يشرح لي المبادئ بأناة، ويعيد الشرح مرات ومرات. لقد فُتحت البوّابة قليلًا، وبدأت أرى من خلالها.

ذهب تايلر، وكانت ديبى تقدّم لي طبق الطعام، عندما رنّ الهاتف. كانت أمّي.

«لقد وقع حادث في مالارد»، قالت، «من الأفضل أن تعودى إلى البيت بسرعة».

لم تكن لدى أمّي معلومات كثيرة. لقد سقط شون. وقع على رأسه. اتصل أحدهم بالإسعاف، وُقلّ جَوًّا إلى مستشفى في بوكاتيلو. الأطباء ليسوا متأكّدين إن كان سيعيش أم لا. كان ذلك كل ما عرفته.

أردت أن أعرف المزيد، أردت أن أسمع احتمالات أخرى حتى أفكّر عكس ذلك. فقد أردتها أن تقول: «يظنون أنه سيكون على ما يرام» أو حتى «إنهم يتوقّعون أننا سنفقدّه». أيّ شيء ما عدا ما قالته، وهو «إنهم لا يعرفون».

قالت لي أمي إنني يجب أن أذهب إلى المستشفى. تخيلت شون وهو على نقالة بيضاء، الحياة تتسلل منه. غمرني شعور بالفقدان فكادت ركبتي تنحلان، لكن في اللحظة التالية، اعتراني شعور آخر. شعور بالارتياح.

ستهب عاصفة، وسيبلغ ارتفاع الثلج ثلاثة أقدام في منطقة ساردين كانيون التي تحرس المدخل إلى الوادي في منطقتنا. كانت إطارات سيارة أمي التي ذهبت بها إلى بيت خالتي ديبى، ممسوحة. قلت لأمي لا أستطيع أن أصل إلى المستشفى.

ثم وصلتني قصة كيف سقط شون في شذرات صغيرة، تلميحاً من لوك وبنجامين اللذين كانا موجودين هناك. كان بعد ظهر ذلك اليوم بارداً جداً وكانت الرياح عاتية، ترفع الغبار الناعم من الأرض وتجعله سحباً ناعمة. كان شون واقفاً على سقالة خشبية على ارتفاع عشرين قدماً عن الأرض، وعلى مسافة اثني عشر قدماً تحته يوجد جدار إسمنتي غير منته البناء، تبرز منه قضبان فولاذية مثل أسياخ مثلمة. لا أعرف ما الذي كان شون يفعله فوق المنصة النقالة، لكن ربما كان يثبت دعامات أو يلحمها، لأن هذا هو عمله، وكان أبي يقود الرافعة الشوكية.

سمعت روايات متضاربة عن سبب سقوط شون^[5].

وقال أحدهم إن أبي حرّك ذراع الرافعة فجأة فوق شون على الحافة. وأجمع الجميع بأن شون كان واقفاً عند الحافة، ودون أي سبب رجع خطوة إلى الوراء فاختل توازنه، وسقط من ارتفاع اثني عشر قدماً، وأخذ جسده يدور ببطء في الهواء. وعندما ارتطم بالجدار الخرساني ذي القضبان الفولاذية الناتئة، سقط على رأسه أولاً، ثم تدرج فوق التراب.

هكذا وصفوا لي كيف سقط شون من السقالة، لكن عقلي تصوّرهما بطريقة مختلفة، على صفحة بيضاء ذات خطوط متباعدة منتظمة. يصعد، ثم يسقط، ويرتطم بقضبان فولاذية ثم يرتد إلى الأرض. أتصور مثلثاً. يبدو الحادث معقولاً عندما أتصوّره بهذا الشكل. ثم يتحوّل منطق الصفحة إلى أبي.

نظر أبي إلى شون. كان شون مشوش التفكير. كانت إحدى حدقتيه متسعة، أما الحدقة الثانية فلم تكن كذلك، ولم يكن أحد يعرف ماذا يعني

ذلك. لم يكن أحد يعرف أن ذلك يعني وجود نرف داخل الدماغ.
طلب أبي من شون أن يستريح قليلاً. ساعده لوك وبنجامين على أن يتكئ
إلى الشاحنة الصغيرة، ثم عاد إلى العمل.

ترداد الحقائق بعد هذه النقطة ضبابية وغموضاً.

القصة التي سمعتها هي أنه بعد خمس عشرة دقيقة، عاد شون يتجول
في الموقع، فظنّ أبي أنه أصبح مستعداً للعمل ثانية، وطلب منه أن يصعد
إلى السقالة، فأخذ شون الذي لم يكن يريد أن يطلب منه أحد ما الذي يجب
أن يفعله، يصرخ في وجه أبي حول كلّ شيء - المعدات، تصاميم
المستودعات، الأجر الذي يعطيه له. ظلّ يصرخ حتى بُحّ صوته، وعندما ظنّ
أبي أن شون هدأ، طوق أبي من خصره وألقى به مثل كيس حبوب. وقبل أن
يتمكن أبي من النهوض على قدميه، أخذ شون يجري، وراح يقفز ويصرخ
ويضحك، عندها تأكد لوك وبنجامين بأن شيئاً غير طبيعي ينتابه، فركضا خلفه.
وصل لوك إليه أولاً لكنه لم يستطع الإمساك به، ثمّ لحق به بنجامين بسرعة
فتباطأ شون قليلاً، لكنّه لم يتوقف إلّا بعد أن أمسك به الرجال الثلاثة - ألقوا به
أرضاً فارتطم رأسه بقوة على الأرض لأنه كان يقاوم - واستلقى دون أي
حركة.

لم يصف لي أحد قط ما الذي جرى عندما ارتطم رأس شون بالأرض مرة
أخرى. هل أصيب بتشنج، أو تقيأ، أو غاب عن الوعي، لست متأكّدة. لكن
المثير في الأمر هو أن أحدهم - لعله أبي، أو بنجامين - اتصل بالرقم ٩١١، وهو
شيء لم يفعله أحد من أفراد أسرتي قط من قبل.

قالوا لهم إن طائرة هليكوبتر ستصل بعد دقائق. وقال الأطباء إنه عندما
كان أبي ولوك وبنجامين يتعاركون مع شون وألقوا به أرضاً - أصيب بارتجاج
في الدماغ - وأنه في حالة شديدة الخطورة، وقالوا إنها معجزة أنه لم يمت
عندما ارتطم رأسه بالأرض.

أحاول جاهدة أن أتخيّل المشهد وهم ينتظرون وصول طائرة الهليكوبتر.
قال أبي إنه عندما وصل المسعفون، كان شون ينشج، يريد أن يرى أمي.
وعندما وصل إلى المستشفى، تغيّرت حالته العقلية، فوقف عارياً على عربة

المستشفى، عيناها جاحظتان، محتقتان بالدم، وراح يصرخ بأنه سيفقأ عيني ابن الزنا الذي سيقرب منه، ثمّ انهار وراح يبكي بحرقة، ثم غاب عن الوعي أخيرًا.

شون عاش في تلك الليلة.

في الصباح ذهبت بالسيارة إلى بيتنا. لم أستطع أن أفسّر لماذا لم أهرع إلى المستشفى وأكون بجانب سرير أخي. قلت لأُمّي إنني يجب أن أعمل.

«إنه يسأل عنك»، قالت.

«قلتِ إنّه لا يستطيع أن يتعرف على أحد».

«صحيح»، قالت، لكن الممرضة سألتني عمّا إذا كان يعرف أحدًا تدعى تارا. وقالت إنه كرر اسمك مرات عدة هذا الصباح، عندما كان نائمًا وعندما استيقظ. قلت لها إن تارا أخته، فقالت من الأفضل أن أذهب لرؤيته، فقد يتعرّف عليك، وسيكون هذا شيئًا مهمًا. وقالت إنه لم ينطق إلا اسمك منذ أن وصل إلى المستشفى».

لم أقل شيئًا.

«سأدفع ثمن البنزين»، قالت أُمّي. طُنت أنني لم أذهب بسبب الثلاثين دولارًا ثمن البنزين. شعرت بالحرج لأنها طُنت ذلك، لكن، في ذلك الوقت، لولا النقود، لم يكن لديّ سبب في ألا أذهب.

«سأذهب الآن»، قلت.

الغريب في الأمر أنني لا أتذكّر أشياء كثيرة عن المستشفى، أو كيف كان يبدو أخي، وإنما أتذكّر بشيء من الغموض رأسه ملفوفًا بالشاش، وعندما سألت عن سبب ذلك، قالت أُمّي إنّ الأطباء أجروا له عملية جراحية، وأحدثوا ثقبًا في جمجمته للتخفيف عن الضغط، أو لوقف النزيف، أو لإصلاح شيء ما، في الواقع، لا أتذكّر ما الذي قالته لي بدقة. كان شون يتقلّب مثل طفل مصاب بحمّى. جلست معه حوالى ساعة، فتح خلالها عينيه مرّات عدة، لكنه حتى لو كان واعيًا، فلم يعرفني.

عندما جئتُ في اليوم التالي لزيارته، كان صاحبًا. دخلتُ إلى الغرفة ورمش بعينه ونظر إلى أمي كما لو كان يريد أن يتأكد من أنه يراني أيضًا.

«أتيت»، قال، «لم أكن أظن أنك ستأتي»، أمسك يدي، ثم غطّ في النوم.

حدّقت في وجهه، في الضمادات الملفوفة حول جبهته وفوق أذنيه، وتألّمت كثيرًا. ثمّ فهمت لماذا لم آت من قبل. فقد كنت أخشى كيف ستكون مشاعري، كنت أخشى أن أشعر بالسعادة إذا مات.

كنت متأكّدة من أن الأطباء كانوا يريدون أن يبقى شون في المستشفى، لكن لم يكن عندنا تأمين صحي، وأصبح مبلغ الفاتورة كبيرًا بحيث سيتعين على شون أن يسدها بعد عشر سنوات. وعندما استقرّ وضعه أخذناه إلى البيت.

عاش شون على الأريكة في الغرفة الأمامية طوال شهرين. كان ضعيفًا جسديًا، كان كلّ ما يستطيع أن يفعله هو أن يذهب إلى الحمام ويعود، وفقد القدرة على السمع تمامًا في إحدى أذنيه، وأصبح يعاني من مشكلة في السمع في أذنه الأخرى. وفي غالب الأحيان أصبح يدير رأسه عندما يكلمه أحد، ويوجّه أذنه التي يسمع بها بشكل أفضل نحو الشخص الذي يكلمه، بدلًا من عينيه. ما عدا هذه الحركة الغريبة والضمادات من العملية الجراحية، كان يبدو طبيعيًا، فلم يعد ثمة تورّم في وجهه ولا كدمات. وكما قال الأطباء، فإن الضرر الذي أصابه كان خطيرًا: فعدم وجود إصابات خارجية يعني أن الإصابة داخلية.

مضى وقت حتى أدركت أنه على الرغم من أنّ شون كان يبدو طبيعيًا، فإنه لم يكن كذلك. فقد كان يبدو أنه سليم العقل، لكنك إذا أنصت إليه جيدًا، فلن تبدو لك القصص التي يحكيها منطقية. فلم تكن قصصًا على الإطلاق، وإنما أشياء مبهمة، غير مفهومة، الواحدة تلو الأخرى.

أحسست بالذنب لأنني لم أزره في المستشفى على الفور، ولكي أعوّض عن ذلك، تركتُ عملي وقمت على خدمته ليل نهار. فإذا عطش أجلب له الماء، وإذا جاع، أطهو له الطعام.

بدأت سادي تأتي إلى البيت، ورَّحِبَ بها شون. كنت أنتظر زيارتها بفارغ الصبر لأنها كانت تمنحني وقتًا للدراسة. كانت أمِّي تقول إنني يجب أن أبقى مع شون حتى لا يقاطعني أحد. ولأول مرة في حياتي، بدأت تتاح لي فترات طويلة للدراسة، ولم يعد عليّ أن أعمل في باحة الخردة، أو أعصر صبغات الأعشاب، أو أجري عملية جرد في محل راندي، وإنما أدرس الملاحظات التي يقدمها تايلر، وأقرأ تفسيراته وشروحاته الدقيقة وأعيد قراءتها. وبعد أسابيع عدة، بفعل سحر أو معجزة، ترسَّخت المفاهيم في رأسي، فعدتُ أدرس نموذج الاختبار. لكن الجبر المتقدّم ظل عصيًا على فهمي، فقد جاء من عالم خارج قدرتي على فهمه، أما حساب المثلثات فقد أصبح واضحًا بالنسبة لي، لأن حروفه تُكتب بلغة أستطيع أن أفهمها، آتية من عالم المنطق والنظام الذي لا يوجد إلَّا في حبر أسود وعلى ورقة بيضاء.

في تلك الأثناء، غرق العالم الحقيقي في لجة من الفوضى، عندما قال الأطباء لأمِّي إنَّ إصابة شون قد تفضي إلى حدوث تغيير في شخصيته، لأنه أبدى في المستشفى ميولًا تشير إلى تقلب المزاج، بل حتى ممارسة العنف، وقد تكون هذه التغيرات دائمة.

استسلم شون إلى نوبات الغضب، لحظات من الغضب الأعمى وكان كلُّ ما يريد أن يفعله هو أن يلحق الأذى بأحد. وأصبح شديد الوقاحة ويقول أشياء مدمِّرة جعلت أمِّي تمضي ليال كثيرة وهي تبكي. وتغيَّرت حالات الغضب هذه، وازدادت سوءًا عندما تحسَّنت قوَّته الجسدية، فوجدت نفسي أنظف المرحاض صباح كلِّ يوم، لأنني أعرف أن رأسي قد يغطس في داخله قبل الغداء. وكانت أمِّي تقول إنني الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يهدِّئ من غلوائه، وأقنعت نفسي بأن هذا صحيح. من الأفضل، كنت أقول لنفسي ألاَّ يؤثّر فيّ.

عندما أتذكَّر ذلك الآن، لا أعرف بالتأكيد إن كانت الإصابة هي التي غيَّرتَه كثيرًا، لكنِّي أقنعت نفسي بأنها غيَّرتَه، وأن أي قسوة يمارسها، كانت جديدة تمامًا. يمكنني أن أقرأ يومياتي في تلك الفترة، وأرصد مسيرة التغيير: فتاة صغيرة تعيد كتابة تاريخها. في الواقع، لم تبن لنفسها شيئًا خاطئًا قبل أن يقع

أخوها من فوق تلك السقالة. أتمنى أن أستعيد أفضل صديق لي، كتبت. فقبل
أن يصاب، لم يؤذني قط.

الفصل ١٥ لم أعد طفلة

كانت هناك لحظة في ذلك الشتاء. كنت جاثية على ركبتيّ على السجادة، أستمع إلى أبي وهو يقول إن أمّي تداوي بالأعشاب، عندما توقفت أنفاسي في صدري وشعرت بأنني خرجت من نفسي. فلم أعد أرى والديّ ولا غرفة الجلوس في بيتنا. وإنما رأيت امرأة كبرت في السن، وأصبح لها عقلها، وصلواتها، ولم تعد تجلس، مثل طفلة، عند قدميّ أبيها.

رأيت بطن المرأة المتكورة وكانت هي بطني. وجلست بجانبها أمّها، القابلة. أمسكت بيد أمّها وقالت إنّها تريد أن تلد طفلها في مستشفى، على يد طبيب. قالت لها أمّها سأخذك بسيارتي. بدأت النساء يتحرّكن نحو الباب، لكن الباب كان مسدودًا -بالولاء، بالطاعة- بواسطة أبيها. كان أبوها واقفًا أمام الباب، لا يتزحزح. لكن المرأة التي هي ابنته، استجمعت كل قوتها ودفعته جانبًا وخرجت من الباب.

حاولت أن أتخيّل المستقبل الذي ينتظر هذه المرأة. حاولت أن أستدعي مشاهد أخرى يكون لهما، هي ووالدها، عقليتان مختلفتان. عندما تتجاهل نصيحته وتتمسك برأيها. لكن أبي علّمني أنه لا يمكن أن يكون هناك رأيان حصيفان حول أيّ موضوع: فهناك الحقيقة وهناك الأكاذيب. جثوت على السجادة، ورحت أنصت إلى أبي وأحدّق في هذا الغريب، وأحسست بأنني معلّقة بينهما، منجذبة لكلّ واحد منهما، أنفر منهما كليهما. وأدركت أنه لا يوجد مستقبل يمكن أن يجمعهما، ولا يوجد قدر يستطيع أن يتحمّلهما معًا. سأظل طفلة، أبد الدهر، دائمًا، وإلاّ فإنني سأفقده.

كنت مستلقية في سريري، أراقب الظلال التي يشكّلها ضوء المصباح الخافت على السقف، عندما سمعت صوت أبي عند الباب. غريزيًا قفزت على قدميّ مثل جندي يحيّ قائده، لكنني عندما وقفت، لم أعد أعرف ما الذي

يجب عليّ أن أفعله. لأن ذلك لم يحدث من قبل: لأن أبي لم يدخل إلى غرفتي قط.

مشى أمامي وجلس على حافة سريرى، ثم ربت على الفراش بجانبه. جلست، متوترة، لم تكد قدماي تلمسان الأرض. انتظرت حتى يبدأ يتكلّم، لكن اللحظات مرّت بصمت. كانت عيناه مغمضتين، فكّه مرخيًا، كما لو كان ينصت إلى أصوات ملائكية. قال: «أنا أصلي». كان صوته ناعمًا، صوت شخص محبّ، «إني أصلي من أجل رغبتك للذهاب إلى المدرسة».

فُتحت عيناه. توسعت حدقتاه في ضوء المصباح الذي امتصّ لون قزحيته التي لونها بلون البندق. لم أر قط عينين مستسلمتين للسواد هكذا. كانتا تبدوان سماويتين، رمزين لقوة روحية.

«لقد دعاني الربّ حتى أشهد»، قال، «إنه غاضب. لقد ألقيت جانبًا كلّ بركاته ونعمه ورحمت تركضين بعهر وراء معارف البشر. لقد تحرّك غضبه ضدّك. لن يستغرق وقتًا طويلًا حتى يأتي».

لا أتذكّر أن أبي نهض ليغادر الغرفة، لكن لا بدّ أنه غادرها، وأنا لا أزال جالسة، يتملكّني الخوف. فقد دمّر غضب الربّ مدّنًا، وأغرق أراض بأكملها. شعرت بأنني ضعيفة، ثمّ عاجزة تمامًا. تذكّرت أنّ حياتي لم تكن لي، فقد أخرج من جسدي في أيّ لحظة، وأسحب إلى السماء حتى يحاسبني أب غاضب.

في صباح اليوم التالي، وجدت أمّي تمزج زيوتًا في المطبخ. قلت لها: «قرّرت ألا أذهب إلى الجامعة».

رفعت بصرها، وثبتت عينيها على الجدار ورائي، وهمست، «لا تقولي هذا. لا أريد أن أسمع منك ذلك».

لم أفهم. حسبّت أنها ستكون سعيدة عندما تراني أستسلم لمشية الربّ. حوّلت نظرتها إليّ. لم أشعر بقوّتها منذ سنوات، فأذهلتني. ثم قالت: «من بين جميع أبنائي، كنت أظن أنك أنت التي ستخرجين من هنا مثل عاصفة. لم

أتوقّع ذلك من تايلر، كانت تلك مفاجأة، أما أنتِ. لا تبقي. اذهبي. لا تدعي شيئاً يقف في طريقك».

سمعتُ وقع خطوات أبي على بئر الدرج. تنهّدت أمّي، ورفرفت عيناها، كما لو كانت تصحو من غيبوبة.

جلس أبي إلى طاولة المطبخ ووقفت أمّي لتحضّر له طعام الفطور. بدأ محاضرة عن الأساتذة الجامعيين الليبراليين، وراحت أمّي تعدّ الفطائر، تغمغم بين الحين والآخر، موافقة على ما يقوله.

عندما لم يعد شون يشرف على العمل، بدأ عمل أبي في البناء يتضاءل. كنت قد تركت عملي في مخزن راندي لأعتني بشون. أصبحت الآن بحاجة إلى نقود، فعندما عاد أبي إلى عمله في باحة الخردة في ذلك الشتاء، ذهبت لأعمل معه.

مثل أول يوم، كان صباح اليوم الذي عدت فيه للعمل في باحة الخردة شديد البرودة. لقد تغيّرت باحة الخردة. فعلى الرغم من أنه كانت توجد تلال من السيارات المحطّمة، لم تعد الآن تملأ المكان. فقد تعاقدت شركة الكهرباء في يوتا مع أبي منذ سنوات عدة على إزالة مئات أبراج الكهرباء، وسمحت له بأن يحتفظ بالحديد الزاوي الذي كان مكدّساً الآن -أربعمائة ألف باوند منه- في جبال متشابكة تغطي الباحة. كنت أستيقظ في الساعة السادسة من صباح كلّ يوم لأدرس، لأن التركيز في الصباح كان أسهل بالنسبة لي، قبل أن أعود منهكة من العمل في باحة الخردة. ومع أنّي ما زلت خائفة من غضب الربّ، فإن نجاحي في امتحان الشهادة الثانوية غير ممكن، وإذا نجحت فإن ذلك سيكون بقدرة الله، وإذا تصرّف الله، فإن ذهابي إلى الجامعة سيكون وفق إرادته ومشئته.

كان امتحان الشهادة الثانوية يتألف من أربعة أقسام: الرياضيات واللغة الإنكليزية والعلوم والقراءة. كانت مهارتي في الرياضيات قد بدأت تتحسن، لكنّها لم تكن قوية. فعلى الرغم من أنني أستطيع الإجابة على معظم الأسئلة الواردة في نموذج الامتحان، فقد كنت بطيئة، أحتاج إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف الوقت المحدد في الامتحان الفعلي. وكانت تعوزني كذلك المعرفة

الأساسية في النحو والقواعد التي رحت أتعلّمها بدءًا بالأسماء، ثم حروف الجرّ وأسماء المصدر. أما العلوم فكانت لغزًا بالنسبة لي، ربما لأن صفحات كتاب العلوم الوحيد الذي قرأته كانت مفككة. ومن بين الأقسام الأربعة، كانت القراءة هي الوحيدة التي كنت واثقة من النجاح فيها.

وكانت هناك منافسة شديدة للقبول في جامعة بريغهام يونغ (BYU). وكنت بحاجة إلى درجات عالية، ما لا يقل عن سبع وعشرين درجة، وهذا يعني أعلى بنسبة خمس عشرة في المائة من مجموعتي. لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة، ولم أقدم امتحانًا من قبل، وبدأت مؤخرًا أتعلّم بشكل منتظم، ومع ذلك فقد تقدّمت للامتحان. كان ذلك أشبه بمقامرة، كما لو أن كلّ ما فعلته كان خارجًا عن إرادتي، وأن الله هو الذي قرر كلّ ذلك.

لم يغمض لي جفن في الليلة الماضية. فقد راودتني مشاهد كثيرة عن الكارثة التي ستحدث، أحترق كما لو كنت مصابة بحمّى. في الساعة الخامسة، غادرت سريرى، تناولت طعام الفطور، وقطعت أربعين ميلًا إلى جامعة ولاية يوتا. أخذت إلى قاعة دروس بيضاء مع ثلاثين طالبًا آخر، أخذوا مقاعدهم ووضعوا أقلامهم على طاولاتهم. ورّعت امرأة متوسطة العمر أوراق الامتحان وصفحات وردية غريبة الشكل لم أرها من قبل.

«المعذرة»، قلت لها عندما أعطتني ورقتي، «ما هذه؟»

إنها صفحة الإجابة. يجب أن تضعي إشارة على إجابتك».

«كيف أفعل ذلك؟» سألتها.

«مثل أيّة صفحة إجابة أخرى». قالت وبدأت تسير مبتعدة عني. بدا أنها انزعجت لأنها ظنت أنني أمارحها.

«لم أستخدم ورقة مثلها من قبل».

تفحصتني لوهلة، ثم قالت: «ضعي الجواب الصحيح في الدوائر. اجعلها سوداء تمامًا. فهمت؟»

بدأ الامتحان. لم أجلس في حياتي إلى طاولة في غرفة مليئة بأشخاص آخرين لمدة أربع ساعات. كانت الضوضاء شديدة، مع أنه كان يبدو أنني

الشخص الوحيد الذي يسمعه، الوحيدة التي لم تستطع أن تحوّل انتباهها عن حفيف تقليب الصفحات وخربشة الأقلام على الورق.

عندما انتهى الامتحان، ظننت أنني رسبت في مادة الرياضيات، وكنت متأكدة بأنني رسبت في العلوم، حتى أنني لا أستطيع أن أطلق على أجوبتي في الجزء المتعلق بالعلوم تخمينات. كانت إجابات عشوائية، مجرد أشكال من النقاط فوق تلك الصفحة الوردية الغريبة الشكل.

عدت إلى البيت. اعتراني شعور بأنني فتاة غبية، لا بل أكثر من غبية، أحسست بأنني سخيفة. فبعد أن رأيت الطلاب الآخرين -رأيتهم يدخلون إلى قاعة الدروس في أرتال منظمة، ويأخذون مقاعدهم ثم بدأوا يجيبون بهدوء، كما لو كانوا يؤدون شيئًا عاديًا كانوا تدريبوا عليه- بدا لي أن من الحماسة بأن أفكر بأنني سأحصل على أعلى خمس عشرة في المائة.

كان ذلك عالمهم. ارتديت بدلة العمل وعدت إلى عالمي.

كان يومًا حارًا على نحو غير معتاد في ذلك الربيع، وأمضيت أنا ولوك سحابة النهار في سحب الأعمدة الحديدية التي تُمدّ أفقيًا فوق السطح. كانت ثقيلة جدًا والشمس لا ترحم. كانت قطرات العرق تسيل من أنوفنا وتتساقط على الحديد المطلي. خلع لوك قميصه، وأمسك بكمي قميصه ومزّقهما، كي تمرّ نسيمات الهواء إلى جسمه. لم أكن أحلم بأن أفعل شيئًا كهذا، لكن بعد العمود العشرين أصبح ظهري دبقًا بالعرق، فثّبت قميصي لألوح به مثل مروحة، وشمّرت كمي قميصي فبان كتفاي قليلًا. عندما رأي أبي بعد دقائق، جاء إليّ وشدّ الكمّين إلى الأسفل، وقال: هذا البيت ليس ماخوزًا».

نظرْتُ إليه وهو يسير مبتعدًا، ودون وعي مني، كما لو أنني لم أُتخذ ذلك القرار، رفعتهما مرة أخرى. عاد بعد ساعة، وعندما رأيّني توقّف مضطربًا. فقد طلب مني أن أفعل شيئًا، ولم أفعله. وقف في حيرة للحظة، ثمّ تقدّم نحوي، وأمسك كلا الكمّين وشدّهما إلى الأسفل. لكنه لم يبتعد أكثر من عشر خطوات حتى عدت ورفعتهما.

كنت أريد أن أطيعه. كنت أنوي ذلك. لكن عصر ذلك اليوم كان حارًا جدًا، وكنت أرحب بأي نسمة تهب على ذراعي. لم أرفعهما إلّا بوصات قليلة جدًا.

كان التراب يغطيني من صدغي حتى أصابع قدمي. أمضيت نصف ساعة في تلك الليلة وأنا أزيل التراب الأسود من منخريّ وأذنيّ. لم أكن أشعر بأنني شيء مُشْتَهَى أو مغرٍ. كنت أشعر أنني مثل رافعة شوكية بشرية. كيف يمكن لبوصة من الجلد أن تكون مغرية؟

كنت أدّخر رواتبي تحسبًا لحاجتي للنقود من أجل الدراسة. لاحظ أبي ذلك فبدأ يطلب مني أن أدفع ثمن أشياء صغيرة. كانت أمّي قد عادت لشراء تأمين على السيارة بعد حادثة السيارة الثانية، فقال أبي إنني يجب أن أدفع حصّتي من التأمين. فدفعته. ثمّ بدأ يطلب مني أن دفع مبالغ أخرى، رسوم تسجيل السيارة. «إن الرسوم الحكومية هذه ستكسرْك»، قال وأنا أعطيه النقود.

كان أبي راضيًا حتى وصلت نتائج امتحاني. عدت من باحة الخردة لأجد مغلفًا أبيض. فضضته، وقد لوّث الورقة بالزيت. نظرت إلى المجموع في أسفل الصفحة مباشرة. اثنان وعشرون. بدأ قلبي يخفق بقوة بسعادة. ليست سبعاً وعشرين، لكنّها تفتح أبواب الأمل.

أريت أمّي النتيجة فأخبرت أبي. فاستشاط غضبًا، ثمّ أخذ يصرخ بأن الوقت حان لأترك البيت.

«إذا كانت قد كبرت وأصبح بإمكانها أن تكسب مرتبًا، فهذا يعني أنها أصبحت في عمر يمكنها من دفع إيجار»، صاح أبي، «وتستطيع أن تدفعه في مكان آخر». في البداية جادلته أمّي، لكنه أقنعها بعد دقائق.

كنت أقف في المطبخ، أزن خياراتي، وبدأت أفكّر كيف أعطيت أبي للتو أربعمئة دولار، ثلث مدّخراتي، عندما التفتت إليّ أمّي وقالت: «هل تظنين أنّك تستطيعين أن تغادري البيت يوم الجمعة؟»

ثمة شيء تحطم في داخلي، سدّ أو حاجر. شعرت بالدوار، ولم أتمالك نفسي. صرخت لكن الصرخات خُنقت.. كنت أغرق. لا يوجد عندي مكان أذهب إليه، ولا أملك نقودًا أستطيع أن أستأجر بها شقّة، وحتى لو كنت أملك نقودًا كافية، فلا توجد شقق للإيجار إلّا في البلدة. وأحتاج أيضًا إلى سيارة، وكل ما بحوزتي ثمانمئة دولار. قلت كلّ هذا لأمّي، ثمّ جريت إلى غرفتي وصفقت الباب ورائي.

بعد لحظات، قرعت أمِّي باب غرفتي. قالت: «أعرف أنَّك تظنين إننا غير منصفين معك، لكن عندما كنت في عمرك كنت أعيش وحدي، أستاذًا للزواج من أبيك».

«هل تزوجت وأنتِ في السادسة عشرة من عمرك؟» سألتها.

«لا تكوني سخيّة»، قالت، «أنتِ لستِ في السادسة عشرة».

حدّقت فيها. حدّقت فيّ. «نعم، أنا في السادسة عشرة».

تفحصتني وقالت: «عمرك لا يقل عن عشرين سنة»، ودفعت رأسها إلى الأمام، «أليس كذلك؟»

لذا بالصمت. بدأ قلبي يخفق بقوة في صدري، ثم قلت: «لقد بلغت السادسة عشرة في أيلول (سبتمبر)».

«أوه». عصّت أمِّي على شفرتها، ثمّ وقفت وابتسمت، وقالت: «حسنًا، لا تقلقي إذن. يمكنك أن تبقي. لا أعرف بماذا كان يفكر والدك. أظن أننا نسينا. يصعب على المرء أن يعرف عمر أبنائه بدقة».

عاد شون إلى العمل. كان يعرج في مشيته، يعتمر قبعة أسترالية كبيرة ذات حواف عريضة مصنوعة من الجلد المزيت بنّية بلون الشوكولاتة. قبل الحادث، لم يكن يضع القبعة إلّا عندما يركب الخيل، أما الآن فأصبح يضعها طوال الوقت، حتى في البيت. قال أبي إن هذا السلوك يشي بعدم الاحترام للآخرين. وربما كان السبب الذي جعل شون يضعها طوال الوقت ليظهر عدم احترامه لأبي، لكنّي أظن أنه كان يضعها لأنّها كبيرة ومريحة وتغطّي الندب الناجمة عن العملية الجراحية.

في البداية كان يعمل أيامًا قليلة. كان أبي قد حصل على عقد لبناء حظيرة لإنتاج الحليب في مقاطعة أونيدا التي تبعد قرابة عشرين ميلًا عن جبل بيكس باك، فراح شون يجوب موقع العمل، يعدّل المخططات وقيس العوارض الحديدية.

كنّا أنا ولوك وبنجامين نعمل في باحة الخردة. قد قرّر أبي أن الوقت قد حان لفرز الحديد الزاوي المكسّس في أرجاء المزرعة، ولكي يتم بيعها، يجب

أن يقلّ طول كلّ قطعة عن أربعة أقدام. واقترح شون أنّ نستخدم حملاّج لحام لقصّ الحديد، لكن أبي قال إن هذه العملية بطيئة جدّا وستكلّف كمية كبيرة من الوقود.

بعد أيام عدة، جلب أبي آلة مخيفة لم أر مثلها من قبل، أطلق عليها اسم «المِقصّ». للوهلة الأولى بدا مثل مقص وزنّه ثلاثة أطنان، وتبين أنه هكذا فعلاً. فقد كانت شفراته من الحديد السميّك، تبلغ سماكة كل منها اثنتا عشرة بوصة وعرضها خمسة أقدام. وهي لا تقطع الحديد من شدّة حدّتها وإنما بفعل القوة والكتلة. وهي تنهش الحديد، يدفع أسنانها الضخمة مكبس ثقيل متصل بعجلة حديدية كبيرة. وبحرّك العجلة قشاطر ومحرك، وهذا يعني أنه إذا علق فيها شيء، فإن إيقاف العجلة والشفرات يستغرق من ثلاثين ثانية إلى دقيقة. وتصدر صوتاً أعلى من صوت هدير قطار عابر، وتعلّك الحديد السميّك بسماكة ذراع رجل. ولم تكن تقطع الحديد وإنما تنهشه. وتطير قطعة الحديد أحياناً، وتُلقي بمن يحملها إلى الشفرات المثلمة التي تقضم بصوت هادر.

خلال تلك السنوات جلب أبي أشياء خطيرة كثيرة، لكن هذه الآلة كانت أول شيء يصدمني. ربّما كانت خطورتها تكمن في أن أي حركة خاطئة قد تكلّفك أحد أطرفك، ولم يكن لها لزوم على الإطلاق. كانت مثيرة للشهية، مثل لعبة، إذا كان بإمكان لعبة أن تقطع رأسك.

أطلق عليها شون اسم «آلة الموت» وقال إنّ أبي فقد ما تبقى من العقل القليل الموجود لديه. وقال له: «هل تحاول أن تقتل أحداً ممّا؟ فإذا كنت تريد ذلك فلديّ في شاحنتي بندقية لا تحدث كلّ هذه الجلبة». فلم يتمالك أبي نفسه من الضحك. لم أره مبتهّجاً هكذا من قبل.

عاد شون بمشيته المترنحة إلى الورشة يهرّ رأسه، وبدأ أبي يلقم المقص بالحديد. كانت كلّ قطعة حديد تدفعه إلى الأمام، وكاد يقع مرّتين على رأسه بين الشفرات. أغمضت عينيّ بقوة، لأنني أعرف أنه إذا علق فيها رأس أبي، فلن تتباطأ الشفرات، بل ستستمر في قطع رقبته، ولن تتوقف.

بعد أن تأكد أبي بأن الآلة تعمل، أشار إلى لوك لأن يأخذ مكانه، فتقدّم لوك الذي كان يرغب في إرضاء أبي. وبعد خمس دقائق جُرحت ذراع لوك

حتى بان العظم وراح يجري نحو البيت، والدم يسيل منه.
نظر أبي إلى الآخرين. ثم أشار إلى بنجامين، لكن بنجامين هزّ رأسه،
وقال إنه يريد أن تظل أصابعه ملتصقة بيده، وشكره. نظر أبي إلى البيت
بشوق، وتخيلته يتساءل كم ستستغرق أمي حتى توقف النزيف. ثم استقرّت
عيناه عليّ.

«تعالى يا تارا». لم أتحرك.

«تعالى إلى هنا»، قال.

تقدّمتُ ببطء، لم يرمش لي جفن وأنا أرمق المقصّ كأنه سينقض عليّ.
كان دم لوك لا يزال على الشفرة. التقط أبي قطعة حديد طولها ستة أقدام
وجعلني أمسك طرفها، وقال: «أمسكها جيّدًا، وإذا أفلتت منك، اتركها».

التهمتها الشفرات، وأخذت تصدر جعجة وهي تقضم أنبوب الحديد إلى
الأعلى والأسفل -تحذير، قلت لنفسى، مثل زمجرة كلب، يجب أن أبتعد عن
هذا الجحيم. لكن هوس أبي بالآلة أبعدته عن العقل كثيرًا.

«إنها سهلة»، قال.

صلّيت عندما ألقيت الآلة أول قطعة. لا لأتجنّب الإصابة، فلم تكن هناك
إمكانية لذلك، وإنما لتكون الإصابة مثل إصابة لوك، وتدّ في اللحم، لكي
أستطيع أن أعود إلى البيت أيضًا. اخترت قطعًا أصغر، آملة أن يتمكن وزني
من السيطرة على الارتجاج. انتهت القطع الصغيرة، فالتقطت أصغر القطع
المتبقية، لكن القطع المتبقية كانت كلها سميكة. كنت ألقمها وأنتظر حتى
تقضمها الأسنان حتى تصمت. كان صوت تكسر الحديد مدوّيًا. أفلتت قطعة
حديد مني ورمتني إلى الأمام فغادرت قدمي الأرض. تركتها من يدي
وارتميت فوق التراب، ثم طارت قطعة الحديد التي أصبحت حرة الآن
ومضغتها الشفرات بعنف، في الهواء ثم سقطت بجانبى.

«ما الذي يجري هنا بحقّ الجحيم؟» ظهر شون في زاوية رؤيتي. خطا
نحوي وسحبني على قدمي، ثم التفت ليواجه أبي.

«منذ خمس دقائق، كاد هذا الوحش يمزّق ذراع لوك! فهل وضعت تارا لتعمل عليه؟»

«لقد قُذِّت من معدن قوي»، قال له، ونظر إليّ، وغمزني.

جحظت عينا شون. لم يكن من المفترض أن يأخذ الأمر بهذه الحدة، لكنّه استشاط غضبًا.

«إنها ستقطع رأسها!» صرخ، ثم التفت إليّ وأشار بأن أعود إلى الورشة، وأضاف، «أذهبي واصنعي ماسكات تلائم هذه الرفادات الخشبية. لا أريدك أن تقتربي من هذا الشيء مرة أخرى».

لكن أبي تقدّم إلى الأمام، وقال: «هذه من عمالي. وأنت وتارا تعملان عندي. لقد طلبت منها أن تعمل على المقصّ، ويجب أن تفعل ما طلبته منها».

راح أحدهما يصيح في وجه الآخر طوال خمس عشرة دقيقة. كان شجارهما يختلف عن الشجار الذي كان يدور بينهما عادة، كان هذا عنيفًا، مليئًا بالحقّد. لم أر قط شخصًا يصرخ في وجه أبي بهذا الشكل، وقد أدهشني، ثمّ أزعجني، التغير الذي ظهر على تعابير وجهه. فقد تغيّر وجهه، وأصبح قاسيًا، مستميتًا. لقد أيقظ شون شيئًا في أبي، حاجة أساسية، فلم يكن باستطاعة أبي أن يخسر هذا الجدل وكان يجب أن ينقذ ماء وجهه. فإذا لم أشغل المقصّ، فلن يعود أبي أبي.

قفز شون إلى الأمام ودفع أبي بقوة في صدره. ترنّج أبي إلى الخلف، ثمّ تعثّر وسقط. استلقى فوق الطين، مصدومًا، للحظة، ثمّ نهض على قدميه واندفع نحو ابنه. رفع شون ذراعيه ليصدّ اللكمة، لكن عندما رأى أبي ذلك أنزل قبضتيه، ربّما لأنه تذكّر أنّ شون استعاد مؤخّرًا القدرة على المشي.

«لقد طلبتُ منها أن تفعل، ويجب أن تفعل ما أطلبه منها»، قال أبي بصوت منخفض وغاضب، «والآن لن تعيش تحت سقف بيتي».

نظر شون إليّ. لوهلة، بدا لي أنه يفكّر في مساعدتي في أن أحزم أغراضي، فقد هرب من أبي عندما كان في عمري، لكنّي هزرت رأسي. لن أغادر، ليس بهذه الطريقة. سأعمل على المقصّ، وكان شون يعرف ذلك.

نظر إلى المقصّ، ثمّ إلى الكومة المقدسة بجانبه، حوالى خمسين ألف باوند من الحديد. «ستفعلها»، قال.

بدا أن طول أبي ازداد خمس بوصات. انحنى شون مترنحًا ورفع قطعة حديد ثقيلة، ثمّ ألقى بها نحو المقصّ.

«لا تكن غبيًا»، قال أبي.

«إذا فعلتها، فأنا سأفعلها»، قال شون. تركت المعركة صوته. لم أر شون قط يستسلم لأبي، ولا مرّة واحدة، لكنه قرّر أن يخسر هذا الشجار. فقد فهم أنه إذا لم يستسلم، فمن المؤكد أنني سأستسلم.

«أنت المشرف على عمالي!» صاح أبي، «أحتاج إليك في أونيدا، لا أن تعبث بهذه الخرّدة!»

«إذن أوقف المقصّ».

ابتعد أبي وهو يلعن، ساخطًا، لكن ربما كان يظن بأنّ شون سيتعب ويعود ليشرّف على العمال قبل العشاء. راقب شون أبي وهو يغادر، ثمّ التفت إليّ وقال: «حسنًا، يا سيدل ليستر. اجمعي القطع وأنا سألقمها في الآلة. وإذا كان الحديد سميكًا، لنقل نصف بوصة، فإني سأحتاج إلى وزنك في ظهري لكي لا أدفع إلى الشفرات. اتفقنا؟»

عملنا أنا وشون على المقصّ طوال شهر. كان أبي عنيدًا جدًّا ورفض أن يوقفه، مع أنه كان يكلف أكثر بكثير مما يكلفه قطع الحديد بحملاج اللحم. عندما انتهينا، أصبت ببعض الكدمات لكنّي لم أصب بجروح. وبدا أن شون قد استنزفته الحياة. فلم يكن قد مضى على سقوطه من السقالة إلّا بضعة أشهر، ولم يتحمل جسده البلى الذي أصابه. فقد أصيب بشقوق في الرأس مرات عدة عندما كانت قطعة حديد تندفع من زاوية غير متوقّعة. وعندما كان ذلك يحدث، كان يجلس حوالى دقيقة فوق التراب، واضعًا يديه على عينيه، ثمّ يعود ويقف ويتناول القطعة التالية. وفي المساء، كان يتمدد على أرضيّة المطبخ بقميصه الملوّث وينظفونه الجينز المكسو بالتراب، مرهقًا جدًّا حتى لا يعود يقوى على أن يستحمّ.

كنت أجلب له الطعام والماء الذي يطلبه. وكانت سادي تأتي في معظم
الأمسيات، وكنا نجري كلانا جنبًا إلى جنب عندما يرسلنا لنجلب له قطع ثلج،
ثم نزيل الثلج، ثم نعيد وضع الثلج. فقد كنّا كلانا «صاحبات العيون السمكية».
وفي صباح اليوم التالي، كنت أنا وشون نعود للعمل على المقصّ، ونلقم
شفراته بالحديد التي يلوّكها بقوة تسحبه من قدميه، بسهولة، بشكل لعوب،
كما لو كانت لعبة، كما لو كان طفلًا.

الفصل ١٦

رجل غير تقي، وسماء عاصية

بدأ العمل في بناء حظيرة إنتاج الحليب في أونيدا. كان شون قد صمّم الهيكل الأساسي وثبته باللحام (الأعمدة الضخمة التي يقوم عليها الهيكل الأساسي للمبنى). كانت ثقيلة جدًّا، ولم يكن بالإمكان رفعها إلا برافعة. كانت عملية دقيقة، تحتاج إلى لحام حتى تصبح متوازنة مع الجانب الآخر من العضادة حتى تُنزل إلى الأعمدة، ثمّ تُلحم في موضعها الصحيح. فاجأ شون الجميع عندما قال إنه يريد أن أشغّل الرافعة.

فقال أبي: «لا تستطيع تارا أن تشغّل الرافعة»، وأضاف، «إننا سنضجّ نصف اليوم في تعليمها كيف تستخدم مفاتيح التحكم، ولن تعرف ما الذي تفعله».

فقال شون: «لكنها ستكون حذرة، وأنا أحتاج إليها».

بعد ساعة كنت أجلس في المقصورة، وكان شون ولوك يقفان على طرفي العمود، على ارتفاع عشرين قدمًا في الهواء. أدفع العتلة قليلًا، ثم أنصت إلى هسهسة الأسطوانات الهيدروليكية. «توقفي»، صاح شون عندما أصبح العمود في مكانه الصحيح، ثمّ هزّ رأسيهما بخوذتيهما في الأسفل وبدأ عملية اللحام.

كان الطلب بأن أشغّل الرافعة واحدًا من مائة مشاجرة بين أبي وشون، وانتصر شون في ذلك الصيف. ولم تُحلّ معظم تلك المشاجرات بسلام. فقد كانا يتجادلان كلّ يوم تقريبًا حول خطأ في المخططات أو أداة تُسيت في البيت. وكان أبي يبدو متلهفًا للشجار، ليثبت أنه هو المسؤول.

بعد ظهر أحد الأيام، جاء أبي ووقف بجانب شون، وراح يراقبه وهو يعمل. بعد دقيقة، ومن دون أي سبب، بدأ يصيح ويقول إن شون أخذ وقتًا طويلًا في فترة الغداء، وإنه لا يجلب طاقم العمل في وقت مبكر، وإنه لا يدفعنا إلى

العمل كثيرًا. وظل أبي يصرخ لدقائق عدة، ثم خلع شون خوذة اللحم، ونظر إليه بهدوء وقال: «هل يمكنك أن تسكت حتى أستطيع أن أعمل؟».

لم يتوقف أبي عن الصراخ. قال إن شون كسول، وإنه لا يعرف كيف يوجهنا، ولا يفهم قيمة العمل الشاق. فنزل شون من منصة اللحم واتجه إلى شاحنته الصغيرة. لحق به أبي ولم يكف عن الصراخ. خلع شون قفازه، ببطاء، برقة، يُخرج إصبعًا في كل مرة، كما لو أنه لم يكن هناك رجل يصرخ على بعد ست بوصات من وجهه. وقف ساكنًا لبضع لحظات، لتمرر الإساءة، ثم صعد إلى الشاحنة الصغيرة وغادر، وترك أبي يصيح في التراب.

لا أزال أتذكّر ذلك الشعور بالخوف الذي انتابني وأنا أشاهد تلك الشاحنة الصغيرة تطوي الطريق الترابي. فقد كان شون الشخص الوحيد الذي رأيته طوال حياتي يعارض أبي، الشخص الوحيد الذي جعلت قوته العقلية وقناعته الراسخة أبي يستسلم له. لقد رأيت أبي يفقد أعصابه ويصيح في جميع إخوتي. أما شون فكان الشخص الوحيد الذي لم أره يستسلم قط.

كانت ليلة يوم السبت. كنت في بيت جدّتي التي تعيش في البلدة، كتاب الرياضيات مفتوح فوق طاولة المطبخ، بجانب طبق من البسكويت. كنت أدرس لإعادة امتحان الشهادة الثانوية. كنت أدرس في معظم الأحيان في بيت جدّتي كي لا أسمع محاضرات أبي.

رنّ الهاتف. كان شون. هل أريد أن أشاهد فيلمًا؟ قلت نعم، وبعد بضع دقائق سمعت همهمة عالية فنظرت من النافذة. بدراجته البخارية السوداء الكبيرة وقبعته الأسترالية ذات الحواف العريضة، بدا أنه لا ينتمي إلى هذا المكان، ينتظر بجانب سياج بيت جدتي الخشبي المدبّب الأبيض. وكانت جدّتي تعدّ قالب كيك بالشوكولاته، وصعد شون إلى الطابق العلوي ليختار فيلمًا.

أوقفنا الفيلم عندما قدّمت لنا جدّتي الكيك. رحنا نتناوله بصمت. كانت ملاعقنا تصدر صوتًا عاليًا عندما تلامس صحن جدتي الخزفية. «ستبلغين السابعة والعشرين»، قال شون فجأة عندما انتهينا.

فقلت: «لا يهم». لا أظن أنني سأنجح في أي شيء. ماذا لو كان أبي محققًا؟ ماذا لو عُسل دماغي؟».

هزّ شون كتفه، وقال: «أنت ذكية مثل أبي. إذا كان أبي محقًا، فإنك تعرفين متى تصلين إلى هناك».

انتهى الفيلم. ودعنا جدّتي وقلنا لها طابت ليلتك. كانت ليلة صيفية معتدلة، رائعة لركوب الدراجة النارية، وطلب مني شون أن أركب معه على الدراجة إلى البيت، وقال يمكننا أن نجلب السيارة غدًا. شغل المحرّك، وانتظرتني حتى أصعد. خطوت نحوه، ثم تذكّرت أنني نسيت كتاب الرياضيات على الطاولة في بيت جدّتي.

قلت له: «اذهب، وسألق بك».

دفع شون قبعته إلى أسفل رأسه، ودار دورة سريعة بالدراجة ثم انطلق في الشارع المقفر.

رحت أقود سيارتي تغمرنى سعادة كبيرة. كان الليل حالك السواد، ذلك الظلام الكثيف الذي يخيم على المناطق التي لا يوجد فيها سكان كثيرون، والتي تتناثر فيها بيوت قليلة، وأضواء الشوارع فيها أقل، حيث لا يباري شيء ضوء النجوم. أبحرت في الطريق السريع الملتوي كما فعلت مرات كثيرة من قبل. انطلقت بسرعة في طريق بير ريفر هيل، ثم رحّت أسير في الامتداد المنبسط الموازي لطريق فايف مايل كريك، ثم يصعد الطريق وينعطف إلى اليمين. أعرف أن المنعطف هناك من دون أن أبحث عنه، ورأيت ذلك اللمعان في السواد الذي تحدّثه أضواء السيارة.

بدأت أصد التلّ. يوجد مرعى على يساري، وخندق على يميني، وعندما بدأ الطريق ينحدر بقوة رأيت ثلاث سيارات مركونة بجانب الخندق، أبوابها مفتوحة، وأضواؤها مضيئة. ورأيت سبعة أو ثمانية أشخاص متحلقين حول شيء ملقى فوق الحصى. انتقلت إلى المسار التالي لأتجاوزهم، لكنني توقّفت عندما رأيت شيئًا صغيرًا ملقى وسط الطريق السريع.

كانت القبة الأسترالية ذات الحواف العريضة.

توقفت وجريت نحو الأشخاص المتجمّعين بجانب الخندق. «شون»، صحت.

ابتعد الحشد ليفسحوا لي طريقًا. كان شون مستلقيًا على بطنه على الحصى، يسبح في بركة من الدم الذي بدا وردي اللون من وهج أضواء السيارات. لم يتحرّك. «لقد صدم بقرة خرجت فجأة من الزاوية»، قال رجل، «اللَّيلة حالكة الظلام، حتى إنه لم يرها. لقد اتصلنا بالإسعاف. لم نجرؤ على تحرّيكه».

كان جسد شون ملويًا، ظهره مثنيًا. لا أعرف متى ستصل سيارة الإسعاف. كان قد نزف دمًا كثيرًا. قرّرت أن أوقف النزيف. دفعت يدي تحت كتفه وحاولت أن أرفعه لكّتي لم أستطع. نظرت إلى الأشخاص المتحلقين حوله وعرفت أحد الوجوه. إنه دوين^[6].

إنه واحدًا مئًا. فقد ولدت أمي أربعة من أطفاله الثمانية.
«دوين! ساعدني على أن أقلبه على ظهره».

رفع دوين شون ووضعه على ظهره. لثانية بدت كأنها ساعة، رحت أحدّق في أخي، أرى الدم يسيل من صدغه إلى خدّه الأيمن، ثم يسيل على أذنه ثم إلى قميصه القطني الأبيض. كانت عيناه مغمضتين، فاغر الفم. كان الدم ينزّ من فتحة بحجم كرة غولف في جبينه. كان يبدو أن صدغه قد سُحب فوق الإسفلت فكشط الجلد، ثمّ العظم. انحنيت أكثر ونظرت إلى داخل الجرح. لمع في وجهي شيء طري وإسفنجي. خلعت سترتي وضغطتها فوق رأس شون.

عندما لمسّ الجرح، أطلق شون تنهيدة طويلة، وفُتحت عيناه.

«سيدليستر»، غمغم. ثمّ بدا أنه غاب عن الوعي. كان هاتفي الخلوي في جيبي. اتصلتُ بالبيت. أجاب أبي.

لا بدّ أنني كنتُ متوترة، وقلت بسرعة إن دراجة شون تحطمت، وتوجد فتحة في رأسه.

«تكلمني ببطء. ما الذي حدث؟»

كررت ما قلته. «ماذا يجب أن أفعل؟»

«أحضريه إلى البيت»، قال أبي، «أمك ستعالجه».

فتحت فمي، لكن الكلمات لم تخرج منه، ثم قلت أخيرًا، «أنا لا أُمزح. دماغه، يمكنني أن أراه».

«أحضريه إلى البيت»، قال أبي، «تستطيع أمك أن تعالج الأمر»، ثم سمعت طنينًا. لقد أغلق الهاتف.

سمع دوين الحديث، وقال: «أقيم في الجانب الآخر من هذا الحقل، وتستطيع أمك أن تعالجه هناك».

فقلت: «لا، إن أبي يريد أن آخذه إلى البيت. ساعدني على حمله إلى السيارة». أن شون عندما رفعناه لكّته لم يقل شيئًا بعد ذلك. قال أحدهم إننا يجب أن ننتظر سيارة الإسعاف، وقال آخر إننا يجب أن نأخذه إلى المستشفى بأنفسنا. لا أظن أن أحدًا قد خطر له أننا سنأخذه إلى البيت، ودماغه يسيل من جبينه.

أجلسنا شون مثنياً في المقعد الخلفي، وجلسْتُ وراء المقود، وجلس دوين بجانبني. نظرت في المرأة الخلفية لأعود إلى الطريق السريع، ثم خفّضت المرأة إلى الأسفل كي أرى انعكاس وجه شون، الأبيض المكسو بالدم. وضعت قدمي على دواسة البنزين.

مرت ثلاث ثوان، ربما أربع. كان ذلك كلّ ما كان.

كان دوين يصيح، «هيا لنذهب»، لكنني لم أكد أسمع. تملكني الرعب. بدأت أفكاري تجول بعنف، بشكل محموم، عبر سحابة من السخط. كانت الحالة أشبه بحلم، كما لو أنّ الهستيريا قد حرّرتني من قصّة كنت أريد أن أصدّقها منذ خمس دقائق.

لم أتذكر قط اليوم الذي وقع فيه شون من السقالة، لأنه لم يكن هناك شيء أستطيع أن أتذكره. فقد وقع لأن الله أراد أن يقع. فلا يوجد معنى أعمق من ذلك. لم أكن أعرف ما الذي يمكن أن يحدث لو كنْتُ موجودة هناك. أن أرى شون يسقط، يحاول أن يتمسك بالهواء. أراه يصطدم، ثمّ ينشني، ثمّ يستلقي دون أن يأتي بأي حركة. لم أدع نفسي أتصوّر ما الذي جرى بعد ذلك:

قرار أبي بأن يتركه بجانب الشاحنة الصغيرة، أو النظرات القلقة التي لا بدّ أن
لوك وبنجامين تبادلها.

أحدّق الآن في الطيات في وجه أخي، كلّ طية منها نهر صغير من الدم،
تذكّرت. تذكّرت أنّ شون جلس بجانب الشاحنة الصغيرة حوالي ربع ساعة،
كان دماغه ينزف خلالها. ثمّ اعترته تلك النوبة وعاركة الرجال وألقوا به أرضًا،
إدّا وقع، أصيب إصابة أخرى، الإصابة التي قال الأطباء إنه كان من الممكن أن
تودي بحياته. تلك الإصابة هي السبب التي جعلت شون لا يعود شون الحقيقي
ثانية.

إذا كانت السقطة الأولى هي إرادة الله، فإنّ إرادة من كانت السقطة
الثانية؟

لم أزر المستشفى في البلدة من قبل، لكنني وجدته بسهولة.

سألني دوين ما الذي أفعله عندما رجعت إلى الخلف وضغطت على
دواسة البنزين وانطلقت أسفل سفح التل. رحت أنصت إلى أنفاس شون
الضحلة وأنا أقود بسرعة في الوادي، على طريق فايف ميل كريك، ثمّ
انعطفت إلى طريق بير ريفر هيل. في المستشفى، ركنت السيارة عند قسم
الإسعاف، وساعدني دوين في حمل شون ودخلنا عبر الأبواب الزجاجية.
صرختُ أطلب المساعدة. جاءت ممرضة، تركض، ثمّ ممرضة أخرى. كان
شون واعيّا في ذلك الحين. أخذته الممرضتان ودفعته إحداهما إلى غرفة
الانتظار.

لم يكن أمامي إلّا أن أفعل ما يجب أن أفعله بعد ذلك. اتصلت بأبي.
سألني، «هل أصبحت بالقرب من البيت؟».

«أنا في المستشفى».

ساد صمت، ثمّ قال: «نحن قادمان».

بعد خمس عشرة دقيقة وصلا إلى المستشفى. انتظرنا ثلاثتنا والقلق
يعتصرنا، جلست على أريكة زرقاء فاتحة اللون أقضم أظفاري، وراحت أمّي

تذرع الغرفة وتنقر أصابعها، بينما جلس أبي جامدًا تحت ساعة الحائط التي تصدر دقات عالية.

أجرى الطبيب لشون صورة طبقية محورية. قال إن الجرح سيئ لكن الضرر ليس خطيرًا، ثم تذكّرت ما قاله الأطباء في تلك المرة -غالبًا ما تكون الجروح في الرأس التي تبدو الأسوأ الأقل خطورة- وشعرت بالغباء لأنني ارتعبت وأحضرتة إلى المستشفى. وقال الطبيب إن الفتحة في العظم صغيرة، وقد تلتئم من تلقاء نفسها، أو يستطيع الجراح أن يضع فيها صفيحة معدنية، فقال شون إنه يريد أن يراها تلتئم من تلقاء نفسها، فوضع الطبيب طبقة الجلد فوق الفتحة وخاطها.

رجعنا إلى البيت في حوالى الثالثة صباحًا. قاد أبي السيارة، وجلست أمي إلى جانبه، وجلست أنا في المقعد الخلفي مع شون. لم يقل أحد شيئًا. لم يصرخ أبي ولم يلق عليّ محاضرة. وفي الواقع، لم يأت على ذكر تلك الليلة مرة أخرى. لكن كان ثمة شيء في طريقة نظرتة، فلم يعد ينظر إليّ مباشرة، وهذا ما جعلني أفكر بأننا وصلنا إلى مفترق على الطريق، وأني ذهبت من طريق، وذهب هو في طريق آخر. بعد تلك الليلة، لم يعد يثار موضوع إن كنت سأذهب أم سأبقى، كنت كما لو كنا نعيش في المستقبل، وأني غادرت البيت للتو.

عندما أتذكّر تلك الليلة الآن، لا أتذكّر الطريق السريع المظلم، ولا أخي المستلقي الذي كان يسبح في بركة من دمه، وإنما أتذكّر غرفة الانتظار، بأريكتها الزرقاء وجدرانها الشاحبة. أشمّ هواءها المعقّم. أسمع دقات الساعة البلاستيكية.

جلس أبي أمامي، وعندما نظرت إلى وجهه المرهق، أصابتنى حقيقة قويّة لا أعرف لماذا لم أفهمها من قبل، وهي: أنني لست ابنة صالحة. أنا ابنة خائنة، ذئبة بين خراف. يوجد في داخلي شيء مختلف وهو ليس شيئًا جيدًا. أردت أن أصيح، أن أجثو على ركبتي أبي وأعده بأنني لن أفعل ذلك مرة أخرى، لكن بما أنني ذئبة، فإني لا أزال أكذب، وأنه سيكشف تلك الأكاذيب. كنا نعرف كلانا

أنني لو وجدت شون مرة أخرى على الطريق السريع، مضرّجًا بدمه
القرمزي، فإني سأفعل ما فعلته.

إني لا أشعر بالأسف، وإنما أشعر بالخجل فقط.

وصل المغلف بعد ثلاثة أسابيع، عندما بدأ شون يسترد عافيته وينهض
ويقف على قدميه. فضضت المغلف وخدر يسري في جسدي، كما لو أنني
سأقرأ حكمًا بإدانتني. نظرت مباشرة إلى النتيجة النهائية في أسفل الصفحة.
ثمانية وعشرون. دققت الرقم مرة أخرى. دققت اسمي. لا يوجد خطأ.
بطريقة ما المعجزة هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أعتمد عليها.. لقد
نجحت.

أول ما طرأ ببالي هو أن أتخذ قرارًا: وهو ألا أعود للعمل مع أبي. ذهبت
إلى مخزن البقالة الوحيد في البلدة، ستوكس، وقدمت طلبًا للعمل في تعبئة
أكياس البقالة. لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة، لكنني لم أخبر المدير
بذلك، فوظفني لأعمل أربعين ساعة في الأسبوع. كانت نوبتي الأولى ستبدأ
في الساعة الرابعة من صباح الغد.

عندما عدت إلى البيت، كان أبي يقود عربة التحميل إلى باحة الخردة.
وقفتُ على درجة السلم وأمسكت بقضيب الحاجز. من فوق هدير المحرّك،
قلت له إنني وجدت عملاً، لكنني سأقود الرافعة بعد الظهر إلى أن يجد بديلاً
عني. أنزل ذراع العربة وحدّق إلى الأمام.

«لقد قرّرت للتو»، قال من دون أن ينظر إليّ، «ولا توجد إمكانية لأن
تتراجعي عن قرارك».

بعد أسبوع قدّمت طلبًا إلى جامعة بريغهام يونغ. لم أكن أعرف كيف
يُكتب الطلب، فكتبه لي تايلر، وذكر في الاستمارة إنني تعلّمت في البيت
وفق برنامج صارم وضعته لي أمي وحرصت على أن أفي بجميع متطلبات
التخرّج.

كانت مشاعري حول الطلب تتبدّل من يوم إلى آخر، لا بل من دقيقة إلى
دقيقة. ففي بعض الأحيان، كنت متيقنة من أن الله يريدني أن أذهب إلى

الجامعة، لأنه منحني الدرجات الثمانية والعشرين، وفي أحيان أخرى، أشعر بأنهم لن يقبلوني، وأن الله سيعاقبني لأنني قدّمت طلبي إلى الجامعة، وأحاول أن أترك أسرتي. لكن مهما كانت النتيجة، فقد كنت أعرف بأنني سأغادر. سأذهب إلى مكان ما، حتّى لو لم يكن إلى الجامعة، لأن البيت تغيّر منذ أن أخذت شون إلى المستشفى ولم أعده إلى البيت لتعالجه أمّي. لقد رفضت جزءاً منه، وهو يرفضني الآن.

كانت لجنة القبول سريعة في عملها. فلم أنتظر طويلاً. ووصلت الرسالة في مغلف عادي. غاص قلبي في صدري عندما رأيته. قلت في نفسي تكون رسائل الرفض عادة قصيرة. فتحت الرسالة وقرأت «مبروك»، لقد قُبلت للدراسة في الفصل الدراسي الذي سيبدأ في ٥ كانون الثاني (يناير).

عانقتني أمّي. حاول أبي أن يبدو مسروراً. قال: «هذا يثبت شيئاً واحداً على الأقل، وهو أن التعلّم في بيتنا جيّد مثل التعليم في المدرسة العامة».

قبل أن أبلغ السابعة عشرة من عمري بثلاثة أيام، أخذتني أمّي إلى يوتا لنبحث عن شقّة. استغرقتنا اليوم كله في البحث. عندما عدنا إلى البيت في وقت متأخر وجدنا أبي يتناول طعاماً مجمّداً. لم يعدّه جيّداً فأصبح كالهريسة. كان متوتراً، مستعدّاً للانفجار في أي لحظة. حتّى إن أمّي لم تخلع حذاءها، وهرعت إلى المطبخ وراحت تعدّ له عشاء حقيقياً. ذهب أبي إلى غرفة الجلوس وبدأ يشتم ويلعن جهاز الفيديو. رأيت من المدخل أنّ الكابلات لم تكن موصولة. عندما قلت له ذلك، انفجر، وأخذ يصرخ ويلوّح بذراعيه، وصاح أن في بيت الرجل يجب أن تكون الكابلات موصولة دائماً، وأنه يجب ألاّ يدخل رجل إلى غرفة ويجد كابلات الفيديو غير موصولة. ولماذا بحق الجحيم فصلتها؟

فهرعت أمّي من المطبخ، وقالت: «أنا فصلت الكابلات».

فهاجمها أبي بحدّة وقال لها: «لماذا تصطفين إلى جانبها دائماً! يتوقع الرجل أن تدعّمه زوجته».

رحت أعبث بالكابلات. كان أبي واقفاً فوقّي يصرخ. بدأ عقلي ينبض بالخوف، فاستولى على تفكيرتي، فلم أستطع أن أتذكّر كيف أوصل الأحمر

بالأحمر، والأبيض بالأبيض.

نظرت إلى أبي، إلى وجهه المحتقن، إلى العرق الذي ينبض في رقبته. لم أتمكن من توصيل الكابلات. وقفت، وعندما أصبحت على قدمي، لم أعد أبالي إن كانت قد وصلت الكابلات أم لم توصل، فخرجت من الغرفة. كان أبي لا يزال يصرخ عندما وصلت إلى المطبخ. عندما سرت في الممر نظرت إلى الوراء. حلت أمي مكاني، أقعت فوق الجهاز، تحاول وصل الأسلاك، وكان أبي لا يزال واقفًا فوقها.

كان انتظار عيد الميلاد في تلك السنة أشبه بانتظار أن يهبط المرء من حافة منحدر. فمنذ مشكلة الألفية كنت متيقنة من أن شيئًا فظيئًا سيحدث، شيئًا سيزيل كل شيء عرفته من قبل. لكن ما الذي سيحلّ مكانه؟ حاولت أن أتخيل المستقبل، أن أجعله مأهولًا بالأساتذة، وبالوظائف المدرسية، وقاعات الدروس، لكن عقلي لم يتمكن من أن يستحضر تلك الأشياء. لم يكن يوجد مستقبل في مخيلتي، وإنما كانت هناك عشية السنة الجديدة، ثم لم يعد هناك شيء.

كنت أعرف أنني يجب أن أستعدّ، أن أحاول أن أتعلّم منهاج المدرسة الثانوية التي قال تايلر للجامعة إنني درستة. لكنني لم أكن أعرف كيف، ولم أشأ أن أطلب مساعدة من تايلر. فقد بدأ حياة جديدة في بوردوا، حتى إنه كان يستعد للزواج، وكنت أشكّ في أنه يريد أن يتحمل مسؤولية عني.

عندما جاء إلى البيت بمناسبة عيد الميلاد، رأيته يقرأ كتابًا بعنوان «البؤساء»، فقلت لا بد أنه أحد الكتب التي يقرأها طلاب الجامعة، فاشتريت نسخة منه، بأمل أن أتعلّم منه أشياء عن التاريخ أو الأدب، لكنني لم أتعلّم منه ذلك، لأنني لم أكن قادرة على التمييز بين القصة الخيالية وبين الحقيقة الواقعية. لم أر نابليون حقيقيًا أكثر من جون فالدان، ولم أكن قد سمعت عنهما.

الجزء الثاني

الفصل ١٧

الحفاظ عليه مقدّساً

في يوم رأس السنة الجديدة، أخذتني أمي بسيارتها إلى حياتي الجديدة. لم آخذ معي أشياء كثيرة: دزينة من مرطبانات الخوخ المعبأة في البيت، وفرشة، وكيس مليء بالملابس. عندما انطلقنا في الطريق السريع رحت أراقب المشهد الطبيعي وهو ينقسم وتتباعد قمم جبال بير ريفر السوداء لتحل محلها صخور الروكيز ذات الحواف الحادة. كانت الجامعة تقع في قلب جبال واساتش التي تتأ صخورها البيضاء الهائلة من الأرض. كانت جميلة، لكن بدا لي جمالها عدوانياً، مهدداً.

كانت شقّتي تبعد حوالي ميل جنوب الحرم الجامعي، تتألف من مطبخ وغرفة جلوس وثلاث غرف نوم صغيرة. أما الفتيات الأخريات اللاتي يقمن في الشقة -كنت أعرف أنهن فتيات لأن جميع المساكن في الجامعة تفصل بين الذكور والإناث- فلم يعدن بعد من عطلة عيد الميلاد. نقلت أغراضي من السيارة خلال بضع دقائق. وقفنا أنا وأمّي في المطبخ لا نعرف للحظة ماذا سنفعل، ثمّ عانقتني وذهبت.

عشتُ وحدي في الشقة الهادئة لمدة ثلاثة أيام. لكنها لم تكن هادئة. لا يوجد مكان هادئ. طوال حياتي لم أكن أمضي أكثر من بضع ساعات في أي مدينة حتى أجد الضوضاء الغريبة تغزو كياني. أصوات شارات المرور عند تقاطع الطرق، عويل صفارات سيارات الشرطة والإسعاف، وهسيس المكابح الهوائية، حتى الثرثرة الخافتة المنبعثة من الأشخاص الذين يمشون على الرصيف، أسمع كلّ صوت على حدة. فقد اعتادت أذناي على سكون الجبل، وأشعر بأن الضجيج يحطمني.

كنت أتوق لأنام عندما وصلت أول نزيلة في الغرفة. اسمها شانون، تدرس في معهد التجميل في الشارع المقابل. كانت ترتدي بنطلون بيجاما من

المخمل لونه وردي وبلوزة بيضاء ضيقة ذات حمالات رفيعة جدًا. حدّقت في كتفيها العاريين. كنت قد رأيت نساء يرتدين ثيابًا كهذه، كان أبي يسميهن كافرات، وكنت أحرص دائمًا على ألاّ أقترّب منهن كثيرًا، لأنني كنت أخشى أن يكون عهرهن معديًا. والآن، ها هي واحدة منهن تعيش في الشقة التي أسكن فيها.

رمقتني شانون بنظرة فاحصة تشي بالاستياء عندما رأتني في معطفي الفانيلا الواسع وبنطلوني الجينز الرجالي الفضفاض. «كم عمرك؟» سألتني. «أنا طالبة في السنة الأولى»، قلت. لم أشأ أن أعترف لها بأنني لم أتجاوز السابعة عشرة بعد، وأتني يجب أن أكون الآن في المدرسة الثانوية.

عندما استدارت شانون لتذهب إلى المغسلة رأيت كلمة «Juicy» مطبوعة عند مؤخرتها. كان ذلك أكثر مما يمكنني أن أحتمل. انسحبت إلى غرفتي، وهممت بأنني ذاهبة إلى سريري.

«جيد»، قالت، «ستكون الصلاة في الكنيسة في وقت مبكر. لكني أصل دائمًا متأخرة».

«هل تذهبن إلى الكنيسة؟»

«طبعًا»، قالت، «ألا تذهبين أنتِ؟»

«طبعًا أذهب. لكنّ أنتِ، هل تذهبين فعلاً؟»

حدّقت فيّ، وهي تعضّ على شفرتها، ثمّ قالت: «الكنيسة الساعة الثامنة. تصبحين على خير».

بدأ عقلي يدور بسرعة عندما أغلقتُ باب غرفة نومي. كيف يمكن لفتاة كهذه أن تنتمي إلى الطائفة المورمونية؟

كان أبي يقول إن هناك كفارًا في كل مكان، وإن معظم المورمون كفار، لكنهم لا يعرفون ذلك. فكّرت ببلوزة شانون وبنطال بيجامتها، وأدركت على الفور أن جميع من هم في الجامعة كفار.

في اليوم التالي وصلت النزيلة الأخرى. اسمها ماري، طالبة في السنة الثالثة تدرس تعليم الطفولة المبكرة. كانت ترتدي ملابس كالتى ترتديها النساء من الطائفة المورمونية يوم الأحد: تنورة مزهّرة تصل حتى الأرض. كانت ثيابها بمثابة شعار بالنسبة لي، تدل على أنها ليست كافرة، فقل شعوري بالوحدة لبضع ساعات.

في ذلك المساء، نهضت ماري من على الأريكة، وقالت: «ستبدأ الدراسة غدًا. حان الوقت لشراء المواد الضرورية». ذهبت ثم عادت بعد ساعة تحمل كيسين ورقيين. أعرف أن التسوّق محرّم يوم السبت، لم أشتري طوال عمري شيئًا أكثر من قطعة علكة يوم الأحد، أما ماري فقد راحت تفرغ الكيسين المليئين بالبيض والحليب والباستا، دون أن تعلم أن كلّ شيء تضعه في ثلاثتنا المشتركة انتهاك لتعاليم الربّ. وعندما أخرجت علبة كوك دايت، التي يقول أبي إنها تخالف نصائح الرب المتعلقة بالصحة، هربت إلى غرفتي.

في صباح اليوم التالي، استقلت الحافلة المتجهة في الاتجاه الخطأ. عندما انتبهت إلى ذلك، كانت المحاضرة على وشك أن تنتهي. وقفت محرجة في الخلف حتى أشارت إليّ البروفسورة، وهي امرأة نحيفة ذات قسمات رهيبة، بأن أجلس في المقعد الشاغر الوحيد، بالقرب من المقدمة. جلستُ، وشعرت بثقل عيون الجميع عليّ. كان الفصل عن شكسبير الذي اخترته لأنني سمعت عن شكسبير، وقلت إن هذا سيكون مؤشّرًا جيدًا، لكنني أدركت الآن بأنني لا أعرف عنه شيئًا. كلّ ما في الأمر أن شكسبير كان كلمة سمعتها من قبل.

عندما انتهت المحاضرة، اقتربت البروفسورة من المقعد الذي أجلس عليه وقالت: «هذا ليس مكانك».

حدّقت فيها، مشوّشة. طبعًا هذا ليس مكاني، لكنها كيف عرفت؟ كنت على وشك أن أعترف لها بكل شيء: بأنني لم أذهب إلى المدرسة قط، وأنني لم أستوف الشروط المطلوبة من أجل التخرّج من المدرسة الثانوية، عندما أضافت، «هذا الصفّ للطلاب المتقدمين».

«هل توجد صفوف للمتقدمين؟» سألتها.

زأغت عيناها كأنها ظنت أنني أحاول أن أمارحها. «هذا الفصل ٣٨٢. ويجب أن تكوني في الفصل ١١٠».

سرْتُ معظم المسافة عبر الحرم الجامعي حتى فهمت ما الذي قصدته، ثم دققت في برنامج فصلي، فلاحظت لأول مرة، الأرقام الموجودة بجانب اسم كل فصل.

ذهبت إلى مكتب التسجيل، فقالوا لي إن جميع فصول الصفوف الأولى مكتملة. ما الذي يجب أن أفعله، فقالوا إنني يجب أن أراقب على الإنترنت كل بضع ساعات وأحضر الصف الذي يغيب فيه أحد الطلاب. في نهاية الأسبوع، تمكنت من حضور الفصول التمهيدية للغة الإنكليزية والتاريخ الأمريكي والموسيقى والديانة، لكنني لم أجد مكانًا في فصل الفن في الحضارة الغربية المخصص للسنة الأولى.

كانت تدرس اللغة الإنكليزية للسنة الأولى امرأة بشوشة في أواخر العشرينات من عمرها ظلت تتكلم عن شيء يدعى «شكل المقالة» أكدت لنا أننا كنا قد درسناه في المدرسة الثانوية.

كان الدرس التالي، التاريخ الأمريكي، في قاعة تُسمى «النبى جوزيف سميث». خيل إلي أن مادة التاريخ الأمريكي ستكون سهلة لأن أبي علمنا أشياء كثيرة عن الآباء المؤسسين، فقد كنت أعرف كل شيء عن واشنطن، وجفرسن، وماديسون. لكن الأستاذ لم يذكر هؤلاء، بل تحدّث عن «الدعائم الفلسفية» وعن كتابات شيشرون وهيوم، وهما اسمان لم أسمع عنهما قط.

في المحاضرة الأولى، قيل لنا إن الدرس التالي سيبدأ بإجراء اختبار في القراءة. أمضيت يومين وأنا أحاول أن أفهم معنى الكلمات من الكتاب المقرر. فقد كانت عبارات مثل «الإنسانية المدنية» و«التنوير الإسكتلندي» تملأ الصفحات مثل حفر مظلمة، تجذب كل الكلمات الأخرى إليها. أجريت الاختبار ولم أفهم جميع الأسئلة.

قبع ذلك الفشل في عقلي بشكل غير مريح. أثار ذلك أول تساؤل لي إن كانت الأمور ستسير على ما يرام، وهل أن كل ما أعرفه كان كافيًا. بعد الاختبار، بدا الجواب واضحًا: لا لم يكن كافيًا. عندما أدركت ذلك، كان من

الممكن أن أكره الطريقة التي رُبيت فيها، لكنّي لم أفعل ذلك، بل ازداد تعلقي وولائي لأبي بقدر متناسب مع الأميال التي تفصل بيننا. ففي البيت، كان بإمكانني أن أثور عليه، أما هنا، في هذا المكان المضيء، الصاحب، المحاط بالكفار المتنكرين في ثياب القديسين، فقد تعلّقت بكلّ حقيقة، بكلّ عقيدة منحني إياها أبي وهي أن الأطباء هم أبناء الجحيم، والدراسة في البيت إحدى وصايا الرب.

لم يقوِّض ولائي الجديد فشلي في عقيدتي القديمة، وإنما قوضته تلك المحاضرة عن الفنّ الغربي.

كانت القاعة مضاءة عندما وصلت. كانت أشعة شمس الصباح تتسلل بدفء من النوافذ في أعلى الجدار. اخترت مقعدًا بجانب فتاة ترتدي بلوزة ذات قبة عالية، اسمها فانيسا. «يجب أن نبقي معًا»، قالت لي، «أظن أننا الطالبتان المبتدئتان الوحيدتان في هذا الصفّ».

بدأت المحاضرة عندما أغلق رجل عجوز ذو عينين صغيرتين وأنف حادّ النوافذ. ثم ضغط على مفتاح وغمر جهاز عرض الشرائح الغرفة بضوء أبيض. أظهر الجهاز صورة لوحة. راح البروفسور يناقش بنيتها، ضربات الفرشاة فيها، تاريخها، ثم انتقل إلى اللوحة التالية، ثم إلى التي تليها.

ثمّ أظهر جهاز العرض لوحة غريبة، تظهر رجلًا يعتمر قبعة باهتة اللون ويرتدي معطفًا، يلوح خلفه جدار خرساني، يحمل ورقة صغيرة بجانب وجهه، لكنّه لم يكن ينظر إليها، وإنما ينظر إلينا.

فتحتُ كتاب الصور المقرر الذي اشتريته مؤخرًا لألقي على اللوحة نظرة عن قرب. كان هناك عبارة تحت اللوحة مكتوبة بأحرف مائلة لكنّي لم أفهمها. كانت إحدى تلك الكلمات الغامضة، في وسط الجملة تمامًا، التهمت باقي الكلمات. رأيت طلابًا آخرين يسألون أسئلة، رفعت يدي.

ذكر البروفسور اسمي، فقرأت الجملة بصوت عال، وعندما وصلت إلى تلك الكلمة، توقّفت، ثم قلت: «لا أعرف معنى هذه الكلمة».

خيم صمت. لم يكن صمتًا، ولا سكون الضوضاء، وإنما صمت مطبق، صمت يكاد يكون عنيقًا. لم يُسمع صوت أوراق تُقلب، أو صوت أقلام رصاص تخدش.

زمّ البروفسور شفّتيه، وقال: «شكرًا لك»، ثم عاد إلى ملاحظاته.

لم أكد أتحرك طوال المحاضرة. رحت أحقق في حذائي، أتساءل ما الذي جرى، ولماذا، وكلما رفعت عيني إلى الأعلى، رأيت أحدًا يحدّق بي كما لو كنت شيئًا غريبًا. بالطبع، كنت شخصًا غريبًا، وكنت أعرف ذلك، لكنني لم أفهم كيف عرفوا ذلك.

عندما انتهت المحاضرة، وضعت فانيسا دفترها في حقيبتها، ثم توقفت وقالت، «ما كان يجب أن تسخري من ذلك. إنها ليست نكتة». وابتعدت قبل أن أردد عليها.

بقيت جالسة في مقعدي حتى خرج الجميع. تظاهرت بأن سخّاب معطفي علق لكي أتحاشى النظر في عيون أحد، ثم اتجهت مباشرة إلى مختبر الكمبيوتر ورحت أبحث عن كلمة Holocaust «المحرقة».

لا أعرف إلى متى جلست في المختبر أقرأ عنها، لكن بعد أن قرأت ما يكفي، أسندت ظهري إلى الكرسي ورحت أحقق في السقف. أظن أنني كنت مصدومة، لكنني لم أكن متأكدة هل هي صدمة معرفة شيء فظيع، أم صدمة معرفة مدى جهلي. أذكر أنني لم أتخيل للحظة، المعسكرات، أو الحفر، أو غرف الغاز، وإنما تخيلت وجه أمي. غمرني شعور قوي غير مألوف، لم أعرف ما هو، جعلني أريد أن أصرخ بها، بأمي، لكنني خفت.

فتّشت في ذكرياتي. بشكل ما لم تكن كلمة «المحرقة» غير مألوفة لي تمامًا. لعل أمي علّمتني شيئًا عنها ونحن نقطف زهرة روز هيب أو الزعرور. بدا لي أنه توجد لدي معلومات مبهمة بأن اليهود قُتلوا في مكان ما، منذ عهد بعيد. لكنني كنت أظن أنه كان نزاعًا صغيرًا، مثل مذبحة بوسطن التي كان أبي يتحدث عنها كثيرًا، قُتل فيها ستة أشخاص على يد حكومة استبدادية. ربما لم أسمع جيدًا آنذاك -خمسة أشخاص مقابل ستة ملايين- بدا ذلك أمرًا مستحيلًا.

رأيت فانيسا قبل موعد المحاضرة التالية واعتذرت لها لأنني قلت تلك النكتة. لم أشرح لها حقيقة الأمر لأنني لم أستطع أن أفعل ذلك. قلت لها فقط إنني آسفة وإنني لن أكرر ذلك ثانية. ولكي أفي بوعدتي، لم أعد أرفع يدي لأسأل شيئًا طوال الفصل الدراسي.

في يوم السبت ذاك، جلست إلى طاولتي التي تكدست فوقها كومة من الوظائف والواجبات المدرسية، وكان عليّ أن أنهيها كلّها في ذلك اليوم لأنني لا أستطيع أن أنتهك حرمة يوم السبت.

أمضيت فترة الصباح وبعد الظهر وأنا أحاول جاهدة فك شفرة كتاب التاريخ، لكنني لم أحرز نجاحًا كبيرًا. وفي المساء، حاولت أن أكتب مقالة لفصل اللغة الإنكليزية، لكن لم يسبق لي أن كتبت مقالة قبل الآن -سوى المقالات حول الإثم والتوبة التي لم يقرأها أحد- ولم أعرف كيف أكتبها. لم أكن أعرف ما الذي كانت البروفسورة تقصده بعبارة «شكل المقالة». رحت أخربش بضع جمل، محوتها، ثمّ كتبت من جديد. ظللت أفعل ذلك حتى منتصف الليل.

كنت أعرف أنّي يجب أن أتوقّف عن الكتابة، فهذا وقت الربّ، لكنني لم أكن قد بدأت بكتابة وظيفة نظرية الموسيقى التي يجب أن أقدمها في الساعة السابعة صباح يوم الاثنين. إذ يبدأ يوم السبت عندما أستيظ، قلت لنفسي، ولم أتوقف عن العمل.

استيقظت ووجهي منكّب على الطاولة. كانت الغرفة مضيئة. تناهى إليّ صوت شانون وماري في المطبخ. لبست ثياب يوم الأحد وخرجنا ثلاثتنا إلى الكنيسة. وبما أن الصلاة مخصصة للطالبات، فقد كانت كلّ فتاة تجلس مع رفيقاتها في الغرفة، فجلست في المقعد مع رفيقاتي. بدأت شانون تتحدث فورًا مع الفتاة الجالسة وراءنا. نظرت حولي ودُهِشت للمرة ثانية من عدد النساء اللاتي يرتدين تنانير فوق الركبة.

قالت الفتاة التي كانت تتحدّث مع شانون إنّنا يجب أن نأتي بعد ظهر ذلك اليوم لنشاهد فيلمًا. وافقت ماري وشانون أما أنا فهزرت رأسي، فأنا لا أشاهد أفلامًا يوم الأحد.

رفعت شانون عينيها وهمست، «إنها تقية جدًا».

كنت أعرف دائمًا أنّ أبي يؤمن بإله مختلف. فعندما كنت طفلة، كنت أدرك جيدًا أنه على الرغم من أن أسرتي تصلي في نفس الكنيسة التي يصلي فيها جميع سكان بلدتنا، فإننا لم نكن نؤمن بالدين نفسه. فقد كانوا يؤمنون بالحشمة، أما نحن فكنا نمارسها. كانوا يؤمنون بقدرة الله على الشفاء، أما نحن فكنا نترك الجروح التي تصيبنا بيد الله. كانوا يؤمنون بقدوم المسيح الثاني، أما نحن فكنا نستعد له فعليًا. وبقدر ما تسعفني ذاكرتي، فإني أعرف أنّ أسرتي هي الأسرة المورمونية الحقيقية الوحيدة التي عرفت طوال حياتي. لكن لسبب ما، شعرت هنا، في هذه الجامعة، في هذه الكنيسة، لأول مرة باتساع الفجوة. لقد فهمت الآن: فإما أن أقف مع أسرتي، وإما أن أقف مع الكفار، وإما أن أكون في هذا الطرف أو في الطرف الآخر، لكن لا يوجد مكان في الوسط.

انتهت الصلاة وذهبنا إلى مدرسة يوم الأحد. اختارت شانون وماري مقاعد قريبة من المقدمة، وحجزتا لي مقعدًا، لكنني تردّدت، ورحت أفكر كيف أنني انتهكت تعاليم يوم السبت، فلم يمض عليّ أقل من أسبوع هنا، وها قد سرقت ساعة من وقت الربّ. ربما لهذا السبب لم يكن أبي يريد أن آتي إلى هنا: لأنه كان يعرف أنني إذا عشت معهم، مع أناس تقلّ درجة إيمانهم عن إيماني، فقد أصبح مثلهم.

لوّحت لي شانون وغاصت رقبتها في بلوزتها التي ياقتها في شكل V. مشيت من جانبها وحشرت نفسي في زاوية، أبعد ما يمكنني أن أكون عن شانون وماري. كنت سعيدة بألفة هذا الترتيب: أنا محشورة في الزاوية، بعيدة عن الأطفال الآخرين، كما كنت أفعل تمامًا أثناء دروس يوم الأحد عندما كنت طفلة. كان الشعور الوحيد بالألفة الذي تملكني منذ أن أتيت إلى هذا المكان، ووجدت فيه متعة كبيرة.

الفصل ١٨ الدم والريش

بعد ذلك، لم أعد أكلم شانون أو ماري إلا نادرًا، وقلما كلمتاني، إلا لتذكيري بالقيام بحصتي في الأعمال المنزلية التي لم أقم بها قط. فقد كانت الشقة تبدو لي جيدة، فما الضير في أن يكون هناك خوخ متعفن في الثلاجة وصحون وسخة في المغسلة؟ وما الضير إذا صفعتك الرائحة في وجهك عندما تدخل من الباب؟ كنت أرى أنه إذا كانت الرائحة الكريهة محتملة، فإن البيت نظيف، وقد طبقت هذه الفلسفة على نفسي. ولم أستخدم الصابون إلا عندما أستحم، عادة مرّة أو مرّتين في الأسبوع، وفي بعض الأحيان، لم أكن أستعمله أبدًا. وعندما أخرج من الحمام في الصباح، وأمرّ أمام المغسلة، كنت أرى شانون وماري تغسلان أيديهما دائمًا.. دائمًا، وأرى حواجهما ترتفع استغرابًا فأتذكّر جدّتي التي كانت تعيش في البلدة. شيء تافه، أقول لنفسي. فأنا لا أتبول على يدي.

كان الجو في الشقة مشحونًا. كانت شانون تنظر إليّ كما لو كنت كلبًا مسعورًا، ولم أكن أفعل أي شيء حتى أطمئنّها.

بدأ حسابي المصرفي يتناقص باستمرار. قلقْتُ لأنني قد لا أنجح في هذا الفصل، لكن بعد مضي شهر على الفصل الدراسي، وبعد أن دفعت رسوم التعليم والإيجار واشترت الطعام والكتب، بدأت أفكّر بأنني حتى لو نجحت، فإنني لن أعود إلى الجامعة لسبب واضح وحيد: وهو أنني لا أستطيع تسديد نفقاتها. فبدأت أبحث على الانترنت عن الشروط المطلوبة للحصول على منحة دراسية، ووجدت أن الحصول على منحة دراسية كاملة تتطلب الحصول على معدل علامات يكاد يكون كاملاً.

كان قد مضى شهر واحد فقط على الفصل الدراسي، لكن على الرغم من ذلك، كنت أعرف أن الحصول على منحة دراسية أمر بعيد المنال. بدأ فصل التاريخ الأمريكي يزداد سهولة، لكن بشرط ألا أرسب في أي اختبار

فيه. ووجدت سهولة في دراسة نظرية الموسيقى، لكنني وجدت صعوبة في فصل اللغة الإنكليزية. قالت لي البروفسورة إنني أمتلك موهبة الكتابة لكن لغتي رسمية ومنمّقة بشكل غريب، لكنني لم أقرأ لها إنني تعلّمت القراءة والكتابة من قراءة الإنجيل، وإنجيل المورمون، وخطب ومواعظ جوزيف سميث وبريغهام يانغ.

أما المشكلة الحقيقية، فكانت دروس الحضارة الغربية. فلم أكن أفهم المحاضرات جيدًا، ربما لأنني كنت أعتقد، خلال معظم شهر كانون الثاني (يناير)، بأن أوروبا هي بلد وليست قارة، لذلك لم أكن أرى معنى لما كان يقوله البروفسور. أما بعد ما جرى في كلمة «المحرقة»، فلم أعد أسأل عن أي توضيح.

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان فصلي المفصل، وذلك بسبب فانيسا. فقد كنّا نجلس معًا في جميع المحاضرات، وقد أحببتها لأنني كنت أشعر بأنها تنتمي إلى فئة المورمون التي أنتمي إليها: فقد كانت ترتدي بلوزة ذات قبة عالية، وثيرابًا واسعة، فضفاضة، وأخبرتني بأنها لم تشرب الكوكا في حياتها أو كتبت وظيفتها المدرسية يوم الأحد، وكانت الوحيدة التي عرفت في الجامعة لا تشبه الكفار.

في شهر شباط (فبراير)، قال البروفسور إنه سيجري اختبارات شهرية بدلًا من الامتحان الوحيد الذي يجري في منتصف الفصل، وإنه سيجري أول امتحان في الأسبوع القادم. لم أعرف كيف أحضرّ للامتحان. فلم يكن هناك كتاب مقرر لهذا الفصل، وإنما يوجد لديّ الكتاب المصور الذي يحتوي على لوحات أقراص مدمجة تضم مجموعات كلاسيكية. كنت أستمع إلى الموسيقى وأنا أتصفّح اللوحات، وبذلت جهدًا كبيرًا لأتذكّر من هو الذي رسم أو كوّن أي لوحة، لكنني لم أتمكن من أن أحفظ غيبًا كيف تُكتب الأسماء. فقد كان امتحان الشهادة الثانوية هو الامتحان الوحيد الذي أجرته حتى ذلك الوقت، وكان يحتوي على أجوبة عديدة تختار واحدًا منها، فظننت أن كلّ الامتحانات على هذا النحو.

في صباح يوم الامتحان، طلب البروفسور أن يُخرج الجميع دفاترهم الزرقاء. لم يكن لديّ وقت لأسأل ما هو دفتر الأزرق، لأن الجميع أخرجوه من حقائبهم. كانت حركتهم سلسلة، متزامنة، كما لو كانوا قد تدربوا عليها سابقًا. أما أنا فكنت الراقصة الوحيدة على خشبة المسرح التي كان يبدو أنها لم تتدرب جيدًا. سألت فانيسا إن كان لديها دفتر إضافي، فأعطتني إياه. فتحته، متوقّعة أن أرى امتحانًا متعدّد الاختيارات، لكنّه كان فارغًا.

أُغلقت النوافذ. ومض جهاز العرض، وعرض أول لوحة. كان لدينا ستون ثانية نكتب خلالها عنوان اللوحة واسم الفنان. لم يصدر عن عقلي إلاّ أزيز رتيب. استمر ذلك في عدد من الأسئلة: جلست ساكنة تمامًا، لا أجيب على أي سؤال.

ظهرت صورة كارافاجيو على الشاشة - جوديث تقطع رأس هولوفرنيس. حدّقت في اللوحة التي تُظهر صورة فتاة شابة تستلّ بهدوء سيفًا، وتسحب النصل فوق رقبة رجل كما لو كانت تسحب خيطًا من قطعة جبن. كنت قد قطعُ رؤوس دجاجات كثيرة مع أبي. كنت أمسك بساقي الدجاجة الجرباء ويرفع أبي الفأس ويهوي به بضربة قوية على عنقها. كنت أحكم قبضتي، وأمسكها بكامل قوتي، عندما تبدأ الدجاجة تنتفض من سكرات الموت، فيتطاير ريشها ويتناثر الدم على بنطلوني الجينز. عندما تذكّرت الدجاج، تساءلت حول معقولية مشهد كارافاجيو: فلا يمكن أن تبدو تلك النظرة على وجه أحد، ذلك التعبير الهادئ، اللا مبالي وأنت تقطع رأس شيء.

عرفت أن من رسم اللوحة هو كارافاجيو (ميشيل أنجيلو) لكنّي لم أتذكّر إلاّ لقبه، وحتى هذا لم أستطع كتابته بشكل صحيح. كنت متأكّدة أن عنوان اللوحة هو جوديث تقطع رأس شخص، لكني لم أتذكر هولوفرنيس حتى لو كانت رقبتي وراء حدّ ذلك السيف.

بقي من الوقت ثلاثون ثانية. ربما أستطيع أن أحرز بضع نقاط لو تمكنت من كتابة أي شيء على الصفحة، فرحت أهجئ الاسم صوتيًا: «Carevajo». بدا لي أنه غير صحيح. فقد كان أحد الأحرف مضاعفًا، تذكّرت، وكتبت «

Carrevagi» خطأ مرة أخرى. حاولت تهجئات مختلفة، لكن كلَّ تهجئة كانت أسوأ من سابقتها. بقي عشرون ثانية.

لم تكن فانيسا الجالسة بجانبى تتوقف عن الكتابة. طبعًا كانت تفعل ذلك. فهي تنتمي إلى هذا المكان. كانت تكتب بخط أنيق، واستطعت أن أقرأ ما كتبه: Michelangelo Merisi da Caravaggio (ميشيل أنجيلو ميريسي دا كارافاجيو). كتبت بجانبه بخط جميل أيضًا «جوديث تقطع رأس هولوفرنيس». بقيت عشر ثوان. نقلتُ منها النص ماعدا اسم كارافاجيو الكامل لأنني، في عرض انتقائي للنزاهة، قرّرت أن ذلك سيكون غشًّا. ومض جهاز العرض وعرض الشريحة التالية.

نظرت إلى ورقة فانيسا مرات أخرى أثناء الامتحان، لكنّ ذلك كان شيئًا مستحيلًا. فلا يمكنني أن أنسخ كلَّ ما تكتبه، وكنت أفترق إلى المعرفة الفعلية والأسلوبية لكتابة ذلك بنفسى. وفي ظل افتقاري للمهارة أو المعرفة، لا بدّ أنني خربشت ما خطر ببالي. ولا أذكر إن كان قد طُلب منّا أن نقيّم لوحة جوديث تقطع رأس هولوفرنيس، لكن لو طُلب منّا ذلك فقد كنت واثقة بأنني سأكتب انطباعاتي: وهي أن الهدوء البادي على وجه الفتاة لا يتلاءم جيدًا مع خبرتي في ذبح الدجاج. وإذا تمكنت من صياغتها بلغة صحيحة فقد تكون تلك إجابة رائعة، شيء حول صفاء المرأة التي تشكل تضادًا قويًا لواقعية اللوحة بشكل عام، لكنّي أشكّ في أن يُعجب البروفسور بملاحظتي هذه ويقول، «عندما تقطعين رأس دجاجة، يجب ألاّ تبسمي لأنّ فمك قد يمتلئ بالدم والريش».

انتهى الامتحان. فُتحت الستائر. خرجتُ ووقفتُ في صقيع الشتاء، أهدقُ في ذرى جبال واساتش. أردت أن أبقى. كانت الجبال غريبة ومرعبة كما كانت دائمًا، لكنني أردت أن أبقى.

انتظرتُ أسبوعًا حتى تظهر نتائج الامتحان، وخلال تلك الفترة حلمتُ بشون مرّتين، وهو ميت مستلق على الإسفلت، وقد قلبت جسمه ورأيت وجهه مضيئًا بلون قرمزي. معلّقة بين الخوف من الماضي والخوف من المستقبل، دوّنت الحلم في يومياتي. ومن دون أيّ تفسير، كما لو أنّ العلاقة

بين الأمرين كانت واضحة، كتبتُ، لا أفهم لماذا لم يسمحوا لي أن أحصل على تعليم لائق عندما كنت طفلة.

ظهرت النتائج بعد أيام. لقد رسبت.

في أحد فصول الشتاء، عندما كنت صغيرة جدًّا، وجد لوك بومة كبيرة ذات قرنين في المرعى، فاقدة الوعي وشبه مجمّدة. كانت بلون السخام، وبدت في عينيّ كبيرة بحجمي وأنا طفلة. حملها لوك إلى البيت وأُعجبنا بريشها الناعم ومخالبها التي لا ترحم. أذكر أنني رحت أمسد ريشها المخطّط، الناعم والأملس كالماء، عندما حمل أبي جسمها الهزيل. وعرفت أنها لو كانت صاحبة، لما تمكنت من الاقتراب منها هكذا. كنت أتحدى الطبيعة بمجرد لمسها.

كان ريشها غارقًا في الدم. شوكة اخترقت جناحها. «أنا لست طيبة بيطرية»، قالت أمّي، «أنا أعالج البشر فقط». لكنّها نزعّت منها الشوكة ونظّفت الجرح. وقال أبي إن شفاء الجناح سيستغرق أسابيع، لكن البومة ستصحى قبل ذلك بفترة طويلة. وعندما تجد نفسها أنها وقعت في فخ، يحيط بها مفترسون، فإنها ستستमित لتحرر نفسها، وقال بما أنها طائر برّي، فإن هذا الجرح يكون قاتلاً في البرية.

وضعنا البومة على مشمّع الأرضية بجانب الباب الخلفي، وعندما صحت، طلبوا من أمّي أن تبتعد عن المطبخ. فقالت أمّي إن جهنم يمكن أن تتجمّد قبل أن تسلّم مطبخها إلى بومة، ثمّ دخلت إليه وبدأت تُنزل القدور لإعداد الفطور. بدأت البومة تخبّط بجناحيها بشكل مثير للشفقة، مخالبها تخدش الباب، تضرب رأسها بفزع. صرخنا، وتراجعت أمّي. بعد ساعتين كان أبي قد سدّ نصف المطبخ بصفائح من الخشب المعاكس. وظلت البومة هناك لعدّة أسابيع حتى شفيت. وكنا نصطاد فئرانًا لنطعمها، لكنها لم تكن تأكلها أحيانًا، ولم نكن نستطيع أن نزيل جثث الفئران. كانت رائحة الموت قوية وكريهة.

بدأت البومة تزداد هيأًا، وعندما بدأت ترفض الطعام، فتحنا لها الباب الخلفي وتركناها تطير. لم تكن قد شفيت تمامًا، لكن أبي قال إن فرصها في

الجبل أفضل من وجودها معنا، لأنها لا تنتمي إلى هذا المكان. ولا يمكن أن نعلّمها بأن تنتمي إلى هذا المكان.

أردت أن أخبر أحداً بأنني رسبت في الامتحان، لكن شيئاً كان يمنعني من الاتصال بتايلر. لعله الشعور بالخجل. أو لأن تايلر كان يستعد لأن يصبح أباً. فقد تعرّف على زوجته ستيفاني في بوردوا، وتزوّجا بسرعة، وهي لا تعرف شيئاً عن أسرتنا. شعرت بأنه يفصل حياته الجديدة -أسرته الجديدة- على أسرته القديمة.

اتصلت بالبيت. ردّ أبي. كانت أمّي قد ذهبت لتؤلد امرأة، وكانت قد استأنفت عملها كقابلة بعد أن لم يعد ينتابها داء الشقيقة.

«متى ستعود أمّي إلى البيت؟» سألته.

«لا أعرف،» قال أبي، «من الأفضل أن تسألني الربّ كما سألتني، لأنه هو الذي يعرف.» ضحك، ثمّ سألني: «كيف حال الدراسة؟»

لم أكن قد كلّمت أبي منذ أن صرخ بي من أجل جهاز الفيديو. كنت أشعر بأنه سيدعمني، إلّا أنني شعرت بأنني لا أستطيع أن أعترف له بأنني رسبت في الامتحان. أردت أن أقول له إن كلّ شيء يسير على ما يرام، بسهولة كبيرة. تخيلت نفسي أقول له ذلك.

فقلت له: «ليست عظيمة. لم أكن أظن أنها ستكون صعبة هكذا.»

ساد صمت في الطرف الآخر، وتخيلت وجه أبي العابس يزداد صلابة. انتظرت الكلمات التي تخيلت أنّه يحضرّها، لكن صوتاً هادئاً قال، «ستكون الأمور على ما يرام، يا حبيبتي.»

فقلت: «لا لن تكون على ما يرام. لن تكون هناك منحة دراسية. لا بل إنني لن أنجح.» بدأ صوتي يرتعش الآن.

«إذا لم تحصلي على منحة دراسية، فلن تكون هناك منحة دراسية»، قال، «لعلي أستطيع أن أساعدك بالمال. سنرى. كوني سعيدة الآن، اتفقنا؟»
«اتفقنا»، قلت.

«تعالى إلى البيت إذا كنتِ تشعرين بأنك بحاجة إلى ذلك».

أغلقتُ الهاتف، لم أكن متأكّدة مما سمعته للتو. كنت أعرف أن ذلك لن يستمر، وأنا عندما نتحدث عن هذا الأمر ثانية كان كلّ شيء سيختلف، وسنُنسى رقة هذه اللحظة، وسيبدأ الصراع اللانهائي بيننا مرة أخرى. أما هذه الليلة فقد كان يريد أن يساعدي. وهذا شيء مهم.

في آذار (مارس)، جرى امتحان آخر في مادة الحضارة الغربية. هذه المرة أعددت بطاقات توضيحية. أمضيت ساعات طويلة في حفظ تهجئتها الغربية التي كان الكثير منها باللغة الفرنسية (فهمت الآن أن فرنسا جزء من أوروبا). جاك لويس ديفيد وفرانسوا بوشير: لم أكن أستطيع أن أنطقها لكن أصبح باستطاعتي أن أكتبها.

لم أفهم شيئاً من دفاتر محاضراتي، فسألت فانيسا إن كان بإمكانني أن أنظر إلى دفترها. نظرت إليّ بارتياب، وتساءلتُ لوهلة إن كانت قد لاحظت عندما كنت أنقل من ورقة امتحانها. قالت إنّها لن تعطيني الملاحظات التي دونتها، لكن يمكننا أن ندرس معاً، فتبعتها بعد انتهاء الدرس إلى غرفتها في مساكن الطالبات. جلسنا على الأرض، ودفاتر ملاحظتنا مفتوحة أمامنا.

حاولت أن أقرأ من دفتر ملاحظاتي لكن الجمل كانت ناقصة، غير واضحة. «لا تولي اهتماماً للملاحظات التي كتبتها»، قالت فانيسا، «فهي ليست مهمة بأهمية الكتاب المقرر».

«أيّ كتاب مقرر؟» سألتها.

«الكتاب المقرر»، قالت فانيسا. ضحكت كما لو كنتُ أمزح معها. شعرت بالتوتر لأنني كنت جادة.

«لا يوجد عندي كتاب»، قلت.

«أنا واثقة من أنه لديك». ورفعت كتاب الصور السميكة الذي كنت أحفظ منه غيباً العناوين وأسماء الفنانين.

«أوه هذا»، قلت، «لقد نظرتُ إليه».

«نظرتُ إليه؟ ألم تقرأه؟»

حدّقتُ فيها. لم أفهم. فهذا الفصل عن الموسيقى والفنّ، وأعطينا أقراصًا مدمجة لنسمع الموسيقى منها، وكتاب فيه صور فنيّة لننظر إليه، ولم يخطر ببالي أن أقرأ كتاب الفنّ أكثر من أن أستمع إلى الأقراص المدمجة.

«كنت أظنّ أنه يفترض بنا أن ننظر إلى الصور فقط». بدا ذلك غبيّا عندما قلته بصوت عالٍ.

«عندما طلب الأستاذ أننا يجب أن نقرأ من الصفحة خمسين إلى الصفحة خمسة وثمانين، ألم يخطر ببالك أنك يجب أن تقرئي أيّ شيء؟»

«نظرت إلى الصور فقط»، قلت مرة أخرى. بدا ذلك أسوأ في المرة الثانية.

بدأت فانيسا تقلّب صفحات الكتاب الذي بدا فجأة أنه يشبه كثيرًا كتابًا دراسيًا.

«هذه مشكلتك إذن»، قالت، «عليك أن تقرئي الكتاب المقرر». عندما قالت ذلك، بدت في صوتها نبرة تهكّم، كما لو أنّ هذه الحماقة، بعد كلّ شيء آخر -بعد النكتة عن المحرقة والنظر إلى ورقة امتحانها- كان شيئًا كثيرًا ولم تعد تحتمل. قالت إن الوقت حان لكي أغادر لأن عليها أن تدرس موضوعًا آخر. أخذت دفتر ملاحظاتي وغادرت.

«اقرئي الكتاب المقرر»، تبين لي أنها نصيحة ممتازة. في الامتحان التالي حصلت على درجة (B)، وفي نهاية الفصل الدراسي بدأت أحصل على درجة (A). كانت معجزة وقد فسرتها بأنها كذلك. وظللت أدرس كلّ ليلة حتى الساعة الثانية أو الثالثة صباحًا، معتقدة أنّ هذا هو الثمن الذي يجب أن أدفعه كي أحظى بدعم الرب. أبليت بلاء حسنًا في فصل التاريخ، وكان أدائي في فصل اللغة الإنكليزية أفضل، والأفضل من كلّ ذلك كان في فصل نظرية الموسيقى. بدا أن الحصول على المنحة الدراسية كاملة أمرًا غير محتمل، لكن قد أحصل على نصفها.

في المحاضرة الأخيرة في فصل الحضارة الغربية، أعلن البروفسور أن عددًا كبيرًا من الطلاب قد رسبوا في الامتحان الأول، فقرّر أن يلغيه، وهكذا

اختفت العلامة التي رسبت فيها. أردت أن أقفز في الهواء فرحًا وأن أحتفل مع فانيسا. ثم تذكرت أنها لم تعد تجلس معي.

الفصل ١٩ في البدء

عندما انتهى الفصل الدراسي، عدت إلى البيت. وعندما ستعلن الجامعة النتائج بعد عدة أسابيع سأعرف إن كنت سأعود إليها في الخريف أم لا.

ملأت يومياتي بوعود بأنني لن أعمل في باحة الخردة. كنت بحاجة إلى نقود، سيقول أبي إنني مفلسة أكثر من الوصايا العشر، فذهبت لأستعيد عملي القديم في ستوكس. وصلت في أشد الساعات ازدحامًا بعد الظهر، لأنني أعرف أنّ عدد العاملين قليل، وكما هو متوقع، فقد كان المدير يملأ أكياس الزبائن عندما وجدته. سألته إن كان يريد أن أقوم بذلك، فرمقني، ثمّ خلع مئزره وأعطاه لي. غمزتني مساعدة المدير: فهي التي اقترحت عليّ أن أسأل المدير أثناء فترة الازدحام. كان ثمة شيء في محلات ستوكس -ممراته النظيفة والناس اللطيفون الذين يعملون فيه- جعلني أشعر بالهدوء والسعادة. من الغريب أن يقول المرء ذلك عن مخزن بقالة، لكنني كنت أشعر بارتياح شديد فيه.

كان أبي ينتظرني عندما دخلت من الباب الخلفي. رأى المئزر، وقال: «ستعملين معي هذا الصيف».

«بدأت العمل في ستوكس»، قلت.

«أتظنين أنك أصبحت تتعاليين على العمل في باحة الخردة؟» ارتفع صوته، «فهذه أسرتك. إنك تنتمين إلى هذا المكان».

كان وجه أبي منهكًا، عيناه محتقنتان. فقد مرّ عليه شتاء سيئ. ففي الخريف، استثمر مبلغًا كبيرًا في شراء معدات بناء جديدة (حفارة، رافعة، ومقطورة لحام)، ونحن الآن في الربيع وقد ذهب كلّ شيء. فقد أشعل لوك النار في مقطورة اللحام دون قصد، فاحترقت كلها، وانفصلت الرافعة عن المقطورة لأن أحدًا -لم أسأل من هو- لم يوصلها بإحكام، وانضمت الحفارة إلى كومة النفايات عندما سحبها شون في مقطورة ضخمة، وانعطف عند

زاوية منعطف بسرعة كبيرة فانقلبت الشاحنة والمقطورة معًا. وزحف شون من تحت الحطام، وارتطم رأسه ولم يعد يتذكّر الأيام التي سبقت وقوع الحادث، وهكذا أضحت الشاحنة والمقطورة والحفارة ركامًا.

كان تصميم أبي باديًا على وجهه. كان في صوته، في بحته. كان لا بدّ أن يربح هذه المواجهة. وأقنع نفسه بأنني إذا انضمت إلى طاقم العمل، فإن عدد الحوادث سيقلّ، وسينخفض عدد النكسات التي قد تحدث. «إنك أبطأ من سلحفاة وهي تجري صاعدة التل»، كان يقول لي، «لكنك تنجزين عملك من دون أن تحطمي شيئًا».

لكّني لا أستطيع أن أعود إلى العمل، لأنني لو فعلت ذلك فإن ذلك سيكون بمثابة تقهقر إلى الوراء. لقد عدت إلى البيت، إلى غرفتي القديمة، إلى حياتي القديمة. وإذا عدت لأعمل مع أبي، لأستيقظ صباح كلّ يوم وأنتعل حذاءً طويلًا تغطي مقدمته قطعة فولاذية وأسير مترنحة إلى باحة الخردة، فإن الشهور الأربعة الماضية ستبدو كأنها لم تحدث، وكأنني لم أغادر البيت قط.

دفعت أبي جانبًا وأغلقت باب غرفتي على نفسي. قرعت أمّي الباب بعد لحظة. دخلت إلى الغرفة بهدوء وجلست بخفة على السرير، لم أكد أشعر بوزنها بجانبني. ظننت أنها ستقول لي ما قالته لي آخر مرّة. ثمّ سأذكرها بأنني لم أتجاوز السابعة عشرة، وستقول لي إنني أستطيع أن أمكث في البيت.

«عندك فرصة لمساعدة أبيك»، قالت، «إنه بحاجة إليك. لن يقول لك ذلك أبدًا لكنّه بحاجة إليك. إنه خيارك». خيم صمت، ثمّ أضافت، «لكنك إذا لم تساعدني، فلن تتمكني من البقاء هنا. يجب أن تذهبي وتعيشي في مكان آخر».

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي، ذهبت إلى ستوكس وعملت عشر ساعات، وعندما عدت إلى البيت بعد الظهر، كانت الأمطار تهطل بغزارة، وجدت ثيابي ملقاة أمام البيت. حملتها إلى داخل البيت. كانت أمّي تخلط الزيوت في المطبخ، ولم تقل شيئًا عندما مررت بجانبها وقميصي وبنطلوني الجينز مبللان بماء المطر.

جلست على سريري بينما كانت حبات ماء المطر يقطر من ثيابي إلى السجادة. أمسكت بالهاتف ورحت أحدّق فيه، لا أعرف ماذا أفعل به. فلا يوجد أحد يمكنني الاتصال به. ولا يوجد مكان أستطيع أن أذهب إليه.

اتصلت بتايلر في إنديانا. «لا أريد أن أعمل في باحة الخردة»، قلت له عندما ردّ. كان صوتي أجشّ.

«ما الذي حدث؟» سألني. بدا قلقًا. ظنّ أن حادثًا آخر وقع، «هل الجميع بخير؟»

فقلت له: «الجميع بخير، لكن أبي يقول إنني يجب ألا أبقى في البيت إذا لم أعمل معه في باحة الخردة، وأنا لم أعد أستطيع أن أفعل ذلك». كانت نبرة صوتي عالية على نحو غير معتاد، وكان صوتي يرتعش.

سألني تايلر: «ماذا تريد مني أن أفعل؟»

عندما أتذكر ذلك الآن، كنت متأكّدة بأنه كان يعني ذلك حرفيًا، بأنّه كان يسأل كيف يمكنه أن يساعدني، لكن أذنيّ، الشكوكتين، سمعتا شيئًا آخر: ما الذي تتوقّعين مني أن أفعله؟ بدأت أرتعش. اعتراني شعور بالدوار. كان تايلر حبل نجاتي. لسنوات ظل يعيش في عقلي باعتباره الملاذ الأخير بالنسبة لي، طوق نجاة يمكنني أن ألجأ إليه عندما تضيق بي الأمور. أما الآن، بعد أن لجأت إليه، فهمت عبثية الأمر. فلم يحدث شيء.

«ما الذي جرى؟» كرر تايلر سؤاله.

«لا شيء. كل شيء على ما يرام».

أغلقت الخط واتصلت بمخزن ستوكس. أجابت مساعدة المدير. «هل كان عملك جيدًا اليوم؟» قالت مبتهجة. قلت لها إنني تركت العمل، وتأسفت لها، وأغلقت الهاتف. فتحت خزانتي ورأيت حذائي الطويل، في المكان الذي تركته فيه منذ أربعة أشهر: انتعلته. بدا لي كأنني لم أخلعه قط.

كان أبي في الرافعة، يجمع كومة من القصدير المتموّج. كان يحتاج إلى شخص يضع كتلاً خشبية في المقطورة ليتمكن من تفريغها. عندما رأيته،

خَفَضَ كومة القصدير حتى أَسْعَدَ فوقها، فصعدت إليها ومشيت إلى المقطورة.

سرعان ما بهتت ذكرياتي عن الجامعة. خريشات أقلام الرصاص على الورق، طقطقة جهاز العرض وهو ينتقل إلى الشريحة التالية، رنين الجرس إيذانًا بانتهاء المحاضرة، أصبح يغطي عليها الآن صليل الحديد وهدير محرّكات الديزل. وبعد شهر من العمل في باحة الخردة، بدت لي الجامعة أشبه بحلم، شيء أستعيد ذكراه. أما الآن فأنا مستيقظة.

عاد روتين حياتي اليومية إلى سابق عهده: فبعد تناول طعام الفطور أقوم بفرز الخردة أو نزع أسلاك النحاس عن المشعات. وإذا كان إخوتي يعملون، فإني أسوق أحيانًا عربة التحميل أو الرافعة الشوكية، وعند الغداء أساعد أمي في طهي الطعام وغسل الصحون، ثم أعود، إمّا إلى باحة الخردة أو إلى الرافعة.

كان الشخص المختلف الوحيد هو شون الذي لم يعد كما كنت أتذكره. فلم يعد يقول لي كلمة قاسية، وأصبح يبدو في سلام مع نفسه. وكان قد بدأ يدرس ليحصل على شهادة الثانوية. وذات ليلة عندما كنا عائدين بالسيارة، قال لي إنه سيحاول أن يدرس في الجامعة، وقال إنه يريد أن يدرس الحقوق.

كانت تُعرض في ذلك الصيف مسرحيّة في دار أوبرا وورم كريك، فاشترينا أنا وشون تذكريتين. كان تشارلز هناك أيضًا، أمامنا ببضعة صفوف. وخلال الاستراحة، عندما ذهب شون ليكلّم إحدى الفتيات، اقترب تشارلز مني. لأول مرة كنت طليقة اللسان. تذكّرت شانون وكيف كانت تتحدّث مع الآخرين في الكنيسة، بهجتها الودّية، الطريقة التي كانت تضحك فيها وتبتسم. كوني شانون، قلت لنفسي. ولخمس دقائق، أصبحت شانون.

كان تشارلز ينظر إليّ بغرابة، النظرة التي رأيت فيها الرجال ينظرون فيها إلى شانون. سألني إن كنت أريد أن أشاهد معه فيلمًا يوم السبت. كان الفيلم الذي اقترحه سوقيًا، دنيويًا، فيلمًا لا أريد أن أراه طوال حياتي، لكنني كنتُ شانون، فقبلت.

حاولت أن أكون شانون في ليلة يوم السبت ذاك. كان الفيلم فظيعةً، أسوأ مما كنت أتوقع، نوع من الأفلام التي لا يراها إلا الكفار. لكنّ كان يصعب عليّ أن أرى تشارلز واحدًا منهم. كان بالنسبة لي تشارلز فقط. فكّرت بأن أقول له إن الفيلم ليس أخلاقيًا، وأنه يجب ألا يرى أشياء كهذه، لكنني -مازلت شانون- لم أقل له شيئًا، وإنما ابتسمت فقط عندما سألني إن كنت أحبّ أن أتناول بوظة.

كان شون الوحيد الذي كان مستيقظًا عندما وصلت إلى البيت. كنت أبتسم عندما دخلت من الباب. قال شون مازحًا إنه يوجد لديّ صديق. كان يريد أن يضحكني. قال إن تشارلز يمتلك ذائقة جيدة، وأنتي أكثر الفتيات حشمة وتادبًا عرفها، ثمّ أوى إلى سريره.

عندما ذهبت إلى غرفتي، حدّقت طويلًا في نفسي في المرأة. أول شيء لاحظته بنطلوني الجينز الرجالي وكيف أنه لا يمكن مقارنته ببناطيل الجينز التي ترتديها الفتيات الأخريات، أما الشيء الثاني الذي لاحظته، فهو أنّ قميصي كان واسعًا جدًّا وجعلني أبدو بدينة أكثر مما أنا في الواقع.

اتصل بي تشارلز بعد عدة أيام. كنت واقفة في غرفتي بعد يوم متعب من العمل في تركيب سطح. كانت تفوح مني رائحة مخفّف الدهان ويكسوني التراب الرمادي، لكنّه لم يكن يعرف ذلك. تكلمنا على الهاتف لمدة ساعتين. ثم اتصل بي في الليلة التالية، والتي بعدها، وقال يجب أن نتناول بيرغر يوم الجمعة.

في يوم الخميس، بعد أن انتهيت من العمل، قدّت سيارتي مسافة أربعين ميلًا إلى أقرب مخزن Walmart واشتريت بنطال جينز نسائي وقميصين، كلها زرقاء اللون. عندما لبستها، لم أكد أعرف جسدي، الطريقة التي ضاق بها وبرزت منحنياته. خلعتها على الفور، وغمرني شعور بأنها ثياب غير محتشمة. لم تكن كذلك حقًا، لكنني كنت أعرف لماذا أردت أن أرتديها- حتى يلاحظ الآخرون جسدي - وهذا في حد ذاته شيء غير محتشم حتى لو كانت الملابس ليست كذلك.

بعد ظهر اليوم التالي، عندما أنهينا العمل في ذلك اليوم، عدت أجري إلى البيت. استحمت، ثم وضعت الثياب التي اشتريتها على سريري ورحت أحرق فيها. لكنني عدت وارتيديتها بعد دقائق، وضدمت ثانية عندما رأيت نفسي فيها. لم يعد هناك وقت لأغير ثيابي فارتديت فوقها سترة مع أن المساء كان دافئًا، وفي لحظة ما، لا أستطيع أن أقول متى أو لماذا، قرّرت أنني لا أحتاج إلى ارتداء السترة. وفي الفترة المتبقية من الليل، لم أعد أشعر بالحاجة لأن أكون شانون، فبدأت أتكلّم وأضحك دون أن أظهار بأنني شانون.

في ذلك الأسبوع، أمضينا أنا وتشارلز مساء كل يوم معًا. زرنا الحدائق العامة ومحلات البوظة، ومطاعم البيرغر، ومحطات البنزين. أخذته إلى محلات ستوكس لأنني كنت أحبها، ولأن مساعدة المدير كانت تقدم لي دائمًا الكعك الطازج. تحدّثنا عن الموسيقى - حدّثني عن فرق موسيقية لم أسمع عنها من قبل وكيف أنه يرغب في أن يصبح موسيقيًا ويطوف العالم. لكننا لم نتحدّث قط عن أنفسنا إن كنّا صديقين أم شيئًا آخر. تمّيت أن يشير هذا الموضوع لكّنه لم يفعل. تمّيت أن يقول لي ذلك بطريقة أخرى، بأن يمسك يدي بلطف أو أن يضع ذراعه حولي، لكّنه لم يفعل ذلك أيضًا.

في يوم الجمعة بقينا حتى وقت متأخر، وعندما عدت إلى البيت كان المنزل مظلمًا. كان جهاز كمبيوتر أمّي مضاء، وكانت حافظة الشاشة تلقي ضوءًا أخضر على غرفة الجلوس. جلست وراء الكمبيوتر وفتحت على موقع جامعة بريغهام يونغ. لقد أعلنت النتائج. لقد نجحت، لا بل أكثر من أنني نجحت. فقد حصلت على درجة A في جميع المواد إلّا في مادة الحضارة الغربية. هذا يعني أنني سأحصل على نصف المنحة الدراسية. إذًا يمكنني أن أعود.

أمضيت أنا وتشارلز فترة بعد ظهر اليوم التالي في الحديقة العامة، تتأرجح بتكاسل في الأراجيح التي في شكل عجلات. أخبرته عن المنحة الدراسية. قلت له ذلك بافتخار، لكن لسبب ما خرجت مخاوفي معها. قلت له لم يكن من المفروض أن أكون في الجامعة الآن، وإنما كان عليّ أن أنهي المدرسة الثانوية أولاً، أو أن أبدأها على الأقل.

جلس تشارلز صامتًا وأنا أتكلّم ولم يقل شيئًا. ثمّ قال: «هل أنت غاضبة لأن والديك لم يسجلاك في المدرسة؟».

«كان ذلك سيكون مفيدًا»، قلت، أكاد أصرخ. كان ردّي غريزيًا. كان مثل سماع عبارة من أغنية جدّابة: لم أتمالك نفسي من ترديد العبارة التالية. نظر إليّ تشارلز بريبة كما لو كان يطلب مني أن أكون منسجمة مع ما قلته منذ لحظات.

قال: «أنا غاضب، حتى لو لم تكوني أنت غاضبة».

لم أقل شيئًا. فلم أسمع أحدًا ينتقد أبي من قبل إلّا شون، ولم أكن قادرة على الردّ عليه. أردت أن أحكي لتشارلز عن المستنيرين، لكن هذه الكلمات هي كلمات أبي، حتى أنها كانت تبدو لي سخيفة، مكررة. شعرت بالخلج لأنني لست قادرة على امتلاك تلك الكلمات. فقد كنت أوّمن آنذاك - سيؤمن جزء مني دائمًا بأنّ كلمات أبي يجب أن تكون كلماتي.

في كلّ ليلة على مدى شهر، كنت أمضي ساعة بعد عودتي من باحة الخردة، في إزالة التراب والأوساخ من جسمي ومن تحت أظافري وأذنيّ، ثم أمشط خصلات شعري المتشابكة وأضع مكيّاجًا بصورة خرقاء، وأفرك كميات من المستحضر على أصابعي لتنعيمها وإخفاء البثور فيها، في حال لمسها تشارلز في تلك الليلة.

عندما فعل ذلك أخيرًا، كان ذلك في وقت مبكر من المساء عندما كنّا في سيارته الجيب في طريقنا إلى بيته لنشاهد فيلمًا. عندما اقتربنا من طريق فايف مايل كريك مدّ يده من فوق ذراع مغيّر السرعة ووضع يده على يدي. كانت يده دافئة وأردت أن أمسكها، لكنني أبعدتها بسرعة كما لو أنها لسعتني. كانت ردّة فعلي تلقائية، وتميّت على الفور أن أعيدها. وعندما حاول مرة أخرى، تشنّج جسدي، واستسلم إلى غريزة غريبة، قوية. سرت تلك الغريزة في أنحاء جسدي في شكل كلمة، قصيدة غنائية جريئة، قوية، صريحة. لم تكن الكلمة جديدة. كانت تلازميني منذ فترة، ساكنة، خاملة، كما لو أنها كانت نائمة، في زاوية بعيدة من ذاكرتي. عندما لمسني، أيقظها تشارلز، وراحت تنبض بالحياة.

دفعت يدي تحت ركبتي وملت نحو النافذة. لم أستطع أن أدعه يقترب مني، لا في تلك الليلة، ولا في أيّ ليلة بعد أشهر، من دون أن أرتجف عندما شقّت تلك الكلمة، كلمتي، طريقها إلى الذاكرة. قحبة.

عندما وصلنا إلى بيته. فتح تشارلز التلفزيون وجلس على الأريكة. جثمت قليلاً على أحد جانبيها. خفتت الأضواء، وبدأت الأسماء تظهر على الشاشة. تحرّك تشارلز نحوي، ببطء في البداية، ثم بثقة أكبر، حتى لامست ساقه ساقي. كان عقلي مغلقاً، جريت ألف ميل في نبضة قلب واحدة. في الواقع أجفّلت. وأجفل تشارلز أيضاً، لقد أثرت خوفه. أعدت تموضع نفسي، وحركت جسدي نحو ذراع الأريكة، أجمع أطرافني وأضغطها بعيداً عنه. بقيت في هذا الوضع غير الطبيعي ربما لعشرين ثانية، حتى فهم، وسمع الكلمات التي لم أستطع أن أقولها، وجلس على الأرض.

الفصل ٢٠ روايات الآباء

كان تشارلز أول صديق لي من ذلك العالم الآخر، العالم الذي حاول أبي أن يحميني منه. كان تقليديًا في جميع الطرق ولكل الأسباب التي كان أبي يمقت فيها التقليدية: فقد كان يتحدث عن كرة القدم وعن الفرق الموسيقية الشعبية أكثر مما يتحدث عن يوم الهلاك. كان يحب كل شيء يتعلق بالمدرسة الثانوية، وكان يذهب إلى الكنيسة، لكنه مثل معظم المورمون الآخرين، إذا مرض، فإنه يزور الطبيب كما لو كان يزور قسيسًا من الطائفة المورمونية.

عندما شعرت بأنني لا أستطيع أن أوفق بين عالمه وبين عالمي، فصلت أحدهما عن الآخر. وفي كل مساء كنت أنتظر من نافذتي وصول سيارته الجيب الحمراء، وما إن تظهر على الطريق السريع حتى أجري نحو الباب. وما إن يبدأ يصعد التل حتى أكون واقفة بانتظاره أمام البيت، وقبل أن يترجل من السيارة أكون قد صعدت إليها، وتتجادل حول حزام المقعد. (كان يرفض أن يقود السيارة إذا لم أضعه).

في أحد الأيام وصل تشارلز في وقت مبكر ووقف أمام باب البيت. تلعثمت بتوتر وأنا أعرفه على أمي التي كانت تخلط نبتة البرغموت والإيلنج، ثم تنقر أصابعها لتختبر النسب الصحيحة. رحبت به، لكن أصابعها ظلت تنقر. وعندما نظر إليّ تشارلز كما لو كان يتساءل عن سبب ذلك، قالت له أمي إنّ الله يكلمها عن طريق أصابعها. وقالت له: «اختبرت البارحة إن كان سينتابني داء الشقيقة اليوم إذا لم أستحم باللافندر، فاستحممت، واحزر ماذا حدث؟ لم ينتبني أي صداع».

«لا يستطيع الأطباء معالجة داء الشقيقة قبل حدوثه»، قال أبي مقاطعًا، «أما الربّ فيستطيع».

عندما مشينا إلى سيارته الجيب، قال تشارلز: «هل تفوح هذه الرائحة في بيتكم دائمًا؟»

«أي رائحة؟»

«رائحة نباتات متعفنة».

فهرزت كتفي بلا مبالاة.

«لا بد أنك شممتها»، قال، «إنها رائحة قوية. لقد شممتها من قبل. عليكِ دائماً تفوح منك هذه الرائحة. يا إلهي، وقد تفوح مني أنا أيضاً الآن». شمّ قميصه. كنت هادئة. فلم أشمّ شيئاً.

قال أبي إنني بدأت أصبح «متغطرة». فلم يكن يعجبه أن أهرع إلى البيت من باحة الخردة عندما ينتهي العمل، أو أن أزيل أي أثر للزيوت العالقة بي قبل أن أخرج مع تشارلز. كان يعرف أنني أفضل أن أملاً الأكياس في محلات ستوكس على أن أقود عربة التحميل في بلاكفوت، البلدة المتربة التي تبعد ساعة شمالاً حيث تعهد أبي ببناء حظيرة لإنتاج الحليب. كان ذلك يزعجه، لأنه يعرف أنني أريد أن أكون في مكان آخر، وأن أرتدي ثياباً مثل الآخرين.

في موقع العمل في بلاكفوت، كان يحلم بأن يكلفني بأعمال غريبة، لأنه يظنّ بأن قيامي بهذه الأعمال سيذكّرني بحقيقة من أكون. وفي إحدى المرات، عندما كنّا على ارتفاع ثلاثين قدماً في الهواء، نحاول جاهدين إنزال ألواح خشبية لوضعها على السطح الذي نبنيه، لم نكن نضع أحزمة لأننا لم نعتد على وضعها، تذكر أبي أنه ترك حبل الطباشير في الجانب الآخر من المبنى. فقال لي: «تارا اذهبي وأحضريه». رسمت في عقلي مخططاً كيف سأذهب إلى الجهة المقابلة. كان عليّ أن أقفز فوق الأعمدة، حوالى خمسة عشر عموداً يفصل الواحد عن الآخر مسافة أربعة أقدام، لأحضر حبل الطباشير ذاك، ثم أعود وأقفز فوق نفس العدد من الأعمدة. كان ذلك نوع الطلبات التي يطلبها مني أبي والتي كان شون يعارضه ويقول له: «لا، لن تفعل ذلك».

«شون، هل من الممكن أن تنقلني إلى هناك بالرافعة؟»

«يمكنك أن تحضره»، قال شون، «إلا إذا كانت مدرستك الراقية ورفيقتك الراقية يجعلانك أرقى من أن تفعل ذلك»، وتصلبت قسما وجهه بطريقة جديدة ومألوفة في آن معًا.

رحت أهتز فوق الأعمدة حتى وصلت إلى الدعامة الرئيسية عند الحافة. كان ذلك أكثر خطورة، فإذا وقعت إلى اليمين، لا توجد ألواح يمكنني أن أهبط فوقها، أما الدعامة الرئيسية فكانت أكثر سماكة، وكان باستطاعتي أن أسير فوقها مثل مثل حبل البهلوان.

هكذا أصبح أبي وشون رفيقين، حتى لو أنهما كانا يتفقان على شيء واحد فقط وهو أن دراستي جعلتني متغطرة، وأن ما أحتاج إليه هو أن يعيداني في الزمن إلى النسخة السابقة التي كنت عليها.

كان شون يمتلك موهبة لغوية في توصيف الآخرين. فراح ينبش في مخزونه اللغوي عن ألقاب ينعتني بها. «مومس» كان لقبه المفضل لي لبضعة أسابيع. «أيتها المومس، أحضري لي عجلة الطحن»، كان يصيح، أو «ارفعي ذراع الرافعة، أيتها العاهرة!» ثم كان يبحث في وجهي عن ردّة فعل، لكنه لم يكن يجد شيئًا. ثم بدأ يناديني «الخنزيرة البرية» لأنني آكل كثيرًا، كما قال. «أيتها الخنزيرة»، كان يصيح مع تصفيرة عندما أنحني لأثبت برغيًا أو أقيس شيئًا.

وبدأ شون يتسكع خارج البيت بعد أن ننهي عمل اليوم. أظن أنه كان يريد أن يكون قريبًا من المدخل عندما يصل تشارلز. وبدا أنه لم يكن ينتهي من تغيير الزيت لسيارته. في أول ليلة رأيته واقفًا هناك، فجريت وقفزت إلى سيارة الجيب قبل أن يتمكن من أن يقول كلمة واحدة. أما في الليلة التالية، فقد كان أسرع مني. «أليست تارا جميلة؟»، صاح قائلاً لتشارلز، «لها عينا مثل عيني السمكة وذكية كالسمكة». كان تهكّمًا قديمًا، أصبح مستهجنًا من كثرة تكراره. لا بدّ أنه كان يعرف أنني لم أكن أردّ عليه في موقع العمل، فقالها الآن، آملًا أن يكون تأثير ذلك قويًا عليّ أمام تشارلز.

في الليلة التالية: سأله: «هل أنتما ذاهبان إلى العشاء؟ لا تقف بين الخنزيرة البرية وبين طعامها، ولن يبقى لك شيء تأكله إلا قطعة على

الرصيف».

لم يردّ عليه تشارلز قط. فقد عقدنا اتفاقًا غير معلن بأن نبدأ سهرتنا في اللحظة التي يختفي فيها الجبل عن مرآة السيارة الخلفية. كانت توجد في الكون الذي استكشفناه معًا محطات بنزين وقاعات سينما، وكانت السيارات تزبّن الطريق السريع مثل حلي رخيصة، مليئة بأناس يضحكون أو يطلقون أبواق سياراتهم، يلوّحون دائمًا، لأن هذه بلدة صغيرة وسكانها كلهم يعرفون تشارلز؛ وهناك دروب ترابية بيضاء كالطباشير، وقنوات بلون حساء لحم البقر، وحقول قمح لا نهاية لها تلمع باللون البرونزي. لكن لم تكن هناك قمة جبل باك.

خلال النهار، كانت قمة جبل باك موجودة دائمًا هناك، هو وموقع العمل في بلاكفوت. كنت أنا وشون نمضي معظم أيام الأسبوع في تجهيز الأعمدة لبناء سقف الحظيرة، وكنا نستخدم آلة بحجم بيت متنقل لنثبتها في شكل Z، ثم نستخدم مشحذة لإزالة الصدأ عن الأعمدة حتى تتمكن من طلائها. وعندما يجفّ الطلاء نكدّسها بجانب الورشة، لكن بعد يوم أو يومين فإن الرياح التي تهب من الجبل تغلقها بغبار أسود يتحول إلى سخام عندما يلتصق مع الزيوت على الحديد. قال لي شون إنني يجب أن أغسلها قبل أن أحملها، فأحضرت خرقة وسطل ماء.

كان يومًا حارًا، وكنت قد جففت قطرات العرق التي تسيل من جبيني. ثم كُسرت ربطة شعري، ولم يكن عندي ربطة أخرى. كانت الريح التي تهب من الجبل قوية وعندما كانت خصلات شعري تتطاير فوق عيني، كنت أزيحها عن وجهي. كانت يداي ملوثتين بالشحم الأسود، وكانت كلّ لمسة منهما تترك بقعة سوداء على وجهي.

عندما نظّقتُ الأعمدة ناديت شون. خرج من وراء عمود ورفع درع اللحم الواقى عن وجهه. عندما رأيته، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وقال: «لقد عادت الزنجية».

في ذلك الصيف عملت أنا وشون على المقصّ. وفي مساء أحد الأيام، بعد أن مسحت العرق عن وجهي عدة مرات، غادرنا لتناول العشاء، كانت بقع

سوداء تغطي أنفي وخديّ. كانت تلك أول مرة يدعوني فيها شون «زنجية». كانت الكلمة مفاجئة لكنها لم تكن غير مألوفة. فقد سمعت أبي يقولها، بمعنى ما، عرفت ما الذي تعنيه. أما المعنى الآخر، فلم أعرف أنها كانت تعني شيئاً على الإطلاق. فحتى ذلك الوقت لم أر إلا شخصاً أسود واحداً، فتاة صغيرة، الفتاة التي تبنتها إحدى العائلات في الكنيسة. كنت واثقة من أن أبي لم يكن يقصدها.

ظلّ شون يدعوني «زنجية» طوال الصيف: «أيتها الزنجية، اركضي واجلبي تلك المشابك»، أو «لقد حان وقت الغداء، أيتها الزنجية». لم يكن يمنحني لحظة راحة واحدة.

ثم انقلب العالم رأساً على عقب: فقد دخلتُ إلى الجامعة، حيث كنت أدخل إلى قاعة المحاضرات وأستمع، عيناى مفتوحتان على وسعيهما، عقلي يطنّ، إلى المحاضرات عن التاريخ الأمريكي. كان الأستاذ هو البروفسور هو د. ريتشارد كيمبل، وكان صوته مؤثراً، فيه رنة خاصة. عندها عرفت شيئاً عن العبودية. فقد سمعت أبي يتكلم عنها، وكنت قد قرأت عنها في كتاب أبي المفضّل حول تأسيس أمريكا. كنت قد قرأت أن العبيد كانوا في الفترات الاستعمارية أكثر سعادة وأكثر حرية من أسيادهم، لأن أسيادهم كانوا مرهقين بتكاليف رعايتهم. بدا لي ذلك معقولاً.

عندما ألقى د. كيمبل محاضرتَه عن العبودية، ملأ الشاشة العلوية بلوحة مرسومة بالفحم تصوّر سوق العبيد. كانت الشاشة كبيرة، تكاد تغطي قاعة المحاضرات كما في صالة سينما. كانت اللوحة فوضوية: نساء واقفات، عاريات أو شبه عاريات، مقيّدات بالسلاسل، يحيط بهن رجال بيض. صدر عن جهاز العرض صوت طقطقة فانتقل إلى الصورة التالية. كانت الصورة التالية صورة حقيقية، بالأبيض والأسود، مغبشة لأنها صورة قديمة، باهتة ومجسّمة. كانت الصورة أيقونة، تصور رجلاً يجلس، وقد عُزّي من خصره، وتُظهر الصورة خريطة متشابكة من الندب والجروح البارزة المتشابكة. لم يكد يبدو اللحم لحماً، بسبب ما فعلوه به.

في الأسابيع التالية رأيتُ المزيد من الصور. كنت قد سمعتُ عن فترة الكساد العظيم منذ سنوات عندما قمت بدور آني في المسرحية، لكن صور رجال في قبعات ومعاطف طويلة يقفون في صفٍّ طويل أمام مطاعم الفقراء كانت شيئًا جديدًا عليّ. وعندما ألقى د. كيمبل محاضرة عن الحرب العالمية الثانية، ظهرت على الشاشة صفوف من الطائرات المقاتلة وقد تناثرت تحتها هياكل المدن التي قصفتها. كانت هناك وجوه مختلطة - فرانكلين روزفلت، هتلر، ستالين - ثمَّ بهتت صورة الحرب العالمية الثانية مع أضواء جهاز العرض.

عندما دخلت قاعة المحاضرات في المرة التالية، ظهرت وجوه جديدة على الشاشة. لم يظهر على تلك الشاشة وجه أسود واحد - على الأقل لا أذكر أنني رأيت واحدًا منها - منذ تلك المحاضرات عن العبودية. لقد نسيتها، هؤلاء الأمريكيون الآخرون الذين كانوا أجنب بالنسبة لي، لم أحاول أن أتخيل نهاية العبودية: لا بد أن نداء العدالة سمعه الجميع، وأن المشكلة قد حُلَّت.

كنت في تلك الحالة الذهنية عندما بدأ د. كيمبل محاضرة عن موضوع دعاه «حركة الحقوق المدنية». ظهر تاريخ على الشاشة: ١٩٦٣. ظننت أن هناك خطأ لأنني تذكرت أن إعلان تحرير العبيد صدر عام ١٨٦٣. لم أستطع أن أفسّر المائة سنة تلك، فخيّل إليّ أنها خطأ مطبعي. نسخت التاريخ في دفتر ملاحظاتي ووضعت عليه علامة استفهام، لكن بعد أن ظهرت صور أخرى على الشاشة، اتضح القرن الذي يقصده البروفسور. كانت الصور بالأبيض والأسود لكن مواضيعها حديثة، حيوية، واضحة. لم تكن لقطات جافّة من عصر آخر، وإنما تمور بالحركة. مسيرات حاشدة. رجال شرطة. رجال إطفاء موجهين خراطيم المياه إلى الشباب.

ثم ذكر د. كيمبل أسماء لم أسمعها من قبل. فبدأ باسم روزا باركس. وظهرت صورة شرطي يضغط إصبع امرأة على إسفنجة مبللة بالحبر. قال د. كيمبل إنها أخذت مقعدًا في حافلة. فهمت أنه قال إنّها سرقت المقعد، مع أن الأمر بدا لي غريبًا كيف يمكن أن تسرقه.

حلّت صورة أخرى محل صورتها، صورة صبي أسود يرتدي قميصًا أبيض، وربطة عنق وقبعة ذات حافة مدورة. لم أسمع قصّته. كنت لا أزال أتساءل عن روزا باركس، وكيف يمكن أن يسرق أحد مقعدًا في حافلة. ثمّ ظهرت صورة جُثّة وسمعت د. كيمبل يقول، «لقد سحبوا جثمانه من النهر».

كان هناك تاريخ تحت الصورة: ١٩٥٥. أدركت أنّ أمّي كان عمرها أربع سنوات في عام ١٩٥٥، وبهذا الإدراك، انهارت المسافة بيني وبين إميّت تيل. يمكن قياس قربي بهذا الصبي المقتول بحياة أناس أعرفهم. لم يكن الحساب بالإشارة إلى فترات تاريخية أو جيولوجية واسعة - سقوط حضارات، تآكل جبال. وإنما قيست بتجاعيد لحم إنساني. بالخطوط التي على وجه أمّي.

كان الاسم الذي تلاه مارتن لوثر كينغ الابن. لم أر وجهه، ولم أسمع باسمه قط، ومزّت بضغ دقائيق قبل أن أفهم أن د. كيمبل لم يكن يعني مارتن لوثر الذي كنت قد سمعت عنه. استغرقت بضغ دقائيق أخرى حتى تمكنت من الربط بين الاسم وبين الصورة المعروضة على الشاشة - رجل داكن البشرة يقف أمام معبد من الرخام الأبيض يتجمع حوله حشد كبير من الناس، عندها فقط فهمت من هو هذا الرجل، ولماذا كان يتكلّم عندما قالوا لي إنه قُتل. كنت لا أزال جاهلة بما يكفي حتى أفاجأ بسماع هذه الأسماء.

«عادت زنجيتنا!»

لا أعرف ما الذي رآه شون في وجهي - سواء أكانت صدمة، أم غضبًا، أم تعبيرًا خاويًا. مهما كان، فقد كان سعيدًا بذلك. لقد وجد نقطة ضعف، نقطة طرية. لقد انتهى وقت التظاهر بعدم المبالاة.

قلت له: «لا تنادني بهذا الاسم، فأنت لا تعرف ماذا يعني».

فقال: «طبعًا أعرف، فالسواد يغطي وجهك، مثل زنجية».

طوال ذلك الوقت -خلال ما تبقى من فترة الصيف- كنت بالنسبة له الزنجية، ورددت عليه ألف مرة بعدم مبالاة. كنت أظن أنه يمزح وأن شون ذكي، أما الآن فقد أصبحت أريد أن أخنقه كلما قال لي ذلك، أو أن أجعله يقرأ

كتاب تاريخ غير الكتاب الذي لا يزال يحتفظ به أبي في غرفة الجلوس، تحت نسخة الدستور الموضوعة في إطار.

لا أستطيع أن أقول كيف كان هذا الاسم يجعلني أشعر. فقد كان شون يقصد إهانتي، أن يحبسني في الزمن ضمن فكرة قديمة. لكن بدلاً من أن تحبسني هذه الكلمة في المكان، كانت تنقلني، فكلّما كان يقولها - «أيتها الزنجية، ارفعي عتلة الرافعة»، أو «أيتها الزنجية احضري لي الشاقول»- كنت أعود إلى الجامعة، إلى قاعة المحاضرات تلك التي رأيت فيها التاريخ الإنساني ينجلي أمامي فأتساءل عن موقعي فيه. كانت قصص إيميت تيل، وروزا باركس ومارتن لوثر كينغ، تخطر لي كلما صاح شون «أيتها الزنجية، انتقلي إلى الصفّ التالي». كنت أرى وجوههم بادية فوق كل عمود وعضادة يقوم شون بلحمها وتثبيتها في مكانها في ذلك الصيف، حتى بدأت أدرك أخيراً شيئاً كان ينبغي أن يظهر على الفور: أن أحداً وقف في وجه المسيرة العظيمة لتحقيق المساواة، وهو الشخص الذي يجب أن تنتزع منه الحرية.

لم أفكر بأن أخي هو ذلك الشخص. أشكّ في أنني سأفكرّ به هكذا، لكن شيئاً تغيّر. فقد بدأت أسير على طريق الوعي، وأدركت شيئاً أساسياً في أخي وفي أبي وفي نفسي. لقد فهمت الطرائق التي جُبِلنا عليها بتقاليد وأعراف نقلها لنا آخرون، تقاليد نجهلها سواء بمشيئتنا أم بالمصادفة. بدأت أفهم أننا حولنا أصواتنا إلى خطاب غرضه الوحيد أن نجرد الآخرين من إنسانيتهم ونصوّرهم بأنهم وحوش. يبدو أن بناء هذا الخطاب أسهل، وأن الاحتفاظ بالقوّة هو السبيل للمضي إلى الأمام باستمرار.

لم أستطع أن أعبر عن هذه الفكرة بوضوح، عندما كان العرق يسيل مني بعد ظهر تلك الأيام اللاهبة وأنا على الرافعة الشوكية. لم أكن أمتلك اللغة التي أمتلكها الآن. لكنّي فهمت هذه الحقيقة: بأنه دعاني الزنجية ألف مرة، وكنت أضحك، أما الآن فلم أعد أستطيع أن أضحك. لا لأن الكلمة والطريقة التي كان يقولها شون قد تغيّرت، وإنما لأن أذنيّ هما اللتان تغيّرتا وأصبحتا مختلفتين. فلم تعودا تسمعان رنين النكتة فيها، وإنما كانتا تسمعان إشارة، نداء عبر الزمن، أجيب عليه بقناعة متزايدة: وهي أنني لن أسمح لنفسني أن أكون جندياً في صراع لم أفهمه على الإطلاق.

(ملاحظة)

بذلت جهدًا كبيرًا لأقرر إن كان عليّ أن أذكر كلمة «زنجية» في هذا الكتاب، لما تنطوي عليه من قوّة وحشية، وشعرت بأنه من الملائم أكثر (أو ربما مريح أكثر) أن أستبدلها بعبارة تلطيفية أخرى كي لا أثير هذا المارد القديم. لكنني قررت في النهاية، أن أورد هذه الكلمة كما سمعتها تطلق عليّ. وقد قررت ذلك انسجامًا مع ما قالته المؤرخة ديان ماك هورتر بأن «تطهير لغة الفصل العنصري يكمن في إسكات قوتها التدميرية، أو في نبذها أو التقليل من قيمتها». أرى أننا لكي نحترم ماضينا وماضي الذين عانوا فيه الكثير، يجب أن نحاول على الأقل أن نراه كما كان.

الفصل ٢١

نبته الإسقوتلارية

دفع أبي أجري قبل أن أعود إلى الجامعة بيوم واحد. لم يكن يملك المبلغ الذي كان قد وعدني به، لكنه كان يكفي لتغطية نصف الرسوم. أمضيت آخر يوم لي في أياداهو مع تشارلز. كان يوم الأحد، لكنني لم أذهب إلى الكنيسة. قبل يومين بدأت أذني تؤلمني، وبدأ الألم يتحوّل في الليل من مجرد وخز خفيف إلى وخزات حادة لا تتوقف. واعترتني حمّى، ولم أعد أرى جيدًا، وبدأت عيناى تتحسسان من الضوء. في ذلك الحين اتصل بي تشارلز. سألني إن كنت أريد أن أذهب معه إلى البيت؟ فقلت له لا أستطيع أن أقود السيارة لأنني لا أستطيع أن أرى جيدًا، فجاء بعد خمس عشرة دقيقة، وأخذني معه.

وضعت يدي حول أذني وجلست في المقعد الأمامي، ثم خلعت سترتي وغطيت بها رأسي حتى لا يصلني الضوء. سألني تشارلز عن الدواء الذي أتناوله.

قلت: «زهرة لوبيليا والإسقوتلارية».

فقال: «لا أظن أنها مفيدة».

«لا، إنها مفيدة. لكنها تستغرق أيامًا عدة حتى تشفى».

رفع حاجبيه ولم يقل شيئًا.

كان بيت تشارلز نظيفًا وواسعًا، له نوافذ كبيرة مضيئة وأرضيات مصقولة. ذكرني بيت جدتي التي تقيم في البلدة. جلست على مقعد بلا ذراعين، رأسي مضغوط على الطاولة الباردة. سمعت صرير خزانة تُفتح وصوت طقطقة غطاء بلاستيكي. عندما فتحت عيني، وجدت حبتين حمراوين أمامي على الطاولة.

«هذا ما يتناوله الناس عادة للتخلص من الألم»، قال تشارلز.

«ليس نحن».

«من هم نحن؟» سألني تشارلز، «إنك ستغادرين غدًا، فلم تعودى واحدة منهم».

أغمضت عيني، آملة أن ينسى الأمر.

«ماذا تظنين أنه سيحدث إذا تناولت الحبتين؟» قال.

لم أجب. لا أعرف ما الذي سيحدث. فقد كانت أمي تقول دائمًا إنّ الأدوية الطبية نوع خاص من السمّ، لا يغادر جسدك أبدًا ويجعلك تتعفن ببطء من الداخل طوال حياتك، وقالت إنني إذا تناولت الدواء الآن، فإني سأنجب أطفالًا مشوّهين حتى بعد عشر سنين.

قال: «الناس يتناولون الدواء ليتخلصوا من الألم، وهذا شيء طبيعي».

لا بد أنني جفلت عندما سمعت كلمة «طبيعي»، لأنه صمت. ملأ كاسًا بالماء ووضعه أمامي، ثمّ دفع الحبتين برفق إلى الأمام حتى لمستا ذراعي. التقطت واحدة. لم أر حبة قريبة مني هكذا من قبل. كانت أصغر مما كنت أتوقع.

ابتلعتهما، ثمّ أتبعتهما بالأخرى.

منذ أن أتذكّر، عندما كنت أتألم، سواء أكان الألم ناجمًا عن جرح أو عن وجع في الأسنان، كانت أمي تصنع خلطة من زهرة اللوبيليا والإسكوتلارية، لكنها لم تكن تخفف الألم قط، ولا بأي شكل من الأشكال. لذلك بدأت أحترم الألم، لا بل أوقّره، باعتباره شيئًا أساسيًا لا يمكن المساس به. بعد أن ابتلعت الحبتين بعشرين دقيقة، زال الألم من أذني. لم أفهم سبب اختفائه. أمضيت فترة بعد الظهر وأنا أدير رأسي يمينًا ويسارًا، في محاولة لإبعاد الألم مرة أخرى. فقد كنت أظن أنني إذا صرخت عاليًا، أو تحرّكت بسرعة، فقد يعود الألم إلى أذني، وسأعرف حينها أن الدواء زائف.

كان تشارلز يراقبني بصمت، لكنّ لا بد أنه وجد سلوكي سخيفًا، خصوصًا عندما بدأت أشدّ أذني فكان ذلك يؤلمني قليلًا، لأختبر حدود هذا السحر الغريب.

كان من المفترض أن توصلني أمي إلى الجامعة صباح غد، لكنها دُعيت لإجراء ولادة في الليل. كانت هناك سيارة مركونة عند المدخل -طراز كيا سيفيا- كان أبي قد اشتراها من توني منذ أسابيع. كانت المفاتيح فيها. نقلت أغراضي إليها وقدمتها إلى يوتا. قلت في نفسي لعل السيارة تكون تعويضًا عن المبلغ الذي يدين به أبي لي. أظن أنه حسب ذلك أيضًا، لأنه لم يقل شيئًا عنها. انتقلتُ إلى شقّة تبعد عن الجامعة حوالى نصف ميل. أصبحت لديّ شريكات جديّدات في الغرفة. كانت روبن فتاة طويلة القامة لها جسد رياضي. عندما رأيتها أول مرة، كانت ترتدي شورت رياضة قصيرًا جدًّا، لكنّي لم أنظر إليها. وعندما قابلت الفتاة الأخرى، جيني، رأيتها تشرب كوك دايت، فلم أحّدّق فيها أيضًا لأنني رأيت تشارلز يشرب عشرات منها.

كانت روبن أكبر الفتيات سنًّا، وليسبب ما، أبدت تعاطفًا نحوي. وعلى نحو ما فهمت روبن أنّ الهفوات التي تبدر مني صادرة عن جهل، وأنها غير متعمدة، فكانت تصحّحني بلطف، لكن بصراحة. فكانت تقول لي ما يجب أن أفعله، أو ما لا أفعله، حتى أجاري الفتيات الأخريات في الشقّة، وطلبت مني ألاّ أحتفظ بطعام فاسد في الخزانة وألاّ أترك صحونًا وسخة في المغسلة.

أوضحت روبن ذلك في اجتماع عقدته للنزيلات في الشقّة. عندما أنهت كلامها، تنحنت فتاة أخرى اسمها ميغان، وقالت:

«أودّ أن أذكّر الجميع بأن يغسلن أيديهن بعد استخدام الحّمّام، ليس بالماء فقط، وإنما بالصابون أيضًا».

فقال روبن: «أنا متأكدة من أن الجميع يغسلن أيديهن هنا».

في تلك الليلة، بعد أن خرجت من الحّمّام، وقفت أمام المغسلة في الممر وغسلت يدي بالصابون.

كان اليوم التالي أول يوم في الجامعة. كان تشارلز قد وضع لي البرنامج الدراسي، فسجلني في منهاج الموسيقى والديانة، وقال إنهما سيكونان سهلين بالنسبة لي، ثمّ سجّلني في منهاجين أصعب: الجبر الذي أثار خوفي، وعلم الأحياء الذي لم يثر خوفي لأنني لم أكن أعرف ما هو.

شعرت بأن منهاج الجبر قد يقضي على منحتي الدراسية. فقد كان البروفسور يشرح الدرس متممًا بصوت واطئ جدًا لا يكاد يكون مسموعًا وهو يروح ويجيء أمام السبورة. لم أكن الوحيدة التي أحست بالضياغ، لكنني كنت أكثر الطلاب إحساسًا بالضياغ. حاول تشارلز مساعدتي، لكنه كان قد بدأ السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية وكانت عنده واجبات مدرسية كثيرة عليه أن ينجزها. وفي تشرين الأول (أكتوبر) أجريت امتحان منتصف الفصل ورسبت.

لم أعد أنام. بدأت أسهر حتى وقت متأخر في الليل، ألف شعري في عقد محاولة أن أفهم المعاني التي يكتنفها الكتاب المقرر، ثم كنت أستلقي على السرير وأقرأ الملاحظات التي دونتها. أصبتُ بقرحة في المعدة. وفي إحدى المرات، رأيتني جيني متكورة حول نفسي على العشب أمام بيت غريب، يقع في منتصف الطريق بين الحرم الجامعي وبين شقّتنا. كادت معدتي تحترق. كنت أرتعش من شدة الألم، لكنني لم أدعها تأخذني إلى المستشفى. جلست معي لمدة نصف ساعة، ثم أخذتني إلى البيت.

اشتدّ الألم في معدتي كثيرًا. كان يحترق طوال الليل، ولم يعد يغمض لي جفن. كنت بحاجة إلى نقود لتسديد الإيجار، فحصلت على وظيفة مراقب في مبنى كلية الهندسة. كانت ورديتي تبدأ من الساعة الرابعة صباح كل يوم. بين القرحة وعملي كمراقبة، لم أكد أنام. وظلت جيني وروبين تقولان إنني يجب أن أرى طبيبًا وظللت أرفض. قلت لهما إنني سأذهب إلى البيت في عطلة عيد الشكر وستعالجني أمي. تبادلتا نظرات متوترة بينهما لكنهما لم تنبسا بكلمة.

قال تشارلز إنني أدمّر نفسي بسلوكي هذا، وإنّ لديّ قصورًا مرضيًا يجعلني لا أستطيع أن أطلب المساعدة. قال لي ذلك على الهاتف، وقاله لي بصوت خفيض يكاد يكون همسًا.

قلت له إنه مجنون.

«إدّا اذهبي وكلمي بروفسور الجبر»، قال، «لن تنجحي. اطلبي مساعدة

منه».

لم يخطر ببالي قط أن أتكلّم مع بروفيسور -لم أكن أعرف أنه يُسمح لنا بأن نكلّمهم- فقرّرت أن أحاول، حتى لو كان ذلك لأثبت لتشارلز بأنني أستطيع أن أفعل ذلك.

قرعت باب مكتب البروفيسور قبل عطلة عيد الشكر بأيام قليلة. بدا لي في مكتبه أصغر حجمًا مما هو في قاعة المحاضرات، وأكثر بريقًا: فقد كان المصباح على طاولة مكتبه يضيء رأسه ويعكس الضوء من نظارته. كان يقلّب بعض الأوراق على طاولة مكتبه، ولم يرفع عينيه عندما جلست. «إذا لم أنجح في هذا المقرر»، قلت له، «فإنني سأفقد منحتي الدراسية». شعرت أنه كان عليّ أن أذكر موضوع المنحة، ولم أستطع أن أراجع.

«أنا آسف»، قال، لم يكد ينظر إليّ، وأضاف، «لكن هذه جامعة صارمة. ربما كان من الأفضل لك أن تعودى عندما تكبرين أكثر، أو أن تتحوّلي».

لم أفهم ماذا يقصد بكلمة «تتحوّلي»، فلم أقل شيئًا. وقفت لأذهب، ولسبب ما جعله ذلك يلين، فقال: «أصدقك القول إن عددًا كبيرًا من الطلاب يرسبون في هذا الصفّ». استرخى في كرسيه، وأضاف، «ماذا عن هذا: سيغطي الامتحان النهائي كلّ المواد التي أخذناها في الفصل الدراسي. سأعلن في المحاضرة أنّ أي طالب يحصل على علامة تامة في الفحص النهائي -لا ثمانية وتسعون وإنما مئة حقيقة- سيحصل على درجة A، مهما كان قد حصل من درجات خلال فترة منتصف الفصل. هل هذا جيد؟»

قلت نعم. توجد فترة طويلة، وأنا ملكة الفترات الطويلة. اتصلت بتشارلز. قلت له إنني سأتي إلى أياداهو في عطلة عيد الشكر وسأحتاج إلى مدرّس خصوصي في الجبر، فقال إنّه سيقابلني في جبل باك بيكس.

الفصل ٢٢

ما الذي همسنا به وما الذي صرخنا به

عندما وصلت إلى البيت، كانت أمِّي تعدّ وجبة طعام عيد الشكر. كانت تصطف على الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط مرطبانات صبغة الأعشاب وقوارير الزيوت العطرية الأساسية التي أزحتها ووضعتها جانبًا لأن تشارلز سيأتي إلى العشاء.

كان شون معكّر المزاج. جلس إلى الطاولة، وكان يراقبني وأنا أجمع القناني وأضعها جانبًا. كنت قد غسلت الأواني الخزفية التي لم تستخدمها أمِّي قط، ورحت أرتبها على المائدة، أترك مسافة بين كلّ صحن وسكين.

كان شون مستاء، ثم قال: «إنه مجرد تشارلز ومستواه ليس بذلك القدر، وهو معك دائمًا».

أحضرت الكؤوس. عندما وضعت كأسًا أمامه، خرّني شون بإصبعه في صدري بقوة. «لا تلمسني!» صرخت. وفجأة انقلبت الغرفة رأسًا على عقب، فارتفعت قدماي عن الأرض وجرّني إلى غرفة الجلوس بعيدًا عن أنظار أمِّي.

قلبي شون على ظهري وألقاني على بطني، وثبّت ذراعيّ على جانبي بركبتيه. الصدمة التي أحدثها ثقله أفرغت الهواء من صدري. أخذ يضغط بساعده على قصبتي الهوائية. بدأت أسعل، وحاولت أن أبتلع كمية كافية من الهواء لأصيح، لكن مجرى الهواء كان مسدودًا.

«عندما تتصرّفين كطفلة، فإنك ترغميني على أن أعاملك كطفلة»، قال شون بصوت عالٍ، يكاد يصرخ. كان يقول لي ذلك، لكنّه لم يكن يقول ذلك لي وإنما لأمِّي: إنني طفلة سيئة التصرف، وإنه يقوم بتربية هذه الطفلة ليعيدها إلى جادة الصواب. خفّ الضغط على قصبتي الهوائية وأحسست بامتلاء لذيذ في رئتيّ. كان يعرف أنني لن أصرخ.

«كفّا عن ذلك»، صاحت أمّي من المطبخ، مع أنني لم أكن متأكّدة إن كانت تقصدني أنا أم تقصد شون.

«الصراخ وقاحة»، قال شون، موجّهاً كلامه نحو المطبخ مرة أخرى، وأضاف، «ستبقين هكذا حتى تعتذري». قلت آسفة لأنني صرخت به. بعد لحظة، كنت أقف على قدميّ.

طويت مناديل ورقية ووضعت واحدة بجانب كلّ صحن. عندما وضعت منديلًا عند صحن شون، دفع إصبعه مرة أخرى في أضلاعي. لم أقل شيئًا.

وصل تشارلز مبكرًا، لم يكن أبي قد عاد بعد من العمل في باحة الخردة، وجلس إلى الطاولة قبالة شون الذي راح يحدّق به. لم أشأ أن أتركهما وحدهما معًا، لكن أمّي كانت تريد أن أساعدها في إعداد الطعام، فعدت إلى المطبخ، لكنني كنت أتعمّد أن أعود إلى المائدة. سمعت شون يحدث تشارلز عن أسلحته، وفي مرة أخرى، سمعته يحدثه عن السبل التي يمكن أن يقتل فيها شخصًا. رحت أضحك بصوت عال حتى يظن تشارلز أن شون يمازحه. وعندما عدت إلى المائدة في المرّة الثالثة، شدّني شون إلى حضنه. فضحكت أيضًا لأنه فعل ذلك.

لم تستمر هذه التمثيلية المفتعلة حتى العشاء. فقد كنت أمرّ بجانب شون أحمل صحنًا خزفيًا كبيرًا مليئًا بالفطائر، فدفع شون إصبعه في بطني بقوة فجفلت وسقط الصحن من يدي وتهشم.

«لماذا فعلت ذلك؟» صحت.

حدث ذلك بسرعة كبيرة، لا أعرف كيف ألقى بي على الأرض، ومرة أخرى كنت مستلقية على ظهري وهو فوقّي. طلب مني أن أعتذر لأنني كسرت الصحن. همست الاعتذار بصوت منخفض حتى لا يسمع تشارلز، لكن ذلك أثار غضب شون، فأمسك قبضة من شعري بقوة عند فروة رأسي، ورفعني بقوة، وجرّني نحو الحمام. كانت الحركة سريعة جدًّا، لم يكن لدى تشارلز وقت ليردّ. وكان آخر شيء رأيته عندما ألقى برأسي في آخر البهو هو أن تشارلز قفز واقفًا، عيناه واسعتان، شاحب الوجه.

كان رسغي مثنيًا، ولُفَّت ذراعي وراء ظهري، ودُفِع رأسي إلى داخل فتحة المرحاض وأصبح أنفي فوق الماء. كان شون يصرخ لكّني لم أسمع. سمعت وقع أقدام في البهو، ففقدت صوابي. لم يستطع تشارلز أن يراني بهذا الشكل. لم يصدّق أن هذا يمكن أن يحدث على الرغم من جميع المظاهر والادعاءات -المكياج، ثيابي الجديدة، ترتيب الصحن الخزفية- هذه هي أنا.

بدأت أنتفض، قوّست جسمي وتمكنت من إبعاد رسغي عن قبضة شون. بوغت. كنت أقوى مما كان يتوقّع، أو ربما كان أكثر استهتارًا، فأفلت قبضته. قفزت نحو الباب. وصلت إلى إطار الباب وخطوت نحو البهو عندما ألقي برأسي إلى الخلف. أمسكني شون من شعري وشدّني إليه بشدة فوقعنا كلانا على ظهرنا في حوض الحمام.

كان الشيء التالي الذي أتذكّره هو أن تشارلز يرفعني عن الأرض وأنا أضحك -صرخة عواء عالية. ظننت أنني إذا ضحكت بصوت عال، فقد أنقذ الموقف، وأن يقتنع تشارلز بأن كلّ ما رآه مجرد مزاح. سالت الدموع من عينيّ، فقد كُسر إبهام قدمي، لكّني ظللت أضحك. وقف شون عند الباب يبدو محرجًا.

«هل أنت على ما يرام؟» ظل تشارلز يقول.

«طبعًا أنا على ما يرام! لكن شون مضحك جدًّا، جدًّا». اختنق صوتي عند آخر كلمة عندما وضعت ثقلي على قدمي وسرت موجة من الألم في جسدي. حاول تشارلز أن يحملني لكنني دفعته ومشيت على كعب قدمي، أكرّ على أسناني لكي لا أبكي بصوت مرتفع، بينما رحت أصفع أخي كأنني ألاعبه.

لم يمكث تشارلز حتى العشاء. فقد هرب إلى سيارته الجيب ولم يتصل بي لساعات، ثمّ اتصل بي وطلب أن ألتقي به في الكنيسة. وقال إنه لن يأتي إلى بيتنا. جلسنا في سيارته الجيب في باحة وقوف السيارات، الفارغ، المظلم. كان يبكي.

«إنك لم تر ما كنت تظن أنك رأيته»، قلت.

لو سألني أحد، لقلت إن تشارلز كان أهم شيء في العالم بالنسبة لي. لكنّه لم يكن كذلك. وسأثبت له ذلك. فلم يكن الحب أو الصداقة الشيء المهم بالنسبة لي، وإنما قدرتي على أن أكذب على نفسي: لأقنع نفسي بأنني قوية. لا أستطيع أن أغفر لتشارلز لأنه يعرف أنني لم أكن كذلك.

أصبحت عصبية، ملحاحة، عدوانية. ابتكرت قاعدة غريبة ومتغيرة أقيس فيها درجة حبه لي، وعندما فشل أصابني جنون الارتياب. فاستسلمت لنوبات الغضب، وصبت عليه جام غضبي، وكل امتعاض ناجم عن الخوف من أبي أو من شون، هذا المتفجّر المحتار الذي كان يجب أن يساعدني. وبدأنا نتجادل كثيرًا، ورحت أصرخ بأنني لم أعد أريد أن أراه مرة أخرى، وقد صرخت مرات كثيرة، إلى حدّ أنه، عندما اتصلت به ذات ليلة، لأعتذر منه، كما كنت أفعل دائمًا، لم يقبل اعتذاري.

التقينا آخر مرة، في حقل على جانب الطريق السريع. كانت قمة جبل باك تلوح فوقنا. قال إنّه يحبّني لكن الأمر معقد يتجاوز قدرته على الفهم. لا يستطيع أن ينقذني. وأني أنا الشخص الوحيد الذي أستطيع إنقاذ نفسي. لم أفهم عمّ يتحدّث.

غطّى الشتاء الحرم الجامعي بطبقة كثيفة من الثلج. لم أغادر الشقة، ورحت أحفظ عن ظهر قلب معادلات الجبر، وحاولت أن أعود إلى حياتي السابقة، أن أفصل حياتي في الجامعة عن حياتي في جبل بيكس باك. لكن الجدار الذي يفصل بينهما كان حصينًا، وكان تشارلز ثقبًا فيه.

عادت قرحة المعدة تحرقني وتؤلمني طوال الليل. ذات ليلة، استيقظت عندما كانت روبن تهزّني. قالت إنني كنت أصرخ في نومي. لمست وجهي. كان مبللًا. ضمتني إليها بقوة حتى أحسست أنني شرنقة بين ذراعيها.

في صباح اليوم التالي، طلبت مني روبن أن أذهب معها إلى الطبيب؛ لمعالجة القرحة ولإجراء أشعة سينية لقدمي لأن إبهام قدمي اسود. قلت إنني لا أحتاج إلى طبيب لأن القرحة ستشفى من تلقاء نفسها، وإنني عالجت إبهام قدمي في البيت.

ارتفع حاجب روبن باستغراب، «من؟ من عالجته؟»

هزرت كتفي. أوحيت لها أن أمي عالجته، وتركتها تظن ذلك. الحقيقة هي أنني سألت شون بعد عيد الشكر أن يتأكد إن كان إبهام أصبعي مكسورًا، فأقعى على أرضية المطبخ، ووضعت قدمي في حضنه، فبدا أنه جفل. فحص إبهام قدمي للحظة، ثم نظر إليّ ورأيت شيئًا في عينيه الزرقاوين. ظننت أنه سيعتذر، لكن عندما توقعت أن يفتح فمه ليقول إنني آسف، أمسك بطرف إبهام قدمي وشده بقوة. شعرت كأنّ قدمي انخلعت من مكانها. كانت الصدمة قوية جدًا وسرت على طول ساقي. كنت لا أزال أحاول أن أتحمّل تشنّجات الألم عندما نهض شون واقفًا، ووضع يده على كتفي، وقال، «آسف يا سيدل ليستر، لكنّها لم تكن ستؤلمك هكذا لو أنك لم تسببي ذلك».

بعد أسبوع طلبت روبن أن تأخذني إلى الطبيب عندما استيقظت مرة أخرى وهي تهزّني. رفعتني وضممتني إليها، كما لو كان جسدها يللمم أجزاء جسدي ويجمعها معًا، كي لا تتناثر كل قطعة فيه.

«أظن أنك يجب أن تري الأسقف»، قالت في صباح اليوم التالي.

«أنا على ما يرام»، قلت لها. قلت ذلك كما يقولها الناس غير الأصحاء، «كلّ ما أحتاج إليه هو النوم».

بعد فترة قصيرة، وجدت على منضدتي كتيبًا عن خدمة الاستشارة في الجامعة. لم أنظر إليه من قبل، وإنما رميته في سلة المهملات، لأنني لا أستطيع أن أرى أي مرشد. فإذا رأيت مرشدًا فهذا يعني إنني بحاجة إلى مساعدة، وأنا أؤمن بأنني فتاة حصينة. كانت تلك خدعة عظيمة، خدعة عقلية، فلا يمكن أن يُكسر إبهام القدم لأنه لا يمكن أن يُكسر، ولا يمكن لأي شيء أن يثبت عكس ذلك إلا صورة الأشعة السينية. لذلك، فإن الأشعة السينية هي التي ستكسر إبهام قدمي.

انساق الامتحان النهائي للجبر وراء هذه الخرافة أيضًا الذي اكتسب في عقلي نوعًا من القوّة الباطنية. فرحت أدرس كالمجنونة، معتقدة بأنني إذا نجحت في هذا الامتحان وحصلت على العلامة التامة المستحيلة، على الرغم

من إبهام قدمي المكسور ومن دون مساعدة تشارلز، فهذا يؤكد بأنني فوق كل ذلك. محصنة.

في صباح اليوم الذي سيجرى فيه الامتحان ذهبت إلى مركز الامتحان وأنا أعرج. جلست في القاعة التي تتلاعب فيها التيارات الهوائية. كانت ورقة الامتحان أمامي. كانت المسائل مرنة، طيعة، ورحت أحلها، الواحدة تلو الأخرى. سلّمت ورقة أجوبتي، ثم وقفت في الردهة الباردة، أحدّق إلى الأعلى في الشاشة التي ستعرض النتيجة. عندما ظهرت، رمشت عيني، ورمشت مائة مرة أخرى. العلامة التامة.

غمرني خدر لذيذ. شعرت بأنني ثملة بها وأردت أن أصبح في وجه العالم: ها هو البرهان: لا شيء يمكن أن يمسّني.

بدا جبل بيكس باك كما يبدو دائماً في عيد الميلاد برّجاً مدبّباً مكسوّاً بالثلج، مزداناً بأشجار دائمة الخضرة، وقد بدأت عينايتان تعتادان، بشكل متزايد، على الحجر والخرسانة، التي أعماهما مداها ووضوحها. كان ريتشارد يعمل على الرافعة عندما كنت أضع التلّ، ينقل كومة من الألواح إلى المخزن الذي يبنيه أبي في فرانكلين، البلدة القريبة. كان ريتشارد في الثانية والعشرين، وكان واحداً من أذكى الأشخاص الذين عرفتهم، لكنّه لم يحصل على شهادة الثانوية. عندما مررت بجانبه عند المدخل، خطر لي أنه ربما سيظل يقود تلك الرافعة طوال حياته.

لم يمض على دخولي إلى البيت بضع دقائق حتى سمعت صوت تايلر يقول «أريد أن أتأكد إن كان ريتشارد يحضّر لامتحان الشهادة الثانوية».

«هل سيتقدم إلى الامتحان؟»

«لا أعرف»، قال تايلر، «ربما. نعمل أنا وأبي على ذلك»

«أبي؟»

ضحك تايلر. «نعم، أبي. إنه يريد أن يذهب ريتشارد إلى الجامعة».

خيّل إليّ أن تايلر يمزح حتى جلسنا لتناول العشاء بعد ساعة. عندما بدأنا نأكل قال أبي، وفمه مليء بالبطاطا، «ريتشارد، سأعطيك الأسبوع القادم

إجازة، مدفوعة، إذا استخدمتها للدراسة».

انتظرت توضيحًا. لم يتأخر حتى أتى. «ريتشارد عبقرى»، قال أبى بعد لحظة، يغمزنى، وأضاف، «إنه أذكى من آينشتاين خمسة أضعاف. يستطيع أن يفدّ كلّ نظرياتهم الاشتراكية وأفكارهم الإلحادية الكافرة. سيذهب إليهم وسيفجّر النظام اللعين بكامله».

استمر أبى فى تلك النشوة، غير عابئ بالتأثير الذى يحدثه على مستمعيه. جلس شون على كرسي، ظهره للحائط، وجهه مطرق إلى الأرض. إذا نظرت إليه، يمكنك أن تتخيّل رجلاً قدّ من صخرة، وبدا ثقيلًا جدًّا، خاويًا من أي حركة. كان ريتشارد الابن المعجزة، الهدية التى أرسلها الله، آينشتاين الذى سيدحض آينشتاين. ريتشارد سيحرّك العالم. أما شون فلن يفعل ذلك. لأنه فقد قدرًا كبيرًا من عقله عندما سقط من فوق تلك السقالة. أحد أبناء أبى سيقود الرافعة طوال حياته، لكنّه لن يكون ريتشارد.

لكن ريتشارد بدا أكثر بؤسًا من شون، فقد احدودب كتفاه، وغاصت رقبتة بينهما، كما لو كان واقعًا تحت ضغط مديح أبى له. بعد أن ذهب أبى لينام، قال لي ريتشارد إنّه تقدم إلى امتحان تجريبي للشهادة الثانوية، لكنه حصل على درجات متدنية جدًّا، ولم يقل لي ما هي الدرجة التى حصل عليها.

«فى الظاهر أنا آينشتاين»، قال ريتشارد، واضعًا رأسه بين يديه، «ماذا أفعل؟ يقول أبى إنني سأصبح شيئًا عظيمًا، وأنا لست واثقًا إن كنت سأنجح فى الامتحان».

كانت كلّ ليلة تشبه الليلة التى سبقتها. على العشاء، يعدّ أبى جميع النظريات العلمية الزائفة التى سيفنّدها ابنه العبقرى. وبعد العشاء، رحت أتحدّث مع ريتشارد عن الجامعة والصفوف والكتب والأساتذة والأمور التى أعرف أنها ستجذب حاجته الفطرية إلى التعلّم. كنتُ قلقة: فقد كانت توقّعات أبى عالية جدًّا، وكان خوف ريتشارد من أن يخذله شديدًا، وبدا أن ريتشارد لن يتقدّم إلى الامتحان أبدًا.

بقي بناء سطح المخزن فى فرانكلين. بعد مضي يومين على عيد الميلاد حشرت إبهام قدمي التى كانت لا تزال ملتوية ومسوّدة فى حذائي الطويل

الذي تغطي مقدمته قطعة فولاذية، وأمضيت فترة قبل الظهر فوق السطح أثبتت البراغي في الصفيح المغلفن. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، ألقى شون مفك البراغي ونزل من ذراع عربة التحميل الممتدة. «حان وقت الاستراحة، يا سيدل ليستر»، صاح من الأسفل، «هيا لنذهب إلى البلدة».

قفزت إلى السقالة وأنزل شون ذراع الرافعة إلى الأرض. «قودي أنتِ السيارة»، قال، ثمّ أمال ظهر مقعده إلى الوراء وأغمض عينيه. توجّهت إلى محلات ستوكس.

أتذكّر تفاصيل غريبة عن اللحظة التي توقفنا فيها في باحة وقوف السيارات - رائحة الزيت تفوح من قفازاتنا الجلدية، وأطراف أصابعي خشنة الملمس. كان شون يتسم لي ابتسامة عريضة من مقعده. ومن بين بحر السيارات، رأيت سيارة جيب حمراء. إنها سيارة تشارلز. اجتزت موقف السيارات الرئيسي وانعطفت إلى المكان المسفلت المفتوح عند الجانب الشمالي من المخزن حيث يركن الموظفون في ستوكس سياراتهم. خفصتُ المرأة لأنظر إلى نفسي، ورأيت خصلات شعري معقودة من الريح والشحم الذي ملأ مسامات جلدي، فأصبحت سميكة جعلها بنية اللون، وكانت ثيابي ثقيلة يغطيها التراب.

رأى شون السيارة الجيب الحمراء. رأني ألعق إبهامي وأمسح وجهي لأزيل عنه التراب، فغضب وقال: «هيا بنا نذهب».

«سأنتظرك في السيارة»، قلت له.

«ستأتين معي»، قال شون.

استطاع شون أن يشمّ رائحة شعوري بالخلل، وهو يعرف أن تشارلز لم يرني قط وأنا بهذا الشكل، لأنني كنت أهرع إلى البيت عندما تنتهي من العمل طوال أيام الصيف الماضي، لأزيل جميع البقع، وأخفي الجروح والبثور على جلدي تحت ثياب جديدة وتحت المكياج. وكان شون قد رأني مئة مرة وأنا أخرج من الحمام وقد تغيّرت هيئتي، بعد أن أكون قد أزلت الأوساخ العالقة بي من العمل في باحة الخردة وسالت في بالوعة الحمام.

«ستأتين»، كرر شون. ثم دار حول السيارة وفتح الباب من جهتي. هذه الحركة قديمة تشي بشهامة مبهمة.

«لا أريد أن أذهب»، قلت.

«ألا تريد أن يراك صديقك وأنت لا تبدين فاتنة جدًّا؟» ابتسم ودفع إصبعه في صدري. كان ينظر إليّ نظرة غريبة، كما لو كان يقول، هذا هو أنت. تدّعين بأنك شخص آخر. شخص أفضل. لكن أنتِ هكذا.

بدأ يضحك، بصوت عالٍ، بعنف، كما لو أنه رأى شيئًا مضحكًا، لكن لم يكن ثمة شيء يدعو إلى الضحك. أمسك بذراعي ورفعها إلى الأعلى وهو لا يزال يضحك، كما لو أنه سيلقي بي على ظهره ويحملني كما يفعل رجال الإطفاء. لم أشأ أن يراني تشارلز هكذا فأنهيت اللعبة. فقلت بحزم، «لا تلمسني».

لا أذكر تمامًا ما حدث بعد ذلك. فلم أر سوى لقطات - قطع من السماء وهي تنقلب رأسًا على عقب، قبضات تنهال عليّ، نظرة وحشية غريبة تنبعث من عينيّ رجل لا أعرف من هو. رأيت يديّ تتشبثان بقوة بالمقود، وأحسست بذراعيّ قويتين تسحبان ساقيّ. ثمة شيء في كاحلي تحرّك، صوت طقطقة، أو فرقة. أفلت قبضتي. سُحبت إلى خارج السيارة.

أحسست بالرصيف الشديد البرودة يلامس ظهري. الحصى يطحن جلدي. انزلق بنطالي الجينز إلى أسفل أوراكي. شعرت أنه ينزلق مني، شيئًا فشيئًا، بينما كان شون يسحب ساقيّ. ارتفع قميصي ونظرْتُ إلى نفسي، إلى جسمي المستلقي على الإسفلت، إلى حمالة صدري وسروالي الداخلي الباهت اللون. أردت أن أعطي نفسي لكن شون ثبتَّ يديّ فوق رأسي. استلقيت من دون أن آتي بحركة، وأحسست بالبرد يتغلغل داخل جسدي. سمعتُ صوتي يتوسل إليه بأن يتركني، لكنني لم أكن أبدو أنني أنا نفسي، وإنما كنت أسمع نشيج فتاة أخرى.

شدّني إلى الأعلى وأوقفني على قدميّ. تمسكت بشيبي. ثم ثنى جسدي ورسغي وراء ظهري، وأخذ يحني جسدي إلى أقصى ما كان باستطاعته أن يحنيه. اقترب أنفي من الرصيف عندما بدأ العظم ينحني. حاولت أن أستعيد توازني، أن أستخدم القوّة المتبقية في ساقيّ لأدفع نفسي إلى الخلف، لكن

عندما وقفت على كاحلي، التوى، صرختُ. التفتت رؤوس نحونا. رفع الناس رؤوسهم ليروا مصدر هذه الجلبة. فبدأت أضحك - ضحكة جامحة، هستيرية، لكن على الرغم من كلّ الجهود التي بذلتها، فقد ظلت تبدو مثل صرخة.

«ستدخلين»، قال شون، وأحسست بالعظم في رسغي يقطع. رافقته إلى حيث تتلأأ الأضواء. كنت لا أزال أضحك ونحن نعبر ممراً بعد آخر، نجمع الأشياء التي يريد أن يشتريها. كنت أضحك على كلّ كلمة يقولها، محاولة أن أقنع أي شخص كان قد رآنا في باحة وقوف السيارات أن ما رآه كان مجرد مزاح. رحت أمشي على كاحل مخلوع، لكنني لم أكد أشعر بالألم. لم نر تشارلز.

ظللنا صامتين خلال طريق عودتنا إلى موقع العمل. وعلى الرغم من المسافة البالغة خمسة أميال فقد بدت خمسين ميلاً. عندما وصلنا كنت أعرج. كان أبي وريتشارد يعملان في الداخل. بما أنني كنت أعرج بسبب إبهام قدمي، لم يلاحظا عرجي الجديد. لكن ريتشارد ألقى نظرة واحدة على وجهي المليء بخطوط الشحم والدموع، وعرف أن شيئاً ما قد حدث، لكن أبي لم ير شيئاً.

أخذت مفك البراغي ورحت أثبتّ البراغي بيدي اليسرى، لكنني كنت أركّز كلّ وزني على قدم واحدة. وطلب مني أبي أن أعود إلى البيت بعد أن أتلقت صفيحتين من القصدير لم أتمكن من تثبيتهما جيداً.

في تلك الليلة، رحت أخربش في دفتر مذكراتي ورسغي ملفوفة بضماد. سألت نفسي أسئلة. لماذا لم يتوقّف شون عندما رحت أتوسل إليه؟ كما لو كانت يد زومبي تضربني، كتبت، كأنه لم يكن يسمعني.

قرع شون باب غرفتي. أخفيت دفترتي تحت الوسادة. عندما دخل كان كتفاه متهدلين. بدأ يتكلّم بهدوء. قال إنه كان يلعب معي، وإنه لم يعرف أنه كان يؤلمني إلّا بعد أن رأيته أمسك ذراعي في موقع العمل. فحص عظام رسغي، فحص كاحلي. أحضر قطع ثلج ووضعها في منشفة، وقال إننا سنمضي وقتاً ممتعاً في المرة القادمة، وإنني يجب أن أخبره إذا كان هناك

شيء على غير ما يرام. ثم غادر. عدت إلى دفتر مذكراتي. هل كان حقًا يلعب ويمزح معي؟ كتبت. ألم يكن يعرف أنني كنت أتألم؟ لا أعرف. حقًا لا أعرف.

بدأت أفكر، بدأت أشكُّ إن كنت قد قلت له بوضوح: ماذا همست وماذا صرخت؟ تساءلت لو أنني سألته بطريقة مختلفة، لو أنني كنت أكثر هدوءًا، لتوقّف في الحال. كتبت ذلك حتى صدّقته، لأنني كنت أريد أن أصدّقه. إن التفكير بأن العيب يكمن فيّ يريحني، لأن ذلك يعني أنه واقع تحت سيطرتي.

وضعت دفتر مذكراتي جانبًا واستلقيت في السرير، ورحت أردد هذه الكلمات كما لو كانت قصيدة أردت أن أحفظها عن ظهر قلب. أكاد أنسبها إلى الذاكرة عندما أتوقف عن ترديدها. صور تدهم عقلي - وأنا ملقاة على ظهري، ذراعاي مضغوطتان فوق رأسي، ثم وأنا في باحة وقوف السيارات، عندما رحت أنظر إلى الأسفل إلى بطني البيضاء، ثم إلى الأعلى إلى أخي. لا أستطيع أن أنسى تعابير وجهه: لم يكن غضبًا أو غيظًا. لم يكن فيها غضب، وإنما لذة فقط، لا تتزعزع. ثم فهم جزء منّي، حتى عندما كنت أحاول أن أقنع نفسي عكس ذلك، أن إهانتي هي سبب تلك اللذة. لم تكن إهانتي حدثًا عابرًا أو أثرًا جانبيًا، وإنما هي هدفه المطلق.

كانت نصف المعرفة هذه تعتمل في داخلي كنوع من الهوس، ولبضع دقائق سيطرت عليّ. نهضت من سريري، استعدت دفتر مذكراتي، وقررت أن أفعل شيئًا لم أفعله من قبل، وهو أن أكتب ما حدث فعلاً، ولا أستخدم لغة غامضة، مبهمة، كما كنت أفعل، وألاً أختبئ وراء التلميحات والإيحاءات. أن أكتب ما أتذكره فقط: كانت هناك لحظة عندما جرّني بالقوة وأخرجني من السيارة، وثبتت كلتا يديه فوق رأسي فانزاح قميصي وارتفع إلى الأعلى. طلبت منه أن يتركني أعيد قميصي لأغطي بطني المكشوفة لكنّه لم يسمعني، بل راح يحدّق فيها مثل أحمق ضخم. كان من الجيد أنني ضئيلة الحجم، لأنني لو كنت أضخم، لمزّفته إربًا، في تلك اللحظة.

«لا أعرف ما الذي فعلتِ برسغك»، قال لي أبي صباح اليوم التالي، «لكن لا يمكن أن تعلمي معنا وأنت هكذا. من الأفضل أن تعودتي إلى يوتا».

كان للرحلة بالسيارة إلى الجامعة تأثير منوّم. فما إن وصلت، حتى بهتت
ذكرياتي عن البارحة وأضحت ضبابية.

عندما دققت في رسائلي الإلكترونية، عاد إليّ تركيزي. كانت هناك رسالة
من شون. رسالة اعتذار. لكنّه اعتذر من قبل عندما دخل إلى غرفتي. لم أر
شون يعتذر مرّتين قط.

أخذت دفتر مذكراتي وكتبت فقرة أخرى، بعكس الأولى، التي عدّلت فيها
ذاكرتي. كان مجرد سوء تفاهم، كتبت، فلو كنت قد طلبت منه أن يتوقّف،
لتوقّف على الفور.

لكن مهما اخترت أن أتذكره، فإن هذا الحدث سيغيّر كلّ شيء. عندما
أتذكره الآن، فإنه يدهشني، لا لما جرى، لكن لأنني كتبت ما جرى. بأنه في
مكان داخل تلك الصدفة الهنّئة -أصبحت تلك الفتاة خاوية بسبب وهم القوة
والمناعة- بقيت شرارة.

لم تكن الكلمات في الفقرة الثانية ستحجب كلمات الفقرة الأولى.
ستبقى كلتاهما، ذكرياتي المدونة بجانبها. كانت هناك شجاعة في ألاّ أعدّلهما
لتصبحا متسقتين، وفي ألاّ أمزّق هذه الصفحة أو تلك. إن قبول الشكّ يعني
قبول الضعف، العجز، وأن تؤمن بنفسك على الرغم من كليتهما. إنها نقطة
ضعف، لكن في هذا الضعف، تكمن قوّة: القناعة بأنك تعيش في عقلك أنت،
وليس في عقل شخص آخر. طالما تساءلت عمّا إذا كانت أقوى الكلمات التي
كتبتها في تلك الليلة لم تصدر من الغضب أو الحنق، وإنما من الشكّ: لا
أعرف. فقط لا أعرف.

لا أعرف يقيئًا، لكنني أرفض أن أفسح المجال للذين يدّعون أنهم يمتلكون
الحقيقة، وهي ميّزة لم أسمح لنفسني قط بأن أدّعي بأنني أمتلكها. فقد حكى
آخرون قصة حياتي. كانت أصواتهم قوية، حاسمة، مطلقة. لم يخطر ببالي
قط أن يصبح صوتي قويًا مثل أصواتهم.

الفصل ٢٣ أنا من أياداهو

بعد أسبوع، في يوم الأحد، طلب مني رجل في الكنيسة أن أخرج معه إلى العشاء. رفضت. وبعد بضعة أيام، طلب مني رجل آخر ذلك، فقلت لا. لم أستطع أن أقول نعم. ولم أكن أريد أن يكون أي منهما قريبًا مني.

سمع الأسقف بأن امرأة في رعيته تعارض الزواج. دنا مني مساعدته بعد صلاة يوم الأحد وقال إن الأسقف يريد أن يراني في مكتبه.

كان رسغي لا يزال ضعيفًا عندما صافحت الأسقف. كان رجلًا متوسط العمر، له وجه مستدير، وشعر أسود مفروق بأناقة. كان صوته ناعمًا كالحرير. كان يبدو أنه يعرفني حتى قبل أن أفتح فمي (بشكل ما كان يعرف لأن روبن أخبرته أشياء كثيرة عني) قال إنني يجب أن أسجل في الخدمة الاستشارية في الجامعة حتى أستمتع، ذات يوم، بزواج أبدي من رجل تقي.

كان يتحدث وأنا جالسة أمامه صامتة مثل حجرة، لم أنبس بكلمة. سألني عن أسرتي. لم أجب. لقد خنتهم للتو لأنني أخفقت في أن أحبهم كما ينبغي لي. على الأقل يمكنني أن أظل صامتة.

«الزواج هو خطة الله»، قال الأسقف، ونهض واقفًا. انتهى اللقاء. طلب مني أن أعود يوم الأحد القادم. قلت نعم، لكنني كنت أعرف بأنني لن آتي.

شعرت بثقل في جسدي عندما عدت إلى شقتي. فقد عُلِّمت طوال حياتي بأن الزواج هو إرادة الله، وأن رفضه هو نوع من الخطيئة. إذًا فأنا أتحدى إرادة الله، لكنني لم أكن أريد أن أتحداه. كنت أريد أن أنجب أطفالًا، وأن أكوّن أسرة، لكن على الرغم من أنني كنت أصبو إلى ذلك، فقد كنت أعرف أنني لن أفعل ذلك أبدًا. لم أكن قادرة على ذلك، لأنني لا أستطيع أن أكون قريبة من أي رجل من دون أن أحتقر نفسي.

كنت أسخر دائماً من كلمة «قحبة» التي كان يبدو أنها تخرج من الحلق ولم تعد تُستخدم حتى لي. ومع أنني كنت أسخر من شون في داخلي لأنه يستخدمها، فقد بدأت أتماهى معها. وبما أنها كلمة عتيقة، بالية، مهجورة، فقد عززت ارتباطي بها، لأنها تعني أنني سمعت الكلمة التي ترتبط بي فقط.

في إحدى المرات، عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، عندما كنت أضع مجلّ الرموش وملّع الشفاه، قال شون لأبي إنّه سمع إشاعات عنيّ في البلدة، بأنني سيئة السمعة. فظنّ أبي على الفور بأنني حامل، وأخذ يصيح بأمي بأنه لم يكن عليه أن يسمح بأن أشارك في تلك المسرحيّات في البلدة. لكن أمّي قالت له إنني فتاة جديرة بالثقة، محتشمة، فقال شون لا توجد فتاة مراهقة جديرة بالثقة، ومن تجربته فإن الفتيات اللاتي يبدو أنهن تقيات، يكنّ أحياناً أسوأ من جميع الفتيات.

جلست على سريرى، أضغط ركبتي إلى صدري، وأنا أستمع إليهم يصيحون. هل أنا حامل؟ لم أكن متأكّدة. ورحت أ استدعي إلى ذاكرتي أي اتصال مع صبي، أي نظرة، أي لمسة. ثم وقفت أمام المرأة ورفعت قميصي، ومررت أصابعي فوق بطني، أتفحصها بوصة بوصة، وأقول لنفسى، قد يكون ذلك.

لم أقبل صبيّاً قط من قبل.

كنت قد رأيت عملية ولادة، لكن لم يشرح لي أحد شيئاً عن حقائق الحمل. وبينما كان أبي وأخي يتصايحان، أبقاني الجهل صامتة: فلم أكن أستطيع أن أدافع عن نفسى، لأننى لم أفهم حقيقة هذا الاتهام.

بعد بضعة أيام، بعد أن تأكّد لهم أنّى لم أكن حاملاً، تكوّن لديّ فهم جديد لكلمة «قحبة»، كلمة تدلّ على السلوك على نحو أقل، وعلى الجوهر على نحو أكبر. لم أكن قد ارتكبت خطأً لكن وجودي هو الخطأ. ثمة شيء نجس في حقيقة وجودي.

من الغريب كيف تمنح الأشخاص الذين تحبّهم ذلك القدر من القوّة ليمارسوها عليك، كتبت في مذكراتي. لكن كان لدى شون تأثير كبير فيّ أكثر مما أتخيّل. ولا توجد قوّة أكبر من ذلك.

وقفت خارج مكتب الأسقف في ليلة باردة من ليالي شهر شباط (فبراير).
لا أعرف ما الذي أخذني إلى مكتبه.

جلس الأسقف بهدوء وراء طاولة مكتبه. سألني ما الذي يمكن أن يفعله
من أجلي، فقلت لا أعرف، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدم لي ما أريد، لأن ما
أريده هو أن أشكّل من جديد.

«يمكنني أن أساعدك»، قال، «لكن يجب أن تخبريني ما الذي يزعجك». كان
صوته لطيفًا، وكانت تلك اللطافة قاسية. كنت أتمنى أن يصرخ، لأنه إذا
صرخ، فإنه سيثير غضبي، وإذا غضبت فقد أشعر بأنني قوية. لم أكن أعرف
إن كنت أستطيع أن أفعل ذلك من دون أن أشعر بالقوة.
تنحنحت، ثم تكلمت طوال ساعة.

بدأت أحضر إلى مكتب الأسقف كلّ يوم أحد حتى الربيع. كان الأسقف
بمثابة أب لي له سلطة عليّ، لكن كان يبدو أيضًا أنه كان يتخلّى عن تلك
سلطة ما إن أعبر باب مكتبه. كنت أتحدث وهو يستمع، ينسل شعوري
بالخجل كما ينسل معالج التهابًا من جرح متقيح. وعندما انتهى الفصل
الدراسي، قلت له إنني سأعود إلى البيت لقضاء عطلة الصيف. لم يكن معي
نقود، ولا أستطيع تسديد الإيجار. بدا مرهقًا عندما قلت له ذلك، فقال، «لا
تذهبي إلى البيت يا تارا، والكنيسة ستسدد إيجارك».

لم أكن أريد نقود الكنيسة. كنت قد اتخذت هذا القرار سلفًا. طلب مني
الأسقف أن أعده بشيء واحد فقط، وهو ألا أعود للعمل مع أبي.

في أول يوم لي في أياداهو، حصلتُ على عملي القديم في محلات
ستوكس. سخر مني أبي وقال إنني لن أكسب قط نقودًا تكفي للعودة إلى
الجامعة. كان محقًا، لكن الأسقف قال إن الله سيتدبّر لي طريقة من عنده،
وقد صدّقت ذلك. أمضيت عطلة الصيف وأنا أملأ الرفوف بالبضائع، وأرافق
السيدات المسنّات إلى سياراتهم.

كنت أتحاشى شون. كان ذلك سهلاً لأنه أصبح عنده صديقة جديدة اسمها إيميلي، وكانا يفكران بالزواج. كان شون في الثامنة والعشرين، وكانت إيميلي في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية. كانت فتاة طيعة، وكان شون يلعب معها نفس الألعاب التي كان يلعبها مع سادي، يختبر قوته على السيطرة عليها. كانت تطيعه طاعة عمياء، ترتجف عندما يرفع صوته، وتعتذر عندما يصرخ فيها. لم يكن لدي أدنى شك بأن زواجهما سيكون زواجاً استغلاليًا عنيقاً - مع أن هذه الكلمات ليست كلماتي. فقد قالها لي الأسقف، ولا أزال أحاول لأن أستمّد منها معنى.

عندما انتهت عطلة الصيف، عدت إلى الجامعة وأنا لا أملك سوى ألفي دولار. في أول ليلة من وصولي، كتبت في دفتر مذكراتي: لديّ فواتير كثيرة لا أستطيع أن أتخيل كيف سأتمكن من تسديدها. لكن الله سيختبرني أو سيقدم لي وسيلة أنجح فيها. بدت لي نبرة هذه العبارة سامية، جليلة، لكنني وجدت فيها شيئاً من الإيمان بالقضاء والقدر. لعلي سأضطر إلى ترك الجامعة. لا بأس، فهناك محلات بقالية كثيرة في يوتا، ويمكنني أن أعمل فيها وأصبح مديرة المخزن ذات يوم.

صُدمت من هذا الاستسلام بعد مضي أسبوعين على الفصل الدراسي، عندما أيقظني ذات ليلة ألم شديد في فكيّ. لم أصب بألم بهذه الشدّة من قبل قط، كأن تياراً كهربائياً يسري في جسدي. أردت أن أقتلع فكيّ من فمي، لأتخلص من هذا الألم. وقفت أمام المراة. كان مصدر الألم سنّاً كان كُسر منذ سنوات، لكنه كُسر مرة أخرى الآن، وبعمق. عندما ذهبت إلى طبيب الأسنان قال إن السنّ منخور منذ سنوات، وكلّف علاجه ألفاً وأربعمائة دولار. لا أستطيع أن أدفع نصف هذا المبلغ وأبقى في الجامعة.

اتصلت بالبيت. وافقت أمّي على أن تقرضني المبلغ، لكن أبي وضع شروطاً: يجب أن أعمل معه في الصيف القادم. لم أفكر بالأمر وقلت له على الفور إنني لن أعود للعمل في باحة الخردة طوال عمري، وأغلقت الهاتف. حاولت أن أتجاهل الألم وأن أركّز على دروسي، لكنّ كان ذلك كما لو أنه طُلب مني أن أحضر محاضرة وذئب ينهش فكيّ.

لم أكن قد تناولت حبة مسكن «أيبوبروفين» منذ ذلك اليوم مع تشارلز، لكنني بدأت أبتلعها مثل حبوب النعناع. لم تساعدني كثيرًا. كان مصدر الألم الأعصاب، وكان ألمًا مبرحًا. لم يغمض لي جفن منذ أن بدأ الألم، وبدأت أتحاشى الطعام لأن المضغ كان يسبب ألمًا فظيعًا. كان ذلك عندما أخبرت روبن الأسقف.

دعاني إلى مكتبه في عصر يوم مشرق. نظر إليّ بهدوء من وراء طاولة مكتبه، وقال، «ماذا سنفعل بشأن سنك؟» حاولت أن أرخي وجهي. «لا يمكنك أن تمضي السنة الدراسية هكذا»، قال، «لكن يوجد حلّ سهل. سهل جدًّا، في الواقع. كم يكسب والدك؟»

«ليس كثيرًا»، قلت، «فهو غارق في الدين بعد أن حطّم إخوتي جميع المعدات السنة الماضية».

«ممتاز»، قال، «أمامي الأوراق من أجل الحصول على منحة. أنا واثق من أنك مؤهلة للحصول عليها، وأفضل شيء فيها هو أنك لن تعيدي المبلغ».

كنت قد سمعت عن منح تقدمها الحكومة. كان أبي يقول إن قبول أي منحة منها يعني أن ترهن نفسك للمستثمرين. «هكذا يحصلون عليك»، قال، «يقدمون لك نقودًا مجانيًا، ثمّ تصبحين ملكًا لهم».

تردد صدى هذه الكلمات في رأسي. كنت قد سمعت طلابًا آخرين يتحدثون عن المنح التي حصلوا عليها، وقد ابتعدت عنهم. إنني مستعدة لأن أترك الجامعة قبل أن أسمح لنفسني بأن أشتري.

«لا أوّمن بالمنح الحكومية»، قلت.

«لماذا؟»

قلت له ما يقوله أبي. تنهّد ونظر نحو السماء، ثم سألني، «كم يكلف علاج السن؟»

فقلت: «ألف وأربعمائة. سأجد النقود».

فقال بهدوء: «الكنيسة ستدفع المبلغ»، وأضاف، «يوجد لديّ صندوق تفويضي».

«هذه النقود مقدّسة».

رفع الأسقف يديه في الهواء. جلسنا في صمت، ثمّ فتح درج مكتبه وأخرج دفتر شيكات. نظرْتُ إلى الاسم. كان باسمه الشخصي. ملأ الشيك باسمي بمبلغ ألف وخمسمائة دولار.

«لن أدعك تتركين الجامعة لهذا السبب»، قال.

أصبح الشيك في يدي. كنت في غاية الحماسة. كان الألم في فكيّ شديداً. أمسكته في يدي عشر ثوان ثم أعدته له.

حصلت على عمل في كافيتريا الجامعة، أجهّز البيرغر وأغرف البوظة. بدأت أهمل دفع الفواتير المتأخرة وأقترض نقوداً من روبن. وعندما كان يدخل إلى حسابي بضع مئات من الدولارات مرّتين في الشهر، تكون قد تلاشت بعد ساعات قليلة. عندما بلغت التاسعة عشرة في نهاية أيلول (سبتمبر) كنت مفلسة تماماً. نسيت موضوع معالجة سنّي لأنني أعرف أنه لن يتوفر لديّ مبلغ ألف وأربعمائة دولار، كما أن الألم خفّ، فإمّا أن العصب مات أو أن دماغي تكيف مع الصدمات.

كانت هناك فواتير أخرى يجب أن أدفعها، فقرّرت أن أبيع الشيء الوحيد الذي له قيمة لديّ - حصاني، «بود». فاتصلت بشون وسألته كم يمكنني أن أحصل على ثمن له. فقال شون إن السلالة الهجينة لا تساوي كثيراً، لكن يمكنني أن أرسله للبيع بالمزاد مثل خيول جدّي التي تُذبح كالحوم للكلاب. تخيلت بود في مطحنة لحم، ثمّ قلت له، «حاول أن تجد له مشترياً أولاً». بعد عدة أسابيع أرسل لي شون شيكاً بـبضع مئات الدولارات. عندما اتصلت بشون وسألته من اشترى «بود»، غمغم شيئاً غير مفهوم عن رجل من تويل.

لم أكرث كثيراً في ذلك الفصل الدراسي. فقد تبين لي أن الفضول ترف للطلاب المرتاحين مالياً: فقد كان عقلي مشغولاً بهوموم أهم، مثل رصيد حسابي المصرفي، ومقدار ديوني، وهل يوجد شيء في غرفتي يمكنني أن

أبيعه بعشرة دولارات أو عشرين دولارًا. كنت أقدم الوظائف المطلوبة وأدرس لامتحاناتي، لكنني كنت أفعل ذلك بدافع الخوف - الخوف من أن أخسر المنحة الدراسية إذا تدنت علاماتي علامة واحدة - وليس بدافع الاهتمام الحقيقي بالدراسة.

بعد آخر راتب لي في كانون الأول (ديسمبر) كان يوجد في حسابي ستون دولارًا، وكان الإيجار ١١٠ دولارات يجب أن أدفعها في ٧ كانون الثاني (يناير). كنت بحاجة ماسة إلى مبلغ من المال. سمعت أن هناك عيادة قريبة من مركز التسوق تدفع للأشخاص الذين يتبرعون بكمية من الدم مبلغًا معينًا. كانت العيادة تبدو كأنها جزء من المؤسسة الطبية، لكنني قلت بما أنهم يُخرجون أشياء ولا يدخلونها، فلا مانع. ظلت الممرضة تثقب في عروقي عشرين دقيقة، ثم قالت إنها صغيرة جدًا.

ملأْتُ سيارتي بالوقود بآخر ثلاثين دولارًا لديّ وعدت إلى البيت لقضاء فترة عيد الميلاد. في صبيحة يوم عيد الميلاد، أعطاني أبي بندقية - لم أخرجها من صندوقها، ولم أعرف نوعها. سألت شون إن كان يريد أن يشتريها مني، فأخذها أبي مني وقال إنه سيحتفظ بها في مكان أمين.

هكذا إدًا. لم يبق شيء يمكن أن أبيعه، ولم يعد هناك أصدقاء طفولة أو هدايا عيد الميلاد. حان الوقت لترك الجامعة والحصول على عمل. لقد قبلت ذلك. كان أخي توني يعيش في لاس فيغاس، يعمل سائق شاحنة طويلة، فاتصلت به في عيد الميلاد. قال إنني أستطيع أن أعيش معه لعدة أشهر وأن أعمل في محل إن أند أوت بيرغر في الشارع المقابل.

أغلقْتُ الهاتف. كنت أمشي في الممر، راجية أن أكون قد سألت توني إن كان بإمكانه أن يقرضني مبلغًا لأسافر إلى فيغاس، عندما سمعت صوتًا أجشًا يناديني. «هيه، سيدل ليستر. تعالي إلى هنا دقيقة».

كانت غرفة نوم شون وسخة. الملابس القذرة متناثرة فوق أرضية الغرفة، ورأيت أخمص مسدس تحت كومة من القمصان الوسخة. كانت الرفوف تنوء بصناديق الذخيرة وأكداس من قصص لويس لامور ذات الأغلفة الورقية. كان شون جالسًا على السرير، كتفاه محدودبان، ساقاه محنيتان إلى

الخارج. بدا لي أنه يجلس في هذه الوضعية منذ فترة من الوقت، يتأمل تلك القذارة. أطلق تنهيدة، ثم وقف ومشى نحوي، رافعًا ذراعه اليمنى. اتخذت خطوة تلقائية إلى الوراء، لكنه مدّ يده إلى جيبه. أخرج محفظته، ثم فتحها وأخرج منها ورقة من فئة مئة دولار.

«عيد ميلاد سعيد»، قال، «لن تبذريها كما سأفعل أنا».

اعتقدت أنّ المائة دولار إشارة من الله. بأنّ عليّ أن أبقى في الجامعة. عدت إلى الجامعة وسددت الإيجار. وبما أنني كنت أعرف أنني لن أتمكن من دفع الإيجار في شهر شباط (فبراير)، فقد قبلت أن أعمل عاملة تنظيف في المنازل، أقود السيارة لمدة عشرين دقيقة شمالاً، ثلاثة أيام في الأسبوع، لأنظف البيوت الراقية في درايفر.

كان الأسقف لا يزال يراني كلّ يوم أحد. أخبرته روبن بأنني لم أشتري كتبتي المقررة لهذا الفصل. قال لي: «هذا شيء سخيف، تقدّمي بطلب للحصول على المنحة! أنت فقيرة! لهذا السبب توجد المنح».

تجاوزت معارضتي كل منطق، كانت عميقة.

«إنني أكسب مالاً كثيرًا»، قال الأسقف، «وأدفع ضرائب كثيرة. فكّري فقط بأنها نقودي أنا». طبع الاستثمارات وقدمها لي، وقال: «فكّري في الأمر. يجب أن تتعلمي أن تقبلي المساعدة، حتى لو كانت من الحكومة».

أخذت الاستثمارات. ملأتها لي روبن. رفضت أن أرسلها. قالت: «اجمعي الأوراق فقط، وانظري كيف تبدو».

كنت بحاجة إلى تصاريح عائدات الضرائب التي دفعها والديّ. لم أكن متأكدة إن والداي يدفعان الضرائب، وإذا كانا يدفعانها، فإني أعرف أن أبي لن يعطيها لي إذا عرف سبب احتياجي لها. فكرت بعشرات الأعذار عن سبب احتياجي لها، لكن لم يكن من الممكن تصديق أي منها. خمنت أن تلك التصاريح موجودة في خزانة الأضابير الرمادية الكبيرة في المطبخ. قرّرت أن أسرقها.

توجّهت إلى أياداهو قبل منتصف الليل، بأمل أن أصل إلى البيت حوالي الثالثة صباحًا عندما يخيم الصمت على البيت. عندما وصلت إلى البيت، سرت ببطء إلى المدخل، وكنت أجفل كلّما طقطقت حصوة تحت عجلاتي. فتحت باب السيارة بهدوء شديد، ثمّ مشيت فوق العشب وانسللت من الباب الخلفي، تحرّكت بصمت في البيت، مادة يديّ أتلّمس بهما طريقي إلى خزانة الأضابير.

ما إن تقدمت بضع خطوات حتى سمعت صوت طقطقة مألوفة.
«لا تطلق النار»، صحت، «هذا أنا».

«من؟» أدت مفتاح الضوء ورأيت شون جالسًا في الغرفة، مصوبًا مسدّسًا نحوي.
«طننتُ أنّك شخص آخر».
«يبدو ذلك»، قلت.

وقفنا مرتبكين لوهلة، ثمّ أويت إلى سريري.

في صباح اليوم التالي، بعد أن ذهب أبي إلى العمل في باحة الخردة، أخبرت أمّي إحدى قصصي التي اختلقها عن حاجة الجامعة إلى تصاريح عن ضربيتها. كانت تعرف أنّني أكذب - عرفت ذلك لأنه عندما عاد أبي فجأة وسألها لماذا تنسخ تصاريح عائدات الضرائب، فقالت إنها تنسخها من أجل سجلاتها.

أخذت النسخ وعدت إلى الجامعة. لم نتبادل أنا وشون أي كلمة قبل أن أغادر. لم يسأل قط لماذا كنت أتسلل إلى بيتي في الساعة الثالثة صباحًا، ولم أسأله من كان ينتظر، جالسًا في منتصف الليل، بمسدّسه المحشو بالطلقات.

ظلت الاستثمارات على منصذتي طوال أسبوع قبل أن ترافقني روبن إلى مكتب البريد وتراني أسلمها إلى موظف البريد. لم يستغرق الأمر فترة طويلة، أسبوع، ربما أسبوعين. كنت أنظّف بعض البيوت في منطقة درايبير

عندما وصل البريد، فتركت روبن الرسالة على سريري مع ملاحظة بأنني أصبحت الآن شيعية.

فضضت المغلف وسقط منه شيك على سريري. كان بمبلغ أربعة آلاف دولار. شعرت بأنني جشعة، ثم خفت من جشعي. كان هناك رقم اتصال. اتصلت به.

«توجد مشكلة»، قلت للمرأة التي أجابتنني، «الشيك بمبلغ أربعة آلاف دولار، لكنني أحتاج إلى ألف وأربعمائة دولار فقط».

ساد صمت على الهاتف.

«ألو؟ ألو؟»

«دعيني أكن صريحة معك»، قالت المرأة، «تقولين إن مبلغ الشيك كبير؟ ماذا تريدان أن أفعل؟»

«لو أعدته، فهل يمكنك أن ترسلي لي شيكًا آخر؟ فأنا بحاجة إلى ألف وأربعمائة دولار فقط من أجل حشو قناة الجذر».

«انظري يا عزيزتي»، قالت، «لقد حصلت على هذا المبلغ لأن هذا هو المبلغ الذي حصلت عليه. إذا أنفقته أم لم تنفقيه، فالأمر يخصك أنت».

عالجت حشوة قناة الجذر. اشترت كتبتي الدراسية، ودفعت الإيجار، وبقي معي مبلغ من المال. قال الأسقف إنني يجب أن أمتّع نفسي بشيء، فقلت لا أستطيع، لأنني يجب أن أوفر المبلغ المتبقي. قال لي إنني أستطيع أن أنفق بعضًا منه. قال: «تذكّري أنك تستطيعين أن تقدّمي طلبًا للحصول على نفس المبلغ السنة القادمة». اشترت ثوبًا جديدًا ليوم الأحد.

كنتُ أعتقد أن هذه النقود ستُستخدم للسيطرة عليّ، لكن ما فعلته هو أنها مكّنتني من أن أفي بوعدني لنفسي: لأول مرة، عندما قلت إنني لن أعمل مع أبي ثانية، صدّقت نفسي.

أتساءل الآن إن كان اليوم الذي ذهبت فيه لأسرق وثائق تصاريح الضريبة لم يكن أول مرة أغادر فيه البيت لأذهب إلى جبل بيكس باك. فقد دخلت في

تلك الليلة إلى بيت أبي كمتسللة، دخيلة. إنها تحوّل في اللغة العقلية،
استسلام للمكان الذي جئت منه.

وقد أكّدت ذلك كلماتي. فعندما كان الطلاب الآخرون يسألونني من أين
أنا، كنت أقول، «أنا من أياداهو»، عبارة، كان عليّ أن أكررها كثيرًا على مدى
السنين، لكنها لم تكن ترتاح في فمي. عندما تكون جزءًا من مكان، تنمو في
تلك اللحظة في تربته، فلا توجد حاجة أبدًا لأن تقول إنك من ذلك المكان. لم
أقل عبارة «أنا من أياداهو» إلاّ بعد أن غادرتها.

الفصل ٢٤

فارسٌ هائم على وجهه

كان يوجد في حسابي المصرفي ألف دولار. من الغريب أن أشعر بذلك، ناهيك عن أن أقوله. ألف دولار إضافية. لم أكن بحاجة إلى هذا المبلغ في الحال. أمضيت أسابيع حتى قبلت هذا الواقع، وعندما بدأت أقبله، بدأت أدرك أقوى ميزة للنقود وهي أنك تصبح قادرًا على التفكير بأمور أخرى بالإضافة إلى النقود.

دخل أساتذتي إلى حيز تركيزي، بغتة وبقوة. كأنني كنت أنظر إليهم، قبل حصولي على المنحة، من خلال عدسة مغبشة، وبدأت كتبي المقررة تعني لي شيئًا، ووجدت نفسي أدرس وأقرأ أكثر مما كان مطلوبًا مني.

عندما كنت في هذه الحالة العقلية، سمعت لأول مرة مصطلح «الاضطراب ثنائي القطب». كنت جالسة في فصل «علم النفس ١٠١» عندما بدأ الأستاذ يقرأ أعراض هذا الاضطراب بصوت عالٍ من شاشة العرض: اكتئاب، هوس، ارتياب، شعور متوهم بالانشرائح، شعور بوهم العظمة والاضطهاد. رحت أنصت باهتمام شديد.

هذا هو أبي، دوّنت في ملاحظاتي. إنه يصف أبي.

قبل انتهاء المحاضرة ببضع دقائق، سأل أحد الطلاب ما هو الدور الذي يمكن أن تؤديه الاضطرابات العقلية في الحركات الانفصالية، وقال: «إنني أقصد النزاعات المشهورة مثل واكو في تكساس، أو روبي ريدج في أباداهو».

لم تكن أباداهو تشتهر بأشياء كثيرة، فخيّل إليّ إنني سمعت «روبي ريدج». قال إنّه نزاع. فتّشت في ثنایا ذاكرتي، أحاول أن أتذكّر إن كنت قد سمعت هذه الكلمات قبل الآن. كان ثمة شيء مألوف فيها. ثمّ تراءت لي صور، ضعيفة ومشوّهة، كما لو أن الإرسال قد قُطع من المصدر. عندما أغمضتُ عينيّ أصبح المشهد واضحًا. كنت في بيتنا، قابعة وراء الخزانات

المصنوعة من خشب البتولا. كانت أمي تجثو بجانبى، تَفَسُّها بطيء ومتعب. لعقت شفتيها وقالت إنها عطشى، وقبل أنا أتمكن من إيقافها نهضت ومدّت يدها إلى الحنفية. أحسست بهزّة الطلقة وسمعت نفسي أصرخ. سمعت صوت ارتطام مكتوم وشيء ثقيل يسقط على الأرض. أبعدت ذراعها وأخذت الطفل الرضيع الذي كانت تحمله.

انتهت المحاضرة. وخرج الجميع من القاعة. هرعت إلى مختبر الكمبيوتر. تردّدت لحظة عند لوحة المفاتيح - اعتراني خوف بأنني قد أندم إذا عرفت هذه المعلومات - ثم طبعت اسم «روبي ريدج» على المتصفح. استنادًا إلى موسوعة ويكيبيديا، فإن روبي ريدج مكان جرت فيه مواجهة دامية بين شخص يدعى راندي ويفر وبين عدة وكالات إتحادية، بما فيها وكالة مارشال لإنفاذ القانون ومكتب التحقيقات الفدرالي.

لم يكن اسم راندي ويفر غريبًا عليّ. عندما قرأته سمعته يسقط من بين شفتي أبي. ثمّ عادت القصّة تجول في رأسي كما عاشت في مخيلتي طوال ثلاث عشرة سنة: إطلاق نار على صبي، ثمّ على أبيه، ثمّ على أمّه. لقد قتلت الحكومة الأسرة كلّها: الأب والأم والأطفال، للتغطية على ما فعلوه.

تجاوزتُ القصة الدرامية ورحت اقرأ في أول إطلاق النار. فقد حاصرت الشرطة الاتحادية بيت أسرة ويفر. كانت الشرطة الاتحادية تراقب البيت فقط، ولم تكن أفراد أسرة ويفر يعرفون أن الشرطة الاتحادية تراقبهم حتى بدأ كلب ينبج، فظنّ سامي، ابن راندي ذو الأربعة عشر ربيعًا، أن الكلب استشعر وجود حيوان بري، فخرج من البيت وتوجه إلى الغابة. أطلقت الشرطة الاتحادية النار على الكلب وقتلوه، فردّ سامي الذي كان يحمل بندقية وأطلق عليهم النار. وكانت حصيلة ذلك قتيلين: فرد من الشرطة الاتحادية وسامي الذي كان قد بدأ يجري صاعدًا التلّ ليعود إلى البيت فأصيب بطلقة في ظهره.

واصلتُ القراءة. في اليوم التالي قُتل راندي ويفر بعد أن أصيب في ظهره أيضًا عندما كان يحاول أن يبحث عن جثة ابنه. كانت الجثة في الكوخ، وبينما كان راندي يرفع المزلاج ليفتح الباب، استهدفه قنّاص في عموده

الفقري، لكنه لم يُصب. عندما جرت زوجته فيكي نحو الباب لتساعد زوجها، أطلق القنّاص النار عليها وأصابها في رأسها، فقتلت على الفور وكانت تحمل بين ذراعيها ابنتهما البالغة من العمر عشرة أشهر.

ظلت الأسرة قابعة في البيت تسعة أيام مع جثة الأم، حتى تمكّن المفاوضون أخيرًا من إنهاء هذه المواجهة واعتقل راندي ويفر.

قرأتُ السطر الأخير هذا مرات كثيرة قبل أن أفهمه جيدًا. إذًا لم يمت راندي ويفر؟ هل كان أبي يعرف ذلك؟

تابعتُ القراءة. كانت أمي غاضبة. ظهرت مقالات في جميع الصحف الرئيسية تقريبًا تدين بشدة استخفاف الحكومة بحياة الناس، وفتحت وزارة العدل تحقيقًا في الموضوع، وعقد مجلس الشيوخ عدة جلسات، ثم أوصيا كلاهما بضرورة إجراء إصلاحات على قواعد الاشتباك، لاسيما فيما يتعلق باستخدام القوة المميتة.

أقامت أسرة ويفر دعوى بالقتل الخطأ والحصول على تعويض قدره ٢٠٠ مليون دولار لكن القضية سُويت عندما قدمت الحكومة لكل ابنة من بنات فيكي الثلاث مليون دولار، ومُنح راندي ويفر ١٠٠,٠٠٠ دولار مع جميع النفقات، وأعفي من نفقات المثل أمام المحكمة مرتين، وأجرت وكالات الأنباء الرئيسية مقابلات مع راندي ويفر حتى أنه شارك ابنته في تأليف كتاب، وهو يكسب رزقه الآن من المشاركة في برامج الحدّ من السلاح.

لو كان ذلك تسترًا على ما جرى، فإنه أمر سيئ للغاية، لكن كانت هناك تغطية إعلامية وتحقيقات رسمية ومراقبة. ألا يُعتبر ذلك معيارًا من معايير الديمقراطية؟

كان هناك شيء واحد ما زلت لم أفهمه: لماذا حاصرت الشرطة الاتحادية بيت راندي ويفر في المقام الأول؟ لماذا كان راندي مستهدفًا؟ تذكرتُ أبي يقول كان من السهل أن نكون نحن المستهدفين. كان أبي يقول دائمًا إنه سيأتي يوم ستلاحق فيه الحكومة الأشخاص الذين يقاومون ما تقوم به من غسل دماغ، الذين لم يضعوا أطفالهم في المدرسة. طوال ثلاث عشرة سنة،

كنت أظن أن هذا هو سبب ملاحقة الحكومة لراندي: لإرغامه على أن يرسل أبنائه إلى المدرسة.

عدت إلى أعلى الصفحة وأعدت قراءة المقالة كلها، لكنني لم أتجاوز هذه المرة خلفية القصة. فاستنادًا إلى جميع المصادر، بما فيها راندي ويفر نفسه، بدأ النزاع عندما باع راندي بندقيتين إلى شرطي سريّ التقى به في اجتماع عقدته المجموعة اليمينية المتطرفة «أريان نايشنز». قرأت هذه الجملة أكثر من مرة، مرات كثيرة في الواقع. ثمّ فهمت أن هيمنة العرق الأبيض هو جوهر هذه القصة، وليست المدرسة، وبدا لي أنه ليس من عادة الحكومة أن تقتل أشخاصًا لأنهم لم يرسلوا أبنائهم إلى المدرسة. أصبح ذلك جليًا لي الآن، كان من الصعب أن أفهم لماذا كنت أصدّق أي شيء آخر.

للحظة مرّة، قلت لنفسني إن أبي كذب علينا. ثمّ تذكرت الخوف المرتسم على وجهه، تنفّسه الثقيل، وتأكدت أنّه كان يعتقد حقًا بأننا معرضون للخطر. تذكرت تفسيرًا وبعض الكلمات الغريبة، كلمات تعلّمتها منذ دقائق فقط: الذعر، الهوس، الأوهام بالعظمة والاضطهاد. وأخيرًا أصبح هناك مغزى للقصة - القصة التي قرأتها على الصفحة، والقصة التي عاشت فيّ طوال فترة الطفولة. لا بد أن أبي قرأ عن روبي ريدج أو شاهدها في نشرات الأخبار، وسكنت في دماغه المحموم، فلم تعد قصة عن شخص آخر وإنما أصبحت قصة عنه. فإذا كانت الحكومة تطارد راندي ويفر، فلا بد أن تطارد جين ويستوفر الذي كان يتصدر الخطّ الأمامي في الحرب على المستنيرين منذ سنوات. ولم يعد يرضى بالقراءة عن بطولات الآخرين، وإنما صنع لنفسه خوذة وامتنى فرسًا.

أصبح لديّ هوس بدراسة الاضطراب ثنائي القطب. طُلب منّا أن نكتب ورقة بحث في فصل علم النفس فاخترته موضوعًا لي، ثمّ استخدمت هذا البحث حجة لأسأل كلّ عالم أعصاب واختصاصي في علم الأعصاب الإدراكي في الجامعة. وصفت لهم أعراض أبي، ولم أقل لهم إنه أبي، وإنما عمّ اختلقته. لقد انطبقت عليه بعض الأعراض تمامًا، ولم ينطبق بعضها الآخر. قال لي هؤلاء الأساتذة إنّ كلّ حالة تختلف عن الحالة الأخرى.

«ما تصفينه هو أقرب إلى الفصام (الشيزوفرينيا)»، قال أحدهم، «هل حصل عمّك على أي علاج؟»

«لا»، قلت، «إنه يقول إن الأطباء جزء من المؤامرة الحكومية».

«هذا يعقّد الأمور»، قال.

كتبْتُ بحثي بدقّة كبيرة حول تأثير الآباء المصابين باضطراب ثنائي القطب على أطفالهم. كان بحثًا اتهاميًا، عنيّفًا. كتبْتُ أن أطفال الآباء المصابين باضطراب ثنائي القطب يتعرضون لعوامل خطر مزدوجة: الأول، لأنه يكون لديهم استعداد وراثي للاضطرابات في المزاج، والثاني، البيئة المشحونة بالتوتر والرعاية الأبوية السيئة للآباء المصابين بهذه الاضطرابات.

درستُ في الفصل شيئًا عن الناقلات العصبية وتأثيرها على كيمياء الدماغ، وفهمت أنّ المرض ليس اختياريًا. لعل هذه المعرفة ستجعلني أتعاطف مع أبي، لكنّها لم تجعلني أفعل ذلك. تملّكني شعور بالغضب لأننا نحن الذين دفعنا الثمن، قلتُ في نفسي: أمّي، لوك، شون. لقد شوّهنا جميعًا وأصبنا بجروح بليغة، وأُحرقت سيقاننا، وشُجّت رؤوسنا. عشنا في حالة مستمرة من الحذر، في نوع من الرعب المتواصل، وكانت أدمغتنا تفيض بهرمون الكورتيزول لأننا كنا نعرف أنّ أيًا من تلك الأشياء قد تحدث في أيّ لحظة، لأنّ أبي كان يضع دائمًا الإيمان قبل سلامتنا، لأنه يعتقد بأنه على حقّ - بعد حادث السيارة الأول، وبعد الحادث الثاني، وبعد الرافعة، والحريق، والسقالة. نحن الذين دفعنا الثمن.

في عطلة نهاية الأسبوع بعد أن قدّمت ورقتي ذهبت إلى جبل بيكس باك. لم يمض على وصولي إلى البيت أقل من ساعة حتى دخلت أنا وأبي في جدال. قال إني مدينة له بثمن السيارة. عندما ذكر ذلك طار صوابي. لأول مرة في حياتي أصرخ في وجه أب - لا من أجل السيارة، وإنما من أجل أسرة ويفر. كاد الغضب يخنقني، ولم تخرج كلماتي من فمي ككلمات وإنما مثل نشيج مخنوق. لماذا أنت هكذا؟ لماذا زرعت في نفوسنا الرعب هكذا؟ لماذا حاربت بعنف وحوشًا مختلفين، لكنك لم تفعل شيئًا لحماية الوحوش الذين يعيشون في بيتك؟

فغر أبي فاه مذهولاً. تهدّل فمه وتدّلت ذراعاه على جانبيه، تنتفضان، كما لو كان يريد أن يرفعهما، يفعل شيئاً. لم أره يبدو عاجزاً قط منذ أن جثم بجانب سيارة الستايشن المحطّمة، يراقب وجه أمّي المتورم، المنتفخ، غير قادر حتى على لمسها لأن الكابلات التي تسري فيها الكهرباء كانت ترسل نبضات عبر المعدن.

بدافع الخجل أو الغضب، هربتُ. قدتُ سيارتي بدون توقف إلى الجامعة. اتصل بي أبي بعد عدة ساعات. لم أردّ. الصراخ في وجهه لن يجدي نفعاً. ربما كان تجاهله مفيداً.

عندما انتهى الفصل الدراسي، بقيت في يوتا. كان أول فصل صيف لا أعود فيه إلى البيت. لم أكلم أبي، حتى على الهاتف. لم أخطط لهذا الجفاء: فقط لم أشأ أن أراه، أو أسمع صوته، فلم أتصل به. ***

قرّرت أن أجرب الحياة الطبيعية. فقد عشت طوال تسع عشرة سنة بالطريقة التي أرادها أبي. وسأجرب الآن شيئاً آخر.

انتقلتُ إلى شقّة جديدة على الجانب الآخر من البلدة حيث لا يعرفني أحد. أردت بداية جديدة. في الأسبوع الأول في الكنيسة، حيّاني أسقفي الجديد بمصافحة دافئة، ثمّ انتقل إلى القادم الجديد. أعجبت بلا مبالاته. كم أتمنى أن أستطيع أن أتظاهر بأنني طبيعية حتى لفترة قصيرة، فقد تبدو كأنها الحقيقة.

في الكنيسة التقيتُ بشاب يدعى نيك. كان نيك يضع نظارات مرّبة شعره أسود، يدهنه بهلام الشعر ويرفعه في شكل أشواك أنيقة. كان أبي سيسخر من رجل يدهن شعره بهلام شعر، وربما لهذا السبب أحببته، وأحببت أيضاً أن نيك لا يعرف شيئاً عن المولدات الكهربائية أو ناقلات الحركة. بل إن كلّ ما يعرفه هو الكتب وألعاب الفيديو وماركات الثياب. والكلمات، فقد كان يمتلك مخزوناً من المفردات المدهشة.

أصبحنا أنا ونيك صديقين منذ البداية. أمسك يدي في ثاني لقاء لنا. عندما لمس جلده جلدي، تهيأت لمحاربة هذه الحاجة الأساسية وأدفعه جانباً، لكنّي لم أفعل. كان ذلك شيئاً غريباً ومثيراً، ولم يشأ جزء منّي أن ينتهي. تمّنت

أُتني لا أزال أُنتمي إلى مجموعتي القديمة، وأركض إلى أسقفي العجوز وأقول له إنني لن أُنسر بعد الآن.

بالغث في تقدير تقدّمي. فقد ركّزت كثيرًا على ما يجري، ولم ألاحظ الشيء الذي لم يكن يجري. ظللنا معًا بضعة أشهر، وأمضيت أمسيات عديدة مع أسرته، قبل أن أفوه خلالها بكلمة عني. فعلت ذلك بدون تفكير، وذكرت عرضًا أحد الزيوت التي تحضّرها أمّي عندما قال نيك إن كتفه يؤلمه. أعجب بذلك - وراح ينتظرني لأحضره له لكنني غضبت من نفسي لرّلة اللسان هذه، ولم أدعها تحدث ثانية.

في حوالي نهاية شهر أيار (مايو) بدأت أشعر بأنني مريضة. مرّ أسبوع لم أكد أستطيع أن أجرّ فيه نفسي إلى العمل، فترة تدريب في شركة حمامة. كنت أنام في وقت مبكر من المساء حتى وقت متأخر من الصباح، ثمّ أُنثاءب طوال النهار. وبدأت حنجرتي تؤلمني وبدأ صوتي يخفت، يصبح خشنًا مثل خششة عميقة، كما لو أنّ حبالتي الصوتية أصبحت مثل ورق الصقل.

في البداية كان نيك مسرورًا لأنني لم أر طبيبًا، لكن مع تقدم المرض تحوّل سروره إلى قلق، ثمّ إلى اضطراب. كنت أطمئنّه، وأقول: «إنه ليس خطيرًا. لو كان خطيرًا لذهبت».

مرّ أسبوع آخر. تركت فترة التدريب وبدأت أنام في النهار بالإضافة إلى الليل. وفي صباح أحد الأيام، جاء نيك فجأة.

«سنذهب إلى الطبيب»، قال.

قلت له إنني لن أذهب، لكنني رأيت وجهه بعد ذلك. كان يبدو أن لديه سؤالاً لكنه كان يعرف أن لا جدوى من سؤاله. الخطّ المتوتر عند فمه، تضيق عينيه. هكذا تبدو عدم الثقة والريبة، قلت في نفسي.

واقعة بين الاختيار بين رؤية طبيب اشتراكي شرير، والاعتراف لصديقي بأنني أعتقد أن الأطباء اشتراكيون أشرار، اخترت رؤية الطبيب.

«سأذهب اليوم»، قلت، «أعدك. لكنني أفصّل أن أذهب وحدي».

«حسنًا»، قال.

ذهب، لكن أصبحت لديّ الآن مشكلة أخرى. فلم أكن أعرف كيف أذهب إلى طبيب. اتصلت بصديقة من صَفِّي وسألتها إن كان بإمكانها أن توصلني إلى العيادة. جاءت وأخذتني بعد ساعة، ورحت أراقبها، مرتبكة، وهي تقود السيارة إلى المستشفى الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن شَقَّتِي. أخذتني إلى مبنى صغير يقع إلى شمال الحرم الجامعي وقالت إنه «عيادة». حاولت أن أتظاهر بأنني لست مبالية، أتصرف كما لو كنت قد فعلت ذلك من قبل، لكن عندما اجتزنا باحة وقوف السيارات انتابني شعور بأن أمِّي تراقبني.

لم أكن أعرف ما الذي يجب أن أقوله لموظفة الاستقبال. عزت صديقتي صمتي إلى حنجرتي وشرحت لها أعراضي. طُلب منا أن ننتظر. في النهاية، قادتني ممرضة إلى غرفة بيضاء صغيرة حيث وزنتني، وقاست ضغط دمي، ومسحت لساني. ثم قالت إن التهابات الحنجرة الحادّة هذه تسببها عادة البكتيريا العقدية أو فيروس أحادي. سيعرفون ذلك بعد بضعة أيام.

عندما وصلت النتيجة، ذهبت إلى العيادة وحدي. أعطاني طبيب أصلع في متوسط العمر نتيجة الاختبار، وقال: «تهانِيَّ. تبين أنك مصابة بكلا الفيروسين. أنت الشخص الوحيد الذي أراه خلال شهر مصاب بكلا الفيروسين».

«كلا الفيروسين؟» همست، «كيف يمكنني أن أصاب بكليهما؟»

«حظّ سيئ جدًّا، جدًّا»، قال، «يمكنني أن أصف لك بنسولين للبكتيريا العقدية، لكن لا يمكنني أن أفعل الكثير من أجل القضاء على الفيروس الأحادي، وعليك أن تنتظري حتى تشفين منه. وعندما تشفين من البكتيريا العقدية، ستشعرين بالتحسّن.»

طلب الطبيب من الممرضة أن تجلب حبوب البنسلين، ثم قال: «يجب أن نبدأ بإعطائك مضادات حيوية على الفور». وضعت الحبوب في راحة يدي وتذكّرت مساء اليوم الذي أعطاني فيه تشارلز الحبوب المسكنة «إيبوبروفين». تذكّرت أمِّي، وتذكّرت المرات الكثيرة عندما كانت تقول لي إن المضادات الحيوية تسمّم الجسم، وأنها تسبّب العقم وتشوهات في الولادة. وأن روح الرب لا يمكن أن تدخل إلى وعاء غير نظيف، وأنه لا يوجد

وعاء نظيف عندما يتخلّى المرء عن الله ويعتمد على البشر. أو ربما أبي قال هذه العبارة الأخيرة.

ابتلعت الحبوب. ربما كان ذلك بدافع اليأس لأنني كنت أبدو في حالة سيئة جدًّا، لكنني أظن أن السبب دنيوي أكثر: حب الفضول. فها أنا ذا، في قلب المؤسسة الطبية، وأردت أن أرى، أخيرًا، ما هو ذلك الشيء الذي ظللت خائفة منه طوال الوقت. هل سيسيل الدم من عيني؟ هل سيسقط لساني؟ من المؤكد أن شيئًا سيئًا سيحدث. كنت أريد أن أعرف ما هو.

عدت إلى شقّتي واتصلت بأُمّي. قلت لنفسي إن الاعتراف سيخفّف من حدّة ذنبي. قلت لها إنني زرت الطبيب، وأُتني مصابة بالبكتيريا العقدية والفيروس الأحادي. وقلت لها: «إنني أتناول حبوب البنسلين الآن، فقط أردت أن أخبرك».

بدأت تتكلّم بسرعة لكّني لم أسمع معظم ما قالت، فقد كنت منهكة. عندما بدا أنها بدأت تنهي كلامها، قلت لها، «أحبّك»، وأغلقت الخط. بعد يومين وصلني طرد سريع من أياداهو توجد في داخله ستّ قناني من صبغة الأعشاب، وقنيتان من الزيوت الأساسية، وكيس من الطين الأبيض. عرفت الصيغ - فقد كانت الزيوت وصبغات الأعشاب لتقوية الكبد والكلّى، والطين لنقع القدمين لسحب السموم من جسمي - وفي الطرد رسالة من أُمّي تقول: هذه الأعشاب ستغسل المضادات الحيوية من جسدك. أرجوك استعملها بقدر ما تصرّين على تناول الأدوية. أحبّك.

استندتُ إلى وسادتي وغططت في النوم على الفور تقريبًا، لكن قبل أن أغطّ في النوم، ضحكت بصوت عالٍ. فهي لم ترسل لي شيئًا للقضاء على البكتيريا العقدية والفيروس الأحادي. وإنما أرسلت علاجًا للبنسلين فقط.

استيقظت في صباح اليوم التالي على رنين هاتفي. كانت أودري. قالت: «لقد وقع حادث».

نقلتني كلماتها إلى لحظة أخرى، إلى آخر مرة أجبت فيه على الهاتف لأسمع هذه الكلمات بدلًا من أسمع تحية. تذكّرت ذلك اليوم، ما الذي قالته أُمّي بعد ذلك. كنت أتمنّى أن تكون أودري تقرأ من سيناريو مختلف.

«بابا»، قالت، «إذا أسرعِ - تعالى فورًا - يمكنك أن تودعيه».

الفصل ٢٥

مفعول الكبريت

هناك قصّة حُكِيت لي عندما كنتُ صغيرة، حُكِيت لي مرات كثيرة، وبما أنني كنت صغيرة جدًّا، فإنني لا أتذكّر من هو الشخص الذي حكاها لي أولًا. كانت القصّة عن جدّي الذي يسكن أسفل التلّ وعن سبب الندبة الموجودة على صدغه الأيمن.

عندما كان جدّي شابًا، كان يمضي أيام الصيف الحارة على الجبل، ممتطيًا الفرس البيضاء التي كان يستخدمها لرعي البقر. كانت فرسًا طويلة، أصبحت هادئة عندما تقدمت في العمر. كانت أمّي تقول إن الفرس راسخة مثل صخرة، ولم يكن جدّي يبالي كثيرًا عندما كان يمتطيها، فيرخي الزمام المعقودة على يده إذا احتاج إلى ذلك، ربّما ليقطع شوكة علقّت في حذائه أو ليرفع قبعته الحمراء ويجفف العرق من وجهه بكم قميصه. عندما كان يفعل ذلك، كانت الفرس تقف في مكانها لا تتحرك. لكن بقدر ما كانت هادئة، كانت تخاف من الأفاعي. «لا بد أنها رأت شيئًا يتسلل بين الأعشاب»، كانت أمّي تقول عندما تحكي القصّة، «لأنها ألقت بجدّي من فوق ظهرها». كانت وراءه مذراة قديمة، فطار جدّي وسقط عليها فأحدثت تلك الندبة على جبينه.

كان الشيء الذي كسر جمجمة جدّي يتغيّر مع كل رواية للقصّة. ففي بعض الروايات فهي مذراة، وفي روايات أخرى صخرة. لا أظنّ أن أحدًا يعرف بالتحديد ما هو ذلك الشيء، فلم ير أحد ما الذي حدث وغاب جدّي عن وعيه بسبب تلك الضربة، ولم يتذكّر ما حدث حتى وجدته جدتي مستلقيًا أمام الباب غارقًا في الدم حتى حذائه.

لا يعرف أحد كيف وصل إلى البيت.

تبلغ المسافة بين المرعى والبيت حوالي ميل - أرض صخرية تكسوها تلال حادّة لا ترحم، لم يكن بإمكان جدّي أن يقطعها وهو في تلك الحالة. لكنه كان هناك. عندما سمعت جدّتي خربشة خفيفة على الباب، فتحتة ورأت جدّي

مكومًا على نفسه، الدم يسيل من رأسه. فنقلته إلى البلدة بسرعة ووضعوا له صفيحة معدنية.

بعد أن عاد جدِّي إلى البيت وبدأ يتمائل إلى الشفاء، ذهبت جدتي تبحث عن الفرس البيضاء. جابت أنحاء الجبل ثم وجدتُها مربوطة إلى السياج وراء الحظيرة، مربوطة بعقدة معقدة لا يستخدمها أحد إلا أبوها، لوت.

عندما أزور بيت جدتي أحيانًا وأتناول رقائق الذرة والحليب التي حرَّم أبي تناولها في بيتنا، كنت أطلب من جدِّي أن يحكي لي كيف هبط من الجبل. كان يقول دائمًا إنَّه لا يعرف، ثمَّ يأخذ نفسًا عميقًا - طويلًا وبطيئًا، كأنه يريد أن يصبح في مزاج معين ثم يبدأ يحكي القصة كلها من بدايتها حتى نهايتها. كان جدِّي رجلًا هادئًا، أقرب إلى أن يكون رجلًا صامتًا. ويمكنك أن تمضي معه بعد الظهر كله في الحقول ولا تسمع منه عشر كلمات مترابطة. فلا تسمع إلا كلمة «نعم» و«ليس هذا» و«أظن ذلك».

أما إذا سأله كيف نزل من الجبل في ذلك اليوم، فلن يتوقف عن الكلام طوال عشر دقائق، مع أن كلَّ ما يتذكَّره أنه كان مستلقيًا في الحقل، غير قادر على أن يفتح عينيه، بينما جففت الشمس الحارة الدم على وجهه.

«لكني أقول لك هذا»، كان جدِّي يقول، يخلع قبعته ويمرر أصابعه فوق الندبة على جمجمته. «سمعت أشياء عندما كنت مستلقيًا بين الأعشاب. أصوات، كانت تتكلَّم. ميَّزت أحد تلك الأصوات، كان صوت جدِّي لوت. كان يقول لشخص آخر إن ابن ألبرت في محنة. كان لوت يقول إنني أعرف ذلك كما أعرف أنني واقف هنا». كانت عينا جدِّي تلمعان قليلًا، ثمَّ يقول، «الشيء المؤكد هو أن لوت مات منذ حوالي عشر سنوات».

كان هذا الجزء من القصة يجلب الكثير من الوجل، وكانت أمِّي وجدتي تحبَّان رواية هذه القصة، لكنني كنت أحبُّ حكاية أمِّي أكثر، لأن صوتها كان يخفت في اللحظات المناسبة. إنها ملائكة، كانت تقول، وتطفر دمعة صغيرة من عينها. لقد أرسلها جدُّك لوت، وحملت جدُّك إلى أسفل الجبل.

لم تكن الندبة قبيحة، حفرة لا يزيد عمقها على بوصتين في جبهته، عندما كنت أنظر إليها عندما كنت طفلة، كنت أتخيَّل أحيانًا طبيبًا طويل القامة يرتدي

معطفاً أبيض يضرب بمطرقة على صفيحة معدنية. في مخيلتي، كان الطبيب يستخدم نفس صفائح القصدير المتموجة التي يستخدمها أبي في سقف حظائر التبن.

كنت أتخيل ذلك أحياناً لأنني كنت أرى عادة شيئاً آخر. دليل على أن أسلافي ساروا فوق تلك القمة، والملائكة تراقبهم وتنتظر أن تتلقى تعليماتهم وأوامرهم.

لا أعرف لماذا كان أبي وحده على الجبل في ذلك اليوم.

كانت كسارة السيارات قادمة. أظن أنه كان يريد أن يزيل خزان الوقود الأخير ذاك، لكنني لا أستطيع أن أتخيل ما الذي جعله يشعل الحمالج من دون أن يُفرغ خزان البنزين في السيارة أولاً. لا أعرف إلى أي مدى ذهب، كم خزاناً أزال قبل أن تنطلق تلك الشرارة وتصل إلى داخل الخزان. لكنني أعرف أن أبي كان واقفاً بجانب تلك السيارة، يضغط جسمه على هيكل السيارة، عندما انفجر الخزان.

كان يرتدي قميصاً بأكمام طويلة، ويضع قفازات جلدية وواقي لحام. تلقى وجهه وأصابعه وطأة الانفجار. فأذابت حرارة الانفجار واقي اللحام الذي كان يحمي وجهه كأنه ملعقة بلاستيكية. فذاب الجزء الأسفل من وجهه: فالتهمت النار البلاستيك، ثم الجلد، ثم العضلة. وحدث الشيء نفسه في أصابعه - فلم تصمد القفازات الجلدية أمام الجحيم الذي عبرها ثم اخترقها - ثم لعقت ألسنة اللهب كتفيه وصدره. وعندما زحف مبتعداً عن الحطام المشتعل، أتخيل أنه كان أشبه بجثة أكثر مما كان يبدو أنه رجل حي.

لم أكن أتخيل أنه سيكون قادراً على أن يتحرك، ناهيك عن أن يزحف مسافة ربع ميل في الحقول وفوق الخنادق. وإذا كان هناك رجل يحتاج إلى ملائكة، فإنه هذا الرجل. لكن بشكل مناف للمنطق نجا - وكما نجا أبوه منذ سنوات - مكوِّماً خارج باب بيته، لا يستطيع حتى أن يقرع الباب.

في ذلك اليوم، كانت ابنة خالتي كايلي تساعد أمي في تعبئة قوارير الزيت. كانت نساء أخريات يعملن بجانبهما، يقمن بوزن أوراق النباتات المجففة أو عصر الصبغات. سمعت كايلي نقرة خفيفة على الباب الخلفي،

كما لو أنَّ أحدًا يقرعه بمرفقه. فتحت الباب لكنها لا تتذكر ما الذي رآته في الجانب الآخر. «كان محجوبًا عن رؤيتي»، قالت لي لاحقًا، «لا أستطيع أن أتذكر ما الذي رأيته. لا أتذكر إلا ما أتذكره، وهو أنه بلا جلد».

حمّل أبي إلى الأريكة. صُبَّ علاج الإنقاذ - الطب البديل لعلاج الصدمة - في ذلك التجويف الذي كان فمه والذي أصبح بلا شفيتين. أعطته أمّي زهرة اللوبيليا والاسقوتلارية لتخفيف الألم، نفس الخلطة التي أعطتها للوك قبل سنوات. كاد أبي أن يختنق بالدواء. لم يستطع أن يتلعه لأنه استنشق الانفجار الناري، وتفحّمت أعضاؤه الداخلية.

حاولت أمّي أن تنقله إلى المستشفى، لكن بين أنفاسه المتقطعة همس بأنه يفضل أن يموت على أن يرى طبيبًا. كانت سلطة الرجل قوية فاستسلمت.

قشّرت أمّي الجلد الميت بلطف ودهنته بالمرهم - نفس المرهم الذي استخدمته في علاج ساق لوك منذ سنوات - من خصره حتى رأسه، ثم ضمّدت. وأعطته أمّي قطعًا من الثلج ليمصّها، لإمهاة جسمه، لكن الحرق داخل فمه وحجرته كان شديدًا، فلم يتشرّب أي سائل، ومن دون شفيتين أو عضلات لم يستطع أن يضع الثلج في فمه. فكان سينزل إلى حجرته فيخنقه.

كادوا يفقدونه عدة مرات في الليلة الأولى تلك. فقد بدأ تنفّسه يتباطأ، ثم كاد يتوقّف، فكانت أمّي - والنساء السماويات اللاتي كنّ يساعدها - يركضن من حوله، يعدّلن نقاط الشاكرا، وينقرن فوق نقاط الضغط. كنّ يفعلن أيّ شيء حتى تعود الخشخشة إلى رثتيه الهشّتين.

في صباح اليوم الذي اتصلت فيه أودري بي^[7]. وقالت إن قلبه توقّف مرّتين في الليل. ربما كان قلبه هو الذي سيودي بحياته، هذا إذا لم تتوقف رثاه أولًا. وفي جميع الأحوال، كانت أودري متيقنة من أنه سيموت في منتصف النهار.

اتصلتُ بنيك. قلت له إنني يجب أن أذهب إلى أياداهو لبضعة أيام لأسباب عائلية، وأكدت له أنه لا يوجد شيء خطير. كان يعرف أنني لن أخبره شيئًا -

كان باستطاعتي أن أسمع الألم في صوته بأنني لا أثق به - لكنني نسيتُه عندما أغلقت الهاتف.

وقفت، مفاتيحي بيد، ومقبض الباب باليد الأخرى، تردّدت. التهاب الحلق العقدي. ماذا لو نقلته إلى أبي؟ كنت أتناول حبوب البنسلين منذ ثلاثة أيام تقريبًا. قال لي الطبيب إنني لن أنقل العدوى بعد أربع وعشرين ساعة، لكنه في جميع الأحوال طيب، وأنا لا أثق به.

انتظرت يومًا آخر. تناولت عدة جرعات من البنسلين التي وصفها لي الطبيب، ثم اتصلت بأُمِّي وسألتها ما الذي يجب أن أفعله.

«يجب أن تأتي إلى البيت فورًا»، قالت. كان صوتها مكسورًا.

«لا أظن أن الالتهاب سيؤثر غدًا».

لا أتذكّر المشهد الطبيعي خلال رحلتي. لم تكد عيناى تريان حقول البطاطا والذرة، أو التلال القائمة التي تغطيها أشجار الصنوبر، وكان كلّ ما أراه أبي، كما رأيته آخر مرة، تلك التعابير المتجهمّة. تذكّرت ارتفاع صوتي عندما صحت به.

مثل كايلي، لا أتذكّر ما الذي رأيته عندما نظرت إلى أبي. أعرف أنه عندما أزالّت أُمِّي الشاش صباح ذلك اليوم، رأيت أذنيه محروقتين بشدة، وكان الجلد شديد اللزوجة، وقد التصقتا بالنسيج السائل خلفهما. عندما دخلت من الباب الخلفي، كان أول شيء رأيته هو أُمِّي وبيدها سكين تبعد به أذني أبي عن جمجمته. لا أزال أتصوّرُها وهي تمسك السكين، عيناها مثبّتتان، مركّزتان، لكن أين هو أبي، يوجد ثقب في ذاكرتي.

كانت الرائحة في الغرفة قويّة - رائحة لحم متفحّم، ورائحة نباتات الكومفري والمولين والبلانتين. أخذت أراقب أُمِّي وأودري وهما تغيران ضماداته. بدأتا بيديه. كانت أصابعه لزجة، يغطيها نيز شاحب كان جلدًا مذاّبًا أو قيحًا. لم تحترق ذراعاه أو كتفه أو ظهره، لكن قطعة شاش سميكة كانت تغطي بطنه وصدره. عندما أزالتا الشاش، رأيت رقعة كبيرة من الجلد. كانت

هناك ثقبوب قليلة لا بد أن النار تركّزت فيها، تنبعث منها رائحة لاذعة، مثل رائحة لحم بدأ يتعفّن، مليئة ببرك بيضاء.

لكنّ وجهه هو الذي زارني في حلمي في تلك الليلة. كان لا يزال لديه جبين وأنف. كان الجلد حول عينيه وأسفل خديه وردّيًا، معافى، أما تحت أنفه، فلم يكن يوجد شيء في المكان الذي يجب أن يوجد فيه. كان أحمر، مشوّهاً، متهدّلاً، بدا مثل قناع مسرحية بلاستيكي وضع بجانب شمعة تحترق.

لم يستطع أبي ابتلاع أي شيء - سواء أكان طعامًا أم ماء - حوالى ثلاثة أيام. اتصلت أمّي بمستشفى في يوتا ورجتهم أن يرسلوا إليها حقنًا عن طريق الوريد. قالت لهم: «إني أحتاج إليها لأنه يحتاج إلى ماء. إنه سيموت إذا لم يحصل على ماء». فقال لها الطبيب إنه سيرسل طائرة مروحية على الفور، فرفضت أمّي، فقال لها الطبيب، «إدّا لا أستطيع أن أساعدك. إنك ستقتلينه ولن أشاركك في ذلك».

كانت أمّي في حالة شديدة من اليأس. وفي تصرّف مستमित أخير، أعطت أبي حقنة شرجية، ودفعت الأنبوب بقدر ما جرّوت على دفعه، في محاولة منها لأن تُدخل قدرًا كافيًا من السائل في مستقيمته لكي لا يموت. لم تكن لديها أدنى فكرة إن كان ذلك سيكون مفيدًا - هذا إذا كان قد بقي عضو في ذلك الجزء من الجسم يستطيع أن يمتص الماء - لكنّها كانت الفتحة الوحيدة التي لم تحترق.

في تلك الليلة، نمّْتُ على أرضية غرفة الجلوس حتى أكون موجودة، في الغرفة، عندما نفقده. استيقظت عدّة مرات على صوت لهاث وحركات وهمهمات بأنه لم يعد يتنفس.

قبل ساعة من طلوع الفجر، لم يعد يتنفس. كنت متيقنة من أنها النهاية: لقد مات ولن ينهض ثانية. وضعت يدي على رقعة صغيرة من الضماد بينما اندفعت أودري وأمّي من حولي، تدمدمان وتنقران. لم تكن الغرفة في سلام، أو ربما لم أكن أنا في سلام. فقد كنت أنا وأبي في صراع منذ سنوات، حرب كسر إرادات لا تنتهي. خيّل إليّ أنني قبلتها، قبلت علاقتنا كما كانت. لكن في

تلك اللحظة، أدركت أنني أتمنى أن ينتهي هذا الصراع بيننا، وآمل بمستقبل نكون فيه أب وابنة يعيشان في سلام معًا.

أخذت أراقب صدره. رحت أصلي حتى يتنفس، لكنه لم يتنفس. ثم مرّ وقت طويل. كنت على وشك أن أبتعد، أن أترك أمي وأختي تودعانه، عندما سعل - سعلة خشنة بدت مثل ورقة خشنة تُجعد. ثم، مثل أليعازر، بُعث إلى الحياة، وبدأ صدره يعلو ويهبط.

قلت لأمي إنني سأغادر. قلت لها من الممكن أن يعيش أبي، وإذا عاش، فإنني لا أريد أن تقتله العدو بالتهاب الحلق العقدي.

توقّف عمل أمي. ولم تعد النساء اللاتي يعملن معها يقمن بإعداد الصبغات وتعبئة الزيوت، وإنما بدأن يصنعن مراهم - وصفا جديدة من أعشاب كومفري وزهرة اللوبيليا والبلاتين التي أعدتها أمي خصيصًا لأبي - كانت أمي تدهن المرهم في الجزء العلوي من جسد أبي مرّتين في اليوم - لا أذكر ما هي العلاجات الأخرى التي استخدمتها، ولا أعرف شيئًا عن علاج الطاقة الذي استخدمته لأتكلم عنها. أعرف أنها استخدمت سبعة عشر غاليونًا من المرهم في الأسبوعين الأولين فقط، وأن أمي كانت تطلب كميات كبيرة من الشاش.

وصل تايلر بالطائرة من بوردوا. وأخذ مكان أمي في تغيير الضمادات على أصابع أبي صباح كلّ يوم، يكشط طبقات الجلد والعضلة التي تكون قد تقرّحت خلال الليل. لم تكن هذه العملية مؤلمة لأن الأعصاب ميتة. قال لي تايلر: «لقد كشطت طبقات كثيرة من الجلد، وأنا متأكد من أنني سأصل إلى العظم قريبًا».

بدأت أصابع أبي تتقوّس، تنحني بشكل غير طبيعي إلى الخلف عند المفصل لأن أوتار العضلة بدأت تنكمش وتتقلّص. حاول تايلر أن يحني أصابع أبي لكي يطيل أوتار العضلة وحتى لا يصبح التشوه دائمًا، لكن أبي لم يكن يحتمل الألم.

عندما تأكدت بأنني شفيت تمامًا من التهاب الحلق، عدت إلى البيت. جلست بجانب سرير أبي، ورحت أقطر قطرات من الماء في فمه بقطارة

طبية، وأطعمه خضارًا مهروسة كأنه طفل. نادرًا ما كان يتكلّم. وكان يصعب عليه أن يركّز من شدّة الألم، فقلما كان يستطيع أن يكوّن جملة قبل أن ينساها عقله. اقترحت عليه أمّي شراء مستحضرات دوائية، أقوى مسكّنات متوفرة، لكنّه رفض. هذا ألم الرب، كان يقول، ويجب أن يشعر بكلّ جزء منه. عندما خرجت من البيت، ذهبت إلى جميع محلات الفيديو على مسافة مئة ميل حتى وجدت مجموعة كاملة من مسلسل «العرسان»، فأحضرتها إلى أبي. رمش لي بعينه ليقول إنه شاهدها. سألته هل يريد أن يشاهد حلقة منها. فرمش بعينه مرة أخرى. دفعت الشريط الأول في جهاز الفيديو وجلست بجانبه، أفنّش في وجهه المشوّه، أنصت إلى أنينه الخافت، بينما كانت أليس كرامدين على الشاشة تتحايل على زوجها.

الفصل ٢٦

انتظار المياه المتحركة

لم يغادر أبي السرير لمدة شهرين، إلاّ أذا حمله أحد إخوتي. وكان يتبوّل في قنينة، ولم تتوقف أمّي عن إعطائه الحقن الشرجية. حتى بعد أن أصبح من الواضح أنّه سيعيش، لم نكن نعرف ما نوع الحياة التي سيعيشها. كان كلّ ما يمكننا أن نفعله هو أن ننتظر، وسرعان ما بدا لنا أن كلّ ما فعلناه لم يكن سوى شكل آخر من أشكال الانتظار - الانتظار حتى نطعمه، الانتظار حتى نغيّر ضماداته، الانتظار حتى نرى كم سيعود لنا من أبنائنا.

كان من الصعب أن أتخيّل رجلاً مثل أبي - المفعم بالكبرياء، القوي جسديًا - عاجزًا عجزًا دائمًا. كنت أتساءل كيف سيعتاد على أن تقوم أمّي بتقطيع طعامه طوال حياته، وهل يستطيع أن يعيش حياة سعيدة إذا لم يكن قادرًا على أن يحمل مطرقة بيده. لقد ضاعت منه أشياء كثيرة.

لكن شعورًا بالأمل ممزوجًا بالحزن كان يملكني. فقد كان أبي دائمًا رجلاً صلبًا - رجلاً يعرف الحقيقة في كلّ شيء ولا يهتم ما الذي يقوله الآخرون. كنا ننصت إليه، ولم يحدث العكس قط: فعندما لم يكن يتكلّم، كان يطلب الصمت.

لقد حوّل الانفجار من محاضر إلى مراقب. فقد أصبح يصعب عليه أن يتكلّم من الألم الذي لم يتوقف وبسبب حنجرته التي احترقت أيضًا. فكان يراقب، ينصت. كان يستلقي، ساعة بعد ساعة، يومًا بعد يوم، عيناه يقظتان، فمه مغلق.

بعد بضعة أسابيع، بدأ أبي - الذي لم يكن يعرف منذ سنوات كم أبلغ من العمر - يعرف عن دراستي، وعن صديقي، وعن عملي في الصيف. لم أكن أحكي له شيئًا، لكنّه كان ينصت إلى الأحاديث التي تدور بيني وبين أودري ونحن نغيّر ضماداته، وكان يتذكّر ما نقوله.

«أريد أن أسمع المزيد عن صفوك»، قال ذات صباح قرابة نهاية الصيف،
«إنها تبدو مثيرة للاهتمام حقًا».

بدا كأن ذلك بداية جديدة.

كان أبي لا يزال طريح الفراش عندما أعلن شون وإيميلي عن خطوبتهما.
كان ذلك عند العشاء، وكانت الأسرة مجتمعة حول مائدة المطبخ، عندما قال
شون إنه يظن إنه سيتزوج إيميلي أخيرًا. ساد صمت بينما كانت أصوات
الشوك تحتك بالصحون. سألته أمي إن كان جدّي في ذلك. فقال إنه لم يكن،
وأنه كان يظن أنه سيجد شخصًا أفضل قبل أن يقرر ذلك. كانت إيميلي تجلس
بجانبه، ترتسم على وجهها ابتسامة مصطنعة.

في تلك الليلة لم يغمض لي جفن. لم ارفع عيني عن قفل الباب. فقد بدا
لي أن الماضي قد تجلّى في الحاضر، كما لو أنه سيهيمن عليه، كما لو أنني
سأغمض عيني، وعندما أفتحهما، سأكون في الخامسة عشرة.

في صباح اليوم التالي، قال شون إنه سيقوم بجولة على الحصان مع
إيميلي إلى بحيرة بلومنتون التي تبعد عشرين ميلًا. وفاجأت نفسي
وفاجأتها عندما قلت إنني أريد أن أرافقهما. شعرت بالقلق عندما تصوّرت
كلّ تلك الساعات التي سأمضيها مع شون في البريّة، لكنني ركنت قلقي جانبًا.
كان يجب أن أفعل شيئًا.

بدت مسافة الخمسين ميلًا كأنها خمسمائة ميل على الحصان، خاصة إذا
اعتاد جسدك على الجلوس على كرسي أكثر من الجلوس فوق سرج حصان.
عندما وصلنا إلى البحيرة، ترجّل شون وإيميلي بسهولة عن حصانيهما وراحا
يقيمان مخيمًا. كان كلّ ما استطعت أن أفعله هو أن أفكّ سرج أبولو وأنزل
فوق جذع شجرة. رحت أراقب إيميلي وهي تنصب الخيمة التي ستشاركني
بها. كانت إيميلي طويلة القامة، رشيقة، لها شعر طويل، ناعم، أشقر، يكاد
يكون لونه فضّيًا.

أشعلنا النار وغيّنا أغاني حولها، ولعبنا الورق. ثمّ عدنا إلى خيمنا. بقيت
صاحبة في الظلام بجانب إيميلي، أنصت إلى صوت صراصير الليل. كنت
أحاول أن أتخيّل كيف سأفتح معها حديثًا - كيف يمكنني أن أخبرها بأنها ينبغي

ألاّ تتزوَّج أخي - عندما تكَلِّمت، قالت: «أريد أن أتحدث إليك عن شون»، ثم أضافت، «أعرف أنه يعاني من بعض المشاكل.»
«نعم»، قلت لها.

فقالت إيميلي: «إنه رجل روحاني، وقد منحه الله رسالة خاصة، ليساعد الناس. لقد حكى لي كيف أنه ساعد سادي، وكيف ساعدك».

«إنه لم يساعدي»، أردت أن أقول لها، أن أوضح لإيميلي ما قاله لي الأسقف. لكنّها كانت كلماته، وليست كلماتي. لم تكن عندي كلمات. لقد قطعت خمسين ميلاً لأتكلم، لكنني ظللت صامتة.

«إن الشيطان يغويه أكثر مما يغوي الرجال الآخرين»، قالت إيميلي، «بسبب القدرات التي يمتلكها، لأنه يشكلّ تهديدًا للشيطان. لذلك فهو يعاني من مشاكل. لأنه رجل مستقيم».

انتصبت في جلستها. في الظلام، رأيت معالم تسريحة شعرها الذي عقدته في شكل ذيل حصان طويل. قالت: «قال إله سيؤذيني. أعرف أنه سيفعل ذلك بسبب الشيطان، لكنني أخاف منه أحيانًا، ينتابني الذعر منه، أرتعب مما سيفعله».

فقلت لها إنها ينبغي ألاّ تتزوَّج أحدًا يخيفها، وأنه يجب ألاّ يخيفها أحد، لكن الكلمات غادرت شفتي مجهزة. كنت أوّمن بها، لكنني لم أفهمهما بما يكفي لأجعلها تعيش.

حدّقتُ في الظلام، أبحثُ فيه عن وجهها، محاولة أن أفهم القوة التي يملكها أخي عليها. كنت أعرف أن لديه تلك القوّة عليّ، ولا يزال لديه بعض تلك القوّة عليّ حتى الآن. فلم أكن تحت سطوته، ولم أتحرر منها.

«إنه رجل روحاني»، قالت مرة أخرى، ثمّ انسلّت إلى كيس نومها، وعرفت أن الحديث قد انتهى.

عدت إلى الجامعة قبل عدة أيام من الفصل الدراسي في الخريف. توجهت مباشرة إلى شقّة نيك. لم نتكلم كثيرًا. عندما كان يتصل بي، كنت أذرع دائمًا بأن أحدًا يناديني لأغيّر ضماد أبي أو أدهن جسمه بالمرهم. كان

نيك يعرف أن أبي أصيب بحروق، لكنّه لم يكن يعرف مدى خطورة تلك الحروق. كنت أحجب عنه معلومات أكثر مما أعطيه، ولم أقل له قط إن انفجارًا وقع له، أو أنني عندما «أزور» أبي، فإنني لا أزوره في المستشفى وإنما في غرفة جلوس بيتنا. ولم أخبر نيك بأن قلبه توقف، ولم أحك له شيئًا عن يديه المتغضنتين، أو عن الحقن الشرجية، أو مقدار الأنسجة التي ذابت والتي كشطناها من جسمه.

قرعت الباب وفتح لي نيك. بدا متفاجئًا برؤيتي. «كيف حال أبيك؟» سألني بعد أن جلست بجانبه على الأريكة.

عندما أتذكر ذلك، ربما كانت تلك اللحظة أهم لحظة في صداقتنا، اللحظة التي كان بإمكانني أن أفعل خلالها شيئًا واحدًا، أفضل شيء، لكنني فعلت شيئًا آخر. كانت تلك أول مرّة أرى فيها نيك منذ وقوع الانفجار. كان من الممكن أن أحكي له كلّ شيء آنذاك: بأنّ أسرتي لا تؤمن بالطبّ الحديث، وأنّنا نعالج الحرق في البيت بالمراهم والأعشاب، وأنّ الأمر كان مخيفًا جدًّا، لا بل أكثر من مرعب، وأنني لن أنسى طوال حياتي رائحة اللحم المتفحّم. كان بإمكانني أن أخبره كلّ ذلك، وأن أزيل العبء عن كاهلي، وأدع العلاقة تحمله وتزداد قوة. لكنني احتفظت بكلّ ذلك العبء لنفسي، وضعفت صداقتي مع نيك، المصابة أصلًا بفقر الدم، ونقص التغذية، حتى آلت إلى الزوال.

كنت أظن أن بإمكانني أن أصلح الأمر - بعد أن عدت الآن، وأن هذه حياتي، وليس من المهم أن يفهم نيك شيئًا عن الحياة التي أعيشها في جبل بيكس باك. لكن جبل بيكس باك رفض أن يتخلّى عني. كان متشبّثًا بي. وكانت الثقوب السوداء في صدر أبي تتراءى لي غالبًا، وتظهر لي على اللوح الأبيض، وأرى التجويف المتهدل من فمه فوق صفحات كتبي. كان هذا العالم الذي أتذكره أوضح على نحو ما من العالم الطبيعي الذي أسكنه، وكنت أعيش بينهما. أمسك نيك بيدي، وللحظة كنت معه هناك، أحسّ بدهشة بشرته تلامس بشرتي. لكن عندما نظرت إلى أصابعنا المتشابكة، تحرّك شيء، فلم تعد اليد هي يد نيك، وإنما يد مليئة بالدم ولها مخالب، لم تكن يدًا على الإطلاق.

عندما نمْتُ، استسلمْتُ تمامًا لجبل بيكس باك. وحلمت بلوك، بعينيه وهما تزوغان في رأسه. حلمت بأبي، بصوت الحشرات البطيئة المنبعثة من رثتيه. حلمت بشون، باللمحة التي تصدّع فيها رسغي في باحة وقوف السيارات. حلمت بنفسي، وأنا أمشي وأنا أعرج بجانبه، أضحك تلك الضحكة الفظيعة العالية. لكن في أحلامي، كان شعري طويلًا فضي اللون.

سيقام حفل الزفاف في أيلول (سبتمبر).

وصلت إلى الكنيسة مفعمة بطاقة قلق، كما لو أنني أرسلت عبر الزمن من مستقبل كارثي إلى هذه اللحظة، عندما كانت لا تزال توجد أهمية لتصرفاتي وأفكاري. لم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، ففكرت يدي وعضنت خدي، أنتظر اللحظة الحاسمة. وقبل مراسم الزفاف بخمس دقائق، تقيأت في دورة مياه السيدات.

عندما قالت إيميلي «موافقة»، هجرني الشعور بالحيوية. فعدتُ روحًا مرة أخرى، وعدت إلى الجامعة. حدّقت في جبال الروكيز من نافذة غرفة نومي وضُعت عندما بدت أشبه بلوحة.

بعد أسبوع من حفل الزفاف، ابتعدت عن نيك -بقسوة. ينتابني الخجل عندما أقول ذلك. لم أحدثه قط عن حياتي، ولم أرسم له العالم الذي كان يتراءى لي والعالم الذي كنا نتقاسمه، أنا وهو. كان بإمكانني أن أوضح له. كان بإمكانني أن أقول له «لهذا المكان سطوة عليّ، وقد لا أنفصل عنه أبدًا». كان ذلك سيكون في صميم الأمر، لكنني بدلًا من ذلك، غصت في الزمن. كان قد فات الأوان لأن أفضي بكل ذلك إلى نيك، لأن آخذه معي حيثما ذهبت. فودعته.

الفصل ٢٧ لو كنت امرأة

جئت إلى جامعة بريغهام يونغ لأدرس الموسيقى، حتى أصبح ذات يوم قائدة فرقة كورال الكنيسة، لكن في ذلك الفصل الدراسي- في خريف سنتي الأولى - لم أُسجَل في أي فصل للموسيقى. لا أستطيع أن أفسّر السبب الذي جعلني أفصل الجغرافيا والسياسة المقارنة على نظرية الموسيقى المتقدمة، أو ما الذي جعلني أتخلّى عن الغناء وأدرس عوضًا عنه التاريخ اليهودي. لكن عندما رأيت تلك المواد في دليل الجامعة، وقرأت عناوينها بصوت عال، تملكني إحساس باللانهاية، وأردت أن أتذوّق طعم تلك اللانهاية.

طوال أربعة شهور حضرت محاضرات عن الجغرافيا والتاريخ والسياسة. درست مارغريت تاتشر، والموازي الثامن والثلاثين، والثورة الثقافية؛ ودرست السياسة البرلمانية والأنظمة الانتخابية في أنحاء العالم. ودرست الشتات اليهودي والتاريخ الغريب لبروتوكولات حكماء صهيون. وفي نهاية الفصل الدراسي، شعرت أن العالم كبير، وأصبح من الصعب أن أتخيل أن أعود إلى الجبل، أو إلى المطبخ، أو حتى إلى البيانو في الغرفة بجانب المطبخ.

سبب كل ذلك نوعًا من أزمة في نفسي. كان حبي للموسيقى ورغبتني في دراستها يتوافقان مع فكرتي عن ما هي المرأة. أما حبي للتاريخ والسياسة والقضايا العالمية فلم يكن كذلك. ومع ذلك، فقد كانت تناديني.

قبل بضعة أيام من بدء الامتحانات النهائية، جلست لمدة ساعة مع صديقي جوش في قاعة دروس فارغة. كان يراجع أوراقه ليقدمها إلى كلية الحقوق، وكنت أختار حينذاك الفصول التي يجب أن أدرسها في الفصل الدراسي القادم.

سألته، «لو كنت امرأة، هل كنت ستدرس الحقوق؟»

لم يرفع جوش عينيه، وقال: «لو كنت امرأة، فلن أرغب في دراسته».

فقلت: «لكن منذ عرفتكَ لم تكن تتحدّث إلّا عن كلية الحقوق. إنها حلمك، أليس كذلك؟»

فقال: «نعم، لكنها لن تكون حلمي لو كنتُ امرأة. لأن النساء خُلِقن بصورة مختلفة. فلا يوجد لديهن هذا الطموح. إن طموحهن ينحصر في إنجاب الأطفال». ابتسم لي كما لو أنني أعرف عمّا يتحدّث. وكنت أعرف. ابتسمتُ، ولبضع ثوان كُنا متفقين.

ثمّ قلت: «لكن ماذا لو كنتُ امرأة، وكنت تشعر بما تشعر به الآن تمامًا؟»
تَبَّت جوش عينيه على الحائط لوهلة. فكّر في الأمر، ثمّ قال، «عندها سأعرف أنه يوجد خطأ فيّ».

كنت أتساءل إن كان هناك خطأ فيّ منذ بداية الفصل الدراسي، عندما حضرتُ أول محاضرة في فصل الشؤون الدولية. رحت أتساءل كيف يمكن أن أكون امرأة وأنجذب إلى مواضيع غير نسائية.

أعرف شخصًا لا بد أنه لديه الجواب على هذا السؤال، فقرّرت أن أسأل أحد أساتذتي. اخترت أستاذ مادة التاريخ اليهودي، لأنه كان هادئًا ويتكلم بلطف. كان الدكتور كيري رجلًا قصير القامة، له عينا سوداوان وقسمات جدّية. كان يلقي علينا المحاضرات وهو يرتدي سترة صوف سميقة حتى عندما يكون الطقس حارًا. قرعت باب مكتبه بصوت يكاد يكون غير مسموع، كما لو كنت أتمنى ألاّ يجيب. بعد قليل كنت أجلس أمامه صامتة. لم أكن أعرف ما هو سؤالِي بالتحديد، ولم يسألني الدكتور كيري. وبدلًا من ذلك سألني أسئلة عامة عن الدرجات التي حصلت عليها، والمناهج التي أدرسها، ثم سألني عن السبب الذي جعلني أختار التاريخ اليهودي، وبدون تفكير قلت إنني لم أكن أعرف شيئًا عن المحرقة إلّا منذ فترة قصيرة وأريد أن أعرف بقيّة القصة.

«متى عرفتِ بالمحرقة؟» سألني.

«في الجامعة».

«ألم تعلّموكم عنها في مدرستك؟»

«ربما فعلوا ذلك»، قلت، «لكني لم أكن هناك».

«أين كنتِ؟»

شرحت له بقدر ما أستطيع، بأنّ والدائيّ لا يؤمنان بالتعليم العام، وأنّهما أبقيانا في البيت. عندما أنهيت كلامي، شبك أصابعه كما لو كان يتأمل في مشكلة صعبة، ثم قال: «أظن أنك يجب أن تمدّدي نفسك. وانظري ماذا سيحدث».

«كيف أمدّ نفسي؟»

مال إلى الأمام فجأة، كما لو أن فكرة خطرت بباله. «هل سمعتِ عن كامبريدج؟». «لا». «إنها جامعة في إنكلترا»، قال، «إحدى أفضل الجامعات في العالم. إنني أنظّم برنامجًا دراسيًا خارجيًا للطلاب هناك. إنه برنامج تنافسي جدًا وقاس جدًا. قد لا تُقبلين فيه، لكن إذا قُبلت، فقد يعطيك فكرة عن قدراتك».

سرّْتُ إلى شقّتي وأنا أتساءل عمّا آلت إليه هذه المحادثة. فقد كنت أريد منه نصيحة أخلاقية، أحد يوفّق بين رغبتني في أن أكون زوجة وأمًّا وبين الدعوة التي سمعت فيها عن شيء آخر، لكنّه لم يفعل ذلك، وبدأ أنه يريد أن يقول، «اكتشفي أولاً ما الذي بإمكانك أن تفعليه، ثمّ قرّري من أنت».

قدّمت طلبًا للبرنامج.

كانت إيميلي حاملًا. لم يسر الحمل على ما يرام. كادت أن تجهض في الأشهر الأولى الثلاثة، وهي تقترب الآن من أسبوعها العشرين، وبدأت تنتابها تقلصات. أعطتها أمّي، التي كانت القابلة، نبتة سانت جونز وورث وعلاجات أخرى. خفّت الانقباضات لكنها لم تتوقف.

عندما وصلْتُ إلى البيت في عطلة عيد الميلاد، توقّعت أن أرى إيميلي مستلقية على السرير تستريح، لكنها لم تكن كذلك، بل كانت تقف أمام طاولة المطبخ تحضّر بعض الأعشاب مع ستّ نساء أخريات. نادراً ما كانت تتكلّم، وقلما كانت تبتسم، وكانت تتنقّل في أرجاء البيت حاملة أوعية فيها

لحاء منع التشنج ونبته وورث التي تصفها لها أمي. كانت هادئة جدًا، إلى حد أنك لا تلاحظ وجودها. وبعد دقائق نسيت أنها موجودة.

مضت سنة شهور على الانفجار، ومع أن أبي أصبح يقف على قدميه، لكنه لم يعد الرجل الذي كان. فلم يكن يستطيع أن يجتاز الغرفة دون أن يلهث ليحصل على الهواء لأن رئتيه أصيبتا بضرر شديد. ونما جلد في الجزء الأسفل من وجهه، لكنه كان رقيقًا وشمعيًا، كما لو أن أحدًا فركه بورق صقل حتى أصبح شفافًا، وأصبحت أذناه سميكيتين من الندب عليهما. وكانت شفثاه رقيقتين وفمه يتدلى، وقد منحه ذلك مظهر رجل طاعن في السن منهكًا. وكانت يده اليمنى تجلب الانتباه أكثر من وجهه: فقد تجمدت جميع أصابعه في الوضعية التي كانت عليها عند الانفجار، فاشتتت بعضها، وتقوّس بعضها، والتفتت معًا في شكل مخلب متعصّن. كان باستطاعته أن يحمل ملعقة بين سبائته التي انحنت إلى الأعلى، وينصره الذي تقوّس إلى الأسفل، وكان يأكل بصعوبة. وكنت أتساءل عمّا إذا كان ترقيع الجلد سيحقق نتيجة أفضل مما حققته أمي بالمراهم التي تدهنه بها. إنها معجزة، كان الجميع يقولون، وأصبح هذا هو الاسم الجديد الذي أطلقوه على وصفة أمي: فقد أصبح يُعرف بعد حرق أبي باسم المرهم المعجزة.

عندما جلسنا لتناول العشاء في أول ليلة من وصولي إلى البيت، وصف أبي الانفجار بأنه رحمة خفيفة من عند الله، وقال: «إنه بركة. إنه معجزة. فقد أنقذ الله حياتي ومنحني دعوة عظيمة لكي أشهد على قدرته. ليري الناس أن هناك طريقة أخرى غير المؤسسة الطبية».

كنت أنظر إليه وهو يحاول أن يمسك السكين جيدًا ليقطع قطعة اللحم المشوي، ومضى يقول: «لم أتعرض لأي خطر في حياتي من قبل، وسأثبت لكم ذلك. وعندما أصبح قادرًا على السير واجتاز الباحة، فإني سأخذ الحملج وأقطع به خزان وقود آخر».

عندما خرجت من غرفتي من صباح اليوم التالي لتناول طعام الفطور، رأيت مجموعة من النساء يتحلقن حول أبي. كن يستمعن بأصوات خافتة وعيون متألقة إلى أبي الذي كان يحكي لهن عن الزيارات السماوية التي أتته

عندما كان معلقا بين الحياة والموت، وقال لهن إن الملائكة كانت تحيطه برعايتها، كما كانت تفعل مع الأنبياء في العهود القديمة. كان ثمة شيء في الطريقة التي كانت تنظر فيها النساء إليه. شيء أشبه بالإعجاب.

راقبت النساء طوال الصباح وأدركت التغيير الذي أحدثته معجزة أبي عليهن. فقد كانت النساء اللاتي يعملن مع أمي يقتربن منها دائما ويسألنها عن عملهن، أما الآن فأصبح حديثهن معها ناعما، مفعما بالإعجاب، وازداد بينهن التنافس ليحظين بتقدير أمي وأبي لهن. ويمكن تلخيص التغيير الذي حدث ببساطة: كن عاملات سابقا، وأصبحن مريدات الآن.

أصبحت قصة حرق أبي أشبه بأسطورة راسخة: فأصبحت تروى مرارا وتكرارا إلى الزوار الجدد، وكذلك إلى الزوار القدامى. وأصبح من النادر أن أمضي وقتا في البيت من دون أن أسمع نوعا من قصة المعجزة التي لا تكون أحيانا دقيقة. فقد سمعت أمي تحكي في غرفة مليئة بالوجوه الورعة أن خمسة وستين في المائة من الجزء العلوي من جسد أبي أصيب بحروق من الدرجة الثالثة. لم يكن هذا ما أتذكره. ففي ذاكرتي أن معظم الضرر الذي لحق بأبي كان في الطبقة العميقة من جلده - فلم تصب ذراعاؤه وظهره وكتفه بحروق، وإنما الجزء السفلي من وجهه وبديه هي التي أصيبت بحروق من الدرجة الثالثة. لكنني أبقيت ذلك لنفسى.

لأول مرة، بدا أن والدايَّ أصبحا متفقين في طريقة تفكيرهما. فلم تعد أمي تحاول أن تلتطف ما يقوله أبي بعد أن يغادر الغرفة، ولم تعد تبدي رأيها بصوت منخفض، بل تحوّلت بفعل المعجزة - تحوّلت إليه. أتذكر عندما كانت قابلة شابة، امرأة شديدة الحذر، وديعة جدّا، لكن وداعتها تلك اختفت الآن. فأصبح الربّ نفسه هو الذي يوجّه يديها الآن، ولن يحدث مكروه إلا بإرادة الله.

بعد مضي عدة أسابيع على عيد الميلاد، كتبت جامعة كامبريدج إلى الدكتور كيري، تعلن رفض طلبى. «المنافسة شديدة جدّا»، قال لي الدكتور كيري عندما زرته في مكتبه.

شكرته ونهضت واقفة لأذهب.

«لحظة واحدة»، قال، «لقد طلبت مني كامبريدج أن أكتب لها إذا كنت أشعر بوجود ظلم جسيم».

لم أفهم ما قاله، فقال: «أستطيع أن أساعد طالبًا واحدًا فقط»، ثم أضاف، «لقد عرضوا عليكِ مكانًا، إذا كنت ترغبين به».

بدا لي أن ذهابي إلى هناك مستحيل. فقد أدركت أنني بحاجة إلى جواز سفر، وقد لا أحصل عليه من دون شهادة ولادة أصلية. ف شخص مثلي لا ينتمي إلى كامبريدج. كأنّ الكون فهم ذلك ويحاول أن يحول دون ذهابي الكافر.

تقدمت بطلب للحصول على جواز سفر. ضحكت الموظفة عاليًا عندما رأّت شهادة ولادتي المتأخرة. قالت: «تسع سنوات! إن تسع سنوات ليست تأخيرًا. هل لديك وثائق أخرى؟»

فقلت لها: «نعم، لكن يرد فيها تواريخ ميلاد مختلفة، وواحدة باسم مختلف».

كانت لا تزال تبتسم. «تاريخ مختلف واسم مختلف؟ لا، هذا لن ينفع. لا يمكنك الحصول على جواز سفر».

ترددتُ على الموظفة مرات عدة، وازددت استماتة من أجل الحصول عليه، حتى توصلنا أخيرًا إلى حلّ. فقد ذهبت خالتي ديبى إلى المحكمة وقدمت شهادة مشفوعة بقسم بأنني أنا التي أدّعي بأنه أنا، وصدر لي جواز سفر.

في شباط (فبراير)، ولدت إيميلي. كان وزن الطفل باوندًا وأربع أونصات. عندما بدأت تنتاب إيميلي تقلصات في ليلة عيد الميلاد، قالت أمّي إن الحمل سيتجلّى بحسب إرادة الله. وقد تجلّت إرادته بأن ولدت إيميلي في البيت بعد حمل دام سِتّة وعشرين أسبوعًا.

في تلك الليلة هبّت عاصفة ثلجية، واحدة من تلك العواصف الجبلية الشديدة التي تجعل الطرق فارغة وتغلق المدن. كانت إيميلي في مراحل متقدّمة من الطلق عندما أدركت أمّي أنّها يجب أن تذهب إلى المستشفى. وخرج الطفل الذي أطلقوا عليه اسم بيتر بعد بضع دقائق والذي انسلّ من

إيميلي بسهولة شديدة حتى أن أمي قالت إنها «أمسكت به» ولم تولدّه. كان هامدًا، بلون الرماد. ظلّ شون أنّه ميت، ثمّ أحست أمي بخفقة قلب صغيرة جدًّا - في الواقع رأت قلبه يخفق عبر غشاء جلدي رقيق. هرع أبي إلى شاحنته الصغيرة وراح يزيل الثلج المتراكم عليها، وحمل شون إيميلي ومددها فوق المقعد الخلفي، ثمّ وضعت أمي الرضيع على صدر إيميلي وغطّته لتصنع حاضنة بديلة. رعاية الكنغر، سمتها لاحقًا.

قاد أبي السيارة. اشتدت العاصفة. في أياداهو نطلق عليها اسم «ابيضاض» أو انعدام الرؤية: عندما تضرب الريح ندف الثلج بقوة شديدة يصبح الطريق أبيض بالكامل، يغطيه كما بحجاب، فلا تعود تستطيع أن ترى الإسفلت أو الحقول أو الأنهار، ولا تعود ترى شيئًا سوى أمواج بيضاء. وعلى الرغم من الانزلاق فوق الثلج والمطر المتجمد، وصلوا إلى البلدة، لكن المستشفى لم يكن مجهّزًا لاستقبال حالات صعبة كهذه. فقال الأطباء إنهم سينقلونه إلى مستشفى مكاي دي في أوغدن بأسرع ما يمكن، لأنه لم يكن هناك وقت. لم يكن بالإمكان إرساله بطائرة هيلوكوبتر بسبب العاصفة الثلجية القوية، فأرسله الأطباء في سيارة إسعاف. في الواقع أرسلوا معه سيارتي إسعاف، السيارة الثانية في حال توقفت السيارة الأولى ولم تعد تستطيع إكمال الطريق بسبب العاصفة.

مرت شهور عدة، وأجريت عمليات جراحية لا تعد ولا تحصى لقلبه ورئتيه، قبل أن يعود شون وإيميلي إلى البيت ومعهما قطعة لحمية صغيرة قالوا لي إنه ابن أخي. فلم يعد حينذاك في دائرة الخطر، لكن الأطباء قالوا إن رئتيه قد لا تكتملان، وقد يمضي بقية حياته ضعيفًا.

قال أبي إن الله نظّم هذه الولادة كما نظّم الانفجار. وأصبحت أمي تردّد ما قاله أبي، وأضافت إنّ الله وضع غشاوة على عينيها حتى لا تتمكن من وقف الانقباضات، وقالت، «لقد خطط الله أن يأتي بيتر إلى العالم هكذا. إنه هدية من الربّ، والله يعطي هداياه بالطريقة التي يختارها».

الفصل ٢٨

بيغماليون

عندما رأيت كينغز كولدج في كامبريدج لأول مرة، لم يخطر ببالي أنني أحلم، لكن مخيلتي لم تتصوّر شيئاً عظيماً كهذا. ووقعت عيناى على ساعة برج عليه منحوتات حجرية. سرنا باتجاه البرج، ثمّ عبرناه ودخلنا إلى الجامعة. رأيت بحيرة محاطة بمرج جميل جدّا، وأمام البحيرة، شاهدت مبنى عاجي اللون أدركت أنه من الطراز الإغريقي - البيزنطي. لكنّ الشيء الذي كان يهيمن على المشهد هو الكنيسة القوطية التي يبلغ طولها ثلاثمائة قدم وارتفاعها مئة قدم. إنها جبل حجري.

عبرنا الكنيسة إلى فناء آخر، ثمّ صعدنا درجًا حلزونيًا. فُتح باب، وقال لي مرافقي، الرجل اللطيف، هذه هي غرفتي، وتركني لأرتاح. لم يدرك مرافقي كم كان الأمر مستحيلًا.

في صباح اليوم التالي، كان طعام الفطور في قاعة ضخمة. خيل إليّ أنني أتناول الطعام في كنيسة، سقفها مجوّف مثل كهف، واعتراني شعور بأنني مُراقبة، كما لو كان جميع من في القاعة يعرفون أنني موجودة هنا وأنني يجب ألا أكون هنا. اخترت طاولة طويلة يجلس إليها طلاب آخرون من جامعة بريغهام يونغ. كانت الفتيات يتحدّثن عن الثياب التي أحضرنها معهن: فما إن عرفت ماريان بأنها قُبِلت في البرنامج حتى ذهبت إلى السوق، وقالت: «يلزمك ثياب مختلفة في أوروبا».

وافقتها هيذر التي كانت جدتها قد دفعت لها ثمن بطاقة الطائرة، فأنفقت ما لديها من نقود على شراء ثياب جديدة، وقالت «إن الناس هنا يرتدون ثيابًا أكثر أناقة. ولا يمكنك أن ترتدي الجينز فقط».

خطر لي أن أهرع إلى غرفتي لأغيّر بلوزتي وحذائي الرياضي الخفيف، لكنني أدركت أنه لا يوجد عندي شيء آخر، فلم يكن لديّ شيء يشبه ما ترتديه ماريان وهيذر - بلوزات ذات أزرار براقة، وأوشحة جميلة - فلم أشتري ثيابًا

جديدة قبل أن آتي إلى كامبريدج، لأنني حصلت على قرض يُمنح للطلاب لأسدّ الرسوم فقط. وكنت أعرف أيضًا أنه حتى لو كانت لديّ ثياب كالتى ترتديها ماريان وهيدر، لما كنت سأعرف كيف أرتديها.

جاء الدكتور كيري وأعلن بأننا مدعوون للقيام بجولة في الكنيسة، وقال إنهم سمحوا لنا بالصعود إلى السطح. حصل تدافع عندما كنّا نعيد صواني الطعام ثم تبعنا الدكتور كيري من القاعة. عندما اجتزنا الفناء بقيت في مؤخرة المجموعة.

عندما دخلت إلى الكنيسة، حُبست أنفاسي في صدري. فقد كانت الغرفة - إذا كانت هذه المساحة يمكن أن تُدعى غرفة - ضخمة، كما لو أن باستطاعتها أن تسع المحيط كله. سرنا عبر باب خشبي صغير، ثمّ صعدنا درجًا لولبيًا ضيقًا بدا أن عدد درجاته الحجرية لا تعد ولا تحصى. وأخيرًا أطلّ الدرج على السطح، الذي كان مائلًا بشدّة، عليه حواجز حجرية. كانت الريح تعصف، والغيوم تملأ السماء. كان المشهد خلابًا، المدينة مصغّرة، قرّمتها الكنيسة. نسيت نفسي وتسَلّقت المنحدر، ثمّ مشيت على طول الحافة، تاركة الريح تأخذني وأنا أحدّق في امتداد الشوارع الملتوية والباحات الحجرية.

«ألا تخافين من السقوط»، سمعت صوتًا. التفت. كان الدكتور كيري. تبعني، لكنّه بدا غير متوازن على قدميه، يكاد يميل مع كلّ هبة ريح.

«يمكننا أن نهبط»، قلت، ورحت أجري على الحافة إلى الممشى المستوي بجانب الدعامة. مرة أخرى تبعني الدكتور كيري، لكن خطواته كانت غريبة، فبدلًا من أن يمشي ووجهه إلى الأمام، كان يدير جسمه ويتحرّك بشكل جانبي، مثل سرطان بحري. واصلت الريح هجومها. مددت له ذراعي عند الدرجات الأخيرة، لأن خطواته بدت غير متوازنة، فأمسك بها.

«أقصد أن أقول ذلك كملاحظة»، قال عندما هبطنا، «فأنت تقفين، منتصبه القامة، تضعين يديك في جيوبك»، وأوماً نحو الطلاب الآخرين، وأضاف، «انظري كيف يقفون محدودبي الأكتاف؟ كيف يتمسكون بالحائط؟».

كان محقًا. فلم يجازف بالاقتراب من الحافة إلّا حفنة من الطلاب، وكانوا يفعلون ذلك بحذر شديد، يتقدمون بخطوات قلقة كما كان يفعل الدكتور

كيري، يميل ويترنج في الريح. وكان الآخرون يمسكون الحاجز الحجري بإحكام، ركبهم مثنية، ظهورهم مقوّسة، كما لو كانوا غير متأكدين إن كانوا سيمشون أو سيزحفون.

رفعت يدي وأمسكت الحائط.

«لا تحتاجين إلى عمل ذلك»، قال، «إنه ليس انتقادًا».

توقّف، كما لو أنه لم يكن متأكدًا إن كان عليه أن يقول المزيد، ثم قال: «لقد تغيّر الجميع، فقد كان الطلاب الآخرون يشعرون بالراحة إلى أن جئنا إلى هذا الارتفاع. وهم الآن منزعجون، في حالة نفسية قلقة. يبدو أنك قمت بالرحلة المعاكسة. هذه أول مرة أراك فيها منسجمة مع نفسك. الطريقة التي تتحرّكين فيها: كما لو أنك تمشين فوق هذا السطح طوال حياتك».

هبت ريح قوية على الحاجز الحجري فتأرجح الدكتور كيري، وأمسك بالحائط. صعدت إلى الحافة لأسنده. حدّق بي، بانتظار تفسير.

«كنت أعمل في بناء أسطح حظائر التبن»، قلت أخيرًا.

«إدًا فإن ساقيك قويتان؟ هل هذا هو السبب الذي يجعلك قادرة على الوقوف في وجه هذه الريح؟» كان عليّ أن أفكّر قبل أن أجيب، فقلت: «أستطيع أن أقف في هذه الريح لأنني لا أحاول أن أقف فيها»، وأضفت، «فالريح مجرد ريح، وبما أنك تستطيع أن تقاوم هذه الريح على الأرض، فبإمكانك أن تقاومها وأنت في الهواء. لا يوجد فرق إلّا الفرق الذي تصنعه في رأسك».

حدّق فيّ بانشده. لم يفهم ما قلته.

ثم أضفت، «أنا أقف فقط، أما أنتم فإنكم تحاولون أن تعوضوا، أن تخفضوا أجسامكم لأن الارتفاع يخيفكم. لكن الإقعاء والسير جانبًا ليسا طبيعيين. لقد جعلتم أنفسكم ضعفاء. إذا تمكنتم من السيطرة على خوفكم، فإن الريح لن تصبح شيئًا».

فقال: «لا شيء بالنسبة لك».

كنت أريد عقل باحث، لكن يبدو أنّ الدكتور كيري رأى فيّ عقل عاملة بناءً أسطح. الطلاب الآخرون ينتمون إلى المكتبة، وأنا أنتمي إلى الرافعة.

مرّ الأسبوع الأول بمجموعة من المحاضرات غير الواضحة. في الأسبوع الثاني، عُيِّن لكلّ طالب مشرف ليوجهه في أبحاثه. وعلمت أن المشرف عليّ هو البروفسور المرموق جوناثان ستاينبرغ، نائب سابق لرئيس إحدى الكليات في كامبريدج، المشهور بكتاباته عن المحرقة.

بعد عدة أيام، اجتمع بي البروفسور ستاينبرغ. انتظرت في بهو الانتظار حتى ظهر رجل نحيف، وأخرج مجموعة ثقيلة من المفاتيح، وفتح بابًا خشبيًا داخل باب حجري. تبعته على درج حلزوني وصعد إلى برج الساعة نفسه حيث توجد غرفة جيدة الإضاءة فيها أثاث بسيط: كرسيان ومنضدة خشبية.

عندما جلست كان بوسعي أن أسمع صوت الدم يتدفق وراء أذني. كان البروفسور ستاينبرغ في السبعينات من عمره، لكن لا يمكن أن أصفه بأنه رجل عجوز. كان رشيق الحركة، عيناه تتنقلان في أرجاء الغرفة بطاقة فاحصة. كان كلامه موزونًا وسلسًا.

قال: «أنا البروفسور ستاينبرغ. ماذا تحبّين أن تقرّئي؟» غمغمتُ شيئًا عن كتابة التاريخ. كنت قد قرّرت ألاّ أدرس التاريخ، وإنما المؤرخون. أظن أن اهتمامي هذا نبع من الشعور بالضعف الذي انتابني منذ أن عرفت المحرقة وحركة الحقوق المدنية - عندما أدركت أنّ معرفة المرء بالماضي محدودة، وأنها ستظل محدودة، تنحصر بما أخبره له الآخرون. وعرفت ما معنى أن يُصحّح للمرء اعتقاد خاطئ يؤمن به - اعتقاد خاطئ ضخم إذا حركته فإنه يحرك العالم. وأريد الآن أن أفهم كيف تمكّن حراس بوابات التاريخ العظماء أن يتكيفوا مع جهلهم وتحيزهم. وخيل إليّ أنني إذا استطعت أن أقبل أن ما كتبوه ليس شيئًا مطلقًا وإنما نتيجة عملية متحيّزة من المناقشات والمراجعات، فقد أتوافق مع الحقيقة بأنّ التاريخ الذي يتفق عليه معظم البشر ليس هو التاريخ الذي علّموني إياه. فقد يكون أبي مخطئًا، وقد يكون المؤرخون العظماء كارليل وماكولاي وتريفليان مخطئين، لكن من رما

خلافهم يمكنني أن أبني عالمًا أستطيع أن أعيش فيه، وهو أن أعرف أن الأرض ليست الأرض التي آمل أن أقف عليها.

لا أظن أنني استطعت أن أوصل له هذه الأفكار. عندما أنهيت كلامي، نظر إليّ البروفسور ستاينبرغ لحظة، ثم قال: «حدّثيني عن تعليمك. أين حضرت المدرسة؟»

أفرغ الهواء فورًا من الغرفة. قلت: «نشأت في أياداهو».

«وحضرت المدرسة هناك؟»

عندما أتذكر ذلك، خطر لي أن أحدًا قد يكون قد حكى للبروفسور ستاينبرغ عنيّ، قد يكون الدكتور كيري. أو لعله أدرك أنني كنت أتحاشى الإجابة عن سؤاله، وهذا ما أثار فضوله. مهما كان السبب، فقد ظلّ مصرًّا حتى اعترفت له بأنني لم أذهب إلى المدرسة قط.

«يا له من شيء رائع»، قال مبتسمًا، كما لو أنني أحضر مسرحية بيغماليون لبرناردشو».

على مدى شهرين ظل البروفسور ستاينبرغ يلتقي بي كلّ أسبوع. لم يكلفني بقراءة شيء، ولم نقرأ إلاّ الأشياء التي كنت أطلب أن نقرأها، سواء أكان كتابًا أم صفحة.

لم يكن أي من أساتذتي في جامعة بريغهام يونغ يدقق في كتابتي كما كان يفعل البروفسور ستاينبرغ. فلم يكن يبدى اهتمامًا بالفاصلة، أو النقطة، أو الصفة أو الظرف، ولم يكن يميّز بين النحو والمضمون، بين الشكل والمادة. فهو يرى أن الجملة المكتوبة بطريقة سيئة تحمل فكرة سيئة، ويرى أنه يجب تصحيح المنطق النحوي. فقد كان يقول لي: «قولي لي، لماذا وضعت هذه الفاصلة هنا؟ ما العلاقة التي تأملين في ربطها بين هذه العبارات؟» وعندما كنت أبيّن له وجهة نظري، كان يقول أحيانًا، «صحيح تمامًا»، وفي أحيان أخرى، كان يصحّح ما كتبت بتفسيرات نحوية طويلة.

بعد مضي شهر على اجتماعي بالبروفسور ستاينبرغ، كتبت مقالة أقرن فيها إدموند بورك مع بوبليوس، الشخصية التي كتب باسمها جيمس ماديسون

وألксاندر هاملتون وجون جاي الأوراق الفيدرالية. لم يغمض لي جفن طوال أسبوعين: وكلّما كانت عيناى مفتوحتين، كنت أقرأ أو أفكر بتلك النصوص.

كنت قد تعلّمت من أبي أنّ الكتب إما أن تُعشق وإما أن تُهجر، وأن الكتب التي أرسلها - الكتب التي كتبها الأنبياء المورمون أو الآباء المؤسّسون - يجب ألا تُدرس وإنما يجب أن تُعتبر كنزًا ثمينًا وكاملًا بحد ذاتها. وقد علّمت أن أقرأ كلمات رجال مثل ماديسون مثل قالب أصبّ فيه عقلي، وأعيد تشكيله وفق معالم نموذجهم الكامل الذي لا شائبة فيه. كنت أقرأها لأتعلّم بماذا أفكر، وليس كيف أفكر بنفسى. وكانت الكتب التي ليست عن الله تُمنع من الدخول إلى البيت لأنها خطيرة، وقوية لا يمكن مقاومتها بسبب دهائها وخداها.

لكى أكتب مقالتي كان عليّ أن أقرأ الكتب بطريقة مختلفة، من دون أن أستسلم للخوف أو للإعجاب، وبما أن بورك دافع عن الحكم الملكي البريطاني، فإن أبى كان سيقول إنه وكيل الاستبداد، ولن يسمح بدخول كتابه إلى البيت. تملكنى شعور قوى بأننى يجب أن أثق بنفسى عندما أقرأ الكلمات، وتملكنى شعور قوى مماثل عندما قرأت ماديسون وهاملتون وجاي، خاصة عندما نبذت الاستنتاجات التي توصلوا إليها لصالح بورك، أو عندما كان يبدو لى أنّ أفكارهم لا تختلف عن بعضها كثيرًا من حيث الجوهر، وإنما فى الشكل فقط. كانت هناك افتراضات رائعة تدخل فى صلب أسلوب القراءة: أن الكتب ليست مخادعة، وأننى لست ضعيفة.

أنهى المقالة وأرسلتها إلى البروفسور ستاينبرغ. بعد يومين، عندما جئت إلى اجتماعنا التالى، كان هادئًا. نظر إليّ من وراء الطاولة. انتظرت حتى يقول لى إن المقالة كارثة، كتبها عقل جاهل، وأنها تجاوزت حدودها، وأنها خلصت إلى استنتاجات كثيرة من مادة صغيرة تافهة.

ثم قال: «إنى أدّرس فى كامبريدج منذ ثلاثين سنة، وهذه واحدة من أفضل المقالات التى قرأتها».

كنت قد هيات نفسى لأسمع توبيخًا، لا لأسمع ما قاله.

لا بد أن البروفسور ستاينبرغ قال عن المقالة أكثر من ذلك، لكننى لم أسمع شيئًا. كان عقلى مشغولًا بالرغبة لأن أغادر تلك الغرفة. فى تلك

اللحظة، لم أعد جالسة في غرفة في برج الساعة في كامبريدج، وإنما عدت تلك الفتاة في السابعة عشرة من عمرها، في سيارة جيب حمراء، وفتى أحببته لمس يدي. أجفلت.

كان بإمكانني أن أتحمّل أيّ شكل من القسوة أكثر مما أتحمّل اللطف. كان المديح بمثابة سمّ بالنسبة لي. كنت أختنق منه. كنت أريد أن يصرخ بي البروفسور، كنت أريد ذلك بقوة حتى أنني أحسست بدوار من الحرمان، لا بد أن القبح في داخلي قد كشف عن نفسه. وإذا لم يظهر في صوته، فيجب أن أظهره في صوتي.

لا أتذكّر أنني غادرت برج الساعة، أو كيف أمضيت فترة بعد الظهر. في تلك الأمسية، أقيم عشاء رسمي. كانت القاعة مضاعة بالشموع، وكان ذلك جميلًا، لكنّه أبهجني لسبب آخر: فلم أكن أرتدي ثيابًا رسمية، وإنما كنت أرتدي قميصًا أسود وبنطالًا، وظننت أن الآخرين لن يلاحظوا ذلك في الإضاءة الخافتة. وصلت صديقتي لورا متأخرة. قالت لي إن والديها جاءا لزيارتها وأخذها في رحلة إلى فرنسا، وعادت منذ قليل. كانت ترتدي ثوبًا أرجوانيًا غامقًا له تنورة ذات طيات براقّة. كانت حافة تنورتها ترتفع عن ركبتها بعدّة بوصات، وللحظة خطر لي أن ثوبها غير محتشم، حتى قالت إن والدها اشتراه لها من باريس. لا يمكن أن تكون الهدية التي يقدمها أب لابنته غير محتشمة. فقد بدا لي أن الهدية التي يقدمها الأب هي دليل قاطع بأنّ المرأة ليست قحبة. بدأت أتصارع في داخلي حول هذا التناقض -ثوب غير محتشم، مهدي إلى ابنة محبوبة- حتى انتهت وجبة الطعام ورُفعت الصحون من على الموائد.

في الاجتماع التالي، قال البروفسور ستاينبرغ إنني عندما أتقدّم بطلب إلى الجامعة، فإنه سيعمل على أن يقبلوني في أي كلية أختارها. سألني، «هل زرت هارفارد، أم أنك تفضّلين كامبريدج؟».

تخيّلت نفسي في كامبريدج، خريجة أرتدي روبًا طويلًا أسود يصدر حفيقًا عندما أمشي في الممرات القديمة. ثمّ وأنا محنية في حمّام، ذراعي وراء ظهري، ورأسي في المرحاض. حاولت أن أركز على الطالبة لكنني لم أستطع. لم أستطع أن أتصوّر الفتاة التي ترتدي الروب الأسود من دون أن

أرى الفتاة الأخرى. باحثة أم قحبة، كلاهما لا يمكن أن تكونا حقيقتين. إحداهما كذبة.

«لا أستطيع أن أذهب»، قلت له، «لا أستطيع أن أسدد الرسوم».

«دعيني أتكفل بأمر الرسوم»، قال البروفسور ستاينبرغ.

في أواخر شهر آب (أغسطس)، في ليلتنا الأخيرة في كامبريدج، أقيم حفل عشاء توديعي في القاعة الضخمة. ووضعت على الموائد سكاكين وشوك وكؤوس أكثر مما رأيته في حياتي، وبدت اللوحات على الجدران مثل أشباح في ضوء الشموع. شعرت بأنني مكشوفة في هذه الأناقة، وفي الوقت نفسه، غير مرئية فيها. رحت أحدّق في الطالبات الأخريات وهن يمشين من أمامي، مأخوذة بكلّ ثوب حبري، كلّ عين من عيونهن المكحلة بكثافة. كنت مذهولة بجمالهن.

عند العشاء، استمعت إلى أحاديث صديقتي البهيجة ينما كنت أتوق إلى العزلة في غرفتي. كان البروفسور ستاينبرغ يجلس إلى الطاولة العالية، وكنت كلّما نظرت إليه، اعترتني تلك الغريزة القديمة القابعة في داخلي، تتشنج عضلاتي، استعدادًا للهروب.

عندما بدأت تُقدم الحلوى غادرت القاعة. اعتراني شعور قوي بالراحة عندما هربت من كلّ هذا النقاء وهذا الجمال - لكي لا يصبح كريهًا ومجال مقارنة بالنسبة لي. رأني الدكتور كيري أغادر فتبعني.

كان المكان مظلمًا. كان العشب أسود، والسماء سوداء. أعمدة من الضوء الطباشيري ترتفع من الأرض وتير الكنيسة، المتوهجة، مثل ضوء القمر إزاء السماء الليلية.

«لقد تركت انطباعًا جيدًا لدى البروفسور ستاينبرغ»، قال الدكتور كيري، وصار يمشي بجانبني، «أتمنى أن يكون قد ترك انطباعًا عليك أيضًا». لم أفهم.

«تعالني من هنا»، قال، وانعطفنا نحو الكنيسة، «عندي شيء أريد أن أخبرك به».

سرْتُ وراءه، ألاحظ الصمت الذي يحدثه وقع قدميَّ، مدركة أن حذائي الخفيف لم يكن ينقر بأناقة فوق الحجر كما تفعل كعوب أحذية الفتيات الأخريات.

قال الدكتور كيري إنه كان يراقبني. «إنك تتصرّفين مثل شخص يقلّد شخصًا آخر. وكما لو أنك تظنين أن حياتك تعتمد عليه».

لم أعرف بمَ أجيئه، فلم أقل شيئًا.

«ألم يخطر ببالك»، قال، «إن لديك الحقّ في أن تكوني هنا كما يحق لأي شخص آخر». انتظر أن يسمع مني تفسيرًا.

فقلت: «إني أستمع بتقديم العشاء أكثر من تناوله».

ابتسم الدكتور كيري وقال: «يجب أن تثقي بالبروفسور ستاينبرغ. فإذا قال إنك باحثة من «الذهب الخالص» سمعته يقول - فأنت كذلك».

«هذا مكان خلاب»، قلت، «كلّ شيء يشع هنا».

«يجب أن تتوقفي عن التفكير بهذه الطريقة»، قال الدكتور كيري، وقد ارتفع صوته. «أنت لست معدّتا يشبه الذهب، لا تلمعين إلّا تحت ضوء معيّن. فمهما أصبحت، ستكونين نفسك دائمًا. ستظل فيك دائمًا. لا في كامبريدج. فيك أنت. إنك ذهب خالص، وستعودين إلى جامعة بريغهام يونغ، أو حتى إلى ذلك الجبل الذي جئت منه، ولن يغيّر ذلك من أنت، قد يتغيّر كيف يراك الآخرون، وربما تتغيّر النظرة التي ترين فيها نفسك - حتى الذهب يبدو باهتًا تحت إضاءة ما - لكن هذا هو الوهم. وهو دائمًا هكذا».

أردتُ أن أصدّقه، أن آخذ كلماته وأعيد صياغة نفسي، لكنّ لم يكن لديّ هذا النوع من الإيمان. مهما كان العمق الذي دفنت فيه ذكرياتي، ومهما تجاهلتها، عندما أفكّر بنفسي، فإن الصور التي تتوارد إلى ذهني هي صور تلك الفتاة، في الحمّام، في باحة وقوف السيارات.

لم أستطع أن أخبر الدكتور كيري عن تلك الفتاة. لم أستطع أن أقول له إن السبب الذي يجعلني لا أستطيع أن أعود إلى كامبريدج هو أن كلّ لحظة من وجودي هنا عنيف ومهين في حياتي إلى درجة كبيرة. أما في جامعة

بريغهام يونغ فقد كدت أنسى، وتركت كل ما يمكن أن يمتزج في ما كان. أما التناقض هنا فهو هائل، لأن العالم أمام عيني عالم خيالي إلى درجة كبيرة. إن الذكريات حقيقية أكثر - أكثر تصديقًا - من الأبراج الحجرية، وادّعت أن هناك أسبابًا أخرى تجعلني لا أستطيع أن أنتمي إلى كامبريدج، أسبابًا لها علاقة بالطبقة والمكانة: وهي أنني كنت فقيرة، ونشأت في بيئة فقيرة. يمكنني أن أقف في الريح فوق سطح الكنيسة ولا أهتز، لذلك فأنا لا أنتمي إلى كامبريدج: عاملة بناء أسطح، لا القحبة. أستطيع أن أذهب إلى الجامعة، كتبت في دفتر مذكراتي ذات يوم، وأستطيع أن أشتري ثيابًا جديدة، لكني لا أزال تارا ويستوفر. قمت بأعمال لم يقم بها أي طالب في كامبريدج. مهما ألبستنا من ثياب، فلن نكون نفس الشيء. لا تستطيع الثياب أن تصلح الضرر الذي لحق بي. ثمة شيء تعقّن في داخلي.

لا أعرف إن كانت قد ساورت الدكتور كيري أي شكوك من هذه. لكنّه فهم بأُني أركّز على الثياب كرمز لم أستطع ولن أستطيع أن أنتمي إليه. كان آخر شيء قاله لي قبل أن أمضي، وتركني واقفة، مندهشة، بجانب الكنيسة الكبيرة.

قال: «إن أقوى عامل يحدد من أنت يقع في داخلك»، وأضاف، «يقول البروفسور ستاينبرغ إنك بيغماليون. فكّري بالقصة يا تارا». وقف، عيناه عنيفتان، صوته ثاقب، «كانت فتاة لندنية بسيطة ترتدي ثوبًا بسيطًا. وعندما آمنت بنفسها لم يعد يهمّ ما الذي تلبسه».

الفصل ٢٩ التخرج

انتهى البرنامج وعدت إلى جامعة بريغهام يونغ. بدا لي الحرم الجامعي كما كان من قبل، وكان من السهل أن أنسى كامبريدج وأعود إلى الحياة التي كنت أعيشها. لكن البروفسور ستاينبرغ كان عازمًا على ألا يدعني أنسى. فأرسل لي طلبًا لشيء يُدعى منحة غايتس كامبريدج الدراسية تشبه، كما أوضح لي، منحة رودز الدراسية، لكنها لكامبريدج وليست لأكسفورد. وقال إنها ستقدّم لي تمويلًا كاملاً للدراسة في كامبريدج بما في ذلك رسوم التعليم والسكن والطعام. قلت إن هذا الأمر بعيد المنال لشخص مثلي، لكنّه أصرّ على أن الأمر ليس كذلك، فقدّمت الطلب. وبعد فترة قصيرة، لاحظت حدوث اختلاف آخر، تحوّل صغير آخر. إذ كنت أمضي المساء مع صديقي مارك الذي يدرس اللغات القديمة. كان مارك، مثلي ومثل جميع من هم في جامعة بريغهام يونغ، ينتمي إلى الطائفة المورمونية. «هل تظنين أنه ينبغي لأحد أن يدرس تاريخ الكنيسة؟» سألني.

«نعم»، قلت.

«ماذا لو جعلهم ذلك حزينين؟»

خيل إليّ أنني عرفت ما الذي يقصده، لكنّي انتظرت حتى يوضح لي.

«الكثير من النساء يبدأن صراعًا مع إيمانهن بعد أن يعرفن موضوع تعدد الزوجات»، قال. «لقد حدث ذلك لأُمّي. لا أظن أنها استوعبت الأمر».

«وأنا كذلك»، قلت.

ساد صمت مشحون بالتوتر. كان ينتظر أن أقول ما يجب أن أقوله: بأنّي أصلي لأنني مؤمنة، وصلّيت من أجله كثيرًا.

ربما كنّا نفكر كلانا بتاريخنا، أو ربما كنت أفعل أنا ذلك فقط. فكّرت بجوزيف سميث الذي كانت لديه حوالي أربعين زوجة. وكان لدى بريغهام يونغ

خمسة وخمسين زوجة وستة وخمسين طفلاً. لكن الكنيسة وضعت حدًا لهذه الممارسة الدينيّة لتعدد الزوجات في عام ١٨٩٠، لكنّها لم تلغها. وعندما كنت طفلة علّمني أبي ومدرسة يوم الأحد في الكنيسة - بأن الرب سيعيد ممارسة تعدد زوجات في الوقت المناسب، وأنني سأكون في الحياة الآخرة زوجة من بين زوجات أخريات. وأن عدد أخواتي الزوجات يعتمد على استقامة زوجي وورعه، فكلما كانت حياته نبيلة وتقية، مُنح عددًا أكبر من الزوجات.

لم أشعر بالراحة قط لهذه الفكرة. عندما كنت فتاة صغيرة كنت أتخيّل نفسي في أحيان كثيرة أنني في السماء، أرتدي رداء أبيض، أقف في سحابة لؤلؤية أمام زوجي. وعندما تبتعد عدسة الكاميرا أرى عشر نساء يقفن وراءنا، يرتدين نفس الرداء الأبيض. في مخيلتي، أكون أنا الزوجة الأولى لكنّي كنت أعرف أنه لا توجد ضمانة لذلك. فقد أكون مخفية في أي مكان في سلسلة الزوجات الطويلة. وبقدر ما تسعفني ذاكرتي، فقد كانت هذه الصورة تشكّل صميم فكري عن الجنة: زوجي وزوجاته. كان ثمة مشكلة في هذا الحساب: ففي معرفة حساب التفاضل والتكامل الإلهي في السماء، يمكن أن يساوي الرجل عددًا لا يحصى من النساء.

تذكّرت جدّة جدتي لأُمّي. كنت قد سمعت اسمها لأول مرة عندما كنت في الثانية عشرة، وهي السنة التي، بحسب الطائفة المورمونية، لا تعود الفتاة طفلة وإنما تصبح امرأة. فعندما تبلغ الفتاة الثانية عشرة من العمر، تبدأ الدروس في مدرسة يوم الأحد تشمل كلمات كالطهارة والعفة. وطُلب مني في ذلك العمر أيضًا، كجزء من الواجب الكنسي، أن أتعلّم شيئًا عن أحد أسلافي، فسألت أُمّي من أختار من أسلافي، فقالت بدون تفكير، «آنا ماثيا». رددت الاسم بصوت عال. تردد على لساني مثل بداية قصّة خيالية. قالت أُمّي إنني يجب أن أبجل آنا ماثيا لأنها منحتني هدية وهي صوتها.

قالت لي أُمّي، «إن صوتها هو الذي جلب عائلتنا إلى الكنيسة. فقد كانت قد سمعت مبشرين من الطائفة المورمونية يلقون مواعظ في شوارع النرويج. فصلّت، وحبّاه الله بنعمة الإيمان، وأن جوزيف سميث نبيه. حكّت ذلك لأبيها، لكنّه كان قد سمع قصصًا عن الطائفة المورمونية ولم يدعها تتعمّد، فغنّت له. غنّت له أنشودة مورمونية اسمها «يا أبتّي». عندما أنهت

غناءها، اغرورقت الدموع في عيني أبيها، وقال لها إن الدين الذي توجد فيه موسيقى جميلة كهذه لا بد أن يكون مرسلاً من الله. فتعمّداً معاً».

بعد أن أقنعت آنا ماثيا والديها باعتناق المورمونية، شعرا بأن الله يدعوهم للذهاب إلى أمريكا للقاء النبي جوزيف، فادخراً نقوداً للقيام بهذه الرحلة، لكن بعد سنتين لم يستطيعا أن يجلبا الأسرة كلها وظلت آنا ماثيا هناك.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، وعندما وصلوا إلى أياداهو، إلى مستوطنة مورمونية تدعى وورم كريك، مرضت أمّ آنا، وأصبحت على فراش الموت. كانت أمنيته الأخيرة أن ترى ابنتها، فكتب والدها لآنا، يرجوها أن تأخذ كل ما لديها من نقود وتأتي إلى أمريكا. كانت آنا آنذاك قد وقعت في حب شاب، وكانت على وشك أن يتزوجا، لكنّها تركت خطيبها في النرويج وعبرت المحيط. لكن أمّها ماتت قبل أن تحطّ آنا قدمها على الشاطئ الأمريكي.

أصبحت الأسرة معدمة. ولم يعد لديها مال لترسله آنا إلى خطيبها، لأنها تخلت عن الزواج منه. فأصبحت آنا تشكل عبئاً مالياً على أبيها، فأقنعها أحد الأساقفة بأن تتزوج مزارعاً غنياً كزوجة ثانية لأن زوجته الأولى لم تكن تنجب أطفالاً. وعندما حملت آنا غضبت زوجته الأولى من شدة الغيرة. فخشيت آنا أن تؤذي الزوجة الأولى مولودها، فعادت إلى بيت أبيها وأنجبت توأمًا، نجا أحدهما من برد الشتاء الشديد.

كان مارك لا يزال ينتظر. ثمّ استسلم وغمغم الكلمات التي كان يُفترض أن أقولها، بأنّه لم يكن يفهم ذلك، لكنه يعرف أن تعدد الزوجات مبدأ فرضه الرب.

وافقت. قلتُ الكلمات، ثمّ هيّأت نفسي لموجة من الإذلال -أن تغزو تلك الصورة أفكاري، عني، أن أكون واحدة من زوجات عديدات يقفن وراء رجل واحد، مجهول- لكنّها لم تأت. فتشّيتُ في ثنايا عقلي واكتشفتُ فيه قناعة جديدة: أنني لن أكون أبداً واحدة من زوجات عديدات. صوت أعلن ذلك بشكل حاسم؛ جعلني هذا الإعلان أرتجف. ماذا لو أمر الربّ بذلك؟ تساءلت. لن تفعل ذلك، أجب الصوت. وكنت أعرف أنني لن أفعل ذلك.

فكّرت مرة أخرى بآنا ماثيا، وتساءلت ما نوع ذلك العالم، أنها لكي تتبع نبيًا، تستطيع أن تهجر حبيبها، وتعبّر المحيط، وتقبل زواجًا يخلو من الحب كعشيقة ثانية، ثم تدفن طفلها الأول، فقط لتجعل حفيدتها، بعد جيلين، تعبّر المحيط نفسه، ولم تعد مؤمنة. أنا وريثة آنا ماثيا: لقد منحتني صوتها. لكن لماذا لم تمنحني إيمانها أيضًا؟

ورد اسمي في القائمة القصيرة لمنحة غايتس الدراسية. كان من المزمع أن يجري فحص المقابلة في شهر شباط (فبراير) في أنابوليس. لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أحضر للمقابلة. أوصلتني روبن بالسيارة إلى بارك سيتي حيث يوجد سوق آن تايلور للأسعار المخفضة، وساعدتني على شراء بدلة نسائية زرقاء بينطال وحذاء بدون كعب. لم تكن عندي حقيبة يد فأعارتني روبن حقبتها.

قبل أسبوعين من موعد المقابلة جاء والدائيّ لزيارتي في الجامعة. لم يسبق أن زاراني قبل الآن، لكنّهما كانا في طريقهما إلى أريزونا وتوقّفا لتناول العشاء. أخذتهما إلى المطعم الهندي في الشارع المقابل لشقّتي.

حدّقت النادلة للحظة طويلة في وجه أبي، ثمّ جحظت عيناها عندما وقعنا على يديه. طلب أبي نصف قائمة الطعام. قلت له إن ثلاثة أطباق رئيسية تكفي، لكنّه رمش بعينه وقال إن النقود ليست مشكلة. فقد انتشرت أخبار شفاء أبي بأعجوبة، فجلب له ذلك عددًا كبيرًا من الزبائن، وبدأت جميع القابلات والمعالجين الطبيعيين في منطقة ماوتن ويست يطلبون المنتجات التي تصنعها أمّي.

أثناء انتظارنا الطعام، سألني أبي عن دراستي. قلت له إنني أدرس اللغة الفرنسية، فقال: «إنها لغة اشتراكية»، وألقى عليّ محاضرة دامت عشرين دقيقة عن تاريخ القرن العشرين. وقال إن أصحاب المصارف اليهود في أوروبا وقّعوا اتفاقيات سرية حتى تندلع الحرب العالمية الثانية، وتأمروا مع اليهود في أمريكا لدفع تكاليف تلك الحرب. وهم الذين خططوا للمحرقة، لأنهم سيجنون أموالًا طائلة من الفوضى العالمية التي ستحدث، وأرسلوا بني جلدتهم إلى غرف الغاز من أجل المال.

كنت أعرف هذه الآراء، لكنني فكّرت للحظة لأتذكر أين سمعتها: في محاضرة الدكتور كيري الذي تحدّث فيها عن بروتوكولات حكماء صهيون. البروتوكولات التي نشرت عام ١٩٠٣، والتي يُزعم أنها محاضر اجتماع سري عقده اليهود من أصحاب النفوذ للتخطيط للهيمنة على العالم. ومع أنه تبين أن الوثيقة ملفقة، فقد حظيت بانتشار واسع، لتأجيج المشاعر المعادية لليهود في العقود التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية، وكتب أدولف هتلر عن هذه البروتوكولات في كتابه «كفاحي» وادّعى أنها صحيحة، وأنها تكشف طبيعة الشعب اليهودي الحقيقية.

كان أبي يتكلّم بصوت مرتفع، يصلح لأن يتكلّم به عند سفح الجبل، أما في هذا المطعم الصغير فقد كان صوته مدوّيًا. توقف الأشخاص الجالسون إلى الطاولات القريبة عن أحاديثهم ولاذوا بالصمت، وراحوا يستمعون إلينا. ندمت لأنني اخترت مطعمًا قريبًا جدًّا من شقّتي.

ثم انتقل أبي من الحديث عن الحرب العالمية الثانية إلى الأمم المتحدة، ثم إلى الإتحاد الأوربي، والدمار الوشيك الذي سيحلّ بالعالم. كان يتكلّم كما لو أنّ الأشياء الثلاثة تلك مترادفات. عندما وصل طبق الكاري الذي طلبته، ركّزت انتباهي عليه، وملّت أمّي من محاضرة أبي وطلبت منه أن يتحدث عن شيء آخر.

«لكن العالم على وشك أن ينتهي!» قال. بدأ يصيح الآن.

«طبعًا»، قالت أمّي، «لكن دعنا لا نتحدث عن ذلك على العشاء». وضعت شوكتي ورحت أحدّق بهما. من بين كلّ ذلك الكلام الغريب الذي قاله في نصف الساعة الأخيرة، كان قوله هذا، لسبب ما، هو الذي صدمني. لكنه لم يصدمني من قبل. فقد كنت أقبل كلّ ما يفعله في الماضي، أتمسك بمنطق كنت أفهمه. ربما كانت هذه هي الستارة الخلفية: كان جبل بيكس باك لهما وهما يتستران وراءه، فعندما كنت أراهما هناك، محاطة بجدران طفولتي العالية والحادة، كان يبدو أن المكان يستوعبهما. على الأقل يستوعب الضوضاء، أما هنا، في هذا المكان القريب من الجامعة، فقد أصبحا يبدوان لي شخصين زائفين، لا بل كادا يبدوان لي شخصين خرافيين.

نظر إليّ أبي لكي أبدي برأيي، لكنني شعرت بغربة عن نفسي. لم أعرف من أنا. فعندما أكون على الجبل أنزلق بدون تفكير إلى صوت ابنتهما وأصبح عوّناً لهما، أما هنا، فقد بدا أنني لم أستطع أن أجد الصوت الذي كان يأتي من ظلّ جبل بيكس باك، بسهولة.

عدنا إلى شقّتي وأريتهما غرفتي. عندما أغلقت أمّي الباب، ظهر ملصق لمارتن لوثر كينغ الابن كنتُ قد علّقته على الحائط منذ أربع سنوات، بعد أن درست حركة الحقوق المدنية.

«هل هذا مارتن لوثر كينغ؟» قال أبي، «ألا تعرفين أنه مرتبط بالشيوعية؟» مضغ النسيج الشمعي في المكان الذي تلتقي فيه شفتاه.

غادرا بعد قليل ليسافرا في الليل. رحّت أراقبهما وهما ذاهبان، ثمّ أخذت دفتر مذكراتي، وكتبتُ: من المدهش أنني كنت أصدّق كلّ ذلك من دون أدنى شكّ. كان العالم كله على خطأ، وأبي الوحيد على صواب.

تذكّرت شيئاً كانت زوجة تايلر، ستيفاني، قد قالت لي على الهاتف منذ أيام. قالت إنها استغرقت سنوات حتى تمكنت من إقناع تايلر بأن يسمح لها بأن تلقّح أطفالهما، لأن جزءاً منه كان لا يزال يؤمن بأن اللقاحات مؤامرة تحيكتها المؤسسة الطبية. عندما تذكّرت ذلك الآن، وصوت أبي لا يزال يتردد في أذني، شعرت باحتقار تجاه أخي. يا له من عالم! كتبت. كيف لم يستطع أن يرى ما وراء شكوكهما! أعدت قراءة ما كتبتّه، وعندما قرأته حلّ إحساس بالسخرية محل شعوري بالاحتقار. مرة أخرى، كتبت. ربما يحق لي أن أحتقر تايلر بمصداقية أكبر إذا لم أتذكّر، كما أتذكّر الآن، بأنني لم أحصل على أي تلقّح حتى اليوم.

أُجري فحص المقابلة لمنحة غايتس الدراسية في كليّة سانت جون في أنابوليس. اعتراني شعور بالرهبة في الحرم الجامعي، بمروجه الأنيقة وهندسة مبانيه الجميلة المشيدة على الطراز الكولونيالي. جلست في الممر متوترة الأعصاب، بانتظار أن اسْتُدعى للمقابلة. كنت أشعر بتشنج وأنا في هذه البدلة أحمل بشكل أخرق حقبة يد روبن. لكن البروفسور ستاينبرغ كان قد كتب للجنة رسالة توصية قويّة، فلم تتبق أمامي أشياء كثيرة أفعلها.

تلقيتُ تأكيدًا في اليوم التالي: لقد حصلتُ على المنحة الدراسية.

بدأت المكالمات الهاتفية - ظهر خبر حصولي على المنحة في صفحة أخبار الطلاب في جامعة بريغهام يونغ وفي الأخبار المحليّة، وأُجريت ستّ مقابلات، وظهرت على التلفزيون. استيقظت ذات صباح لأجد صورتي تتصدر صفحة الجامعة الرئيسية على الانترنت. فأنا ثالث طالبة في جامعة بريغهام يونغ تفوز بمنحة غايتس الدراسية، وبدأت الجامعة تنشر ذلك في الصحافة. سُئلت عن تجربتي في المدرسة الثانوية، ومن هم المعلمون الذين درّسوني في المدرسة الابتدائية والذين كانوا سببًا في نجاحي. كنت أراوغ، وأتفادى الإجابات، وأكذب عندما أضطر إلى ذلك. لم أخبر أي مراسل بأنني لم أذهب إلى المدرسة قط.

لم أعرف لماذا لم أستطع أن أخبرهم بذلك. فلم أكن أتحمّل فكرة أن يربّت الناس على ظهري، ويعبّرون عن إعجابهم بي. لم أشأ أن أكون هوراشيو ألجر أثناء تكريم شخص تسيل الدموع على وجهه بسبب الحلم الأمريكي. كنت أريد أن تكون حياتي مقبولة، ولم تكن تبدو لي تلك الحوارات منطقية.

قبل أن أتخرّج بشهر واحد، زرت جبل بيكس باك.

كان أبي قد قرأ المقالات حول منحتي الدراسية، وكان من بين ما قاله لي، «لم تذكرني التعلّم في البيت. كنت أظن أنّك ستكونين أكثر امتنانًا بأنني أنا وأُمّك أخرجناك من تلك المدارس، وقد أثبتني كيف كان ذلك مفيدًا. يجب أن تخبري الناس بأن ذلك هو الذي أوصلني إلى ما أنا فيه: التعلّم في البيت».

لم أقل شيئًا. اعتبر أبي ذلك بمثابة اعتذار.

لم يوافق على ذهابي إلى كامبريدج. «لقد جازف أسلافنا بحياتهم لعبور المحيط، ليهربوا من تلك البلدان الاشتراكية. وماذا تفعلين الآن؟ تديرين ظهرك وتعودين؟»

مرة أخرى، لم أقل شيئًا.

«إني أتطلّع إلى أن تتخرّجي»، قال، «إن الربّ سيلومني لأنني تركتك تذهبين إلى الجامعة».

«لن يفعل ذلك»، قلت بصوت منخفض.

«إذا جعلني الربّ أتحرك، فإني سأقف وأتكلم».

«لن تفعل ذلك»، كرّرت.

«لن أذهب إلى أيّ مكان لا ترحب به روح الربّ».

كان هذا هو الحديث. تمّيت أن يكون قد انتهى، لكن أبي كان متألّمًا لأنني لم أذكر أنني تعلّمت في البيت في المقابلات التي أجريت معي، وقد نكأ ذلك الجرح من جديد.

كان سيقام حفل عشاء في الليلة التي سبقت تخرّجي سأمنح فيها جائزة «أبرز طالب جامعي» في قسم التاريخ. انتظرْتُ أمي وأبي عند المدخل، لكنّهما لم يأتيا. اتصلتُ بأمّي لأنني ظننت أنهما سيتأخران، فقالت لي إنهما لن يأتيا. ذهبْتُ إلى العشاء وقُدّمت لي لوحة. كانت طاولتي الطاولة الوحيدة في القاعة التي ظلت مقاعدها شاغرة. وفي اليوم التالي، أقيم حفل غداء للخريجين الحاصلين على درجة الشرف، وأجلست بجانب عميد الكلية ومدير برنامج درجات الشرف. ومرة أخرى، كان هناك مقعدان فارغان. قلت إن مشكلة حدثت لسيارة والدايَّ وهما على الطريق.

اتصلت بأمّي بعد الغداء.

قالت: «لن يأتي أبوك إذا لم تعتذري، ولن آتي أنا أيضًا».

اعتذرتُ. «يمكنه أن يقول ما يشاء. لكن أرجو أن تأتيا».

لم يريا معظم مراسم الحفل. لا أعرف إن كانا قد رأياني وأنا أتسلّم شهادتي. كلّ ما أتذكّره هو أنني كنت أنتظر مع صديقاتي قبل أن تبدأ الموسيقى، أراقب آبائهن وهم يلتقطون لهن صورًا مع أمهاتهن وهنّ يسوين شعرهن. أذكر أن صديقاتي كنّ يضعن حول أعناقهن أكاليل زهور ملوّنة ومجوهرات أهديت لهن مؤخرًا.

بعد انتهاء الحفل وقفْتُ وحيدة فوق العشب، أراقب الطالبات الأخريات مع أسرهن. في النهاية رأيت والديَّ. عانقتني أمِّي. التقطت صديقتي لورا لنا صورتين. صورة أنا وأمِّي، نبتسم ابتساماتنا المتكلفة، والصورة الأخرى وأنا واقفة في وسطهما، أبدو معصورة بينهما.

كان عليَّ أن أغادر منطقة ماونتِن ويست في تلك الليلة. كنت قد حُزمت أمتعتي قبل حفل التخرُّج. كانت شقَّتِي فارغة، حقائبي عند الباب. تطوَّعت لورا أن توصلني بسيارتها إلى المطار، لكن والداي طلبا أن يوصلاني إلى المطار.

توقَّعتُ أن ينزلاني على الرصيف أمام المطار، لكن أبي أصرَّ على مرافقتي إلى داخل المطار. انتظرا وأنا أسلِّم حقائبي، ثمَّ تبعاني إلى بوابة الأمن. بدا لي كما لو كان أبي يريد أن يمضي معي حتى آخر لحظة حتى أُغَيَّر رأيي. سرنا صامتين. عندما وصلنا إلى بوابة الأمن عانقتهما وودعتهما. خلعت حذائي ووضعتَه مع جهاز الكمبيوتر النقال وآلة التصوير في العلبة، ثمَّ مررت عبر نقطة التفتيش، ثمَّ أعدت لملمة أغراضي، وتوجَّهت إلى بوابة رحلتي.

عندها فقط التفتُ ورأيت أبي. كان لا يزال واقفًا عند نقطة التفتيش، يراقبني وأنا أبتعد، يده في جيبه، وكتفاه محدودبان، وفمه مرخي. لوَّحت له فخطا إلى الأمام، كما لو كان يريد أن يتبعني، فتذكَّرت تلك اللحظة، منذ سنوات، عندما كانت خطوط الكهرباء تغطي سيارة الستايشن، وأمِّي ما تزال في داخلها، عندما وقف أبي بجانبها، يعتصره القلق.

كان ما زال واقفًا تلك الوقفة عندما انعطفت عند الزاوية. صورة أبي تلك ستبقى معي دائمًا: تلك النظرة على وجهه، نظرة الحبِّ والخوف والفقد. كنت أعرف لماذا كان خائفًا. زلَّت من بين شفَّتيه في آخر ليلة أمصيتها في جبل بيكس باك، نفس الليلة التي قال فيها إنه لن يحضر حفل تخرجي.

«لو كنتَ في أمريكا»، قال هامسًا، «لكان بإمكاننا أن نأتي لنراك أينما كنتَ موجودة. فلا يزال عندي ألف غالون من البنزين مدفونة في الحقل. يمكنني أن أحضرك عندما يأتي يوم الهلاك، أعيدك إلى البيت، أجعلك آمنة. لكن إذا عبرت المحيط». الجزء الثالث

الفصل ٣٠

يد الله

بوابة حجرية تسد المدخل إلى ترينيتي كولدج، ويوجد باب خشبي صغير داخل البوابة الحجرية. مشيت عبر البوابة. مرافق في معطف أسود على رأسه قبعة كان يرافقني ليطلعني على أرجاء الجامعة، مشينا عبر ساحة ضخمة، أضخم ساحة رأيته في حياتي. سرنا فوق ممر حجري ثم انتقلنا إلى ممر مغطى حجارتة بلون القمح الناضج.

قال لي: «هذا هو الدير الشمالي. هنا وطأ نيوتن بقدمه من أجل قياس الصدى، وحسب سرعة الصوت لأول مرة».

عدنا إلى البوابة الضخمة. كانت غرفتي أمامها مباشرة، فوق ثلاثة أدوار من الدرج. بعد أن ذهب المرافق، وقفت مع حقائبي، ورحت أهدق من نافذتي الصغيرة في البوابة الحجرية الأسطورية والأبراج التي تنتمي إلى عالم آخر. كانت كامبريدج كما تذكّرتها تمامًا: جميلة، عتيقة. أما أنا فقد أصبحت مختلفة الآن. فلم أعد زائرة ولا ضيفة، وإنما أصبحت الآن طالبة رسمية في هذه الجامعة، واسمي مطبوع على الباب. استنادًا إلى الأوراق الرسمية، فأنا أنتمي إلى هذا المكان.

ارتديت ثيابًا سوداء لحضور محاضرتي الأولى، راجية ألا أبدو مميزة عن الآخرين، لكن على الرغم من ذلك، لا أظن أنني كنت أبدو مثل الطلاب الآخرين. وبالتأكيد لم أكن أتكلّم مثلهم، لا لأنهم بريطانيون فحسب، وإنما لأنه توجد في طريقة كلامهم نبرة إيقاعية جعلتني أفكر بالغناء أكثر من الكلام. بالنسبة لأذني، كان كلامهم منمقًا، مثقفًا، أما أنا فكان لدي ميل للغمغة، وعندما أكون متوترة، للتأتأة.

اخترت مقعدًا حول الطاولة الكبيرة المربعة ورحت أنصت إلى أقرب طالبين جالسين بجانبني يتناقشان في موضوع المحاضرة الذي كان عن مفهومٍ أشعيا برلين عن الحرية. قال الطالب الجالس بجانبني إنّه درس

أشعيا برلين في أكسفورد، وقال الطالب الآخر إنّه سمع ملاحظات هذا المحاضر عن برلين عندما كان طالبًا في كامبريدج. أما أنا فلم أسمع شيئًا عن أشعيا برلين قط.

بدأ المحاضر محاضرتة. كان يتكلّم بهدوء، لكنه كان يتنقل في الموضوع بسرعة، كما لو كان يفترض بأننا على دراية به. وقد أكّد ذلك الطلاب الآخرون، الذين لم يكن معظمهم يدوّن ملاحظات. أما أنا فقد دوّنت كلّ كلمة قالها.

«إدّا ما هما مفهومًا أشعيا برلين؟» سأل المحاضر. رفع الجميع تقريرًا أيديهم. طلب المحاضر من الطالب الذي درس في أكسفورد أن يجيب، فقال: «الحرية السلبية هي الحرية الناجمة عن عقبات أو قيود خارجية. وفي هذه الحالة فإن الفرد لا يكون حرًا إذا لم يُمنع من القيام بأي تصرف جسديًا». لوهلة، تذكّرت ريتشارد الذي كان قادرًا دائمًا على ترديد أي شيء قرأه بدقة كبيرة.

«ممتاز»، قال المحاضر، «وما هي الثانية؟»

«الحرية الإيجابية»، قال طالب آخر، «هي التحرر من القيود الداخلية».

كتبْتُ هذا التعريف في ملاحظاتي، لكنّي لم أفهمه.

حاول المحاضر أن يوضح أكثر، فقال إن الحرية الإيجابية هي القدرة على تمالك النفس - حكم النفس بالنفس. وقال إنه لكي يمتلك المرء حرية إيجابية، يجب أن يسيطر على عقله، وأن يتحرّر من المخاوف والمعتقدات اللا عقلانية التي تملكه، ومن الإدمان، والإيمان بالخرافات، وجميع أشكال إكراه النفس الأخرى.

لم أعرف ما الذي قصده بإكراه النفس. نظرتُ حولي في القاعة. لم يكن أحد غيري يبدو مشوّشًا. كنت واحدة من الطلاب القلائل الذين يدونون ملاحظات. أردت أن أطلب تفسيرًا آخر، لكن ثمة شيء أوقّفني - فإذا فعلت ذلك، فإن هذا يعني أنني أعلن لجميع من في القاعة بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان.

بعد المحاضرة، عدت إلى غرفتي، ونظرت من نافذة غرفتي إلى البوابة الحجرية وأبراجها ذات الفتحات التي تعود إلى القرون الوسطى. فكّرت بالحرية الإيجابية، وماذا يمكن أن يعني إكراه النفس، حتى بدأ رأسي يخفق بألم خفيف.

اتصلت بالبيت. أجابت أمي. ارتفع صوتها بحماسة عندما عرفت صوتي الباكي «مرحبًا يا أمي». قلت لها إنه لم يكن عليّ أن آتي إلى كامبريدج، وأُتني لم أفهم شيئًا. قالت إنها كانت تجري اختبار عضلات واكتشفت أنه يوجد خلل في أحد مراكز القوى الروحية السبعة (الشاكر)، وقالت إنها تستطيع تعديلها. ذكّرتها إني أبعد عنها خمسة آلاف ميل.

فقلت: «لا يهم، سأعدّل الشاكر على أودري ثم أجّحها لك».

«ماذا ستفعلين؟»

«أجّحها»، قالت، «فالمسافة لا شيء بالنسبة للطاقة الحيّة. يمكنني أن أرسل الطاقة المعدّلة لك من هنا».

فسألتها، «ما هي السرعة التي تسافر فيها الطاقة؟ بسرعة الصوت، أم بسرعة طائرة نفاثة؟ هل أنها تحلّق مباشرة، أم أنها يجب أن تتوقف للاستراحة في مينيبوليس؟»

ضحكت أمي وأغلقت الخط.

كنت أدرس طوال فترة الصباح في مكتبة الجامعة، أجلس بجانب نافذة صغيرة. كنت أدرس في المكتبة عندما أرسل لي درو، وهو صديق من جامعة بريغهام يونغ، أغنية بالإيميل. قال إنها أغنية كلاسيكية لكنني لم أسمع عنها قبل الآن، ولم أسمع عن المغني أيضًا. شغلّت الأغنية ورحت أسمعها من سماعاتي. أعجبتني على الفور. استمعت إليها مرات كثيرة وأنا أحدّق في الدير الشمالي.

حرروا أنفسكم من العبودية العقلية

لا أحد سوانا يستطيع أن يحرّر عقولنا

كتبْتُ هذين السطرين في دفتر ملاحظاتي، على هوامش المقالات التي كنت أكتبها. أخذت أتمعن فيها بينما كان عليّ أن أقرأ دروسي. ومن الإنترنت عرفت بالسرطان الذي اكتُشف في قدم بوب مارلي، وعرفت أيضًا أنّ مارلي ينتمي إلى الديانة الراسخافارية التي يؤمن أتباعها «بالجسد الكامل»، فرفض أن يُجري جراحة لبتَر إصبع قدمه، ومات بعد أربع سنوات، وهو في السادسة والثلاثين من العمر.

حرروا أنفسكم من العبودية العقلية. كتب مارلي هذه العبارة قبل موته بسنة، عندما أخذ ورم الميلانوما الذي كان من الممكن استئصاله بعملية جراحية، ينتشر في تلك اللحظة إلى رئتيه وكبدته ومعدته ودماغه. تخيلت جرّاحًا جشعًا ذا أسنان حادّة وطويلة، وأصابع مثل هيكل عظمي يحثّ مارلي على إجراء عملية البتر. انكمشتُ من هذه الصورة المخيفة للطبيب والطب الفاسد، عندها فقط فهمت، كما لم أفهم من قبل، بأنه على الرغم من أنّي تخلّيت عن عالم أبي، فإنني لم أجد الشجاعة الكاملة حتى أعيش في عالمي.

قلبتُ دفتر ملاحظاتي إلى المحاضرة عن الحرية السلبية والإيجابية. في زاوية فارغة، خربشت عبارة لا أحد إلّا سوانا يستطيع أن يحزّر عقولنا. ثمّ أخذت هاتفي واتصلت.

«أريد أن آخذ التلقينات اللازمة»، قلت للممرضة.

كنت أحضر حلقة دراسية بعد ظهر كلّ يوم أربعاء. لاحظت امرأتين، كاترينا وصوفي، تجلسان معًا دائمًا. لم أكلمهما حتى ذلك اليوم قبل أسابيع من عيد الميلاد، عندما سألتاني إن كنت أريد أن أحتسي معهما قهوة. لم أكن «قد احتسيت قهوة» قبل الآن قط - لم أذق طعم القهوة لأن الكنيسة حرّمتها - لكنّي تبعتهما واجتزنا الشارع إلى المقهى. كانت النادلة نافذة الصبر ولم تنتظرنني كثيرًا، فاخترت شيئًا لا على التعيين، فأعطتني كوبًا صغيرًا فيه سائل بلون الطين وملعقة صغيرة، ونظرت بلهفة إلى الكوبين اللذين حملتهما كاترينا وصوفي إلى طاولتنا واللذين تعلوهما الرغبة. راحتا تناقشان بعض المفاهيم التي أثّرت في المحاضرة، أما أنا فكنت أناقش إن كان عليّ أن أحتسي قهوتي أم لا.

كانتا تستخدمان عبارات معقّدة بسهولة كبيرة، منها «الموجة الثانية» التي كنت قد سمعتها قبل الآن لكنني لم أكن أعرف ماذا تعني، وعبارة أخرى مثل «الهيمنة الذكورية». لم أستطع أن أدع لساني يتكلم، ناهيك عن عقلي. رشفت عدة رشفات من السائل الحبيبي اللاذع قبل أن أفهم أنّهما كانتا تتحدّثان عن الحركة النسوية. رحّض أحّدق فيهما كما لو كانتا تجلسان خلف زجاج. فلم أسمع أحدًا من قبل يستخدم كلمة «النسوية» إلّا بأنها كلمة تنطوي على مدلول قبيح. ففي جامعة بريغهام يونغ، كانت عبارة «يبدو كأنك نسوية» تعني انتهاء المناقشة، وتعني أيضًا أنّني خسرت.

غادرتُ المقهى وعدت إلى المكتبة. بعد خمس دقائق من البحث على الإنترنت وزيارات عديدة إلى رفوف الكتب، عدت أجلس في مكاني وقد تكدست أمامي كومة كبيرة من الكتب لمؤلفين فهمت الآن أنهم ينتمون إلى الموجة الثانية - بيتي فريدان، وجيرمين غرير، وسيمون دي بوفوار. قرأت بضع صفحات من كلّ كتاب قبل أن أغلقه. لم أر قط كلمة «مهبل» مطبوعة في كتاب، أو تُنطق بصوت مسموع.

عدتُ إلى الإنترنت ثم إلى رفوف الكتب، واستبدلتُ كتب الموجة الثانية بالكتب التي سبقت الموجة الأولى - ماري ولستونيكرافت وجون ستيوارت ميل. قرأت طوال فترة بعد الظهر حتى المساء، وللمرة الأولى بدأت أتعرف بسهولة على مفردات لم أكن أعرفها منذ أن كنت طفلة.

منذ أن أدركت لأول مرة أنّ أخي ريتشارد صبي وأنا فتاة، أصبحت أريد أن أبادل مستقبله بمستقبلي. فمستقبلي مستقبل أمومة، ومستقبله مستقبل أبوة. كانا يبدوان متشابهين، لكنّهما ليسا كذلك. أن تكون أحدهما يعني أن تكون صاحب قرار، أن تكون رئيسًا، أن تدعو الأسرة إلى اجتماع، أما أن تكون الآخر، فيعني أن تكون بين الذين يُدعون إلى الاجتماع.

عرفتُ أن رغبتني هذه ليست طبيعية. فقد أتتني هذه المعرفة، مثل الكثير من معرفتي الذاتية، في صوت أناس أعرفهم، أناس أحببتهم. لازمني ذلك الصوت طوال تلك السنوات، يهمس، يتساءل، يقلق. بأنّني لست على صواب.

بأنّ أحلامي مجرد انحرافات. كان لذلك الصوت نبرات عديدة، نغمات كثيرة. في بعض الأحيان كان صوت أبي، وفي أحيان كثيرة كان صوتي.

أخذتُ الكتب إلى غرفتي وقرأتُ طوال الليل. أحببت الصفحات الحماسية لماري ولستونيكرافت، إلّا أن عبارة واحدة لجون ستيوارت ميل، عندما قرأتها، حرّكت فيّ العالم: «إنه موضوع لا يستطيع أحد أن يعرف عنه شيئاً نهائياً». الموضوع الذي يقصده ميل هو طبيعة المرأة، فقد قال ميل لقد تم إقناع النساء، ودُفعن إلى ممارسة مجموعة من التشويهات الأنثوية منذ قرون عديدة، فأضحى من المستحيل الآن تحديد قدراتهن الطبيعية أو تطلّعاتهن.

اندفع الدم إلى رأسي. أحسست بدفقة منعشة من الأدرينالين، من القدرة، من حدود دُفعت إلى الخارج. حول طبيعة المرأة، لا يمكن أن يُعرف شيء نهائي. لم أجد راحة كهذه في فراغ، في الغياب الأسود للمعرفة. كان يبدو أنه يقول: مهما كنتِ، فستظلين امرأة.

في كانون الأول (ديسمبر)، بعد أن قدّمت مقالتي الأخيرة، استقلت القطار إلى لندن ثم سافرت بالطائرة. استقبلتني أمّي وأودري وإيميلي في المطار في مدينة سولت لايك، وسرعان ما أصبحنا على الطريق السريع. عندما ظهر الجبل كنا قد أصبحنا في منتصف الليل. كان باستطاعتي أن أرى عظمته وهو يلامس السماء التي بلون الحبر.

عندما دخلت إلى المطبخ لاحظت وجود فتحة في الحائط تفضي إلى ملحق جديد بناه أبي. اجتزنا أنا وأمّي الفتحة وأشعلت الضوء.

«أليست رائعة؟» قالت. «رائعة» كانت الكلمة.

كانت الغرفة ضخمة بحجم مصلى في كنيسة، لها سقف مقبّب يرتفع حوالي سِتّة عشر قدمًا في الهواء. كانت مساحة الغرفة سخيفة إلى درجة كبيرة، وقفت لحظة أتمعن في الديكور. كانت الجدران عبارة عن ألواح صخرية مكشوفة تتناثر كثيرًا مع الألواح الخشبية التي تغطي السقف المقبّب، والأرائك القرمزية من الجلد المدبوغ إلى جانب كنبه صغيرة مليئة بالبقع كان أبي قد جلبها من باحة الخردة منذ سنوات. وغطت بسط سميكة

رسمت عليها أشكال معقّدة نصف الأرضية، بينما ظلّ النصف الآخر مكشوفًا بالإسمنت الخام. وكانت هناك آلات بيانو عدة، يمكن العزف على واحد منها فقط، وجهاز تلفزيون بحجم طاولة طعام. كانت الغرفة تلائم أبي تمامًا: فهي أضخم من الحياة ومتنافرة إلى درجة كبيرة.

كان أبي يقول دائمًا إنه يريد أن يبني غرفة بحجم باخرة سياحية لكنّ لم أكن أتخيّل أنه سيصبح لديه أموال كافية تمكنه من عمل ذلك. نظرت إلى أمّي لتفسّر لي الأمر لكنّ أبي أجاب. العمل جيد جدًّا، قال موضحًا. فقد أصبحت الزيوت الأساسية معروفة، وتنتج أمّك أفضل أنواع الزيوت في السوق. قال: «الزيوت التي تنتجها أمّك ذات نوعية ممتازة، وبدأنا نأكل أرباح الشركات الكبيرة. إنهم يعرفون كلّ شيء عن عائلة ويستوفر في أياداهو». وقال لي أبي إن إحدى الشركات تخشى كثيرًا من نجاح الزيوت التي تنتجها أمّي، وعرضوا أن يشتروا حصتها بمبلغ ثلاثة ملايين دولار. لكن والدائيّ لم يفكرا بالأمر، لأن الشفاء هدفهما، ولا يمكن أن يغريهما أي مبلغ من المال. وقال أبي إنهما يأخذان معظم الأرباح التي يحصلان عليها ويعيدان تكريسها إلى الله في شكل تجهيزات - طعام، وقود، حتى بناء ملجأ حقيقي للحماية من القنابل. كتمتُ ابتسامة. ماذا يمكنني أن أقول سوى أن أبي يسير على الطريق حتى يصبح أفضل مجنون مموّل في منطقة ويست ماونت.

ظهر ريتشارد عند بئر الدرج. كان على وشك أن ينهي دراسته الجامعية في الكيمياء في جامعة ولاية أياداهو. جاء للاحتفال بعيد الميلاد مع زوجته كامى وابنهما دونافان البالغ من العمر شهرًا واحدًا. عندما قابلت كامى منذ سنة، كان ذلك قبل حفل الزفاف مباشرة، كنت مندهشة كم كانت تبدو طبيعية. ومثل ستيفاني، زوجة تايلر، كانت كامى غريبة: فهي تنتمي إلى الطائفة المورمونية، لكنّها كانت تنتمي أيضًا إلى ما يسميه أبي «التيار الرئيسي». وشكرتُ أمّي على نصيحتها في تناول الأعشاب لكن بدا أنها لن تتخلّى عن الأطباء، لأنها أنجبت دونافان في المستشفى.

تساءلتُ كيف يستطيع ريتشارد أن يبحر في المياه المضطربة بين زوجته الطبيعية ووالديه غير الطبيعيين. رحت أراقبه جيدًا في تلك الليلة، وبدا لي أنّه يحاول أن يعيش في كلا العالمين، ليكون تابعًا وافيًا لجميع المذاهب. وعندما

أدان أبي الأطباء ووصفهم بأنهم أتباع الشيطان، التفت ريتشارد إلى كامي وضحك ضحكة صغيرة كما لو أنّ أبي يقول ذلك مازحًا. لكن عندما ارتفع حاجبا أبي، تغيّرت تعابير ريتشارد وتحوّلت إلى تعابير تشي بالتأمل والموافقة الجدّية. كان يبدو أنه يعيش في حالة من التحوّل المستمر، يدخل ويخرج في مراحل، غير متأكد من أنه ابن أبي أم زوج زوجته.

تلقت أمّي طلبات كثيرة في العطلة، فأمضيت أيامي في جبل بيكس باك كما كنت أمضيها في طفولتي: في المطبخ، أحضّر الأعشاب. أصبّ الماء المقطّر وأضيف القطرات من الصيغة الأساسية، ثمّ أتمرر القنينة الزجاجية الصغيرة عبر الحلقة التي أصنعها بإبهامي وسببتي، وأعدّ إلى خمسين أو إلى مائة، ثمّ أنتقل إلى الأخرى. دخل أبي ليشرب ماء. ابتسم عندما رأيته، وقال: «من كان يعرف أننا سنرسلك إلى كامبريدج لتعودي إلى المطبخ حيث تنتمين؟»

بعد الظهر، كنت أنا وشون نسرج الخيول ونصعد إلى الجبل حيث كانت الخيول تقفز نصف قفزة لتسير فوق أكوام الثلج التي تصل حتى بطونها. كان الجبل جميلًا ونضّرًا، وكانت تفوح في الهواء رائحة الجلد والصنوبر. كان شون يتحدث عن الخيول، وعن تدريبها، وعن المهور التي يُتوقّع أن تلد في الربيع، وتذكّرت أنّه يكون دائمًا في أفضل حالاته عندما يكون مع خيوله.

كان قد مضى أسبوع تقريبًا على وجودي في البيت عندما هبّت عاصفة برد شديدة على الجبل، فهبطت درجة الحرارة إلى الصفر، ثمّ انخفضت أكثر. وضعنا الخيول في زرائبها، لأننا نعرف أنها إذا عرقت فإن العرق على ظهورها سيتجمّد. كان الماء يتجمّد في الأحواض، فنكسر الثلج لكن سرعان ما يتجمد ثانية، حتى بدأنا نجلب دلاء ماء لكلّ حصان.

في تلك الليلة مكث الجميع داخل البيت. كانت أمّي تمزج الزيوت في المطبخ، وكان أبي في الملحق الذي بدأت أطلق عليه مازحة اسم المصلّي. كان مستلقيًا على الأريكة القرمزية، الكتاب المقدس على بطنه، بينما كان ريتشارد وكامي يعزفان بعض التراتيل على البيانو. جلست على الأريكة الصغيرة قرب أبي أستمع من كمبيوتر النقال، إلى موسيقى بواسطة

سماعات. كنت قد بدأت للتو أكتب رسالة إلى درو عندما ضرب شيء الباب الخلفي. فُتح الباب عنوة، واندفعت إيميلي إلى الغرفة.

كانت تُلّف ذراعيها النحيفتين حول جسمها وهي ترتجف وتلهث. لم تكن ترتدي معطفاً ولا حذاء. لا شيء سوى بنطال جينز، بنطال قديم كنت قد تركته وأحد قمصاني القطنية المهترئة. ساعدتها أمي على أن تجلس على الأريكة، ولقّتها بأقرب بطانية. كانت إيميلي تصرخ، ولبضع دقائق لم تستطع حتى أمي أن تجعلها تحكي لنا ما الذي جرى. هل الجميع بخير؟ أين هو بيتري؟ كان هُشاً، حجمه نصف الحجم الذي كان من المفترض أن يكون، وما زال يضع أنابيب أوكسجين لأن رئتيه لم تنموا نموّاً كاملاً. هل توقفت رئتاه الصغيرتان، هل توقّف تنفّسه؟

ثم بدأت القصة تتكشف شيئاً فشيئاً، بين النشيج المتقطع واصطكاك الأسنان. ومما أستطيع أن أرويه هنا، هو أنه عندما ذهبت إيميلي إلى محل ستوكس بعد ظهر ذلك اليوم لشراء بعض المواد، عادت إلى البيت ومعها البسكويت الذي لم يكن يحبه بيتري، فانفجر شون. «كيف يمكنه أن ينمو إذا كنت لا تستطيعين أن تشتري له الغذاء الصحيح!» صرخ بها، ثم حملها وألقى بها خارج مقطورتهم فوق تلة من الثلج. فراحت تطرق الباب بقوة، تتوسل إليه لأن يدعها تدخل، ثم جرت إلى سفح التل إلى البيت. حدّقْتُ في قدميها العاريتين وهي تحكي لنا ذلك. كانتا محمرتين كما لو كانتا محروقتين.

جلست إيميلي وسط والدائيّ على الأريكة، يربّتان على كتفيها ويعصران يديها. كان ريتشارد يذرع الغرفة على بعد بضعة أقدام خلفهم. كان يبدو محبطاً، قلقاً، كما لو كان سينفجر ويفعل شيئاً، لكنه تمالك نفسه.

كانت كامى ما تزال جالسة إلى البيانو، تحدّق في الأشخاص المتكومين فوق الأريكة، مشوّشة. فهي لم تفهم إيميلي، ولم تفهم لماذا يذرع ريتشارد الغرفة، ولماذا يتوقف كلّ بضع ثوان وينظر إلى أبي، ينتظر منه كلمة أو إيماءة - أيّ إشارة إلى ما يجب أن يفعله.

نظرْتُ إلى كامى وأحسست بضيق في صدري. شعرت بأنني أكرهها لأنها رأت ذلك. تخيلت نفسي في مكان إيميلي. من السهل عمل ذلك - لم أستطع

ألاً أفعل ذلك - وفي لحظة رأيت نفسي في باحة وقوف السيارات، أضحك بصوت عال، محاولة أن أقنع العالم بأن رسغي لم يكن على وشك أن يُكسر. قبل أن أعرف ما الذي يجب أن أفعله عبرت الغرفة. أمسكت بذراع أخي وسحبته معي نحو البيانو. كانت إيميلي لا تزال تنشج، فاستخدمت بكاءها لأعطي على همساتي. قلت لكامي إنَّ ما نراه شأن عائلي خاص، وأن إيميلي ستشعر بالحرج من ذلك غداً، وقلت إننا، من أجل إيميلي، علينا أن نذهب إلى غرفنا ونترك الأمر بيد أبي.

نهضت كامي التي قرّرت أن تثق بي، أما ريتشارد فقد تردّد، ونظر إلى أبي نظرة طويلة، ثمّ لحق بها وخرج من الغرفة.

سرت معهما في الممر ثمّ رجعت. جلست إلى طاولة المطبخ ورحت أراقب الساعة. مرت خمس دقائق، ثمّ عشر دقائق. هيا، يا شون، قلت تحت أنفاسي. تعال الآن.

أقنعت نفسي بأنه إذا جاء شون بعد دقائق، فإن ذلك يؤكد أن إيميلي ستعود إلى البيت - وأنه لم يرمها فوق الثلج ويكسر ساقها، وأنها لم تكن ستموت من شدّة البرد في الحقل - لكنّه لم يأت.

بعد عشرين دقيقة، عندما توقّفت إيميلي أخيراً عن الارتعاش، رفع أبي سماعة الهاتف. «تعال وخذ زوجتك!» صاح به. كانت أمّي تسند رأس إيميلي على كتفها. عاد أبي إلى الأريكة وربّت على ذراع إيميلي، بينما كنت أحدّق بهم ثلاثتهم وهم متكومون فوق بعضهم، تكوّن لدي الانطباع بأن كلّ هذا كان قد جرى قبل الآن، وأن كلّ واحد منهم تدرب على دوره جيداً. حتى أنا فقد حفظت دوري جيداً.

ستمضي عدة سنوات قبل أن أفهم ما الذي جرى حقاً في تلك الليلة، وماذا كان دوري فيما جرى. كيف كنت أفتح فمي عندما كان يجب أن أظل صامتة، وأغلقه عندما كان يجب أن أتكلّم. إن ما كنت أحتاج إليه هو ثورة، أن نعكس الأدوار القديمة الهشّة التي كُنا نوّديها منذ أن كنت طفلة. ما الذي كان لازماً - ما الذي كانت إيميلي تحتاج إليه - هو أن تكون امرأة تتحرر من ربة

التظاهر والادعاء، امرأة تستطيع أن تُري نفسها بأنها رجل، أن تستطيع أن تبدي رأيًا، أن تتصرف وتحتقر الاستسلام والإذعان.

كانت الأبواب الزجاجية التي ركبها أبي تصدر صريرًا كلما فُتحت. اندفع شون بحذائه الطويل الثقيل ومعطفه الشتوي السميك. ظهر بيتر من بين طيّات لحاف صوفي سميك كان شون يحميه به من البرد، وجاء إلى إيميلي. تعلّقت به. وقف أبي. أشار إلى شون بأن يجلس على المقعد بجانب إيميلي. وقفتُ لأعود إلى غرفتي، ثم وقفت لألقي نظرة أخيرة على أبي الذي أخذ نفسًا عميقًا، يستعد لإلقاء محاضرة طويلة.

«كان الأمر صعبًا»، أكدت لي أمي بعد عشرين دقيقة، عندما ظهرت عند باب غرفتي وسألتني إن كان بإمكانني أن أغير إيميلي حذاء ومعطفًا. جلبتها لها وراقبتها من المطبخ وهي تختفي، مندسّنة تحت ذراع أخي.

الفصل ٣١

مأساة ثم مهزلة

قبل يوم واحد من عودتي إلى إنكلترا، قدت سيارتي مسافة سبعة أميال على امتداد السلسلة الجبلية، ثم انعطفت إلى طريق ترابي ضيق ووقفت أمام بيت أزرق فاتح. ركنت السيارة وراء عربة بيت متنقل كبيرة بحجم البيت نفسه. قرعت الباب، وفتحت لي أختي.

وقفت عند المدخل في بيجامتها الفانيلا، تحمل طفلًا صغيرًا على وركها، وفتاتان صغيرتان تتشبثان بساقها. ووقف وراءها ابنها الذي لم يتجاوز ست سنوات. أفسحت لي أودري الطريق لأدخل، لكن حركاتها كانت متشنجة، وتحاشت النظر إليّ مباشرة. لم نمض وقتًا طويلًا معًا منذ أن تزوّجت.

دخلت إلى البيت، وتوقّفت فجأة عند المدخل عندما رأيْتُ فتحة عرضها ثلاثة أقدام في أرضية المدخل تفضي إلى القبو. تجاوزت الفتحة واتجهت إلى المطبخ الذي تفوح فيه رائحة الزيوت التي تعدّها أمنا - البتولا، الأوكالبتوس، الرافنسيرا.

كان الحديث الذي دار بيننا بطيئًا، متقطعًا. لم تسألني أودري شيئًا عن إنكلترا أو عن كامبردج. لم تكن تعرف شيئًا عن حياتي، فتحدّثنا عن حياتها - لأن نظام التعليم فاسد فإنها تعلّم أطفالها بنفسها في البيت. ومثلي، لم تذهب أودري إلى المدرسة، وعندما كانت في السابعة عشرة، حاولت أن تتقدم لامتحان الشهادة الثانوية. وكانت قد طلبت من ابنة خالتنا ميسي أن تساعدنا في الدراسة فجاءت من مدينة سولت لايك. وحاولت ميسي أن تدرّس أودري طوال الصيف، وفي النهاية قالت إن مستوى أودري لا يتجاوز الصف الرابع أو الصف الخامس، وأن نجاحها في امتحان شهادة الثانوية مستبعد تمامًا. عضضت على شفتي ونظرت إلى ابنتها التي أحضرت رسمة كانت قد رسمتها لتريني إياها، وتساءلت أي تعليم يمكن أن تأمل في أن تمنحه لها أمّ لم تحصل عليه أصلًا.

حضرتنا الفطور للأطفال، ثم لعبنا معهم في الثلج. حَبَزنا معجنات، وشاهدنا مسلسلات عن الجريمة وصمّمنا أساور من خرز. كان ذلك كما لو أنني دخلت في مرآة وأعيش يومًا الحياة التي كان من الممكن أن أعيشها، لو أنني بقيت في الجبل. لكنني لم أبق. لقد تباعدت حياتي عن حياة أختي، وبدأ كما أنه لم تكن هناك أرضية مشتركة بيننا. مضت الساعات. أصبحنا في وقت متأخر من بعد الظهر، وكانت لا تزال تشعر بالبعد عني. كانت ما تزال ترفض أن تلتقي عيناها بعيني. كنت قد أحضرت لأطفالها طقم شاي صغير من الخزف، وعندما بدأوا يتشاجرون على إبريق الشاي، لملمت القطع. ذكّرتني الابنة الأكبر بأنّها في الخامسة من عمرها وقالت إنها أصبحت فتاة كبيرة ويجب ألا آخذ منها اللعبة، فقلت لها: «إذا تصرّفت كطفلة، فإني سأعاملك كطفلة».

لا أعرف لماذا قلت لها ذلك. أظنّ أن شون خطر ببالي في تلك اللحظة. ندمت لأنني قلت هذه الكلمات حتى عندما كانت تغادر شفتي، كرهت نفسي لأنني قلتها. التفتُّ لأعطي طقم الشاي لأختي، لتوزعه على أطفالها كما تشاء، لكن عندما رأيت تعابير وجهها، أحجمت. كان فمها فاغرًا في دائرة كاملة.

«كان شون يقول ذلك»، قالت، مثبتة عيناها على عيني.

لم تفارقني تلك اللحظة. تذكّرتها في اليوم التالي، عندما استقلت الطائرة في مطار مدينة سولت لايك، ولازمتني حتى عندما هبطت في لندن. كانت الصدمة التي أحدثتها هي التي لم أستطع أن أنفضها عني. بطريقة ما، لم يخطر ببالي قط أنّ أختي ربما عاشت حياتي قبل أن أعيشها.

في ذلك الفصل الدراسي، قدّمتُ نفسي إلى الجامعة كما تقدّم مادة الراتنج نفسها إلى نخّات. كنت أعتقد أنه يمكن أن أصنع من جديد، أن تعاد قولبة عقلي. أجبرت نفسي على مصادقة الطلاب الآخرين، أقدم نفسي بشكل أخرق مرات كثيرة حتى كوّنت دائرة صغيرة من الأصدقاء. ثم بدأت أزيل العوائق التي تفصلني عنهم. فذقت النبيذ الأحمر لأول مرة، وضحك أصدقائي الجدد عندما رأوني ألوي وجهي. وألقيت البلوزات ذات القبة العالية وبدأت أرتدي ثيابًا عصرية ملائمة أكثر، غالبًا ما تكون بلا أكمام، لا تكون فتحة

الرقبة فيها عالية. في الصور التي التُقطت لي في تلك الفترة، أفاجأ بأنني أصبحت أبدو كالأخرين.

في نيسان (أبريل) بدأت أحرز تقدماً جيداً. فكتبْتُ مقالة عن مفهوم السيادة الذاتي لجون ستيوارت ميل، وقال لي المشرف، د. ديفيد رانسيمان، إنه إذا كتبت أطروحتي بهذه الجودة، فقد أقبل لنيل درجة الدكتوراه في كامبردج. دُهلِت: أنا التي تسَلَّلت إلى هذا المكان العظيم مثل محتالة، أستطيع أن أدخل الآن من الباب الأمامي. فشرعت في العمل على أطروحتي، واخترت مرة أخرى ميل موضوعاً لأطروحتي.

في مساء أحد الأيام، قرب انتهاء الفصل الدراسي، عندما كنت أتناول الغداء في كافيتيريا المكتبة، رأيت مجموعة من الطلاب من برنامجي. كانوا يجلسون معاً إلى طاولة صغيرة. سألتهم إن كان بإمكانني أن أنضم إليهم، فهزَّ شاب إيطالي طويل القامة اسمه نيك رأسه. ومن خلال الحديث فهمت أن نيك قد دعا الآخرين لزيارته في روما خلال عطلة الربيع. وقال لي: «يمكنك أن تأتي أيضاً».

سَلَّمنا مقالاتنا النهائية في ذلك الفصل الدراسي، ثم استقللنا الطائرة. في أول مساء لنا في روما، تسلَّقنا إحدى التلال السبعة وأطللنا على العاصمة. كانت القبة البيزنطية تملأ سماء المدينة مثل مناطيد ترتفع في السماء. كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، وغمر الشوارع لون كهرماني. لم يكن لون مدينة حديثة مشيِّدة من الفولاذ والزجاج والاسمنت. كان لون الغروب. لم يكن يبدو حقيقياً. سألني نيك عن رأيه بيته، وكان كلُّ ما استطعت أن أقوله: إنه لا يبدو حقيقياً.

في صباح اليوم التالي، تحدَّث الآخرون عند الفطور عن أسرهم. فقد كان والد أحدهم دبلوماسياً، ووالد آخر دون (سيد) في أكسفورد. وسألوني عن والديّ، فقلت إن أبي يمتلك باحة خردة.

أَحَدنا نيك إلى المعهد الموسيقي الذي درس فيه العزف على الكمان. كان يقع في قلب روما ومؤثَّث بشراء، فيه درج ضخم ويضم قاعات يتردد صدى الصوت فيها. حاولت أن أتخيل كيف كان سيبدو الأمر لو أنني درست في

مكان كهذا، أمشي صباح كل يوم، ويومًا بعد يوم، في الطوابق المكسوة بالرخام، أربط التعلّم بالجمال، لكن خيالي لم يسعفني، فلم أستطع أن أتخيّل إلا المدرسة كما أعيشها الآن، بأنها شيء أشبه بمتحف، أثر من آثار حياة شخص آخر.

خلال يومين استكشفنا روما التي هي مدينة حيّة ومستحاة في آن معًا. إذ تنتصب المباني المطلية باللون أبيض التي تعود إلى العصور القديمة مثل عظام جفّت، داخل كابلات تنبض بالحركة، وحركة مرور صاخبة، شرايين الحياة العصرية. زرنا البانتيون (مجمع الآلهة)، والمدرج الروماني، وكنيسة سيستينا. كانت غريزتي تقول لي إنها يجب أن تُعبد، أن تُجَلَّل. هكذا كان شعوري تجاه المدينة كلها: بأنه يجب أن تُحفظ وراء الزجاج، وتُعبد من بعيد، وألا تُلمس أبدًا، ولا يطرأ عليها أي تغيير. تجوّل رفاقي في أنحاء المدينة لكن نظرتهم إليها كانت مختلفة عن نظرتي، فقد كانوا يدركون أهميتها لكنهم لم ينغمسوا فيها مثلي. فلم يقفوا صامتين أمام نافورة تريفّي، ولم يسكتوا أمام الكولوسيوم، وإنما كانوا، ونحن ننتقل من أثر إلى آخر، يتناقشون في الفلسفة - هوبس وديكارت والأكويني وميكافيللي. كان ثمة نوع من التعايش في علاقتهم مع هذه الأماكن العظيمة: فقد بثّوا الحياة في الهندسة المعمارية القديمة بجعلها خلفية لأحاديثهم، برفضهم العبادة عند مذبحتها كما لو كانت شيئًا ميتًا.

في الليلة الثالثة هبّت عاصفة مطرية. وقفتُ في شرفة بيت نيك ورحت أراقب خيوط البرق وهي تلمع في السماء، وهدير الرعد يطاردّها. كان ذلك كما لو كنت أقف على جبل بيكس باك، أشعر بهذه القوّة في الأرض والسماء. في صباح اليوم التالي أصبحت السماء صافية. ذهبنا في نزهة إلى حديقة فيلا بورغيزي وأخذنا معنا بعض النبيذ والمعجنات. كانت الشمس حارة جدًّا، وكانت المعجنات لذیذة الطعم. لم أستطع أن أتذكّر أنني كنت موجودة أكثر من الآن. قال أحدهم شيئًا عن هوبز، ومن دون تفكير رددت عبارة قالها ميل. بدا أنها الشيء الطبيعي، جُلب هذا الصوت المنبعث من الماضي إلى لحظة مشبّعة بالماضي، حتى لو كان الصوت ممزوجًا بصوتي. سادت لحظة صمت

ليعرف الجميع من الذي يتكلم، ثم سأل أحدهم من أي نص أتيت بهذه العبارة، واستمر الحديث.

في الفترة المتبقية من الأسبوع، بدأت أعيش روما كما كانوا يعيشونها هم: بأنها مكان يعود إلى التاريخ، لكنها أيضًا مكان يضج بالحياة، مليء بالطعام وحركة المرور والنزاعات والرعْد. ولم تعد المدينة متحفاً بالنسبة لي، وإنما أصبحت حيوية مثل جبل بيكس باك. وأصبح ميدان ديل بوبولو، وحمّامات كاراكالا، وكاستل سانت أنجيلو حقيقية في عقلي كما هي الأميرة، وعربة القطار الحمراء، والمقص. لقد تجلّى العالم الذي كانوا يمثلونه: عالم الفلسفة والعلم والأدب -حضارة كاملة- في حياة تختلف عن الحياة التي كنت أعرفها. وعندما ذهبنا إلى المعرض الوطني للفنون القديمة، وقفت أمام لوحة كارافاجيو «جوديث تقطع رأس هولوفرنيس» ولم أفكر بالدجاج.

لا أعرف ما الذي أحدث هذا التحوّل، لماذا أصبحت فجأة أهتم بالمفكرين العظماء القدماء، بدلاً من أجّلهم إلى درجة الصمت. لكن كان ثمة شيء في تلك المدينة، برخامها الأبيض وإسفلتها الأسود، يتقشّر مع التاريخ، يضيء في إشارات المرور، هو الذي أراني أنني أستطيع أن أحترم الماضي من دون أن يسكتني.

كنت لا أزال أشمّ رائحة الحجارة القديمة عندما وصلت إلى كامبردج. صعدت الدرج بسرعة، متلهّفة لقراءة بريدي الإلكتروني، لأنني كنت واثقة من أنني سأجد رسالة من درو. عندما فتحت حاسوبي النقال، رأيت رسالة من درو، ورسالة من شخص آخر أيضًا: أختي.

فتحت رسالة أودري أولاً. كتبت في فقرة طويلة واحدة، فيها نقط وفواصل قليلة وأخطاء مطبعية كثيرة. في البداية حاولت أن أركّز على الأخطاء النحوية كوسيلة لإسكات النص. لكن الكلمات لم تسكت، وإنما كانت تصرخ في وجهي من وراء الشاشة.

قالت أودري إنه كان عليها أن توقف شون عند حدّه منذ عدة سنوات، قبل أن يفعل لي ما فعله لها. قالت إنها عندما كانت صغيرة، أرادت أن تخبر أمنا، وأن تطلب منها المساعدة، لكنّها كانت تظن أن أمنا لن تصدّقها. كانت محقّة.

فقد كانت تتنابها قبل زفافها كوابيس وذكريات من الماضي وحكتها لأمي التي قالت لها إنها ذكريات متخيّلة، مستحيلة. كان يجب أن أساعدك، كتبت أودري، لكن عندما لم تصدّقني أمي، لم أعد أصدّق نفسي^[8].

كان خطأ تريد أن تصحّحه. كتبت، أعتقد أن الله سيحاسبني إن لم أمنع شون من إيذاء أي شخص آخر. وقالت إنها ستواجهه وستواجه أمي وأبي، وتطلب أن أقف إلى جانبها. سأفعل ذلك معك أو بدونك. لكن بدونك، يمكن أن أخسر.

جلست في الظلام طويلاً. تألمت منها لأنها كتبت لي. شعرت أنّها أخرجتني من عالم، من حياة، كنت أعيش سعيدة فيها، ونقلتني إلى حياة أخرى.

كتبت لها ردّاً. قلت لها إنها على صواب، وأنا يجب أن نوقف شون، لكنني طلبت منها ألا تفعل شيئاً إلّا بعد أن أعود إلى أيديها. لا أعرف لماذا طلبت منها أن تنتظر، ما الفائدة التي ظننت أن الوقت سيجلبها لنا. لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث عندما نخبر والدينا، لكنني كنت أعرف غريزياً ما الذي ينتظرنا. وبما أننا لم نسألها قبل الآن قط، فمن الممكن أن يقدّم لنا المساعدة. إذا أخبرناها فمن الممكن أننا نقدم على مجازفة لا يمكن تصورها: مجازفة أن نعرف أنّهما كانا يعرفان.

لم تنتظر أودري، ولا حتى يوماً واحداً. ففي صباح اليوم التالي أرت رسالتي إلى أمنا. لا أستطيع أن أتصوّر تفاصيل الحديث الذي دار بينهما، لكنني أعرف أن ذلك كان شعوراً عظيماً بالنسبة لأودري، وهي تضع كلماتي أمام أمنا، وأصبح بإمكانها أن تقول أخيراً، إنني لست مجنونة، لأن ذلك حدث لتارا أيضاً.

طوال ذلك اليوم، فكّرت في الأمر، ثم قرّرت أنه يجب أن تسمع أمي الكلمات ممّي. كان الوقت مساءً في أيديها، حوالي منتصف الليل في إنكلترا، عندما وجدتني أمي التي لم تكن تعرف أن تجري مخابرة دولية، على الإنترنت. كانت الكلمات على الشاشة صغيرة محصورة في مربع نصّ صغير

جدًا في زاوية المتصفح، لكن بدا أنها، بشكل ما، ستبتلع الغرفة. قالت لي إنها قرأت رسالتي. هيأت نفسي لغضبها.

من المؤلم مواجهة الحقيقة، كتبت. لإدراك أنه يوجد شيء قبيح، وقد رفضت أن أراه [9].

قرأت تلك الأسطر مرات عديدة قبل أن أفهمها، قبل أن أدرك أنها ليست غاضبة، أنها لا تلومني، أو تحاول أن تقنعني بأنني أتخيل ذلك. لقد صدقتني.

لا تلومي نفسك، قلت لها، فلم يعد عقلك كما كان بعد الحادث.

ربما، قالت. لكني أحيانًا أعتقد بأننا نختار أمراضنا، لأنها تفيدنا بشكل ما.

سألتُ أمي لماذا لم توقف شون عندما كان يؤذيني. كان شون يقول دائمًا إنك كنت تفتعين المشكلة، وأظن أنني كنت أريد أن أصدق ذلك، لأن ذلك كان أسهل. لأنك كنت قوية وعاقلة، وكان بإمكان الجميع أن يروا أن شون لم يكن كذلك.

هذا أمر غير مبرر. فإذا كنت أبدو عقلانية، لماذا كانت أمي تصدق شون عندما يقول لها إنني أنا التي أبدأ الشجار؟ وأنه يجب إخضاعني، معاقبتي.

فقالت أنا أم، ومن واجب الأمهات أن يحمين أبنائهن، ولم يكن شون في وضع طبيعي.

أردت أن أقول لها إنها أمي أيضًا، لكنني لم أقل شيئًا. لا أظن أن أبي سيصدق أيًا من هذا، كتبت.

سيصدق، كتبت. لكن الأمر قاس عليه. سيدكره ذلك بالضرر الذي أحدثه الاضطراب ثنائي القطب على أسرتنا.

لم أسمع أمي قط تعترف بأن أبي قد يكون مريضًا عقليًا. فمذ سنوات، كنت قد حدثتها عما تعلمته في دروس علم النفس عن الاضطراب ثنائي القطب وانفصام الشخصية، لكنها استهجن ذلك. سماعها تقول ذلك الآن جعلني أشعر بالتحرر. فقد منحني المرض شيئًا أهاجمه بالإضافة إلى أبي، فأجبتها بصدق عندما سألتني أمي لماذا لم ألجأ إليها قبل الآن، لماذا لم أطلب منها المساعدة.

فقلت لها لأن أبي كان يرهبك، لأنك لم تكوني قوية في البيت. كان أبي يدير البيت، ولم يكن سيساعدنا.

أنا أقوى الآن، قالت. لم أعد أجري خائفة منه.

عندما قرأت ذلك، تخيلت أمي امرأة شابة، ذكية ونشيطة، لكنها قلقة أيضا ومطبعة. ثم تغيرت الصورة، فقد بدأ يضعف جسدها، وطال شعرها وامتلأ شيبًا.

وإيميلي تتعرض للترهيب، كتبْتُ.

نعم، قالت أمي، كما كنتِ أنتِ.

إنها أنتِ، قلت.

إنها أنا. لكننا نعرف أكثر الآن. يمكننا أن نعيد كتابة القصة.

سألتها عن إحدى الذكريات. كان ذلك قبل أن أذهب إلى جامعة بريغهام يونغ بعدة أسابيع، بعد أن انتابت شون ليلة مزعجة، وجعل أمي تبكي، ثم استلقى على الأريكة وفتح التلفزيون. رأيته تبكي وهي جالسة إلى طاولة المطبخ، وطلبت مني ألا أذهب إلى الجامعة، فقالت لي: «أنتِ الشخص القوي الوحيد الذي يمكنه أن يتعامل معه»، وأضافت، «وأنا لا أستطيع، وأبوك لا يستطيع. يجب أن تكوني أنتِ».

طبعْتُ الكلمات ببطء، بتردد: هل تتذكرين أنك قلتِ لي ألا أذهب إلى المدرسة، وأنتِ الوحيدة التي يمكنها أن تتعامل مع شون؟
نعم، أتذكر.

توقفنا قليلاً، ثم ظهر مزيد من الكلمات - كلمات لم أكن أعرف أنني بحاجة إلى سماعها، لكنني ما إن رأيته، حتى أدركت أنني كنت أبحث عنها طوال حياتي.

كنتِ طفلي. كان يجب أن أحميكِ.

عشتُ عمراً في اللحظة التي قرأت فيها هذه الكلمات، حياة لم تكن الحياة التي عشتها فعلاً. لقد أصبحتُ شخصاً مختلفاً، طفلة مختلفة. لم أفهم

سحر تلك الكلمات آنذاك، ولم أفهمها الآن. لا أعرف إلا هذا: عندما قالت لي أمي أنها لم تكن بالنسبة لي أمي التي كانت تتمنى أن تكون، أصبحت أمي لأول مرة.

أحبك، كتبْتُ، وأغلقْتُ كمبيوتري.

بعد أسبوع تحدّثْتُ أنا وأمّي مرة واحدة عن هذا الحديث الذي دار بيننا على الهاتف. «إنه يعالج الأمر»، قالت، «فقد أخبرت والدك بما قلته لي أنتِ وأختك، وسيحصل شون على مساعدة».

أبعدتُ الأمر عن تفكيري لأن أمّي تكفلت به. لقد أصبحت الآن امرأة قوية، فهي التي أنشأت هذا العمل، وجميع هؤلاء الأشخاص يعملون لحسابها، وقد قرّمت عملها عمل أبي، وكلّ الأعمال الأخرى في البلدة كلها. إن هذه المرأة الطيبة تمتلك قوّة لم نكن ندركها. وتغيّر أبي، فأصبح أكثر رقة، وبدأ يضحك أكثر من قبل. قد يكون المستقبل مختلفًا عن الماضي. حتى الماضي قد يكون مختلفًا عن الماضي، لأن ذكرياتي قد تتغيّر: فلم أعد أتذكّر أمّي وهي تنصت في المطبخ عندما ألقى بي شون على الأرض وراح يضغط على قصبتَي الهوائية. لم أعد أتذكّر أنها أشاحت بنظرها.

تغيّرت حياتي في كامبردج - أو بالأحرى تحوّلت أنا إلى شخص يؤمن بأنه ينتمي إلى كامبردج. فقد انسلّ مني الشعور بالخل الذي طالما شعرت به عن أسرتي بين ليلة وضحاها، ولأول مرة في حياتي بدأت أتكلّم بصراحة عن المكان الذي أتيت منه. واعترفت لأصدقائي بأنني لم أذهب إلى المدرسة قط، وبدأت أصف لهم جبل بيكس باك وباحة الخردة والحظائر الموجودة فيه. حتى أنني حدّثتهم عن القبو المليء بالإمدادات والمواد في حقل القمح، وعن البنزين المدفون بجانب الحظيرة القديمة.

وقلت لهم إنني فقيرة، وإنني كنت جاهلة، وعندما قلت لهم ذلك لم ينتبني أدنى شعور بالندم. عندها فقط فهمت من أين أتى شعوري بالخل: لا لأنني لم أدرس في معهد موسيقي مشيد من الرخام، أو لأنّ أبي ليس دبلوماسيًا، ولا لأن أبي قدّ نصف عقله، أو لأن أمّي تتبعه وتنفذ كل ما يقوله، وإنما جاء ذلك الشعور لأن أبي دفعني نحو شفرات ذلك المقصّ القاضمة، بدلًا من أن

يبعدني عنها ويحميني. جاء من تلك اللحظات التي كنت فيها ملقاة على الأرض، وأنا أعرف أنّ أمّي في الغرفة المجاورة، وقد أغمضت عينيها وسدّت أذنيها، واختارت، في تلك اللحظة، أن لا تكون أمّي.

لقد صمّمت لنفسي تاريخًا جديدًا. فقد أصبحت ضيفة أدعى إلى العشاء كثيرًا، لأحكي قصصي عن الصيد والخيول والعمل في الخردة وإطفاء حرائق الجبل، وعن أمّي الذكية، التي أصبحت قابلة ثم أقامت عملاً مربحًا، وعن أبي الغريب الأطوار المتعصب الذي يعمل في باحة الخردة. ظننت أنني أصبحت صديقة أخيرًا حول الحياة التي عشتها في الماضي. لم تكن الحقيقة الكاملة، لكنّها كانت حقيقية بالمعنى الأوسع: حقيقية بما سيكون، في المستقبل، بعد أن تغيّر كلّ شيء نحو الأفضل. الآن وجدت أمّي قوّتها.

كان الماضي شبّخًا، غير مؤثّر، واهيّا. أما المستقبل فهو المهم.

الفصل ٣٢

امرأة مشاكسة في بيت واسع

في الخريف عدت إلى جبل بيكس باك. كانت جدّتي التي تسكن عند سفح الجبل تحتضر. فقد قاومت السرطان الذي أصابها في نخاع العظم طوال تسع سنوات، وأصبحت نهاية الصراع وشيكة. كنت قد عرفت للتو أنني قُبلت في كامبردج للحصول على الدكتوراه، عندما كتبت لي أمّي، «دخلت جدّتك إلى المستشفى مرة أخرى. عودي بسرعة. أظن أنها المرة الأخيرة».

عندما حطّت بي الطائرة في مطار مدينة سولت لايك، كانت جدّتي تدخل في غيبوبة وتخرج منها. استقبلني درو في المطار. كنّا آنذاك قد أصبحنا أكثر من صديقين، وقال درو إنه سيوصلني بسيارته إلى أيدياهو، ثم إلى المستشفى في المدينة. لم أعد إلى ذلك المستشفى منذ أن أخذت شون إليه منذ عدة سنوات، وبينما كنت أسير في ممراته البيضاء المعقمة، كان يصعب عليّ ألاّ أتذكره. وجدنا غرفة جدّتي. كان جدّي جالسًا على طرف سريرها، ممسكًا بيدها. كانت عيناها مفتوحتين ونظرت إليّ. «إنها حبيبتي تارا الصغيرة التي قطعت كلّ هذه المسافة من إنكلترا»، قالت، ثمّ أغمضت عينيها. ضغط جدّي على يدها لكنّها غطّت في النوم. قالت لنا الممرضة أنها قد تظل نائمة لساعات عديدة.

قال درو إنّه سيوصلني إلى جبل بيكس باك. وافقت، وعندما لاح لي الجبل تساءلت إن كنت قد أخطأت في المجيء. كان درو قد سمع قصصي، لكن كانت هناك مجازفة في إحضاره إلى هنا: فهذه ليست قصّته، وأشكّ إن كان هناك أي شخص على استعداد لأداء الدور الذي كتبت له.

كانت الفوضى تعم البيت. كانت النساء يملأن البيت، بعضهن يسجّلن الطلبات على الهاتف، وأخريات يخلطن الزيوت أو يعصرن صبغات الأعشاب، وأقيم ملحق جديد في الطرف الجنوبي من البيت حيث كانت فتيات يملأن القناني ويجهّزن الطلبات لشحنها. تركتُ درو في غرفة الجلوس وذهبتُ إلى

الحمام، المكان الوحيد في البيت الذي ظل كما أتذكّره. عندما خرجت من الحمام صادفت امرأة مسنّة ضامرة مجعدة الشعر تضع نظارات مرّبة كبيرة.

«هذا الحمام مخصص للإدارة العليا فقط»، قالت، أما اللاتي يملأن القناني فعليهن استخدام الحمام الموجود في الملحق». فقلت لها: «أنا لا أعمل هنا».

حدّقت بي. بالطبع أنا أعمل هنا، لأن الجميع يعملون هنا. «هذا الحمام للإدارة العليا»، كرّرت، «ومن غير المسموح لك أن تغادري الملحق». ابتعدت عنها قبل أن أجيبها.

لم أكن قد رأيت أمّي أو أبي بعد. عدتُ ووجدت درو جالسًا على الأريكة، يستمع إلى امرأة تقول له إن الأسيرين قد يسبّب العقم. أمسكت يده وسحبته ورائي، وشققنا طريقنا عبر هؤلاء الغرباء.

«هل هذا المكان حقيقي؟» قال.

وجدت أمّي في غرفة لا توجد فيها نوافذ في الطابق السفلي. ظننت أنها مختبئة هنا. عزّفتها على درو وابتسمت بحرارة. «أين أبي؟» سألتها. فقد خشيت أن يكون مريضًا طريح الفراش، لأنه معرض للإصابة بأمراض رئوية منذ أن فحّم الانفجار رثيته.

قالت: «أنا متأكّدة بأنه في مكتبه». ورفعت عينيها إلى السقف الذي كانت تسمع منه خبطات أقدام.

رافقتنا أمّي إلى الطابق العلوي. ما إن ظهرت على بئر الدرج، حتى تجمعت حولها عدة زبونات ورحن يسألنها. فقد كانت كلّ واحدة منهن تريد أن تسألها عن رأبها - حول حروقهن، والارتعاشات في قلوبهن، وعن أطفالهن الناقصي الوزن. كانت تبعدهن عنها وتشقّ طريقها بينهن بصعوبة. كانت توحى وهي تتنقل في أرجاء بيتها بأنها مثل شخصية مشهور تسير في مطعم مزدحم، تحاول ألا يعرفها أحد.

كانت طاولة مكتب أبي كبيرة بحجم سيارة، في وسط هذه الفوضى. كان يتكلّم على الهاتف الذي يسنده بين خدّه وتجويف كتفه كي لا ينزلق بين يديه الشمعيتين. «لا يستطيع الأطباء مساعدتهم بمرض السكر»، كان يقول بصوت مرتفع، «لكن الربّ يستطيع». نظرتُ بطرف عيني إلى درو الذي كان يبتسم. عندما أنهى أبي مكالمته التفت نحونا. حيّا درو بابتسامة عريضة. كان يشعّ طاقة، يتغذّى على هذا الهرج الذي يسود البيت. قال له درو إنّه معجب بالعمل، فبدأ أن طول أبي ازداد ستّ بوصات، وقال: «لقد بوركنا لأننا نقوم بعمل الرب».

رنّ الهاتف مرة أخرى. كان هناك لا يقل عن ثلاث عاملات للردّ على الهاتف، لكن أبي قفز والتقط السماعة كما لو أنه كان ينتظر مكالمة هامة. لم أره قط مليئًا بالحياة هكذا.

«قوّة الربّ على الأرض»، راح يصرخ في الهاتف، «هكذا هي الزيوت التي ننتجها: إنها صيدلية الرب».

كانت الجلبة في البيت مزعجة فأخذت درو إلى الجبل. تمشّينا في حقول القمح البرّي ثم أخذته إلى قاعدة الجبل حيث تنتشر أشجار الصنوبر. كانت ألوان الخريف تهدئ الأعصاب وبقينا هناك عدة ساعات، نحدّق في الوادي الهادئ. عدنا إلى البيت في بداية المساء، ثم غادر درو إلى مدينة سولت لايك. دخلت إلى المصلّى من الأبواب الزجاجية الكبيرة وفوجئت بالصمت. كان البيت فارغًا، جميع الهواتف مفصولة، وغادرت جميع العاملات. كانت أمّي جالسة وحدها وسط الغرفة.

قالت: «اتصلوا من المستشفى. قالوا إن جدّتك ماتت».

فقد أبي شهيته للعمل. أصبح يغادر السرير في وقت متأخر كلّ يوم. وعندما يستيقظ، كان يوزع الإهانات أو الاتّهامات على الجميع. فقد يصيح في وجه شون من أجل العمل في باحة الخردة ويلقي محاضرة على أمّي لسوء إدارتها مع العاملات، ويوبّخ أودري عندما تعدّ له طعام الغداء، ويصرخ بي لأنني أصدر صوتًا عاليًا عندما أطيع على الكمبيوتر. كان يبدو أنه يريد أن يتشاجر مع الجميع، ليعاقب نفسه بسبب موت أمّه، أو ربما كان يعاقب نفسه

على الخلافات التي لم تكن تنتهي بينه وبين أمّه أثناء حياتها والتي انتهت الآن بعد أن ماتت.

عادت الحياة إلى البيت شيئًا فشيئًا. ووصلت الهواتف، وعادت الفتيان للردّ عليها، أما طاولة أبي فقد ظلت فارغة. فقد بدأ يمضي أيامه في السرير، يحدّق في السقف المطلي بالجبص. كنت أجلب له طعام العشاء كما كنت أفعل عندما كنت طفلة، وكنت أتساءل الآن، كما كنت أتساءل آنذاك، هل يعرف أنني موجودة هنا.

كانت أمّي تنتقل في أرجاء البيت بحيوية عشرة أشخاص، تخلط الصبغات والزيوت الأساسية، وتوجّه العاملات لاتخاذ الترتيبات من أجل الجنازة وإعداد الطعام لكلّ خالة وابنة خالة تزورنا فجأة لتعزيها بوفاة جدّتي. وبدأت أراها غالبًا مرتدية مئزرًا، وهي تقلّب الشواء وتمسك هاتفًا بكلّ يدٍ تردّ على زبون، أو قريب أو صديق يقدّم لها التعازي. وظل أبي طوال الوقت مستلقّيًا في السرير.

ألقي أبي كلمة في الجنازة. كانت كلمته موعظة استمرت عشرين دقيقة تحدّث فيها عن الوعود التي قطعها الربّ لأبراهام، وذكر جدتي مرّتين. بالنسبة للغرباء، لا بدّ أنه تكوّن لديهم انطباع بأنه لم يكن متأثرًا كثيرًا بموت أمّه، أما نحن الذين نعرفه، فكنا نرى الخراب الذي أصابه.

عندما عدنا إلى البيت بعد انتهاء الصلاة، استشاط أبي غضبًا لأن طعام الغداء لم يكن جاهزًا. فأسرعت أمّي لتقدّم له الحساء الذي كانت تركته يُطهى ببطء. وبعد انتهاء الطعام أبدى استياءه من الصحون الوسخة فهرعت أمّي لتنظيفها، ثم غضب لأن أحفاده كانوا يلعبون ويصدرون ضجيجًا فأسرعت أمّي لإسكاتهم.

في ذلك المساء، عندما أصبح البيت فارغًا وساد الهدوء، سمعتُ من غرفة الجلوس والداي يتجادلان في المطبخ.

«هذا أقلّ شيء يمكنك أن تفعله»، قالت أمّي، «أن تملأ بطاقات الشكر هذه. فهي أمك في النهاية».

فردّ أبي، «هذا من عمل الزوجة، فلم أسمع قط رجلاً يكتب البطاقات». لم يكن ذلك صحيحًا. فعلى الرغم من أن أمّي أصبحت المعيلة الرئيسية في البيت منذ عشر سنوات، فقد ظلت تطهو وتعدّ الطعام، وتنظف البيت، وتغسل الثياب، ولم أسمعها قط تتذمر أو تعبّر عن استيائها. حتى الآن.

«إدّا عليك أن تقوم بالعمل الذي يقوم به الزوج»، قالت، وقد ارتفع صوتها. وسرعان ما أخذ كلّ منهما يصرخ. حاول أبي أن يحاصرها، أن يخضعها بإظهار أنه غاضب، كعادته، لكن ذلك زادها عنادًا. وفي النهاية، رمت البطاقات على الطاولة، وقالت، «إذا أردت أن تملأها أم لا. وإذا لم تملأها، فلن يملأها أحد»، ثمّ نزلت إلى الطابق الأرضي. تبعها أبي، وعلت صيحتهما طوال ساعة. لم أسمع والداي يصرخان هكذا من قبل - على الأقل - لم أسمع أمّي. لم أرها قط ترفض أن تستسلم.

في صباح اليوم التالي، وجدت أبي في المطبخ، يضع طحينًا في مادة شبه صمغية فظننت أنه يعدّ عجينة فطيرة. عندما رأيته، رمى الطحين من يده وجلس إلى الطاولة، وقال: «ألست امرأة؟ إدّا هيا، هذا مطبخ». حدّق أحدهما في الآخر، وتأملت المسافة التي نشأت بيننا - كم كانت هذه الكلمات تبدو طبيعية لأذنيه، ومزعجة لأذنيّ.

لم تعتد أمّي على أن تترك أبي يحضّر طعام فطوره بنفسه. ظننت أنها مريضة فهبطت إلى الطابق السفلي لأراها. ما إن هبطت بضع درجات، حتى سمعتها: صوت بكاء عميق ينبعث من الحمام، يغطّي عليه صوت طنين مجفف شعر. وقفت أمام الباب وأنصت لأكثر من دقيقة. كنت مشلولة. هل تريد أن أذهب، أن أظهار بأنني لم أسمع شيئًا؟ انتظرتها حتى تلتقط أنفاسها، إلا أن بكاءها ازداد حرقا.

قرعت الباب، وقلت «هذا أنا».

فُتح الباب، قليلًا في البدء، ثمّ أكثر، ورأيت أمّي هناك، جلدها يلمع من ماء الدش، ملتفة بمنشفة صغيرة جدّا لتغطي كل جسمها. لم أر أمّي هكذا قط، وبشكل غريزي أغمضت عيني. اسودّ العالم. سمعت صوت خبطة، تشقق

بلاستيك، ففتحت عيني. لقد ألقت أمي مجفف الشعر على الأرض فازداد هديره عندما ارتطم بها. نظرت إليها، وعندما فعلت ذلك، شدتني وضممتني إليها. تسرّب اللبل من جسمها إلى ثيابي، وتساقطت قطرات الماء من شعرها على كتفي.

الفصل ٣٣

سحر الفيزياء

لم أمكث طويلًا في البيت، ربما أمضيت أسبوعًا. في اليوم الذي غادرت فيه الجبل، طلبت مني أودري أن لا أذهب. لا أذكر الحديث الذي دار بيننا، لكنني أتذكر أنني كتبت فقرة في دفترتي عنه. دوّنته في الليلة التي وصلت فيها إلى كامبردج، عندما كنت جالسة فوق جسر حجري، رافعة عيني إلى الأعلى، أحدّق في كنيسة كينغز كولدج. أتذكر النهر الذي كان هادئًا. أتذكر أوراق الأشجار الخريفية تتطاير فوق السطح الزجاجي. أتذكر خربشة قلمي وهو يتحرّك فوق الصفحة، أكتب ما قالته لي أختي بالتفصيل، ثماني صفحات كاملة. لكن ذاكرتي بما قالته تلاشى: كان كما لو كنت أكتب حتى أنسى.

طلبت مني أودري أن أبقى. قالت إن شون قوي جدًا، مقنع جدًا وأنها لا تستطيع أن تواجهه بمفردها. قلت لها إنها ليست وحدها، فهناك أمي معها. قالت أودري لا أعرف، فلن يصدّقنا أحد في النهاية. فإذا طلبنا مساعدة أبي، فلا بد أنه سيقول إننا نكذب. قلت لها إن والدينا تغيّرا ويجب أن نثق بهما، ثم أخذت الطائرة وسافرت مسافة خمسة آلاف ميل.

إن كنت أشعر بالذنب لأنني أوّثق مخاوف أختي من هذه المسافة الآمنة، محاطة بمكتبات ضخمة وكنائس قديمة عظيمة، فإنني لم أكن أعطي إلاّ دليلاً واحداً، وكان السطر الأخير الذي كتبت في تلك الليلة: كامبردج أقلّ جمالاً هذه الليلة.

جاء درو معي إلى كامبردج، بعد أن قُبل في برنامج الماجستير في قسم دراسات الشرق الأوسط. أخبرته عن الحديث الذي دار بيني وبين أودري. كان أول صديق لي أفضي له بأسرار أسرتي - أفضي له حقًا، الحقيقة لا الحكايات المسلية فقط. قلت له طبعًا إن كلّ ذلك حدث في الماضي، أما الآن فقد

أصبحت أسرتي مختلفة، لكنّ يجب أن تعرف حتى تراقبني، كي لا أقدم على عمل متهور.

مرّ الفصل الأول في سلسلة من حفلات العشاء حتى وقت متأخر من الليل، تخللتها ليال أمضيتها لوقت متأخر جدًا في المكتبة. ولكي أتأهل للتقدم إلى الدكتوراه، كان عليّ أن أجري بحثًا أكاديميًا أصيلاً. بعبارة أخرى، بعد أن أمضيت خمس سنوات في دراسة التاريخ، أصبح من المفترض أن أكتبه الآن.

لكن كتابة ماذا؟ فعندما كنت أدرس للماجستير، فوجئت باكتشاف أصدقاء من علم اللاهوت المورمونية في كتابات فلاسفة القرن التاسع عشر العظماء. ذكرت ذلك للبروفسور ديفيد رانسيما الذي يشرف عليّ. فقال: «هذا هو مشروعك، تستطيعين أن تفعلي شيئًا لم يفعله أحد من قبل: يمكنك أن تدرسي الطائفة المورمونية لا باعتبارها حركة دينية، وإنما حركة ثقافية».

بدأت أعيد قراءة رسائل جوزيف سميث وبريغهام يونغ. عندما كنت طفلة، كنت قد قرأت هذه الرسائل كنوع من العبادة، أما الآن فقد أصبحت أقرأها بعيون مختلفة، لا بعيون ناقد، وإنما بعيون دارسة. فدرست مسألة تعدد الزوجات، لا كمذهب وإنما كسياسة اجتماعية. قارنتها مع الأهداف المنشودة منها، وإزاء الحركات والنظريات الأخرى في نفس الفترة الزمنية. كان يبدو لي أن ما أقوم به عمل راديكالي.

أصبح أصدقائي في كامبردج بمثابة عائلة بالنسبة لي، وبدأت أشعر بأنني أنتمي إليهم، ذلك الإحساس الذي لم يكن موجودًا منذ عدّة سنوات. كان ينتابني أحيانًا إحساس بأنني ملعونة لأن هذه المشاعر بدأت تملكني. فيجب ألاّ تحبّ أخت طبيعية شخصًا غريبًا أكثر من أن يكون بمثابة أخ، كنت أقول لنفسني، ومن هي تلك الابنة التي تفضّل أستاذها على أبيها؟

لكن بالرغم من أنّني لم أكن أتمنّى ذلك، فلم أعد أريد أن أعود إلى البيت، وأصبحت أفصّل الأسرة التي اخترتها على الأسرة التي تربيت فيها، فكلما ازدادت سعادة في كامبردج، فُثرت سعادتي لأنني كنت أشعر بأنني خنت جبل بيكس باك، وأضحى هذا الشعور جزءًا طبيعيًا منّي، شيئًا يمكنني أن أذوق طعمه على لساني أو أشمّه بأنفاسي.

اشتريت تذكرة إلى أيدياهو في عيد الميلاد. قبل رحلتي بليلة، أقيم احتفال في كليتي. فقد شكّل أحد أصدقائي جوقة حجرة لتنشد بعض التراتيل أثناء حفل عشاء. كان أعضاء جوقة الحجرة يتدربون منذ أسابيع، لكن في يوم الحفلة، مرضت مغنية السوبرانو وأصيبت بالتهاب في شعبيها الهوائية. رنّ هاتفني عند المساء. كان صديقي. قال لي: «أرجوك، هل تعرفين أحدًا يستطيع أن يغني».

لم أغنّ منذ سنوات، ولم أغنّ قط إذا لم يكن أبي موجودًا ليسمعني، لكن بعد عدة ساعات، انضمت إلى جوقة الحجرة ووجدت نفسي أقف على منصة بجانب الألواح الخشبية التي تنتصب بجانب شجرة عيد الميلاد الضخمة التي احتلت معظم القاعة. ثمنت كثيرًا تلك اللحظة، واستمتعت بالخفة التي غمرتني عندما بدأت موسيقى تنبعث من صدري مرة أخرى، وتساءلت هل كان أبي، لو كان هنا، سيتحدّى الجامعة واشتراكيته حتى تسمعني أغني. أظن أنه كان سيفعل ذلك.

لم يتغيّر شيء في جبل بيكس باك. كانت الأميرة مدفونة تحت الثلج لكن كان باستطاعتي أن أرى الخطوط العميقة التي تحدد ساقها. عندما وصلت إلى البيت كانت أمي في المطبخ، تحرّك الحساء بيدّ، وتمسك الهاتف باليد الأخرى وتشرح خصائص نبتة مزروورث. كانت طاولة أبي لا تزال فارغة. قالت أمي إنه في السرير في الطابق السفلي. يشعر بانقباض في رئتيه.

اندفع شخص غريب ضخم من الباب الخلفي. مرّت عدّة ثوان قبل أن أعرف أنه أخي. كانت لحيه لوك كثيفة. كان يشبه إحدى عنزاته. كانت عينه اليسرى بيضاء وميتة: فقد أصيب ببندقية كرة طلاء في وجهه منذ بضعة أشهر. عبر الغرفة وضربني على ظهري، فحدّقت في عينه الأخرى، أبحث عن شيء مألوف فيه. لكنني لم أتأكد أن هذا الرجل هو أخي إلا بعد أن رأيت الندبة البارزة على ساعده، ندبة يبلغ عرضها بوصتين في البقعة التي قطع فيها المقصّ جزءًا من لحمه^[10]. وقال لي إنه يعيش مع زوجته وأطفاله العديدين في بيت متنقّل وراء الحظيرة، ويعمل في منصّات التنقيب عن النفط في نورث داكوتا.

مرّ يومان. كان أبي يصعد إلى الطابق العلوي مساء كل يوم ويستلقي على الأريكة في المصلّى، حيث يسعل ويشاهد التلفزيون أو يقرأ العهد القديم. أمضيت أيامي في الدراسة أو في مساعدة أمي.

في مساء اليوم الثالث، كنت جالسة إلى طاولة المطبخ أقرأ، عندما اندفع شون وبنجامين من الباب الخلفي. كان بنجامين يحكي لشون عن شجار جرى بعد حادث تصادم طفيف وقع في البلدة. قال إنه قبل أن يترجّل من شاحنته لمواجهة السائق الآخر، دسّ مسدسه في حزام بنطاله الجينز. «لم يكن الرجل يعرف الورطة التي هو فيها»، قال بنجامين مع ابتسامة عريضة.

«الأحمق فقط هو الذي يأخذ معه مسدس إلى مشكلة كهذه»، قال شون.

«لم أكن سأستخدمه»، همهم بنجامين.

«إذن لم يكن عليك أن تأخذه»، قال شون، «إذا كنت تعرف أنّك لن تستعمله. فإذا أخذته فقد تستعمله، هكذا هي الأمور. فقد تتحوّل المشاجرة بالأيدي إلى شجار مسلح بسرعة».

كان شون يتكلّم بهدوء، بتأن. كان شعره الأشقر وسخًا وغير مخلوق، وكانت تكسو وجهه شعيرات طويلة بلون الطين. كانت عيناه تلمعان من تحت الزيت والتراب، لهب أزرق في سحابات من الرماد. وكانت قسّمات وجهه، وكلماته تشي بأنها تنبعث من رجل أكبر سنًا بكثير، رجل برد دمه الحار، وأصبح في سلام مع نفسه.

التفت شون إليّ. كنت أتفاداه، لكن فجأة بدا لي أن تفاديه غير مبرر. فقد تغيّر. إنه لشيء فظيع أن ادّعي بأنه لم يتغيّر. سألني إن كنت أريد أن أرافقه في جولة بالسيارة، فوافقت. أراد شون أن تتناول بوظة. كان الحديث بيننا مريحًا، هادئًا، كما كان منذ سنوات في الأمسيات التي كُنا نمضيها في الحظيرة عند الغروب. حكى لي عن إدارة العمل بدون وجود أبي، وعن فشل رثتي بيتر - العمليات الجراحية وأنابيب الأوكسجين التي ما زال يضعها في الليل.

كنا قد اقتربنا من البيت، على مسافة ميل من جبل بيكس باك، عندما حرك شون ناقل الحركة فانزلقت السيارة فوق الجليد، ثم ضغط على دواسة البنزين، فدارت العجلات، ثم قفزت السيارة إلى طريق فرعي.

«إلى أين سنذهب؟» سألته. كان الطريق يؤدي إلى مكان واحد فقط. إلى الكنيسة التي كانت معتمة، وباحة وقوف السيارات فيها مقفرة.

دار شون حول موقف السيارات، ثم توقف بجانب المدخل الرئيسي. أطفأ المحرك وبهتت الأضواء الأمامية. لم أعد أكد أُميّز قسما ت وجهه في الظلام.

«هل تتكلمين كثيرًا مع أودري؟» سألتني.

«ليس كثيرًا»، قلت.

بدا أنه استرخى، ثم قال، «تعرفين أن أودري قطعة خراء كاذبة».

أشحت بوجهي، ثبتت عيني على برج الكنيسة الذي يرى من ضوء النجوم.

«سأضع رصاصة في رأسها»، قال شون، وشعرت بجسمه يستدير نحوي،

«لكنني لا أريد أن أهدر رصاصة جيدة في كلبة لا قيمة لها».

كان من المهم ألا أنظر إليه. فقد كنت أعتقد أنني إذا أبقيت عيني مصوبتين على برج الكنيسة المدبب، فلن يستطيع أن يلمسني. تقريبًا. ومع أنني تمسكت بهذا الاعتقاد، فقد انتظرت حتى أشعر بيديه تطوقان رقبتني. كنت أعرف أنني سأشعر بهما على رقبتني، وفي وقت قريب جدًا، لكنني لم أجرو على الإقدام بأي حركة قد تبطل سحر الانتظار. في تلك اللحظة، كان جزء مني يعتقد، كما كنت أعتقد دائمًا، بأنني أنا من سيطل السحر. عندما يتهشم السكون ويصب جام غضبه عليّ، فإني أعرف أن شيئًا فعلته هو المحقّر، السبب. كان عندي أمل في هذه الخرافة، وهم السيطرة.

لبثت هادئة، من دون أن أبدي فكرة أو آتي بحركة.

سمعت صوت طقة محرك السيارة، فهدر ثانية وعاد إلى الحياة. وتسلسل

الهواء الدافئ من فتحات الهواء.

«هل تحبين أن تشاهدي فيلمًا؟» قال شون. كان صوته عاديًا. رأيت العالم يدور عندما استدارت السيارة وأسهرت عائدة إلى الطريق السريع، ثم قال: «أظن أن مشاهدة فيلم الآن شيء جيد».

لم أقل شيئًا. لم أكن أرغب في أن أتحرّك أو أقول شيئًا كي لا أكسر سحر الفيزياء الغريب الذي لا أزال أوّمن بأنه أنقذني. بدا شون غير عابئ بصمتي. قاد مسافة الميل الأخير إلى البيت وهو يتحدّث ببهجة، بطريقة تكاد تكون لعبوة، إن كنّا سنشاهد فيلم «الرجل الذي كان يعرف القليل»، أم لا.

الفصل ٣٤ جوهر الأشياء

لم أشعر بالشجاعة عندما دنوت من أبي في المصلّى في تلك الليلة. تمثّل دوري في أن أجسّ النبض: جئت لأنقل معلومات، لأقول لأبي إن شون هدد أودري، وأن أبي يعرف ما الذي يجب عمله.

أو ربما كنت هادئة لأنني لم أكن هناك، ليس في الواقع. ربما كنت في الجانب الآخر من المحيط، أو في قارة أخرى، أقرأ هيوم وأنا جالسة تحت قوس حجري. ربما كنت متجهة بسرعة إلى كينغز كولدج، أحمل كتاب «خطاب حول عدم المساواة».

«أبي، أريد أن أخبرك بشيء».

قلت له إن شون قال مازحًا إنه سيطلق النار على أودري لأن أودري واجهته حول سلوكه، كما أظن. حدّق أبي فيّ، وزمّ الجلد حيث كانت توجد شفتاه. ثم نادى أمّي فجاءت. لم يكن مزاجها رائعًا. لم أفهم لماذا لم تنظر في عينيّ مباشرة.

«ماذا تقولين بدقة؟» قال أبي.

في تلك اللحظة تحوّل الأمر إلى استجواب. فكلّما ألمحت إلى أن شون كان عنيقًا أو متلاعبًا بأي شكل، كان أبي يصيح بيّ: «أين هو دليلك؟ هل عندك إثبات؟»

«عندي دفتر مذكراتي»، قلت.

«أحضريه، سأقرأه».

«لا يوجد معي الآن». لقد كذبت لأنه كان تحت سريري.

«بحقّ الجحيم كيف يُفترض بي أن أصدّقك إذا لم يكن لديك إثبات؟» ظلّ أبي يصيح. جلست أمّي على حافة الأريكة، فاعرة فمها. كانت تبدو متألّمة.

«لست بحاجة إلى دليل»، قلت له بهدوء، «فقد رأيت ذلك بنفسي. كلاكما رأيتما ذلك».

قال أبي إنه لن يهنا لي عيش حتى أرى شون يتعقّن في السجن، وأُتني لم أعد من كامبردج إلّا لأشعل الجحيم في البيت. قلت له إنني لا أريد أن يدخل شون السجن لكنني أطلب منكما أن تتدخلا بشكل ما. التفتُ إلى أمي بانتظار أن تضم صوتها إلى صوتي، لكنّها ظلت صامتة. كانت عيناها مطرقتين في الأرض كما لو لم نكن أنا أبي موجودين.

حانت لحظة أدركت فيها أنها لن تتكلّم، أنّها ستظل جالسة هناك من دون أن تقول شيئاً، وأُتني أصبحت وحدي. حاولت أن أهدئ من روع أبي لكن صوتي ارتعش، تصدّع. ثمّ بدأت أنوح - انفجر البكاء من مكان ما، من جزء منّي لم أشعر به منذ سنوات، وأحسست أنّي نسيت أنني موجودة. شعرت بالرغبة في التقيؤ.

جريت إلى الحمام. كنت أرتعش من رأسي حتى أصابع قدمي.

كان عليّ أن أحبس دموعي بسرعة - فإذا لم أفعل ذلك فلن يأخذني أبي بجدية - فتوقفت عن البكاء ولجأت إلى الأساليب القديمة: حدّقت في المرأة ورحت أوبّخ وجهي على كلّ دمعة سقطت منه. كانت طريقة مألوفة، وإذا فعلت ذلك فإنني أحطّم الوهم الذي كنت أحرص على بنائه منذ السنة الماضية. فقد ولّى الماضي المزيف، المستقبل المزيف.

حدّقت في صورتي المنعكسة في المرأة. كانت المرأة جميلة، ذات الألواح الزجاجية الثلاثة المشدّبة بخشب بلوط غير أصلي. إنها المرأة نفسها التي كنت أحدّق فيها عندما كنت طفلة، ثمّ عندما أصبحت فتاة، ثمّ شابة، ثمّ نصف امرأة - نصف فتاة. وكان يقبع ورائي نفس المرحاض الذي أنزل فيه شون رأسي، وتركني فيه حتى اعترفت أنني قحبة.

كثيراً ما كنت أحبس نفسي في هذا الحمام بعد ما فعله شون بي. رحت أحرّك ألواح الزجاج حتى أظهرت وجهي ثلاث مرات، ورحت أحدّق في كلّ لوح فيها، أتأمل في ما قاله شون وما هو الشيء الذي جعلني أقوله، حتى بدأ

يبدو أن كلَّ شيء كان صحيحًا وليس شيئًا قلته لكي يتوقّف الألم. وها أن لا أزال هنا، وها هي المرأة: نفس الوجه يتكرّر في الألواح الثلاثة ذاتها.

لكنه ليس هو. فهذا الوجه أكبر سنًا، يطوف فوق كنزة مصنوعة من الكشمير. كان الدكتور كيري محققًا: فلم تجعل الثياب هذا الوجه، هذه المرأة، مختلفين، وإنما شيء يقبع وراء عينيها، شيء في شكل فكّها - أمل أو اعتقاد أو يقين - بأن الحياة ليست شيئًا لا يمكن تغييره. لم تكن لديّ كلمة تصف ما الذي رأيته، لكنّي أظن أنّه شيء يشبه الإيمان.

استعدتُ شعورًا هنيئًا بالهدوء، وخرجت من الحمام حاملة ذلك الهدوء برقة، كما لو كنت أضع صحنًا خزفيًا فوق رأسي وأسير كي لا يقع. سرت ببطء في الممر، أخطو خطوات صغيرة وثيدة، خطوات متساوية. «أنا ذاهبة لأنام»، قلت عندما وصلت إلى المصلّى، «سنتحدّث عن ذلك غدًا».

كان أبي جالسًا إلى طاولة مكتبه، يحمل هاتفًا بيده اليسرى. فقال: «سنتحدّث عنها الآن. لقد أخبرت شون بما قلته لي. وهو قادم الآن».

خطر لي أن أهرب. هل أستطيع أن أصل إلى سيارتي قبل أن يصل شون إلى البيت؟ أين المفاتيح؟ أحتاج إلى كمبيوتر النقل، قلت في نفسي، وفيه البحث الذي أكتبه. اتركه، قالت الفتاة من المرأة.

طلب مني أبي أن أجلس فجلست. لا أعرف كم انتظرت، يشلّني التردد، لكنّي كنت ما أزال أتساءل إن كان لديّ وقت لأهرب عندما تُفتح الأبواب الزجاجية ويدخل شون. وبغته بدت الغرفة الواسعة صغيرة جدًّا. نظرتُ إلى يديّ. لم أستطع أن أرفع عينيّ.

سمعتُ وقع خطوات. عبر شون الغرفة وجلس بجانبى على الأريكة. انتظرني حتى أنظر إليه، وعندما لم أنظر إليه، مدّ يده وأمسك يدي. بلطف، كما لو كان يفتح بتلات وردة، فتح أصابعي ووضع فيها شيئًا. أحسست ببرودة النصل قبل أن أراه، وأحسست بالدم حتى قبل أن أرى الشريط الأحمر الذي يلطّخ راحة يدي.

كان السكين صغيرًا، لا يزيد طوله على خمس أو ست بوصات ورفيع جدًا. توهَّج النصل بلون قرمزي. فركت إبهامي وسبابتي معًا، ثم رفعتهما إلى أنفي وشممتهما. رائحة معدنية. لا بد أنه دم. ليس دمي - فقد أعطاني السكين فقط - لكن دم من؟

«لو كنت ذكية، سيدل ليستر»، قال شون، «لاستخدمتها على نفسك. لأن ذلك سيكون أفضل مما لو فعلتها أنا لك إذا لم تفعلها بنفسك».

«هذا أمر غير مبرر»، قالت أمي.

نظرْتُ إلى أمي فاعرة الفم، ثم إلى شون. لا بد أنني كنت أبدو لهما فتاة بلهاء، لكنني لم أدرك جيدًا ما الذي كان يجري حقًا كي أستجيب له. تساءلت إن كان عليّ أن أعود إلى الحمام وأدخل في المرأة، وأرسل الفتاة الأخرى، الفتاة التي كانت في السادسة عشرة، فقد تستطيع معالجة الأمر، لأنها لن تكون خائفة، كما أنا خائفة الآن. ولن تصاب بأذى، كما سيحدث لي الآن. فهي شيء قُد من حجر، ولا توجد فيها رقة من لحم. لم أكن قد فهمت بعد أنه لكونها رقيقة - لأنها عاشت بضع سنوات من حياة وفّرت لها الرقة - ستتمكن من إنقاذي أخيرًا.

حدّقت في النصل. بدأ أبي يلقي محاضرتَه، وكان يتوقّف كثيرًا حتى تصدّق أمي على ما يقوله. سمعتُ أصواتًا، من بينها صوتي، ينشد ألحانًا في قاعة قديمة. سمعت أصوات ضحكات، صوت طرطشة نبيذ يُصبّ من قنينة، قرقرة سكاكين وشوك تنقر على صحون خزفية. سمعت قليلًا من خطاب أبي، لكنني أتذكّر تمامًا، كما لو كان يحدث الآن، بأنني عبرت المحيط وعدت خلال ثلاثة غروبَات للشمس، إلى تلك الليلة التي غيّت فيها مع أصدقائي في جوقة الحجرة. لا بد أنني غططت في النوم، قلت في نفسي. الكثير من النبيذ. الكثير من لحم الديك الرومي في عيد الميلاد.

بعد أن عرفت أنني أحلم، فعلت كما يفعل المرء في الأحلام: حاولت أن أفهم وأستخدم قواعد هذه الحقيقة الغريبة. فكّرت في الضلال الغريبة التي تتخذ شخصيات أسرتي، وعندما فكّرت بالفشل، كذبت. لقد لوى المخادعون الحقيقة. الآن جاء دوري. قلت لشون إنني لم أقل شيئًا لأبي. قلت أشياء مثل

«لا أعرف من أين جاءت هذه الفكرة لأبي» و«لا بد أن أبي لم يسمعني جيدًا»، راجية أنني إذا تجاهلت فطنتهما، فإنهما سينسيان ذلك. بعد ساعة، عندما كنا لا نزال نحن الأربعة جالسين على الأريكة، تقبّلت أخيرًا وجودهم الجسدي. فهم هنا، وكذلك أنا.

كان الدم على يدي قد جفّ. كانت السكين ملقاة على السجادة، نسيها الجميع إلا أنا. حاولت ألاّ أحدّق فيها. دم من هذا؟ تفحصت أخي. لم يكن قد جرح نفسه.

بدأ أبي محاضرة جديدة. هذه المرة كنت حاضرة بما يكفي لأسمعها. قال إنه يجب تعليم الفتيات الصغيرات كيف يتصرفن جيدًا حيال الرجال، حتى لا يغوينهم، وأشار إلى تصرفات بنات أختي المبتذلة التي تبلغ أكبرهن السادسة. كان شون هادئًا. فقد شعر بالضجر من دندنة أبي التي لم تتوقف. والأهم من ذلك، كان يشعر بأنه محمي، أفعاله مبرّرة، فقال لي عندما انتهت المحاضرة، «لا أعرف ماذا قلت لأبي هذه الليلة، لكنني أستطيع أن أعرف من مجرد النظر إليك بأنني آذيتك، وأنا آسف».

تعانقنا. ضحكنا كما كنا نفعل دائمًا بعد أي شجار بيننا. ابتسمت له كما كنت أفعل دائمًا، كما ينبغي أن أفعل. لكنّها لم تكن هناك، وكانت الابتسامة زائفة.

عدتُ إلى غرفتي وأغلقتُ الباب ورائي، ووضعت المزلاج بهدوء، ثم اتصلت بدرو. لم أكن متماسكة من الخوف الذي تملكني، لكنه فهم ما أقصده في النهاية. قال إنني يجب أن أغادر البيت على الفور وأنه سيلتقي بي عند منتصف الطريق، فقلت لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن لأن الأمور هادئة. وأنني إذا حاولت أن أهرب في منتصف الليل، فلا أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك.

أويت إلى الفراش، لكن لا لأنام. انتظرت حتى الساعة السادسة صباحًا. وجدت أمي في المطبخ. كنت قد استعرت السيارة من درو، فقلت لها إن شيئًا حدث فجأة وقال درو إنه يحتاج إلى سيارته في مدينة سولت لايك. قلت لها سأعود بعد يوم أو يومين.

بعد بضع دقائق كنت أقود السيارة أسفل التلّ. لاح لي الطريق السريع عندما رأيت شيئًا وتوقّفت. إنها المقطورة التي يقيم فيها شون مع إيميلي

وبيتر. وعلى مسافة عدة أقدام من المقطورة، بجانب الباب، كانت هناك بقع من الدم فوق الثلج. ثمة شيء مات هنا.

بعد ذلك أخبرتني أمي لاحقًا بأنه ديفغو، الكلب الشيبيرد الذي كان شون قد اشتراه منذ سنوات. كان الكلب أليفًا ويحبه بيتر كثيرًا. فبعد أن اتصل أبي به، ذبح شون الكلب بينما كان ابنه الصغير الذي كان على مسافة بضعة أقدام يسمع صرخات الكلب. قالت لي أمي إنه لا علاقة لذبح الكلب بي، وأنه فعل ذلك لأن ديفغو كان يقتل دجاجات لوك. إنها مجرد مصادفة، قالت.

أردت أن أصدّقها لكنني لم أستطع. فقد كان ديفغو يقتل دجاجات لوك منذ أكثر من سنة. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن ديفغو كلبًا من سلالة مهجنة، ودفع شون ثمنه خمسمائة دولار، وكان باستطاعته أن يبيعه.

لكن السبب الحقيقي الذي جعلني لا أصدّقها هو السكين. فقد رأيت أبي وإخوتي يقتلون عشرات الكلاب طوال تلك السنين - كان معظمها كلاب ضالة لا تبتعد عن قفص الدجاج- لكنني لم أر أحدًا يقتل كلبًا بالسكين، وإنما كنا نطلق عليها النار في الرأس أو في القلب، ليكون موتًا سريعًا. لكن شون اختار السكين، وسكين لا يكاد يزيد طول نصله على طول إبهامه. إنه السكين الذي تستخدمه لتذبح شيئًا حتى تشعر بالدم يسيل على يدك عندما يتوقّف القلب عن الخفقان. لم يكن سكين مزارع، أو حتى جرّار، وإنما سكين غضب.

لا أعرف ما الذي حدث في الأيام التي أعقبت ذلك. حتّى الآن، عندما أتمعن في عناصر المواجهة - التهديد، الإنكار، المحاضرة، الاعتذار - أجد صعوبة في روايتها. وعندما فكّرت بذلك مليًا بعد أسابيع، بدا أنني ارتكبت ألف خطأ، طعنت قلب أسرتي بألف سكين. ولم يخطر لي إلّا مؤخرًا أنه مهما بلغ ضرر الذي حدث في تلك الليلة فقد لا أكون أنا السبب فقط في ذلك. وفهمت بعد أكثر من سنة ما الذي كان يجب أن يظهر على الفور: وهو أن أمي لم تواجه أبي، وأن أبي لم يواجه شون، وأن أبي لم يعدني أنا وأودري بأن يساعدنا. لقد كذبت علينا أمي.

عندما أفكّر بكلمات أمي الآن، أتذكّر الطريقة التي بدت فيها كما لو أنها ظهرت على الشاشة بطريقة سحرية، يبرز تفصيل واحد من بين التفاصيل

الأخرى: وهو أن أمي قالت إن أبي يعاني من اضطراب ثنائي القطب، وهو نفس الاضطراب الذي كنت أشكُّ فيه. إنها كلمتي أنا، وليست كلمتها. ثم أتساءل إن كانت أمي التي كانت دائما تعكس إرادة أبي، عكست إرادتي أنا في تلك الليلة.

لا، أقول لنفسِي. كانت كلماتها هي. لكن سواء أكانت كلماتها أم لم تكن، فقد كانت تلك الكلمات التي أراحتني وشففتني كثيرًا، كلمات جوفاء. لا أظن أنها لم تكن صادقة، لكن الصدق لم يمنحها جوهراً، وجرفتها تيارات أخرى أقوى.

الفصل ٣٥ غرب الشمس

هربت من الجبل وحقائبي نصف فارغة ولم أستعد الأشياء التي تركتها هناك. ذهبت إلى مدينة سولت لايك وأمضيت فيها ما تبقى من العطلة مع درو.

حاولت أن أنسى تلك الليلة. وللمرة الأولى بعد خمس عشرة سنة، أغلقت دفتر مذكراتي ووضعتُه جانبًا. فالكتابة في دفتر مذكراتي تحتاج إلى تأمل، ولم أكن أرغب في أن أتأمل شيئًا.

بعد انتهاء عطلة السنة الجديدة، عدت إلى كامبردج، لكنني انسحبت من أصدقائي. فقد رأيت الأرض تهتز تحتي، وأحسست بالصدمة الأولى، وبدأت أنتظر الزلزال الذي سيغيّر المشهد الطبيعي كله. كنت أعرف كيف سيبدأ. إذ سيفكّر شون بما قاله لي أبي على الهاتف، وسيدرك، إن آجلًا أم عاجلًا بأنّ نكراني - ادّعائي بأنّ أبي لم يفهمني جيدًا - مجرد كذبة. وعندما يدرك الحقيقة، فإنه سيحتقر نفسه، ربما لساعة. ثمّ سيحوّل كراهيته إليّ.

في بداية شهر آذار (مارس) أرسل لي شون رسالة بالإيميل، لم تكن فيها أي تحية. لم تكن رسالة حقًا، وإنما أحد فصول الكتاب المقدس، فقرة من إنجيل متى، مكتوبة بخط أسود عريض: يا أولاد الأفاعي، كيف يمكنكم أن تقولوا كلامًا صالحًا، وأنتم أشرار؟ تجمّد دمي في عروقي.

اتصل بي شون بعد ساعة. كانت نبرة صوته عادية، وتحدثنا لعشرين دقيقة عن بيتر، كيف كانت رثاه تتحسنان، ثمّ قال، «أريد أن أتخذ قرارًا وأريد نصيحتك».

«بالتأكيد».

«لا أستطيع أن أقرّر»، قال، ثم صمت. طننت أن الاتصال انفصل، لكنه تابع، «هل عليّ أن أقتلك بنفسي، أم أستأجر قاتلاً». ساد صمت يتخلله صوت

خشخشة، ثم أضاف، «قد يكون استئجار أحد ليقوم بذلك أرخص، إذا حسبْتُ تكلفة الرحلة بالطائرة».

تظاهرتُ بأنني لم أفهم ما يقصده، لكن ذلك جعله أكثر عدوانية، فبدأ يلقي الإهانات، مزمجراً. حاولت أن أهدئ من روعه لكن بدون جدوى. سنرى بعضنا بعد زمن مهما طال. أغلقتُ الهاتف لكنّه اتصل مرة ثانية، مراراً، وكان يكرّر كلّ مرة العبارة نفسها، بأنني يجب أن أحمي ظهري، وأنّ القاتل الذي استأجره سيطاردني. اتصلت بأمي وأبي.

«إنه لا يعني ما يقول»، قالت أمّي، «وفي جميع الأحوال، فهو لا يملك النقود».

«ليست هذه هي الفكرة»، قلت.

أبي يريد دليلاً، سألني، «ألم تسجّلي المخابرة؟» كيف يمكنني أن أعرف إن كان جدّي أم لا؟»

«من نبرة صوته بدا أنه جدّي عندما هدّدني بالسكين الملوثة بالدم»، قلت.

«لم يكن جدّي عندما فعل ذلك».

«ليست هذه هي الفكرة»، كررت.

توقّفت المكالمات الهاتفية، أخيراً، لكن ليس لأن والداي كانا يريدان ذلك، وإنما لم يعودا يتصلان بي بعد أن نبذني شون من حياته. فقد كتب يطلب مني أن أبتعد عن زوجته وطفله، وأن أبتعد عنه بحق الجحيم. كانت الرسالة طويلة، ألف كلمة من الاتهامات والحقّد، لكن في النهاية، كانت نبرته حزينة. وقال إنّّه يحبّ إخوته، وأنّهم أفضل الرجال الذين عرفهم في حياته. وكتب، كنت أحبّك أكثر مما أحبّهم جميعاً، لكنّك كنت تطعنيني بالسكين في ظهري طوال الوقت.

مضت سنوات منذ أن انقطعت العلاقة مع أخي، لكن فقدانها، حتى بعد شهور من المعرفة، أصابني بالذهول.

قال والداي إنّهُ مقاطعته لي مبررة. وقال أبي إنني فقدتُ صوابي وألقي الاتهامات جزافاً ولا يمكن الوثوق بذاكرتي. وقالت أمّي إن غضبي كان تهديداً

حقيقًا وأن لدى شون الحقّ في حماية أسرته. «كان غضبك في تلك الليلة»، قالت لي على الهاتف، وهي تقصد الليلة التي قتل فيها شون ديفغو، «ضعف الخطر الذي أبداه شون».

أصبحت الحقيقة مائعة. مادت الأرض تحت قدميّ وراحت تشدّني إلى الأسفل، تدور بسرعة، مثل رمل يندفع عبر حفرة في قاع الكون. وعندما تحدّثنا في المرة التالية، قالت أمّي إنه لم يهددني بالسكين. «كان شون يحاول أن يريحك أكثر»، قالت، «كان يعرف إنّك ستخافين إذا ظلّ يمسك بالسكين، فأعطاه لك». وبعد أسبوع قالت إنه لم يكن يوجد سكين أصلًا.

«كان التحدث معك»، قالت، «واقعت المشوّه جدًّا، أشبه بالتكلّم مع شخص لم يكن موجودًا أصلًا».

وافقت. كان الأمر كذلك تمامًا.

في ذلك الصيف حصلت على منحة للدراسة في باريس. ذهب معي درو. كانت الشقّة التي أقمنا فيها في المنطقة السادسة، بالقرب من حدائق لوكسمبورغ. كانت حياتي هناك جديدة تمامًا. كانت تجذبني أجزاء المدينة التي تجذب معظم السيّاح، وأصبح بإمكانني أن ألقي بنفسي في وسطها. كان شكلاً محمومًا من أشكال النسيان، وأمضيت الصيف كله أسعى وراءه: أن أضيع في وسط تلك الحشود، وأنسى كل الأشخاص، كلّ التاريخ، وكلما كان المكان أكثر جاذبية، انجذبت إليه أكثر.

أمضيت عدّة أسابيع في باريس. عندما كنت عائدة من درس باللغة الفرنسية بعد ظهر أحد الأيام، توقّفت في مقهى لأقرأ إيميلاتي. وجدت رسالة من أختي.

قالت إن أبي زارها - وقد فهمت على الفور - لكن كان عليّ أن أقرأ الرسالة عدّة مرات حتى فهمت ما الذي جرى بدقة. وأكد والدانا لها أنّ شون قد طُهر بواسطة كفارة آلام المسيح، وأنه أصبح الآن شخصًا جديدًا. وحذّر أبي أودري بأنها إذا أثارت الماضي من جديد، فإن ذلك سيُدّمر أسرتنا بالكامل. وقال لها أبي إن إرادة الله تقتضي أن نسامح، أنا وأودري، شون، وإذا لم نفعل، فإن إثمنا سيكون أعظم.

يمكنني أن أتخيل بسهولة ما حدث في هذه الزيارة: أبي جالس قبالة أختي، والوقار والقوة يملآن كلماته.

قالت أودري لأبي إنها قبلت قوة التكفير منذ زمن بعيد، وأنها سامحت شقيقها. وقالت إنني حرصتها، وأثرت غضبها. وقالت إنني خنتها لأنني ألقيت نفسي في براثن الخوف، في عالم الشيطان، بدلًا من أسير على درب الإيمان مع الله، وقالت إنني فتاة خطيرة لأنني وقعت تحت سيطرة ذلك الخوف، وسيطرة إبليس.

وأنهت أختي رسالتها بالقول إنني لست شخصًا مرحبًا به في بيتها، أو حتى أن أتصل بها إذا لم يكن هناك شخص آخر على الخط ليراقبنا، ويمنعها من الاستسلام والوقوع تحت تأثيري. عندما قرأت ذلك، ضحكت بصوت عال. كان الوضع سيئًا لكنه لم يكن يخلو من سخرية: فمذ عدة أشهر، قالت أودري إنه يجب مراقبة شون عندما يكون مع الأطفال، والآن، بعد جهودنا، أصبحت أنا من يجب مراقبته.

عندما خسرت أختي، خسرت أسرتي.

كنت أعرف أن أبي سيزور إخوتي كما زار أختي. هل سيصدقونه؟ قلت لنفسني نعم. وأكدت أودري ذلك. فلن يكون إنكار أي معنى، هذر شخص غريب. فقد سافرت إلى مكان بعيد جدًا، وتغيّرت كثيرًا، ولم أعد أشبه كثيرًا تلك الفتاة الصغيرة ذات الركبة الجرباء التي يتذكرون أنها كانت أختهم.

كان هناك أمل ضعيف لقهر التاريخ الذي كان أبي وأختي يصنعانه لي. إذ ستصل روايتهما إلى إخوتي أولًا، ثم ستنتقل إلى خالاتي وعمّاتي، وأخوالي وأعمامي، وأبنائهم، وبناتهم، ثم إلى الوادي كله. لقد خسرت قرابة كاملة، ومن أجل ماذا؟

كنت في هذه الحالة العقلية عندما تلقيت رسالة أخرى: فقد حصلت على منحة زيارة إلى جامعة هارفارد. لا أظن أنني تلقيت خبرًا من قبل بمثل هذه الا مبالاة. كنت أعرف أنني يجب أن أتمل بمشاعر الامتنان، لأنني أنا، تلك الفتاة الجاهلة التي زحفت وخرجت من كومة الخردة، يُسمح لها بأن تدرس

هناك، لكن لم أستطع أن أستدعي ذلك الشعور بالحماسة والبهجة. وبدأت أفكر ماذا يمكن أن يكلّفني تعليمي هذا، وبدأت أستاذ منه.

بعد أن قرأت رسالة أودري، تحوّل الماضي. بدأ بذكراتي عنها. ثم تحوّل. فعندما بدأت أتذكر تلك الفترة من طفولتنا معًا، لحظات الرقة أو المرح، الفتاة الصغيرة التي كانت أنا مع الفتاة الصغيرة التي كانت هي، تغيّرت تلك الذاكرة على الفور، تلتطخت، وبدأت تتعقّن. أصبح الماضي فطيعًا كما هو الحاضر.

وتكرّر هذا التغيير مع كلّ فرد من أفراد أسرتي. فقد أصبحت ذكرياتي عنهم مشؤومة، مليئة بالإدانة. فلم تعد الطفلة فيهم، التي كانت أنا، طفلة، وإنما أضحت شيئًا آخر، شيئًا خطيرًا لا يرحم، شيئًا سيلتهمهم كلّهم.

طاردتني هذه الطفلة الوحش طوال شهر قبل أن أجد منطقتًا لأبعدها عني: فربما كنت مجنونة. وإذا كنت مجنونة، فمن الممكن عمل كلّ شيء ليكون معقولًا. أما إذا كنت عاقلة، فلا يمكن عمل شيء. بدا لي أن هذا المنطق لعين، وكان كذلك مصدر ارتياح. فأنا لست شريرة.

وبدأت أستسلم إلى حكمة الآخرين. فإذا تذكرت درو أمرًا يختلف عما أتذكره، فإني أستسلم فورًا وأقبل رأيهم. وبدأت أعتمد على درو ليحكي لي عن وقائع حياتنا، وبدأت أستمع بأن أشكّ في نفسي إن كنّا قد رأينا صديقًا محددًا في الأسبوع الماضي أو في الأسبوع الذي سبقه، أو أن مطعم الكريب الذي نحبّه يقع بجانب المكتبة أم بجانب المتحف. إن التساؤل حول هذه الوقائع التافهة، وقدرتي على إدراكها، جعلتني أشكّ في أن أيّ شيء أتذكره قد حدث فعلاً.

أصبحت أرى دفتر مذكراتي مشكلة. فقد كنت أعرف أنّ ذكرياتي لم تكن مجرد ذكريات، وأنّني دوّنتها، وأنّها موجودة بالأسود والأبيض. وهذا يعني أنّ جزءًا كبيرًا من ذاكرتي خطأ. كان الوهم أعمق، في لبّ عقلي، الذي اخترع في لحظة أن شيئًا حدث، ثمّ دوّنت القصة.

في الشهر التالي، عشت حياة مجنونة. فعندما كنت أرى أشعة الشمس، أشكُّ بأنها مطر. وبدأت تعتريني رغبة قوية في أن أسأل الناس إن كانوا يرون ما أراه. هل هذا الكتاب أزرق؟ كنت أريد أن أسأل. هل ذاك الرجل طويل؟

وفي بعض الأحيان اتخذ هذا الشكُّ شكل يقين ثابت: وجاءت أيام أصبحت أشكُّ فيها بسلامة عقلي، وبدأت أدافع عن ذكرياتي بقوة أكبر، «حقيقتي» باعتبارها الحقيقة الوحيدة المحتملة. كان شون خطيرًا، عنيفًا، وأبي يحميه. لم أعد أتحمّل سماع أيِّ رأي آخر حول هذا الموضوع.

في تلك اللحظات، رحت أبحث بشكل محموم عن سبب يجعلني أفكّر بأنني عاقلة. الدليل. كنت أتوق إليه كما أتوق إلى الهواء. كتبت إلى إرين - المرأة التي كان شون يواعدها قبل سادي وبعدها والتي لم أرها منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري. أخبرتها بما أتذكره وسألتها، بصراحة فظة، إن كنتُ مختلة عقليًا. فأجابتنني على الفور إنني لست كذلك. ولكي تساعدني في أن أستعيد الثقة بنفسني، شاطرتنني ذكرياتها - بأن شون كان يصرخ بها وينعتها بالقحبة. تمرّق عقلي عند هذه الكلمة. لم أقل لها إن هذه الكلمة هي كلمتي.

وحكت لي إرين قصّة أخرى. ففي إحدى المرات ردّت على شون، قليلًا فقط، قالت - كما لو أنه كان يختبر سلوكها - جرّها إلى خارج بيتها وراح يضرب رأسها بالحائط الحجري حتى خيل لها أنّه سيقتلها. وراح يضغط بيديه على حنجرتها. وقالت إنها كانت محظوظة. فقد صرخت قبل أن يبدأ يخنقني، فسمع جدّي صراخي وجاء مسرعًا وأوقفه في الوقت المناسب. لكنني كنت أعرف ما الذي رأيته في عينيه.

كانت رسالتها مثل درابزين مثبت على الحقيقة، حقيقة يمكنني أن أمدّ إليها يدي وأقبض عليها عندما بدأ رأسي يدور بسرعة. حتى خيل إليّ بأنّها قد تكون مجنونة مثلي. لا بد أن ضررًا شديدًا أصابها، قلت في نفسي. كيف يمكنني أن أثق بروايتها بعد ما عانتها؟ لم أستطع أن أصدّق هذه المرأة لأنني أعرف، من بين كلّ الناس، كم كانت إصاباتنا النفسية مدمرة. فرحت أبحث عن دليل من مصدر آخر.

بعد أربع سنوات، بمحض الصدفة، حصلت عليها.
عندما سافرْتُ إلى يوتا لأجري بعض الأبحاث، التقيْتُ بشاب لفت انتباهه
بغضب اسمي الأخير.

«ويستوفر»، قال، وقد تجهَّم وجهه، «هل شون أحد أقربائك؟»
«شقيقي»

«حسنًا، آخر مرة رأيت فيها شقيقك»، قال، مشدِّدًا على هذه الكلمة
الأخيرة كما لو كان يبصق عليها، «كانت يدها حول رقبة ابنة عمي، وكان يخبط
رأسها في حائط من الآجر. كان سيقتلها، لولا جدِّي».

ها هو إذًا. شاهد. رواية نزيهة. لكن عندما سمعتها، لم أعد بحاجة إلى أن
أسمعها. كانت حمَّى الشك بالذات قد تكسرت منذ زمن بعيد. هذا لا يعني أن
أقول إنني كنت أثق بذاكرتي بالكامل، لكنني وثقت بها بقدر ثقتي بأي شخص
آخر، وأكثر من ثقتي ببعض الأشخاص.

لكن ذلك كان بعد سنوات.

الفصل ٣٦ أربعة أذرع طويلة، تدور

كان ذلك في عصر يوم مشمس في شهر أيلول (سبتمبر) عندما سرت في باحة جامعة هارفارد أجرّ ورائي حقيبتني. بدت لي الهندسة المعمارية الكولونيالية غريبة لكنها جميلة هشة وغير مهية بالمقارنة مع القبة والأبراج القوطية في كامبردج. وكانت المكتبة المركزية التي تدعى ويدنير، أكبر مكتبة رأيته في حياتي. ولوهلة نسيت السنة الماضية، ورحت أحدّق بها، مذهولة.

كانت غرفتي في مساكن طلاب الجامعة بالقرب من كلية الحقوق. كانت صغيرة وتشبه الكهف - معتمة، رطبة، شديدة البرودة، جدرانها رمادية، وأرضيتها مكسوة ببلاطات باردة بلون الرصاص. كنت أمضي فيها أقل وقت ممكن. بدا لي أن الجامعة ستتيح لي فرصة جديدة، وكنت عازمة على أن أستغلها. سجّلت في جميع المناهج التي يمكنني أن أحشر جدولي فيها، من المثالية الألمانية إلى تاريخ العلمانية إلى علم الأخلاق والقانون. وانضمت إلى مجموعة دراسية أسبوعية لممارسة اللغة الفرنسية، وأخرى لتعلّم الحياكة، وقدمت مدرسة الخريجين منهاجًا مجانيًا للرسم بالفحم مع أنني لم أرسم في حياتي.

بدأت بقراءة هيوم، وروسو، وسميث، وغودوين، ولستونكرافت وميل. استغرقت في العالم الذي كانوا يعيشون فيه، وفي المشاكل التي كانوا يحاولون حلّها. أصبحت مهووسة بأفكارهم عن العائلة - حول كيف يجب على المرء أن يوازن التزاماته الخاصّة بالتزاماته المتعلقة بالمجتمع ككل. ثمّ بدأت أكتب، أنسج الخطوط التي وجدتتها في كتاب هيوم مبادئ الأخلاق مع الخطوط الرفيعة لكتاب جون ستيوارت ميل «استعباد المرأة». كان عملاً جيّداً. كنت أعرف ذلك حتى وأنا أكتبه، وعندما انتهيت، وضعته جانباً. كانت الفصل الأول في رسالة الدكتوراه.

عندما عدت من درس الرسم صباح يوم السبت، وجدت رسالة إلكترونية من أمي قالت فيها: «سنأتي إلى هارفارد». قرأت هذا السطر ما لا يقل عن ثلاث مرات. كنت متأكّدة بأنها تمزح لأن أبي لا يسافر - لا أعرف أنه سافر إلى أيّ مكان إلّا إلى أريزونا لزيارة أمّه - فبدت فكرة سفره بالطائرة وقطع كلّ هذه المسافة ليرى ابنته التي يؤمن بأن الشيطان قد تلبّسها، مضحكة. ثمّ فهمت سبب زيارته: فقد كان سيأتي لإنقاذي. قالت أمي إنها حجزا في الطائرة وأنهما سيمكثان في غرفتي في مسكن الطلاب.

«هل تريدان أن أحجز لكما في فندق؟» سألتهما، فقالا لا.

بعد فترة قصيرة، دخلت إلى برنامج دردشة قديم على الإنترنت لم أستخدمه منذ سنوات. كانت هناك أغنية بهيجة واسم تحوّل من اللون الرمادي إلى الأخضر. قال: تشارلز على الإنترنت. لست متأكّدة من الذي بدأ الدردشة، أو من اقترحها، ثم انتقل الحديث إلى الهاتف. تكلمنا حوالي ساعة، وشعرنا بأن الوقت مرّ بسرعة كبيرة.

سألني أين أدرس. عندما أجبت، قال، «هارفارد! يا إلهي».

«من كان سيخطر له ذلك؟» قلت.

«أنا»، قال، وكان هذا صحيحًا. فقد كان يراني دائمًا هكذا، حتى قبل أن يكون هناك سبب يجعله يعتقد بذلك.

سألته ماذا يفعل بعد تخرّجه من الجامعة، فخيم صمت متوتّر، ثم قال: «لم تسر الأمور كما كنت قد خطّطت لها». لم يتخرّج تشارلز من الجامعة، بل تركها عندما كان في السنة الثانية بعد أن ولد ابنه، لأن زوجته كانت مريضة وأصبح أمامه تلّ من الفواتير الطبية. وقد عمل في حقول التنقيب عن البترول في وايمونغ. قال: «كان من المفترض أن أعمل لبضعة شهور فقط، لكن مضت سنة على ذلك الآن».

حدّثته عن شون، وكيف أنني خسرت، وكيف أنني أخسر باقي أفراد أسرتي. كان يستمع بهدوء، ثم أطلق تنهيدة طويلة، وقال: «ألم تفكري قط بأنه كان عليك أن تتركهم؟»

لم أفكر بذلك قط. ثم أجبت، «أستطيع أن أصلح الأمر». «من المضحك كيف أنك تستطيعين أن تتغيري كثيرًا»، قال تشارلز، «لكنك لا تزالين تبدين كما كنت عندما كنّا في السابعة عشرة».

وصل والدايَّ عندما بدأ لون أوراق الأشجار يتغيّر، عندما كان الحرم الجامعي في أبهى حلة له، فقد كان لون أوراق الأشجار الأحمر والأصفر يمتزجان مع لون حجارة المباني الكولونيالية الخمرية. ببساطته الريفية، وبقميصه الدينيم وقبعته التي يضعها طوال عمره، كان أبي يبدو دائمًا أنه في المكان غير المناسب في هارفارد، وقد أبرزت ندوبه هذا التأثير بقوة. كنت قد رأيته كثيرًا في السنوات التي أعقبت الانفجار، لكنني لم أدرك حجم تشوّهه إلا عندما جاء إلى هارفارد. وقد أدركت ذلك من نظرات الآخرين - غرباء كانت تعابير وجوههم تتغيّر عندما يعبرون أمامه في الشارع، ثم يلتفتون إلى الورااء لإلقاء نظرة ثانية. عندها بدأت أنظر إليه أنا أيضًا، وبدأت ألاحظ كم كان الجلد على ذقنه مشدودًا وبلاستيكيًا؛ وكيف أن شفّيته تفتقران إلى الاستدارة الطبيعية، وكيف أن خديه مسحوبان إلى الداخل بزاوية تكاد تكون هيكلية. وكانت يده اليمنى التي يرفعها غالبًا ليشير إلى شيء، معقودة وملتقّة، وعندما حدّقت فيها، أمام أبراج وأعمدة هارفارد العتيقة، بدت لي كأنها مخلب مخلوق أسطوري.

لم يكن لدى أبي أي اهتمام برؤية معالم الجامعة، فأخذه إلى المدينة. علّمته كيف يأخذ قطار المترو - كيف يُدخل التذكرة في الشقّ ويدفع الباب الدوار. ضحك عاليًا، كما لو كان ذلك تقنية أسطورية. وعندما مرّ متشرّد في عربة المترو التي كنّا نستقلها وطلب أن نعطيه دولارًا، أعطاه أبي ورقة جديدة من فئة الخمسين دولارًا.

«إذا لم تتوقف عن عمل ذلك في بوسطن، فلن يبقى معك نقود»، قلت له.

«أشكّ في ذلك»، قال أبي وغمزني، «إن العمل ممتاز. لدينا أكثر مما نستطيع أن ننفق!»

بسبب صحته أعطيت السرير لأبي، واشترت فرشة هوائية لتنام أمي عليها، أما أنا فنمت على أرضية الغرفة المبلطة. شخر والدايَّ بصوت عال، فلم أتم طوال الليل. وعندما أشرق الشمس أخيرًا، بقيت مستلقية على الأرض، عيناى مغمضتان، أتنفّس بعمق وببطء، بينما أفرغ والدايَّ ثلاجتي الصغيرة، وكانا يكلماني بصوت خافت.

«أمرني الربّ بأن أشهد»، قال أبي، «بأنها قد تعود إلى الربّ».

بينما خطّط والدايَّ كيف يعيداني إلى الطريق القويم، خطّطت أن أتركهما يفعلان ذلك. كنت مستعدّة لأن أستسلم لهما حتى لو كان ذلك يعني أن يمارسا طرد الأرواح الشريرة مني. ستكون المعجزة مفيدة: فإذا استطعت أن أبدأ ولادة جديدة مقنعة، فإنني سأتخلّى عن كلّ شيء قلته وفعلته في السنة الماضية. يمكنني أن أعيد كلّ شيء كما كان في الماضي - وأنحي باللائمة على إبليس وأمنح صفحة جديدة، نظيفة. تخيلت التقدير الكبير الذي سأحظى به، مثل وعاء طُهر حديثًا. وكم سيحبّني الجميع. وأن كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أبادل ذكرياتي بذكرياتهم، عندها يصبح بإمكانني أن أستعيد أسرتي.

أراد أبي أن يزور الحديقة المقدّسة في الميرا، بنيويورك - الغابة التي، استنادًا إلى جوزيف سميث، ظهر له فيها الله وأمره بأن يؤسس الكنيسة الحقيقية. استأجرنا سيارة وبعد ستّ ساعات دخلنا إلى الميرا. بالقرب من الحديقة، بجانب الطريق السريع، كان ينتصب معبد يومض بالأضواء يعلوه تمثال ذهبي للملاك موروني. توقف أبي وطلب مني أن أعبر باحة المعبد، وقال لي: «المسي جدار المعبد، لأن قوّته ستطهّرك».

تفحصت وجه أبي. كانت قسمات وجهه مسترخية - متحمسة، يائسة. كان يريد بكل جوارحه أن ألمس المعبد لينقذني.

نظرنا أنا وأبي إلى المعبد. هو رأى الله، وأنا رأيتُ حجر صوان. نظر أحدهما إلى الآخر. رأى امرأة ملعونة، ورأيتُ رجلًا عجورًا معتوفاً، شوّهته معتقداته. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان يشعر بأنه كان منتصرًا. تذكّرت كلمات سانشو بانثا: «الفارس المغامر شخص مهزوم ثم وجد نفسه إمبراطورًا».

عندما أفكّر بتلك اللحظة الآن، تظهر أمامي صورة مغبشة، غير واضحة، تستحيل إلى صورة فارس يتقدّ حماسًا، يمتطي جوادًا، يحارب معركة خيالية، يضرب الظلال، يحارب الهواء، فكّه مشدود، ظهره مستقيم، عيناه تتقدان بالإيمان، يرمي الشرارات التي تحترق أينما سقطت. تنظر إليّ أمّي نظرة باهتة، غير مصدّقة، لكن ما إن ينظر إليها، حتى يصبح عقلًا واحدًا، ويبدآن كلاهما محاربة طواحين الهواء.

اجتزت الباحة ووضعت راحة يدي على حجارة المعبد. أغمضت عيني وحاولت أن أوّمن بأنّ هذا العمل البسيط قد يُحدث المعجزة التي يصليّ والديّ من أجلها. كان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن ألمس هذا الأثر، وبقوّة الله القدير، سيعود كلّ شيء إلى الطريق القويم، لكنّي لم أشعر بشيء، لم أشعر إلّا بلمس صخرة باردة.

عدتُ إلى السيارة. «لنذهب»، قلت.

عندما تبدو الحياة نفسها مجنونة، فمن يعرف أين يقبع الجنون؟

في الأيام التي تلت ذلك، كتبت هذه الفقرة في كل مكان - لا شعوريًا، بهوس. أجدها الآن في كتب كنت أقرأها، وفي دفاتر محاضراتي، وفي هوامش دفتر مذكراتي. كان تكرارها بمثابة تعويذة. أرغمت نفسي على أن أصدّقها - أن أصدّق أنه لا يوجد فرق حقيقي بين ما كنت أعرف أنه صحيح وما أصبحت أعرف الآن أنه زائف. أن أقنع نفسي بأنه لا يزال يوجد قدر من الكرامة في ما كنت أخطّط أن أفعله، أن أتخلّى عن مفاهيمي وتصوّراتي حول الصواب والخطأ، الحقيقة، وسلامة العقل نفسها، كي أحظى بحبّ والدايّ. فمن أجلهما، ظننت أنّي أستطيع أن أرتدي الدرع وأحارب العمالقة، حتى لو لم أر إلّا طواحين هواء.

دخلنا إلى البستان المقدّس. مشيئًا أمامهما ووجدت مقعدًا تحت مظلة من الأشجار. كانت غابة جميلة، مثقلة بالتاريخ. إنها السبب الذي جعل أسلافي يأتون إلى أمريكا. ثم ظهرت أمي وأبي وجلسا، وجلستُ بينهما.

لم يتوقف أبي عن الكلام طوال ساعتين. أقسم بأنّه رأى ملائكة وشياطين، ورأى تجليات جسدية للشرّ، وأن الربّ زاره كما كان يزور الأنبياء

في العهود القديمة، كما زار جوزيف سميث في هذا البستان بالتحديد. وقال إن إيمانه لم يعد إيمانًا، وإنما معرفة كاملة.

«لقد تلبسك إبليس»، قال هامسًا، ووضع يده على كتفي، «لقد شعرت بذلك منذ أن دخلت إلى غرفتك».

تذكرتُ غرفتي في السكن الجامعي - الجدران المظلمة والبلاطات الشديدة البرودة، لكنني تذكرت أيضًا زهور عبّاد الشمس التي أرسلها لي درو، والسجادة المعلقة على الحائط التي جلبها لي صديق من زمبابوي من قريته.

لم تقل أمي شيئًا، بل راحت تحدّق في التراب، عيناها تلمعان، شفتاها مزمومتان. حنّني أبي على أن أردّ. فنّشت في نفسي، غصت في أعماقي، أبحث عن الكلمات التي يريد أن يسمعها. لكنني لم أجدها، ليس الآن.

قبل أن نعود إلى هارفارد، أقنعت والدائي بأن نذهب في جولة إلى شلالات نياغارا. كان المزاج في السيارة ثقيلًا. في البداية، ندمت لأنني اقترحت عليهما هذه الجولة، لكن عندما رأى أبي الشلالات تغير، وغمرته البهجة. كانت لديّ آلة تصوير. كان أبي يكره آلات التصوير، لكن عندما رآها معي لمعت عيناها حماسة. «تارا! تارا!» صاح، وجرى أمامي أنا وأمّي. «هيا خذي صورة من هذه الزاوية. أليست جميلة!» كما لو أنه أدرك بأننا نسجّل ذاكرة، شيئًا جميلًا قد نحتاج إليه لاحقًا. أو ربما، كما أتوقع، أنني كنت أشعر هكذا. توجد صور من ذلك اليوم قد تساعدني في نسيان البستان، كتبت في دفتر مذكراتي. توجد صورة أظهر فيها أنا وأبي سعيدين. دليل على أن هذا ممكن.

عندما عدنا إلى هارفارد، اقترحت أن أحجز لهما غرفة في فندق لكنهما رفضا. ولمدة أسبوع، ظلّ أحدا يتعثر بالآخر في غرفتي الصغيرة. وكان أبي يصعد صباح كل يوم الدرج إلى الحمام المشترك لا يستره شيء سوى منشفة بيضاء صغيرة. كان ذلك سيجعلني أشعر بالحر في جامعة بريغهام يونغ، أما هنا في هارفارد فلم أكرث بذلك. فقد تجاوزت مرحلة الإحراج. فلم يعد يهمني من الذي سيراه، أو ماذا سيقول لهم، أو الصدمة التي ستعثر بهم؟ وإنما كان كلّ ما يهمني هو رأيه، لأنه الشخص الذي سأفقدّه.

جاءت ليلة زيارتهما الأخيرة، ولم أولد من جديد بعد.

كنت أنا وأمِّي نتحرك في المطبخ المشترك نجهز لحم العجل والبطاطا. عندما أحضرنا الطعام إلى الغرفة، تفحص أبي صحنه بهدوء، كما لو كان وحده. أبدت أمِّي بضع ملاحظات عن الطعام، ثم ضحكت ضحكة فيها شيء من التوتر ثم صمتت.

عندما أنهينا الطعام، قال أبي إن لديه هدية لي. «لهذا السبب جئت، لأمنحك مباركة كهنوتية».

في المورمونية، فإن الكهنوت هو قوّة الله التي تعمل على الأرض - إسداء نصيحة، تقديم مشورة، شفاء مرضى، طرد الشياطين - وهي تُمنح للرجال حصراً - هذه هي اللحظة: إذا قبلت المباركة، فإنه سيظهرني. سيضع يديه على رأسي ويطرد ذلك الشيء الشرير الذي جعلني أقول ما قلته، الذي جعلني منبوذة في أسرتي. وكان كلّ ما عليّ أن أفعله هو أن أذعن، وبعد خمس دقائق سينتهي كلّ شيء.

سمعت نفسي أقول لا.

فغر أبي فمه غير مصدّق، ثم بدأ يشهد - لا عن الله، وإنما عن أمِّي - فقد قال إن الأعشاب هي دعوة إلهية من الربّ. وأن كلّ ما حدث لأسرتنا، كلّ جرح، كلّ حادث أشرف فيه أحدنا على الموت، هو لأننا اخترنا، لأننا كنّا خاصّين. وقد ربّب الله كلّ ذلك لكي نشجب المؤسسة الطبية ونشهد بقوّته.

«هل تتذكّرين عندما احترقت ساق لوك؟» قال أبي، كما لو كنت أستطيع أن أنسى. «كان ذلك من عمل الله. إنه منهج لكي تكون أمّك مستعدة لما سيحدث لي».

وقال إن الانفجار والحرق هما أعلى مراتب الشرف الروحي، لكي يكون دليلاً حيّاً على قدرة الله. أخذ أبي يدي ووضعهما بين أصابعه المشوّهة وقال إن تشوّهه مُقدّر، وأنه رحمة لطيفة، جلب الأرواح إلى الله. وأضافت أمِّي شهادتها في همسات هامسة، موقّرة. وقالت إنها تستطيع أن توقف جلطة دماغية بتعديل نقطة الشاكر، وأنها تستطيع أن توقف سكتة قلبية باستخدام الطاقة فقط، وتستطيع أن تعالج السرطان إذا كان المريض مؤمناً. وقالت إنها أصيبت هي نفسها بسرطان الثدي، وقد عالجته بنفسها.

انتفض رأسي. «هل أصبت بالسرطان؟» سألتها، «هل أنت متأكّدة؟ هل فحصت نفسك؟»

«لم أكن بحاجة إلى أن أفحص نفسي»، قالت، «لقد اختبرته باختبار العضلات. كان السرطان. وقد عالجتة».

«كان بإمكاننا أن نعالج جدّتك أيضًا»، قال أبي، «لكنها أدارت ظهرها للمسيح. كانت تفتقر إلى الإيمان فماتت. إن الله لا يشفي الذين لا يؤمنون». هزت أمي رأسها لكنها لم ترفع عينيها.

«كان ذنب جدّتك كبيرًا»، قال أبي، «لكن ذنوبك أكبر بكثير، لأنك مُنحت الحقيقة وأدّرتَ ظهرك لها».

كانت الغرفة هادئة باستثناء الدندنة المملّة لأصوات السيارات المنبعثة من شارع أوكسفورد.

كانت عينا أبي مثبّتان عليّ. كانت نظرة عرّاف، وسيط وحي مقدّس تستمد قوّتها وسلطتها من الكون ذاته. أردت أن أواجهها مباشرة، لأثبت أنني أستطيع أن أقاوم تأثيرها، لكن بعد بضع ثوان، حدث شيء فيّ، قوة داخلية استسلمت، وسقطت عيناى على الأرض.

«لقد دعاني الله لأشهد بأنّ كارثة وشيكة ستحدث لك»، قال أبي، «وستحدث قريبًا، قريبًا جدًّا، وستحطمك تمامًا. ستُلقي بك في أعماق المهانة. وعندما تصبحين هناك، عندما ترقدين محطمة، ستطلبين من الأب الإلهي الرحمة». هبط صوت أبي الذي ارتفع إلى نبرة الحمّى إلى همهمة الآن، «ولن يسمعك».

التقت عيناى بعينيهِ المحدقتين. كان يحترق بالإيمان والقناعة. كان بإمكانى أن أشعر بالحرارة تتدفق منه. انحنى إلى الأمام حتى كاد وجهه يلامس وجهي، وقال، «لكني سأعرض».

خيّم صمت، صافٍ، طالع.

«سأعرض، للمرة الأخيرة، أن أقدم بركتي»، قال.

كانت البركة رحمة. عرض عليّ نفس شروط الإذعان التي قدّمها لأختي. تخيلت الإحساس بالراحة الذي لا بد أنه غمرها عندما أدركت أنها تستطيع أن تقايز حقيقتها -التي شاركتني إياها- بحقيقته هو. كم كانت ممتنة لتدفع هذا الثمن الزهيد. لا أستطيع أن أحكم على اختيارها، لكن في تلك اللحظة، عرفت أنني لا أستطيع أن أختاره لنفسِي. فكلّ ما قمت به، كلّ السنوات التي أمضيتها في الدراسة، كانت لأشتري لنفسِي هذه الخطوة: لأرى وأعيش حقائق أكبر من الحقائق التي منحني إياها أبي، وأستخدم هذه الحقائق لتشكيل عقلي. وبدأت أعتقد أن القدرة على تقييم الكثير من الأفكار، والكثير من التواريخ، والكثير من الآراء، هي في صميم ما يعني بناء الذات، فإذا أذعنُ الآن، فإني سأخسر أشياء كثيرة. وسأفقد احترامي لعقلي. هذا هو الثمن الذي يُطلب مني أن أدفعه، فهمت ذلك الآن. فلم يكن أبي يريد أن يخلصني من الشيطان: وإنما أنا.

مدّ أبي يده إلى جيبه وأخرج قارورة زيت مقدّس، ووضعها في راحة يدي. حدّقت فيها. هذا الزيت هو الشيء الوحيد المطلوب لأداء الطقوس، والسلطة المقدّسة التي تقع في يديّ أبي المشوهتين. تخيلت استسلامي، تخيلت أنني أغمض عينيّ وأنكر كفري. تخيلت كيف سأصف تغيري، تحولي الإلهي، وكلمات الامتنان التي سأصرخ بها. كانت الكلمات جاهزة، مشكّلة بالكامل وتنتظر أن تغادر شفّتيّ.

لكن ما إن فتحت فمي حتى تلاشت.

«أحبّك»، قلتُ، «لكني لا أستطيع. أنا آسفة يا أبي».

وقف أبي فجأة. ثم كرر أنه يوجد شرّ في غرفتي، وأنّه لا يستطيع أن يبقى فيها ليلة أخرى. كان موعد رحلتهما في الصباح، لكنه قال إنه النوم على مقعد في حديقة أفضل من المكوث في غرفة يسكنها الشيطان.

تحركت أمّي بسرعة في أرجاء الغرفة، وألقت بالقمصان والجوارب في حقيبتها. وبعد خمس دقائق، غادرا.

الفصل ٣٧

مقامرة من أجل الخلاص

ثمة أحد يصرخ، صرخات طويلة، متواصلة، عالية جدًا فأيقظتني. كانت العتمة تملأ المكان. وكانت هناك أضواء شوارع، ورصيف، وهدير سيارات من بعيد. كنت أقف في وسط شارع أوكسفورد، على مسافة قصيرة من غرفتي في المسكن الجامعي. كانت قدمي حافيتين، وكنت أرتدي بلوزة وبنطال بيجامه من الفانيلا. كان يبدو أن الناس يحدّقون بي، لكنّها كانت الساعة الثانية صباحًا وكان الشارع مقفّرًا.

بطريقة ما عدت إلى المبنى الذي أقيم فيه، ثمّ جلست على سريري وحاولت أن أعيد بناء ما حدث. تذكّرت أنني كنت نائمة. تذكّرت الحلم. الشيء الذي لم أتذكّره هو أنني كنت أطير من سريري وانطلق إلى أسفل القاعة ثم إلى الشارع، أصرخ، لكن هذا ما فعلته.

كان الحلم عن البيت. فقد أقام أبي متاهة في جبل بيكس باك وأوقعني فيها. كانت الجدران التي يزيد ارتفاعها على عشرة أقدام مشيّدة من المواد التي يخزّنها في القبو الذي حفره في الحقل - أكياس من الحبوب، صناديق ذخيرة، براميل مليئة بالعسل. كنت أبحث عن شيء، شيء ثمين لا أستطيع الاستغناء عنه. كان عليّ أن أهرب من هذه المتاهة لكي أستعيده، لكنّي لم أستطع أن أجد الطريق إلى الخارج، وكان أبي يطاردني، يغلق المنافذ بأكياس الحبوب المكّدة في شكل حواجز.

توقفت عن حضور دروس اللغة الفرنسية، ثمّ دروس الرسم. وبدلاً من أن أقرأ في المكتبة أو أحضر محاضرات، بدأت أشاهد التلفزيون في غرفتي، ورحت أبحث عن المسلسلات الشعبية منذ العقدين الماضيين. وما إن كانت تنتهي حلقة، حتى أبدأ الحلقة الثانية بدون تفكير، كما يتبع النَّفس نَفْسًا آخر. كنت أشاهد التلفزيون ثمانية عشرة ساعة أو عشرين ساعة يوميًا. وعندما

أنام، كنت أحلم بالبيت، وكنت أصحو مرة في الأسبوع على الأقل لأرى نفسي واقفة في الشارع في منتصف الليل، أتساءل إن كانت الصيحة التي سمعتها قبل أن أستيقظ مباشرة هي صيحتي.

لم أعد أدرس. عندما كنت أقرأ لم تكن الجمل تعني شيئًا. كنت أريد أن لا تعني شيئًا، ولم أعد أحتمل أن أضم الجمل في خيط من الأفكار، أو أنسج هذه الخيوط في أفكار. كانت الأفكار تشبه التفكير العميق، وكانت أفكارني تتجلى دائمًا في التعبير الذي بدا على وجه أبي المنبسط في اللحظة التي سبقت هروبه مني.

مهما كان واضحًا أنك ستصاب بانهيار عقلي، فلن يكون ذلك واضحًا بالنسبة لك. تقول لنفسك أنا على ما يرام. فما الضير في أنني شاهدت التلفزيون طوال أربع وعشرين ساعة متواصلة البارحة. فأنا لا أنهار. إنني كسولة فقط. لماذا من الأفضل أن تفكر بأنك كسول على أن تفكر بأنك في حالة اكتئاب، لست متأكدة. لكن هذا أفضل. لا بل أكثر من أفضل: إنه أمر في غاية الأهمية.

في شهر كانون الأول (ديسمبر) تراجعت كثيرًا في دراستي، وتوقفت ذات ليلة لأبدأ مشاهدة حلقة جديدة من مسلسل «Breaking Bad»، أدركت أنني قد لا أحصل على الدكتوراه. ضحكت بشكل هستيري لمدة عشر دقائق على هذه المفارقة: وهي أنني بعد أن ضحيت بأسرتي لأدرس، فإنني سأخسر الدراسة أيضًا.

بعد عدة أسابيع، غادرت سريري ذات ليلة وقلت إنني أخطأت، وأنه عندما قدّم لي أبي مباركته، كان عليّ أن أقبلها، لكن لم يفت الأوان بعد. يمكنني أن أصلح الضرر. أن أتدارك الأمر.

اشتريت تذكرة طائرة إلى أيدياهو في عطلة عيد الميلاد. قبل الرحلة بيومين استيقظت غارقة في عرق بارد. كنت أحلم بأنني في مستشفى، مستلقية فوق شراشف بيضاء ناعمة، وأبي يقف عند أسفل السرير، يقول لشرطي إنني طعنت نفسي بالسكين، ورددت أمي ما قاله، عيناها مرعوبتان.

فوجئت عندما سمعت صوت درو يصيح بأُني يجب أن أنقل إلى مستشفى آخر. «سيجدها هنا»، ظل يقول.

كتبْتُ إلى درو الذي كان يقيم في الشرق الأوسط. قلت له إنني سأذهب إلى البيت. عندما أجابني كانت نبرته ملّحة وحادّة، كما لو كان يحاول أن يمزق الضباب الذي أعيش فيه. عزيزتي تارا، كتب. إذا طعنك شون، فلن يأخذوك إلى المستشفى، بل سيضعونك في الطابق السفلي، وسيدهنون جرحك بقليل من اللافندر. وتوسل إليّ بأن لا أذهب، وقال لي مئة شيء أعرفه لكني لم أعبأ به، وعندما لم يُجدِ ذلك نفعًا، قال: لقد حكيت لي قصّتك لأمنعك إذا حاولت أن تقدمي على شيء متهور. حسّنًا، يا تارا، أقول لك إن ما ستفعلينه عمل متهور.

لا يزال بإمكانني أن أصلح الأمور، قلت لنفسي عندما أقلعت الطائرة من على المدرج.

كان صباحًا شتائيًا مضيئًا عندما وصلت إلى جبل بيكس باك. أتذكّر رائحة التراب المجمّد عندما اقتربت من البيت وصوت الجليد والحصى يُطحن تحت حذائي الطويل. كانت السماء زرقاء بشكل مربع. تنشقت رائحة الصنوبر المرحّبة بي.

هبطت نظرتي إلى أسفل الجبل وانحبست أنفاسي. عندما كانت جدّتي على قيد الحياة، استطاعت بصياحها وتهديداتها من إبقاء باحة خردة أبي نظيفة. أما الآن فقد أصبحت الأوساخ تغطي المزرعة وبدأت تزحف إلى قاعدة الجبل. وأصبحت التلال، التي كانت ذات يوم بحيرات ثلجية نقية، مليئة بالشاحنات المحطمة وخزانات الوقود الصدئة.

فرحت أمّي عندما خطوت عبر الباب. لم أخبرها بأنني قادمة، راجية أنه إذا لم يعرف أحد بقدومي، فقد أتخاشى شون. قالت بسرعة وبتوتر، «سأعّد لك بعض الحلوى ومرق اللحم»، قالت، وهرعت إلى المطبخ.

«سأساعدك بعد دقيقة»، قلت لها، «أريد أن أرسل رسالة بالإيميل وسأعود بسرعة».

كان جهاز الكمبيوتر موجودًا في الجزء القديم من البيت الذي كان الغرفة الأمامية قبل عملية التجديد. جلستُ لأكتب إلى درو، لأنني وعدته، كنوع من المصالحة بيننا، أنني عندما أصل إلى البيت سأكتب له كلَّ ساعتين. نقرتُ على الكمبيوتر فلمعت الشاشة. كان المتصفح مفتوحًا للتو. فقد نسي أحدهم أن يسجل الخروج. عندما كنت على وشك أن أفتح متصفحًا جديدًا، توقفت عندما لمحت اسمي. كان مكتوبًا في الرسالة المفتوحة على الشاشة التي أرسلتها أمي منذ لحظات، إلى إرين، صديقة شون السابقة.

كان فحوى الرسالة أن شون قد ولد من جديد، وقد تطهّر روحياً، وأن التكفير شفى أسرتنا، وأن كلَّ شيء عاد إلى سابق عهده. الجميع ما عداي. فقد همست لي الروح الحقيقة عن ابنتي، كتبت أمي. وقد أسلمت ابنتي المسكينة نفسها للخوف الذي جعلها بائسة لا تستطيع أن تصح مفاهيمها الخاطئة. ولا أعرف إن كانت تشكّل خطرًا على أسرتنا، لكنّ لديّ أسباب تجعلني أعتقد أنها ربما تكون كذلك^[11].

حتى قبل أن أقرأ الرسالة كنت أعرف أنّ أمي تشارك أبي في رؤيته الظلامية، بأنّها تؤمن بأن الشيطان تلبّسني، وأنني أصبحت خطيرة. إلا أن شيئًا في رؤية الكلمات على الصفحة، في قراءتها وسماع صوتها في تلك الكلمات، صوت أمي، جعل القشعريرة تسري في جسدي.

كان هناك جزء آخر في الرسالة. فقد وصفت أمي في الفقرة الأخيرة ولادة طفل إيميلي الثاني، ابنة، التي ولدت قبل موعدها بشهر. وقد ولدت أمي الطفلة، وجرت الولادة في البيت، وكما قالت أمي، فقد نذفت إيميلي حتى كادت تموت قبل أن يتمكنوا من نقلها إلى المستشفى، وأنهت أمي قصّتها بأنها تشهد بأن الله كان يعمل من خلال يديها في تلك الليلة، وقالت، كانت الولادة دليلاً على قدرته.

تذكّرتُ مأساة ولادة بيتر: كيف انسلّ من جسد إيميلي وهو لا يزيد وزنه على باوند واحد. كان ظلًا رماديًا صادمًا، وظن الجميع أنه ميت، ونقلوه في تلك العاصفة الثلجية إلى المستشفى في البلدة، فقال لهم الأطباء إنه لا تتوفر لديهم الأجهزة الكافية لإنقاذه، ولا يمكنهم نقله بطائرة هيلوكوبتر إلى

مستشفى آخر بسبب العاصفة، فقامت سيارتا إسعاف بنقله إلى مستشفى مكاي دي في أوغدن. أليس من التهور أن يتم توليد امرأة بهذا التاريخ الطبي، معرضة لخطر كبير، في البيت.

إذا كانت السقطة الأولى هي إرادة الله، فإرادة مَنْ هي السقطة الثانية؟ كنت لا أزال أتساءل حول ولادة ابنة أختي عندما ظهر ردّ إرين. أنت محقّة حول تارا، قالت. إنها ضائعة من دون إيمان. وقالت إرين لأُمّي بأن شكّي في نفسي - كتابتي لها، إرين، لأسألها هل كنت مخطئة، وهل كانت ذكرياتي غير صحيحة - دليل واضح على أن روحي في خطر، ولا يمكن الوثوق بي: إنها تبني حياتها على الخوف. سأصلي من أجلها. وأنهت إرين رسالتها بامتداح مهارة أُمّي كقابلة. أنتِ بطلّة حقيقية، كتبت.

أغلقت المتصفح ورحت أحرق في ورق الجدران وراء الشاشة. كانت نفس رسوم الأزهار عندما كنت طفلة. منذ متى كنت أحلم برؤيتها؟ جئت لأستعيد تلك الحياة، لأنقذها. لكن لا يوجد هنا شيء يمكن إنقاذه، لا شيء يمكن الإمساك به. فلا توجد إلّا رمال متحركة، ولاءات متحركة، تاريخ متحرك.

تذكرت الحلم، المتاهة. تذكرت الجدران المشيدة من أكياس الحبوب وصناديق الذخيرة، من مخاوف أبي وهواجسه، من كتبه المقدسة ونبوءاته. أردت أن أهرب من تلك المتاهة بتعرجاتها المربكة، وممراتها ودروبها الملتفة، لأعثر على ذلك الشيء الثمين. لكنني فهمت الآن: الشيء الثمين، هو المتاهة. هذا كلّ ما تبقى من الحياة التي عشتها هنا: لغز لن أفهم قواعده أبدًا، لأنها ليست قواعد على الإطلاق، وإنما نوع من قفص يهدف إلى حبسي فيه. يمكنني أن أبقى، وأبحث عمّا كان البيت، أو يمكنني أن أذهب، الآن، قبل أن تطبق عليّ الجدران ويغلق عليّ المنفذ إلى الخارج.

كانت أُمّي تضع الحلوى في الفرن عندما دخلت إلى المطبخ. نظرت حولي، أفتش البيت عقليًا. ما الذي أحتاج إليه في هذا المكان؟ هناك شيء واحد فقط: ذكرياتي. وجدت دفتر مذكراتي تحت سريري، في صندوق، حيث تركته. حملته إلى السيارة ووضعت في المقعد الخلفي.

«سأذهب في جولة»، قلت لأُمِّي. حاولت أن أبقى صوتي سلسًا. عانقتها، ثم ألقيت نظرة طويلة على جبل بيكس باك، لأحفظ عن ظهر قلب كلَّ خطٍّ وظلٍّ فيه. رأيتني أُمِّي آخذ دفتر مذكراتي إلى السيارة. لا بد أنها عرفت ما الذي يعنيه ذلك، لا بد أنها أحسَّت بالوداع فيه، لأنها نادت أبي الذي عانقني متشنجًا، وقال، «أحبُّكِ، تعرفين ذلك؟»

فقلت: «أعرف، لكن لم تكن هذه المسألة قط». كانت هذه الكلمات آخر الكلمات التي قلتها لأبي.

اتجهت جنوبًا. لم أكن أعرف إلى أين سأذهب. كنّا في فترة عيد الميلاد. قرّرت أن أذهب إلى المطار وأستقلّ الطائرة التالية المتجهة إلى بوسطن عندما اتصل بي تايلر.

لم أكلم أخي منذ شهور - فبعد ما حدث مع أودري، شعرتُ بأنه لا توجد جدوى من أن أحكي لأشقائي شيئًا. كنت متيقنة بأن أُمِّي حكّت لجميع أشقائي ولجميع أقاربنا القصة التي حكتها لإرين: بأنني ممسوسة، يتلبسني الشيطان، خطيرة. لم أكن مخطئة: حدّرتهم أُمِّي كلهم. لكنها ارتكبت خطأ.

فبعد أن غادرت البيت، تملكها الذعر. فقد خشيت أن أتصل بتايلر، وأن يتعاطف معي إذا اتصلت به. فقرّرت أن تتصل بتايلر أولًا، لتنكر أيّ شيء قد أحكيه له، لكنّها أخطأت التقدير. فلم تتوقّف عن التفكير كيف ستبدو الأكاذيب، التي لم تأت من مكان كهذا.

«طبعًا لم يقتل شون ديفغو ولم يهدّد تارا بالسكين»، أكدت أُمِّي لتايلر، لكن ذلك لم يكن مطمئنًا بالنسبة لتايلر الذي لم يكن قد سمع شيئًا من هذه القصة، لا ممّي ولا من أحد آخر. بعد أن أغلقت أُمِّي الهاتف، اتصل تايلر بي وأراد أن يعرف ما الذي حدث ولماذا لم ألجأ إليه.

ظننت أنه سيقول إنني أكذب، لكنّه لم يفعل ذلك، وإنما تقبّل ذلك على الفور، الحقيقة التي بقيت سنة أنكرها. لم أفهم لماذا وثق بي، لكنه حكى لي بعد ذلك قصصه وتذكّرت: فقد كان شون شقيقه الأكبر أيضًا.

في الأسابيع التالية، بدأ تايلر يجسّ نبض والدائيّ بأسلوب لطيف، من دون مواجهة كما هو معروف عنه. وقال قد لا تكون المسألة قد عولجت جيدًا، وأنني قد لا أكون ممسوسة، وقد لا أكون شريرة على الإطلاق.

لعلي شعرت بالراحة من موقف تايلر، لكن ذاكرة أختي كانت لا تزال طازجة، فلم أثق به، لأنني أظن أنه إذا واجه تايلر والدائيّ فإنهما سيرغمانه على أن يختار بيني وبينهما وباقي الأسرة. فقد تعلّمت من أودري بأنه لن يختارني أنا.

انتهت منحتي الدراسية في هارفارد في الربيع. سافرت إلى الشرق الأوسط حيث كان درو يكمل برنامج فولبرايت. بذلت جهدًا، لكنني استطعت أن أخفي عن درو أنني لم أكن أدرس بجد، أو على الأقل، كنت أظن ذلك. ربما لم أكن. وكان هو الذي يجري ورائي في شقّته عندما كنت أصحو في منتصف الليل، وأنا أصرخ وأركض، لا أعرف أين أنا، لكنني كنت أشعر برغبة كبيرة لأن أهرب.

غادرنا عمّان واتجهنا جنوبًا. كنّا في زيارة لأحد مخيمات البدو في الصحراء الأردنية في اليوم الذي قامت فيه قوات البحرية الأمريكية بقتل بن لادن. كان درو يتحدّث اللغة العربية، وعندما انتشر الخبر أمضى ساعات في مناقشات مع مضيفينا البدو. «إنه ليس مسلمًا»، قالوا لدرو عندما جلسنا على الرمل البارد نراقب نار المخيم التي بدأت تنطفئ، «إنه لا يفهم الإسلام، وإلاّ لما كان قد فعل تلك الأشياء الفظيعة التي فعلها».

رحت أراقب أحاديث درو مع البدو، وأسمع الأصوات الناعمة الغربية التي تسقط من شفّتيه، وتصطدم بلا معقولة وجودي هناك. وعندما سقط البرجان التوأمان قبل عشر سنوات، لم أكن قد سمعت شيئًا عن الإسلام. والآن ها أنا أحتسي الشاي المحلّي بالسكر مع بدو قبيلة الزلابية الجالسين على الرمل في وادي رم، وادي القمر، الذي لا يبعد أكثر من عشرين ميلًا عن الحدود مع المملكة العربية السعودية.

كادت المسافة - الطبيعية والعقلية - التي عبرتها في العقد الأخير تحبس أنفاسي، وتساءلت إن كنت قد تغيّرت كثيرًا. فهل حوّلتني دراساتي، وقراءاتي، وتفكّيري، وأسفاري إلى شخص لم يعد ينتمي إلى أي مكان؟ تذكرت الفتاة التي لم تكن تعرف شيئًا يتجاوز حدود باحة الخردة وجبلها، وهي تحدّق في الشاشة، تشاهد طائرتين تبحران إلى أعمدة بيضاء غريبة. كانت دروسها الخردة. وكتبها المدرسية ألواح ونفايات. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت تمتلك شيئًا ثمينًا - على الرغم من كلّ الفرص التي أتيحت لي، أو ربّما بسببها - لم يكن لديّ ذلك الشيء الثمين.

عدت إلى إنكلترا وواصلت حلّ خيوط اللغز. في الأسبوع الأول من عودتي إلى كامبردج، كنت أصحو كلّ ليلة تقريبًا في منتصف الشارع، بعد أن أركض إليه، أصبح، وأنا أغطّ في النوم. وبدأ ينتابني صداع يستمر عدة أيام. وقال طبيب الأسنان إنني أكرّ على أسناني. وانتشر طفح في جلدي إلى درجة أن بعض الغرباء أوقفوني مرّتين في الشارع وسألوني إن كنت أعاني من حساسية شديدة، فقلت لهم لا، فأنا هكذا دائمًا.

ذات مساء، تجادلت مع صديقة حول شيء تافه، وقبل أن أعرف ما الذي يجري رحت أدفع نفسي إلى الحائط وألصق ركبتيّ بصدري، أحاول أن أمنع قلبي من أن يقفز خارج جسدي. فهرعت صديقتي نحوي لتساعدني فرحت أصرخ. وبعد ساعة سمحت لها أن تلمسني، وأجبرت نفسي على الابتعاد عن الحائط. هذا هي إدّا نوبة الهلع، قلت لنفسي في صباح اليوم التالي.

بعد ذلك بفترة قصيرة، أرسلت رسالة إلى أبي. لست فخورة بتلك الرسالة لأنها كانت مليئة بالغضب، طفلة عنيدة تصرخ في وجه أبيها «أكرهك». كانت مليئة بكلمات مثل «سّاق» و«مستبد»، واستمرّ ذلك صفحات عديدة، سيل من الإحباطات والإهانات.

بهذه الطريقة أخبرت والدايّ إنني قطعت علاقتي بهما. وبين الإهانات ونوبات الغضب، قلت إنني أحتاج إلى سنة كي أبرأ، بعدها قد أستطيع أن أعود إلى عالمهما المجنون حتى أفهمه.

توسلت إليّ أمّي أن أجد طريقًا آخر. ولم يقل أبي شيئًا.

الفصل ٣٨ العائلة

لم أحرز تقدمًا في الدكتوراه.

لو كنت قد شرحت للمشرف، الدكتور رانسيمان، أسباب عدم قدرتي على الدراسة، لمساعدني وحصل لي على تمويل إضافي، وطلب من إدارة القسم أن تمنحني مزيدًا من الوقت، لكنني لم أذكر له شيئًا. لم أستطع. ولم يعرف لماذا لم أرسل له أي شيء منذ سنة تقريبًا. وعندما اجتمع بي في مكتبه بعد ظهر يوم غائم في شهر تموز (يوليه)، اقترح أن أتوقف.

«الدكتوراه صعبة جدًا»، قال، «ولا بأس إذا لم تتمكني من إنجازها».

غادرتُ مكتبه مليئة بالغضب من نفسي. ذهبتُ إلى المكتبة وجمعت نصف دزينة من الكتب أخذتها إلى غرفتي وربّتها على طاولتي. لكن عقلي أصبح يمقت الفكر العقلاني، وفي صباح اليوم التالي انتقلت الكتب إلى سريري حيث أسندت حاسوبي النقال وبدأت أعمل ومسلسل بافي مصّاص الدماء القاتل، يُعرض على شاشة التلفزيون.

في ذلك الخريف، واجه تايلر أبي. كلّم أمّي أولاً على الهاتف، ثم اتصل بي وذكر لي ما دار بينهما من حديث. وقال إن أمّي تقف «إلى جانبنا»، وإنّها تقول إن الحالة مع شون غير مقبولة وقد أقنعت أبي بأن يفعل شيئًا.

«أبي سيتدبر بالأمر»، قال تايلر، «كلّ شيء سيسير على ما يرام، ويمكنك أن تعودي إلى البيت».

رّنّ هاتفي مرة أخرى بعد يومين، وأوقفت مسلسل بافي لأردّ عليه.

كان تايلر على الهاتف. لقد انفجر الشيء كله في وجهه. فبعد حديثه مع أمّي، اتصل بأبي ليرى ماذا فعل بشأن شون. فاستشاط أبي غضبًا وأصبح عدوانيًّا. وصاح في تايلر وقال إنه إذا أثار هذا الموضوع مرة أخرى، فإنه سيتبرأ منه، وأغلق الهاتف في وجهه.

لا أحبّ أن أتخيّل الحديث الذي دار بينهما. فقد كانت تأتأة تايلر تصبح دائماً أسوأ عندما يتكلّم مع أبي. أتصوّر أخي محدودبًا فوق سماعة الهاتف، يحاول أن يركّز ليخرج الكلمات التي علقت في حنجرته، بينما يكيل له أبوه سيلاً من الكلمات القبيحة.

كان تايلر لا يزال يترجّح من تهديد أبي عندما رنّ هاتفه. ظلّ أنّ أبي يتصل به ليعتذر منه، لكنّه كان شون الذي أخبره أبي بكلّ شيء. «أستطيع أن أخرجك من هذه العائلة في دقيقتين»، قال له شون، «وأنت تعرف أنّي أستطيع أن أفعل ذلك. ما عليك إلّا أن تسأل تارا».

استمعتُ إلى تايلر وهو يحكي هذه القصة وأنا أحدّق في صورة ساره ميشيل غيلار المتجمدة على الشاشة. تحدّث تايلر طويلاً، مستعرضاً الأحداث بسرعة لكنه ظل في أرض مقفّرة من العقلنة واتهام الذات. لا بد أن أبي لم يفهمه جيّداً، قال تايلر. لا بد أن هناك خطأ، سوء تفاهم. ربّما كان العيب فيه، لعله لم يقل الشيء المناسب بالطريقة المناسبة.

هذا هو الأمر. لقد فعل ذلك، وبإمكانه أن يصلح الأمر.

بينما كنت أنصت له، اعتراني إحساس غريب باللامبالاة، كما لو أنّ مستقبلتي مع تايلر، هذا الأخ الذي عرفته وأحببته طوال حياتي، كان فيلماً كنت قد شاهدته قبل الآن وأعرف نهايته لأنني أعرف شكل هذه الدراما التي عشتها للتو، مع أختي. ففي مثل هذه اللحظة خسرت أودري: في هذه اللحظة أصبحت التكاليف حقيقية، وفُرضت الضريبة، واستحق دفع الإيجار. في هذه اللحظة أدركت مدى سهولة أن تغادر: يا لها من تجارة سيئة أن تتخلّى عن عائلة كاملة بسبب أخت واحدة.

لذلك كنت أعرف، حتى قبل أن يحدث ذلك، بأن تايلر سيمضي في نفس الطريق. كان بإمكانني أن أسمع صوت يديه تفركان من خلال الصدى الطويل للهاتف. كان يقرّر ماذا سيفعل، لكنّي أعرف شيئاً لا يعرفه هو: وهو أن القرار قد اتُخذ.

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) وصلتني الرسالة.

وصلت الرسالة في صيغة بي دي إف بالإيميل من تايلر وستيفاني. أوضحت الرسالة أنها صيغت بعناية شديدة، وكُتبت بتأن تام، وأن نسخة منها سُرسل إلى والدائي. عندما رأيتهما، عرفت ماذا تعني. إنها تعني أن تايلر مستعدّ لإدانتني، وهي تردد الكلمات التي قالها أبي بأنّ الشيطان يسكنني، وأنني فتاة خطيرة. هذه الرسالة بمثابة وثيقة، رخصة تعيده إلى العائلة. لم أتمالك نفسي من فتح الرابط. غريزة ما أمسكت بأصابعي. تذكرتُ كيف كان تايلر عندما كنت صغيرة، الأخ الأكبر الهادئ الذي يقرأ كتبه وأنا مستلقية تحت طاولته، أحدّق في جواربه وأتنفس موسيقاه. لم أكن متأكّدة إن كنت أستطيع أن أتحمّلها، أن أسمع تلك الكلمات في صوته.

نقرت الفارة، وفتّح الرابط. كنت بعيدة عن نفسي فقرأت الرسالة كلّها ولم أفهمها: تربط والدينا سلاسل من الإساءة، والتلاعب، والسيطرة... وهما يريان أن التغيير خطير وسيطردان أي واحد منّا يسعى إلى ذلك التغيير. إنها فكرة منحرفة عن الولاء العائلي. إنهما يدّعيان الإيمان، لكن الإنجيل لا يعلم ذلك. حافظا على سلامتكما. نحّبكما.

علمتُ من ستيفاني، زوجة تايلر، قصّة هذه الرسالة، كيف أنه في الأيام التي تلت تهديد أبي بأنه سيتبرأ منه، كان تايلر يأوي إلى الفراش كلّ ليلة ويردد بصوت عالٍ، «ما الذي يجب أن أفعله؟ إنها أختي».

عندما سمعتُ هذه القصّة، اتخذت القرار السليم الوحيد الذي كنت قد اتخذته منذُ شهور: فالتحقت في برنامج خدمة الاستشارة النفسية في الجامعة، وأحلت إلى امرأة متوسطة العمر مفعمة بالنشاط لها صفات رفيعة وعينان ثاقبتان، نادرًا ما كانت تتكلم أثناء جلسائنا، وكانت تفضّل أن تدعني أفرغ ما بجعبتي، وهذا ما فعلته، أسبوعًا بعد أسبوع، شهرًا بعد شهر. في البداية لم أشعر بأي فائدة من هذه الاستشارة - لا أذكر جلسة واحدة أستطيع أن أقول إنها «مفيدة» - لكن لا يمكن نكران قوّتها الجمعية مع مرور الوقت. لم أفهمها آنذاك، ولا أفهمها الآن، لكن كان ثمة شيء مفيد في تخصيص ذلك الوقت كلّ أسبوع، في الاعتراف بأنني بحاجة إلى شيء لا أستطيع أن أوفّره بنفسني.

بعث تايلر الرسالة إلى والدايَّ. وعندما قرر أن يرسلها لم يتردّد. في ذلك الشتاء أمضيت ساعات طويلة على الهاتف معه ومع ستيفاني التي أصبحت أختًا لي. كانا يستجيبان كلما احتجت إلى أن أتكلّم معهما، وكنت حينذاك بحاجة إلى أن أتكلّم كثيرًا.

دفع تايلر ثمنًا لقاء تلك الرسالة، مع أنه يصعب تحديد ذلك الثمن. فلم يتبرأ أبي منه، أو على الأقل لم يتبرأ منه دائمًا. وفي النهاية توصل إلى هدنة مع أبي، لكن علاقتهما لم تعد كما كانت.

اعتذرت لتايلر مرات كثيرة لا أستطيع أن أحصيها لما سببته له، لكن الكلمات لم تكن ملائمة وكنت أتعثر عندما أقولها. ما هو الترتيب الملائم للكلمات؟ كيف يمكنك أن تصوغ اعتذارًا لأنك تسببت في إضعاف صلة شخص مع أبيه، مع عائلته؟ قد لا توجد كلمات تعبّر عن ذلك. كيف يمكنك أن تشكر أخًا رفض أن يتركك، وأمسك بيدك ورفعك إلى الأعلى، عندما قرّرت أن تتوقّف عن تحريك قدميك بقوة وتغرق؟ لا توجد كلمات تعبّر عن هذا أيضًا.

كان الشتاء طويلًا في تلك السنة، كان شعوري بالضيّق من جلسات الاستشارة الأسبوعية والإحساس الغريب بالخسارة، أشبه بالفاجعة، فكلما أنهيت مسلسلًا تلفزيونيًا كنت أبحث عن مسلسل آخر.

ثمّ حلّ الربيع، ثمّ جاء الصيف، وعندما ولّى الصيف وجاء الخريف، وجدت أنني أستطيع أن أقرأ بتركيز. وأصبح بإمكانني أن أحتفظ بالأفكار في رأسي بالإضافة إلى شعوري بالغضب واتهام الذات. وعدتُ إلى الفصل الذي كنت قد كتبت منذ حوالي سنتين في هارفارد. ومرة أخرى رحت أقرأ هيوم، وروسو، وسميث، وغودوين، وميل، وولستونكرافت. ومرة أخرى بدأت أفكّر بالعائلة. كان ثمة لغز في ذلك، شيء لم يُحلّ. وتساءلت ما الذي يجب أن يفعله الشخص عندما تتضارب التزاماته في نزاعه العائلي مع التزاماته الأخرى - تجاه الأصدقاء، المجتمع، تجاه نفسه؟

بدأت أعمل على بحثي. ضيّقت السؤال أكثر، جعلته أكاديميًا، محدّدًا. وفي النهاية، اخترت أربع حركات ثقافية من القرن التاسع عشر ودرست ما الذي فعلته في موضوع الالتزام العائلي. وكانت إحدى الحركات التي اخترتها

المورمونية في القرن التاسع عشر. عملت بدأب طوال السنة، وفي النهاية أصبحت لديّ مسوودة أطروحتي: «العائلة، المبادئ الأخلاقية، وعلم الاجتماع في الفكر الأنغلو - أمريكي، في الفترة ١٨١٣-١٨٩٠».

كان الفصل المتعلق بالمورمونية الفصل الأثير لديّ. فعندما كنت طفلة في مدرسة يوم الأحد، تعلّمت أن التاريخ كلّ كان مجرد تمهيد لمجيء المورمونية: وأن كلّ حدث منذ موت المسيح صمّمه الله ليتيح اللحظة التي يسجد فيها جوزيف سميث في البستان المقدّس ويستعيد الله الكنيسة الحقيقية - الحروب، الهجرات، الكوارث الطبيعية - كانت كلّها مقدمات لمجيء المورمونية. ومن الناحية الأخرى، كان التاريخ العلماني ينحو إلى تجاهل الحركات الروحية كلّها من بين المورمونية.

أعطت أطروحتي شكلا مختلفا للتاريخ: ليس تاريخا عن المورمونية أو تاريخا يناهضها، ليس تاريخا روحيا ولا غير روحي. ولم يتناول المورمونية على أنها موضوع التاريخ الإنساني، لكنها لم تتجاهل المساهمة التي قدمتها الحركة المورمونية في محاولة للإجابة على أسئلة العصر. وإنما تناولت العقيدة المورمونية باعتبارها فصلا في القصة الإنسانية الأكبر. في أطروحتي، لم أفصل تاريخ المورمونية عن تاريخ باقي الأسرة الإنسانية، بل ربطته به.

أرسلت مسودة الأطروحة إلى الدكتور رانسيمان، ثم اجتمعنا في مكتبه بعد عدة أيام. جلس قبالي، وبنظرة مليئة بالدهشة، قال إنها جيدة. «بعض الأجزاء فيها جيدة جداء، قال، وهو يتسم الآن، سأفاجأ إذا لم تنل أطروحتك الدكتوراه».

بينما كنت عائدة إلى البيت أحمل المخطوطة الثقيلة، تذكرت أنني كنت قد حضرت محاضرة للدكتور كيري، بدأها بكتابة، «من يكتب التاريخ؟» على السبورة. تذكرت كيف بدا لي السؤال غريبًا آنذاك. فلم تكن فكرتي عن المؤرخ أنه بشر، وإنما شخص يشبه أبي، نبي أكثر منه رجلا، لا يمكن مساءلة آرائه عن الماضي، وعن المستقبل، أو حتى محاولة تعديلها. أما الآن، فعندما سرت أمام كينغز كولدج، في ظل الكنيسة الضخمة، بدا شعوري القديم بعدم الثقة أمرا سخيفا. من يكتب التاريخ؟ قلت لنفسي. أنا أكتبه.

في عيد ميلادي السابع والعشرين، عيد الميلاد الذي اخترته، قدمت أطروحة الدكتوراه. وتم الدفاع عنها في كانون الأول (ديسمبر) في غرفة صغيرة، بسيطة الأثاث. نجحت وعدت إلى لندن حيث حصل درو على عمل واستأجرنا فيها شقة. وفي كانون الثاني (يناير)، بعد حوالي عشر سنوات من اليوم الذي وطأت فيه قدمي أول صف في جامعة بريغهام يونغ، تلقيت تأكيدًا من جامعة كامبردج: لقد أصبحت الدكتورة ويستوفر.

بنيت حياة جديدة، وكانت حياة سعيدة، لكن اعتراضي شعور بالخسارة تجاوز حدود العائلة. فقد فقدت جبل بيكس باك لا لأنني غادرته، وإنما لأنني غادرته بصمت. تراجعت، وهربت إلى الجانب الآخر من المحيط وتركت أبي يحكي قصتي عني، ليعرفني على كل شخص عرفته في حياتي. لقد تنازلت عن أشياء كثيرة - لا عن الجبل فحسب، وإنما عن تاريخنا المشترك كله. لقد حان الوقت للذهاب إلى البيت.

الفصل 39

حراسة الجواميس

كان قد حلّ الربيع عندما وصلت إلى الوادي. قدتُ سيارتي على طول الطريق السريع إلى حافة البلدة، ثمّ وقفت عند المنحدر المطلّ على نهر بير. من هناك كان بإمكانني أن أطلّ على الحوض، حقول ممتزجة الألوان تمتدّ حتى جبل بيكس باك. كانت تكسو الجبل خضرة دائمة زاهية إزاء لون الصخور الطينية والكلسية البنية والرمادية. كانت أميرة تتلأأ كما عهدتها دائماً. كانت تنتصب أمامي، يفصل بيننا الوادي الذي يشعّ الديمومة.

طالما استحوذت أميرة على تفكيري. فقد كنت أسمعها تناديني من وراء المحيط، كما لو كنت عجلًا نشطًا حاد عن قطيعه. في البداية كان صوتها لطيفًا، مغريًا، لكن عندما لم أجبها، وبقيت بعيدة عنها، غضبت، لأنني خنتها. تخيلت وجهها متجهماً من شدة الغضب، وطريقة وقفها ثقيلة ومهدّدة. كانت تعشعش في عقلي بهذه الصورة منذ سنوات طويلة، إلهة الاحتقار.

لكن عندما رأيته الآن تحرس حقولها ومراعيها، أدركت أنني لم أفهمها جيدًا. فهي لم تكن غاضبة مني لأنني غادرت، لأن المغادرة جزء من دورتها. ولم يكن دورها ينحصر في إعادة الجواميس وجمعها في الحظائر بالقوة. وإنما يكمن دورها في الاحتفال بعودتها.

عدت مسافة ربع ميل إلى البلدة وركنت السيارة بجانب سياج بيت جدّتي التي تعيش في البلدة الخشبي المدبّب الأبيض. في عقلي كان لا يزال سياجها، مع أنها لم تعد تعيش فيه لأنها انتقلت إلى دار للمسنين بالقرب من الشارع الرئيسي.

لم أر جدّي وجدّتي منذ ثلاث سنوات، منذ أن بدأ والداي يقولان للعائلة الممتدة بأن الشيطان يسكنني. كان جدّي وجدّتي يحبان ابنتهما، وكنت متأكدة بأنهما صدّقا روايتها عني. فلم أزرهما. لقد فات الأوان أن أقنع جدّتي الآن -

كانت مصابة بمرض الزهايمر ولن تعرفني - فجئت لزيارة جدّي، لأعرف إن كان لا يزال لي مكان في حياته.

جلسنا في غرفة الجلوس. كانت السجادة نفس السجادة البيضاء الناصعة التي كانت عندما كنت طفلة. كانت الزيارة قصيرة ومهذبة. تحدّث جدّي عن جدّتي التي أحاطها برعايته لفترة طويلة حتى بعد أن لم تعد تعرفه. حدّثته عن إنكلترا. ذكر جدّي أمّي، وعندما تكلم عنها كان يتكلم وعلى وجهه نفس نظرة الرهبة التي كنت أراها على وجوه أتباعها. لم ألمه، فقد سمعت أن نفوذ أمّي وأبي على سكان الوادي أصبح كبيرًا، لأن أمّي تسوّق منتجاتها التي كانت تُعتبر بديلًا روحيًا لبرنامج أوباما الصحي، وكانت منتجاتها تباع بسرعة كبيرة، وكان الطلب على منتجاتها يفوق إمكانياتها على إنتاج كميات كافية على الرغم من أنها وظفت عشرات الأشخاص.

لا بد أن الله يقف وراء هذا النجاح المدهش، قال جدّي، ولا بد أن الربّ دعا والدايَّ ليفعلا ما يفعلانه، ويصبحا معالجين عظيمين، ويعيدا جلب الأرواح إلى الله. ابتسمتُ ونهضت واقفة لأذهب. كان نفس الرجل العجوز اللطيف الذي أتذكره، لكنّ الهوة التي تفصلنا أضحت كبيرة. عانقته عند الباب، وألقيت عليه نظرة طويلة. كان في السابعة والثمانين من العمر. ساورني شكّ في أن أتمكن، في السنوات المتبقية من عمره، من أن أثبت له أنني لست الفتاة التي أشاعها عني أبي، وأتني لست شيئًا شريرًا.

كان تايلر وستيفاني يعيشان على مسافة مئة ميل شمال جبل بيكس باك، عند شلالات أيدياهو. كنت أنوي الذهاب لزيارتهما، لكن قبل أن أغادر الوادي، كتبت لأمّي رسالة مقتضبة. قلت لها إنني موجودة في مكان قريب وأريد أن نلتقي في البلدة، وأتني لست مستعدّة لرؤية أبي، وقد مضت سنوات عديدة لم أر فيها وجهها. هل ستأتي؟

انتظرت ردّها في باحة وقوف السيارات في محلات ستوكس. لم أنتظر طويلًا.

يؤلمني أنّك تظنين أنّ من المقبول أن تسألني هذا السؤال. فالزوجة لا تذهب إلى المكان الذي لا يكون فيه زوجها مرحبًا به. لن أكون طرّفًا في مثل

هذا الازدراء الصارخ^[12].

كانت الرسالة طويلة وقد أتعبتني قراءتها، كما لو أنني ركضت مسافة طويلة. كان فحواها محاضرة عن الولاء: بأن الأسر تغفر، وأنني إذا لم أستطع أن أغفر لعائلتي، فإني سأندم بقية حياتي. وكتبت أن الماضي، مهما كان، يجب أن يدفن تحت خمسين قدمًا ويترك حتى يتفسخ تحت التراب.

قالت أمي إن قدومي إلى البيت مرحب به، وأنها تصلي دائمًا ليأتي ذلك اليوم الذي أجري فيه من الباب الخلفي، وأصبح، «لقد عدت إلى البيت». أردت أن أستجيب لدعواتها - فأنا لا أكاد أبعد أكثر من عشرة أميال عن الجبل - لكنني أعرف الميثاق الخفي الذي يجب أن أبرمه عندما أدخل من ذلك الباب. أستطيع أن أحصل على حب أمي، لكن بشروط، نفس الشروط التي اشتراطها عليّ قبل ثلاث سنوات: أن أستعيز عن حقيقتي بحقيقتي هما، وأن آخذ كل فهمي وإدراكي وأدفعه وأتركه يتعفن تحت التراب.

كانت رسالة أمي بمثابة إنذار نهائي: يمكنني أن أراها مع أبي، وإلا فلن أراها ثانية، ولم تتراجع عن ذلك قط.

امتلأت باحة وقوف السيارات بينما كنت أقرأ الرسالة. تركت كلماتها تستقر في عقلي، ثم شغلت محرك السيارة وسرت باتجاه الشارع الرئيسي. عند التقاطع، انعطفت غربًا باتجاه الجبل. قبل أن أغادر الوادي، ألقيت نظرة إلى بيتي.

على مدى سنوات سمعت شائعات كثيرة عن والدي: أنهما أصبحا من أصحاب الملايين، وأنهما يبنيان قلعة على الجبل، وأنهما خزنّا كميات كبيرة من الطعام تكفي عقودًا. وأهم تلك الإشاعات القصص التي تقول إن أبي كان يوظف مستخدمين ثم يطردهم.

لم يتعافى الوادي قط من فترة الكساد، وكان الناس بحاجة إلى عمل. كان والدي من أكبر أرباب العمل في المقاطعة، لكن مما عرفته أن حالة أبي العقلية جعلت من الصعب أن يحتفظ بالعاملين لديه لمدة طويلة: فعندما كانت تعثره نوبة الذعر، كان ينحو إلى طرد العاملين لأدنى سبب. فقد طرد منذ أشهر، ديانا هاردي، زوجة روب السابقة، روب الذي جاء ليأخذنا بسيارته

بعد الحادث الثاني. وكانت ديانا وروب صديقين مقربين كثيرًا لأمي وأبي منذ عشرين سنة، حتى طرد أبي ديانا من العمل.

وربما في نوبة غضب أخرى طرد أبي خالتي آنجي لأنها كانت تتحدث مع أمي وقالت لها إنها لا تصدق أن أختها يمكن أن تعامل أفراد أسرتها بهذه الطريقة، فعندما كنت طفلة كان ذلك شأن أمي، أما الآن فقد أصبح شأنها وشأن أبي معًا. لكن في هذا الاختبار انتصر أبي وطرد خالتي آنجي.

يصعب جمع كل ما جرى في ما بعد، لكن مما عرفته لاحقًا أن آنجي رفعت دعوى للحصول على معونة بطالة، وعندما اتصلت وزارة العمل بأبي لتأكيد طردها من العمل، فقد أبي ما تبقى من عقله القليل، وقال إن من اتصل به على الهاتف ليست وزارة العمل، وإنما وزارة الأمن الداخلي، مدعية بأنها وزارة العمل. وقال إن آنجي وضعت اسمه في قائمة مراقبة الإرهابيين، وأصبحت الحكومة تتعقبه الآن - تتعقب أمواله وأسلحته ووقوده، وعادت قصة روبي ريدج من جديد.

تركت الطريق السريع وانعطفت إلى جانب الطريق وتوقفت فوق الحصى، ثم ترحلت من السيارة ورحت أهدق في جبل بيكس باك. بدا لي من الواضح على الفور أن بعض الإشاعات التي سمعتها صحيحة على الأقل - بأن والداي يكسبان أموالًا طائلة. فقد أصبح البيت ضخماً، أما البيت الذي نشأت فيه فكان مؤلفاً من خمس غرف نوم، وتوسّع الآن وتمدد في جميع الاتجاهات وأصبح يبدو فيه ما لا يقل عن أربعين غرفة.

إنها مسألة وقت، قلت في نفسي، قبل أن يبدأ أبي باستخدام النقود للاستعداد ليوم الهلاك. تخيلت ألواح الطاقة الشمسية تملأ السطح مصفوفة مثل أوراق اللعب. «يجب أن نكون مكتفين ذاتياً»، تخيلت أبي يقول وهو يسحب الألواح إلى سطح بيته الضخم، ولا بد أنه سينفق في السنة القادمة مئات آلاف الدولارات لشراء أجهزة للبحث عن الماء في الجبل. فلم يكن يرغب في أن يعتمد على الحكومة، ولا بد أنه يعرف أن في الجبل كميات كبيرة من الماء، إذا عثر عليها. وظهرت عند قاعدة الجبل حفر عميقة بحجم ملاعب كرة القدم، تاركة كتلاً كبيرة من الجذور المقتلعة والأشجار المقطوعة

الملقاة على الأرض حيث كانت توجد غابة كثيفة ذات يوم. ربما كان يقول، «يجب أن أكون مكتفيًا ذاتيًا» عندما صعد إلى جرار مجنزر وراح يسحق حقول القمح الحريرية.

ماتت جدّتي التي تعيش في البلدة في يوم عيد الأمّ.

كنت في كولورادو أكتب بحثًا عندما سمعت الخبر. غادرت إلى أيدياهو على الفور، لكنني سرعان ما أدركت على الطريق بأنه لا يوجد مكان أمكث فيه. ثمّ تذكرت خالتي آنجي التي كان أبي يقول لكلّ من يصغي إليه بأنّها وضعت اسمه على قائمة مراقبة الإرهابيين. وقد تخلت عنها أمّي، وكنت أرغب في أن أستعيدها.

كانت آنجي تقيم بجوار بيت جدّي، ركنت السيارة مرة أخرى بجانب السياج الخشبي المدبّب الأبيض. قرعت الباب. رحّبت بي آنجي بتهديب، كما رحّب بي جدّي. كان من الواضح أنّها سمعت أشياء كثيرة عنيّ من أمّي وأبي خلال السنوات الخمس الماضية.

«سأعقدُ معكِ اتفاقًا»، قلت لها، «سأنسى كلّ ما قاله أبي عنك، إذا نسيت كلّ ما قاله عنيّ»، فضحكت، وأغمضت عينيها وألقت برأسها إلى الوراء بطريقة كادت تحطّم قلبي، فقد كانت تشبه أمّي كثيرًا.

مكثت عند آنجي حتى موعد الجنازة.

في الأيام التي سبقت الجنازة، بدأ أشقاء وشقيقات أمّي يجتمعون في بيت طفولتهم. كانوا خالتي وأخوالي، لكنني لم أر بعضهم منذ أن كنت طفلة صغيرة. واقترح خالي داريل الذي لا أكاد أعرفه أن يمضي إخوته وأخواته بعد الظهر معًا في أحد المطاعم المعروفة في لافاهات سبرينغز. لكن أمّي رفضت أن تأتي لأنها لا تخرج بدون أبي، وأنه لا يريد أن يرى آنجي.

في عصر يوم مشرق من أيار (مايو) تكدسنا جميعًا في سيارة فان كبيرة وانطلقنا في رحلة لمدة ساعة. كنت أدرك بضيق إنني أخذت مكان أمّي، وها أنا ذاهبة مع أشقائها وأبيها في رحلة في ذكرى أمّها، الجدّة التي لم أعرفها حق المعرفة. وسرعان ما أدركت أن عدم معرفتي بها كان شيئًا رائئًا بالنسبة

لأبنائها الذين كانوا يطفحون بالذكريات عنها، وكانوا يحبّون أن يجيبوا على الأسئلة التي أسألهم إياها عنها. وكانت جدّتي تظهر مع كلّ قصّة بتركيز أكثر بروزًا، لكن المرأة التي كانت تتشكّل في ذهني من ذكرياتهم الجماعية لم تكن تشبه المرأة التي أتذكّرها. عندها أدركت مدى قسوة حكمي عليها، وكم كانت صورتي عنها مشوهة لأنني كنت أنظر إليها من خلال عدسة أبي القاسية.

خلال رحلة العودة، دعّنتي خالتي ديبى لزيارتها في يوتا. وكرر خالي داريل الدعوة لزيارته في بيته، وقال: «نحبّ أن تزورينا في أريزونا». وفي يوم واحد استعدت عائلة - لم تكن عائلتي، وإنما عائلتها.

كانت الجنازة ستقام في اليوم التالي. وقفت في زاوية ورحت أراقب أشقائي يتقاطرون.

جاء تايلر وستيفاني اللذان قرّرا أن يعلّما أطفالهما السبعة في البيت، ومما رأيته أن أطفالهما كانوا على مستوى راق من التعليم. ثم جاء لوك يرافقه عدد كبير من أبنائه لم أتمكن من عدّهم. رأيي وعبر الغرفة، وتحدّثنا لبضع دقائق، ولم يقل أحدا للآخر أننا لم نر بعضنا منذ خمس سنوات، ولم يلمح أحدا إلى سبب ذلك. هل تصدّق ما قاله أبي عنيّ؟ أردت أن أسأله. هل تصدّق أنني خطيرة؟ لكّني لم أسأله. فقد كان لوك يعمل مع والداي، ولم يحصل على أي تعليم، وهو بحاجة إلى ذلك العمل لإعالة أسرته. وليس من الجيد أن أجبره على الوقوف إلى جانب أحدا.

ثم جاء ريتشارد الذي كان على وشك أن ينهي درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة أوريغون مع كامى وأطفالهما. ابتسم لي من وراء المصلى. كان ريتشارد قد كتب لي منذ بضعة أشهر. قال إنه آسف لأنه صدّق أبي، وقال إنّه يتمنى أن يفعل المزيد لمساعدتي عندما أحتاج إلى مساعدة، وأن بإمكانني أن أعتمد على دعمه منذ ذلك الحين، فنحن عائلة.

اختارت أودري وبنجامين مقعدًا في المؤخرة. كانت أودري قد وصلت في وقت مبكر، عندما كان المصلى فارغًا. أمسكت بذراعي وهمست لي بأنّ رفضي أن أرى والدنا خطيئة كبيرة. وقالت: «إنه رجل عظيم وستندمين

طوال حياتك لأنك لم تتواضعي وتتبعي مشورته». كانت هذه الكلمات الأولى التي قالتها لي أختي بعد سنوات، ولم يكن لديّ ردّ عليها.

قبل بضع دقائق من بدء الصلاة وصل شون مع إيميلي وبيتر وفتاة صغيرة لم أرها من قبل. كانت هذه أول مرّة نلتقي فيها في غرفة واحدة منذ تلك الليلة التي قتل فيها ديفغو. كنت أشعر بالتوتر، مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. لم ينظر إليّ أثناء الصلاة.

جلس أخي الأكبر، توني، مع والداي، وجلس أطفاله الخمسة في المقعد الطويل. كان توني قد حصل على شهادة الإعدادية وأقام شركة نقل بالشاحنات ناجحة في لاس فيغاس، لكنّها لم تصمد طويلاً في وجه الكساد. وهو يعمل الآن مع والداي، كما يفعل شون ولوك وزوجاتهما، بالإضافة إلى أودري وزوجها بنجامين. فكّرت الآن في الأمر، وأدركت أن جميع أشقائي، ماعدا ريتشارد وتايلر، يعتمدون اقتصاديًا على والداي. فقد انقسمت عائلتي إلى قسمين - الثلاثة الذين غادروا الجبل، والأربعة الذين بقوا. الثلاثة يحملون درجة الدكتوراه، وظلّ الأربعة حتى بدون شهادات ثانوية. لقد ظهرت هوة، وكانت تكبر.

مرّت سنة قبل أن أعود إلى أيديها.

قبل بضع ساعات من إقلاع طائرتي من لندن، كتبتُ للأمّي - كما أفعل دائماً، وكما سأفعل دائماً - أسألها إن كانت تريد أن تراني. مرة أخرى، كان ردّها سريعاً. لن تراني، ولن تراني أبداً إلّا إذا رأيت أبي. وقالت إن رؤيتي لها بدونه إساءة لزوجها ويشكل عدم احترام له.

للحظة بدا ذلك عديم الجدوى، هذا الحج السنوي إلى البيت الذي ظلّ يرفضني، وتساءلت إن كان يجب عليّ أن أذهب. ثمّ تلقيت رسالة أخرى، هذه المرة من خالتي آنجي، قالت فيها إن جدّي ألغى خططه لليوم التالي، ورفض حتى أن يذهب إلى المعبد كعادته يوم الأربعاء، لأنه يريد أن يظلّ في البيت في حال أتيت لزيارته، وأضافت آنجي: سأراك بعد حوالي اثنتي عشر ساعة! لكن من يحسب؟

الفصل ٤٠ المتعلّمة

عندما كنت طفلة، كنت أنتظر حتى ينمو عقلي، وتتراكم تجاربي وتترسخ اختياراتي، وتتشكّل حتى تشبه شخصًا. وأن يكون لذلك الشخص، أو ذلك الشبه، انتماء. فأنا أنتمي إلى ذلك الجبل، الجبل الذي صنعني. وعندما كبرت فقط بدأت أتساءل إن كنت سأنتهي كما بدأت - إن كان الشكل الأول الذي يتخذه المرء سيكون شكله الحقيقي الوحيد.

وبينما أكتب الكلمات الأخيرة لهذه القصة، لم أر والدايَّ منذ سنوات، منذ جنازة جدّتي. وأصبحت قريبة إلى تايلر وريتشارد وتوني، ومنهم ومن أفراد الأسرة الآخرين أسمع ما يجري في الجبل- الإصابات، العنف، تغيّر الولاءات. لكنّها تصلني الآن كإشاعات بعيدة، وهذا شيء جيد. لا أعرف إن كان الفراق سيكون دائمًا، أو إن كنت سأجد ذات يوم طريقًا للعودة، لكنّ ذلك جلب لنفسي السلام والسكينة.

لم يأت هذا السلام بسهولة. فقد أمضيت سنتين وأنا أعدّد عيوب أبي، أحدثّ العدد باستمرار، كما لو أن ذكر كلّ سخط، كلّ تصرف، سواء أكان حقيقيًا أم متخيّلًا، من القسوة والإهمال، سيبرّر قراري بأن أقطعه من حياتي. وعندما يصبح مبرّرًا، فإني أظن أن الإثم الخانق سيحررني وسأتمكن من التقاط أنفاسي.

لكن لا يوجد للتسويق تأثير على الشعور بالذنب. ولا يستطيع أي قدر من الغضب أو الحنق الموجّه إلى الآخرين أن يخفف من حدّته، لأنّه الشعور بالذنب لا علاقة له بهم على الإطلاق. إن الشعور بالذنب هو الخوف من تعاسة المرء، ولا علاقة له بالآخرين.

لقد ألقيت بشعوري بالذنب جانبًا عندما قبلت قراري بشروطه، بدون محاكمة المظالم القديمة إلى ما لانهاية، ومن دون أن أضع ذنوبه في الميزان

مقابل ذنوبي. وبدون التفكير بأبي أبدًا. لقد تعلّمت أن أقبل قرارى من أجلى أنا، لا من أجله. لأننى أحتاج إليه، لا لأنه يستحقّه.

هذه هى الطريقة الوحيدة التى جعلتنى أستطيع أن أحبه.

عندما كان أبى فى حياتى، يصارعنى ليسيطر على تلك الحياة، كنت أراه بعينى جندى، من خلال ضباب من الصراع. لم أستطع أن أدرك صفاته اللطيفة. عندما كان يقف أمامى، شاهقًا، ساخطًا، لا أتذكر كيف، عندما كنت صغيرة، كانت ضحكته تجعل بطنه تهتزّ وتجعل نظارته تلمع. فى وجوده المتجهّم، الصارم، لا أتذكر أبدًا الطريقة اللطيفة التى كانت تتحرّكان فيها شفتاه، قبل أن تحترقا، عندما كانت ذكرى ما تجعل الدموع تذرف من عينيه. أتذكر هذه الأشياء الآن فقط، وقد أصبحت أميال وسنوات تفصل بيننا.

لكن ما حدث بينى وبين أبى أكثر من الزمن أو المسافة. حدث تغيير فى النفس. فأنا لست الطفلة التى رباها أبى، لكنّه الأب الذى رباها.

إذا كانت هناك لحظة واحدة بدأ الصدع بيننا، الذى كان يتصدّع ويتشقق طوال عقدين، حتى أصبح أخيرًا واسعًا جدًّا لا يمكن رأبه، فإنى أعتقد أنه كانت فى تلك الليلة الشتوية، عندما رحت أحذّق فى صورتي المنعكسة فى مرآة الحمام، ومن دون أن أعرف، أمسك أبى الهاتف بين يديه المشوهتين واتصل بأخى. ديبغو، السكين. وما تلا ذلك كان حاسمًا. لكن القصة الحقيقية كانت قد جرت فى الحمام.

حدثت عندما، لأسباب لا أفهمها، لم أتمكن من الولوج إلى تلك المرأة وأرسل من داخلها ذاتى ذات الستة عشر ربيعًا لتأخذ مكانى.

حتى تلك اللحظة كانت موجودة هناك دائمًا. مهما بدا أننى تغيّرت - مهما كان تعليمى عظيمًا، ومهما تغيّر مظهرى - فأنا ما أزال هى. وفى أحسن الأحوال، فأنا شخصان، عقل متصدع. هى فى الداخل وخرجت عندما اجتزت عتبة بيت أبى.

فى تلك الليلة ناديتها ولم تجبنى. تركتنى وشأنى. بقيتُ فى المرأة. ولم تعد القرارات التى اتخذتها بعد تلك اللحظة نفس القرارات التى كانت

ستتخذها. وإنما اختيارات شخص تغيّر، ذات جديدة.
يمكنك أن تطلق على هذه الذات أشياء كثيرة. تحوّل. انسلاخ. زيف. خيانة.
أما أنا فأدعوها التعليم.

شكر

أدين لإخوتي تايلر وريتشارد وتوني كثيرًا لأنهم جعلوا هذا الكتاب ممكنًا، أولاً في العيش فيه، ثم في كتابته. فقد تعلمت منهم ومن زوجاتهم ستيفاني وكامي وميشيل الكثير مما أعرفه عن العائلة.

وكان تايلر وريتشارد خاصة سخيَّين بوقتِهما وذكرياتهما، وقد قرأ العديد من المسودات، وأضافا إليها تفاصيلهما الخاصة، وساعداني، بصورة عامة، في جعل هذا الكتاب دقيقًا بقدر الإمكان. ومع أن وجهات نظرنا قد تكون مختلفة في بعض التفاصيل، فإن رغبتهما الشديدة للتحقق من وقائع هذه القصة مكنتني من كتابتها.

وقد شجّعني البروفسور ديفيد رانسيمان على كتابة هذه المذكرات وكان من بين أوائل الأشخاص الذين قرأوا المخطوطة. ولولا ثقته بها، لما امتلكت ربما الثقة بها أنا نفسي.

وأشعر بالامتنان للذين يجعلون الكتب عملهم الحياتي والذين منحوا جزءًا من تلك الحياة لهذا الكتاب: وكلائي آنا ستاين وكارولينا ساتون؛ ومحرّرو الكتاب الرائعون، هيلاري ريدمون وأندي وورد في دار راندوم للنشر، وجوكاستا هاملتون في دار هتشينسون للنشر؛ بالإضافة إلى أشخاص عديدين آخرين عملوا في تحرير هذه القصة وطباعتها ونشرها، أخصّ بالذكر بوتي بوترايت من ICM، البطل الذي لا يعرف الكلل. وأدين بالشكر الخاص إلى بن فيلان الذي أوكلت إليه المهمة الصعبة للتحقق من وقائع هذا الكتاب، والذي عمل بدأب، لكن بحساسية واحترافية كبيرتين.

وأشعر بامتنان خاص لجميع الذين آمنوا بهذا الكتاب قبل أن يصبح كتابًا، عندما كان مجرد خليط من الأوراق المطبوعة في البيت. ومن بين هؤلاء القراء الأوائل: الدكتور ماريون كانط، والدكتور بول كيري، وآني ويلدنج، وليفيا غاينهام، وسونيا تيتش، وداني ألاوا وسورايا سيدهي سينغ.

وقد عادت خالتيّ ديبى وأنجي إلى حياتي في لحظة حاسمة، وكان
دعمهما يعني كلّ شيء لي لأنهما آمنتا بي دائمًا. وأتقدم بالشكر إلى
البروفسور جوناثان ستاينبرغ الذي منحني ملادًا، سواء أكان عاطفيًا أم عمليًا،
لكتابة هذا الكتاب، وأنا مدينة لصديقي العزيز، درو ميتشام.

ملاحظة حول النص

أُدرجت بعض الهوامش لإعطاء صوت للذكريات التي تختلف عن ذكرياتي. إن الملاحظات المتعلقة بالقصتين - قصة احتراق لوك وسقوط شون من فوق السقالة - مهمة وتتطلب تعليقات إضافية.

ففي كلتا الحادتين، توجد تناقضات وتباينات كثيرة بين الروائيتين. لنأخذ احتراق لوك. فكلُّ من كان هناك في ذلك اليوم، إما أنه رأى شخصًا لم يكن موجودًا هناك، وإما أنه لم ير شخصًا كان هناك. فقد رأى أبي لوك، ورأى لوك أبي. ولوك رأي، لكنني لم أر أبي وأبي لم يرني. ورأيت ريتشارد، وريتشارد لم يرني، لكن ريتشارد لم ير أبي ولم ير أبي أو لوك ريتشارد. ما الذي يمكن للمرء أن يستخلصه من هذا الخليط من التناقضات؟ وبعد كلِّ هذا اللف والدوران، عندما تتوقَّف الموسيقى أخيرًا، فإن الشخص الوحيد الذي يوافق الجميع على أنه كان موجودًا فعليًا في ذلك اليوم هو لوك.

أما سقوط شون من السقالة فهو محير أكثر. فلم أكن موجودة هناك، وسمعت القصة من آخرين، لكنني واثقة من أنها قصة صحيحة لأنني سمعتها تُحكى هكذا لسنوات، من قبل عدة أشخاص، ولأن تايلر سمع القصة نفسها. وهو يتذكرها كما أتذكرها أنا، بعد خمس عشرة سنة. فكتبتها. ثم ظهرت القصة الأخرى التي تصرَّ على أنه على الفور، استُدعيت طائرة الهيلوكوبتر.

أكذب لو قلت بأن هذه التفاصيل غير هامة، وأن «الصورة الكبيرة» تظل نفسها مهما كانت الرواية التي تصدِّقها. فهذه التفاصيل هامة. فإما أن أبي أرسل لوك أسفل الجبل وحده، وإما أنه لم يرسله، أو أنه ترك شون في الشمس وهو مصاب إصابة خطيرة في رأسه، أم لم يتركه. فإن أبًا مختلفًا، رجلًا مختلفًا، يولد من هذه التفاصيل.

لا أعرف أيَّ رواية عن سقوط شون يمكن تصديقها. والأهم من ذلك، فأنا لا أعرف أيَّ رواية أصدِّق عن حرق لوك، وقد كنت هناك. يمكنني أن أعود إلى تلك اللحظة. لوك مستلق على العشب. أنظر حولي. لم يكن أحد آخر، لا ظلُّ

لأبي، ولا حتى فكرة أنه يلامس محيط ذاكرتي. لم يكن هناك. أما في ذاكرة لوك فقد كان هناك، وقد وضعه بلطف في حوض الحمام، ودهن جسمه بمرهم.

ما أستمده من كل هذا هو تصحيح، لا لذاكرتي وإنما لفهمي. فنحن كلنا معقدون أكثر من الأدوار الموكلة إلينا في القصص التي يحكيها لنا الآخرون. وينطبق هذا بصورة خاصة على العائلات. فعندما قرأ أحد إخوتي لأول مرة روايتي عن سقوط شون، كتب لي: «لا يمكنني أن أتصور أن أبي يتصل بالرقم ٩١١. كان شون سيموت أولاً». لكن ربما لا. فربما، بعد أن سمع صوت تصدع جمجمة ابنه، لم يكن أبونا الرجل الذي نظن أنه هو، ولسنوات بعد ذلك. فأنا أعرف دائماً أن أبي يحب أولاده بقوة، وكنت أعتقد دائماً أن كراهيته للأطباء أقوى. لكن ربما لا يكون الأمر كذلك. ربما، في تلك اللحظة، لحظة أزمة حقيقية، تغلب حبه على خوفه وكراهيته لهم.

قد تكون المأساة الحقيقية هي أنه يستطيع أن يعيش في عقولنا بهذه الطريقة، في عقل أخي وفي عقلي، لأن استجابته في لحظات أخرى - آلاف المآسي الأصغر والأزمات الأقل خطورة - جعلنا نراه يقوم بذلك الدور. أن نعتقد بأننا إذا وقعنا وأصبنا، فإنه لن يتدخل. سنموت أولاً.

كلنا أكثر تعقيداً من الأدوار التي أوكلت إلينا في القصص. ولم يكشف لي هذه الحقيقة أكثر من كتابة هذه المذكرات -أحاول أن أثبت الأشخاص الذين أحبهم على الورق، أن أعبر عن المعنى كله في بضع كلمات، وهذا بالطبع أمر مستحيل. وهذا أفضل ما يمكنني أن أفعله: أن أروي القصة الأخرى إلى جانب القصة التي أتذكرها. عن يوم صيفي، حريق، رائحة لحم متفحم، وأب يساعد ابنه أسفل الجبل.

تم تحويل هذا الكتاب من صيغة (pdf) إلى صيغة نصية (epub) لما لها من مميزات عديدة؛ مثل التحكم في حجم الخط وتحديد الاقتباسات وغيرها من المميزات الأخرى. عملية تحويل الكتاب هي عملية شاقة، وما نبذله من جهد فهو تطوعي تمامًا؛ لأننا نسعى أولًا إلى المساهمة في زيادة محتوى المكتبة العربية النصية. وثانيًا لتوفير سبل القراءة للجميع وتيسير الوصول إليها. وثالثًا لحفظ الكتب؛ فوجود الكتب بصيغة إلكترونية يعني أنها ستظل متاحة للجميع ومحفوظة إلى الأبد، دون أن تؤثر عليها عوامل الزمن.

انضم إلى القناة الآن وتابع المزيد من الكتب النصية الجديدة: <https://t.me/xepub>

القناة الاحتياطية: <https://t.me/xepub1>

الملاحظات

[1 ←]

▢ باستثناء أختي أودري التي كُسرت ذراعها وساقها عندما كانت صغيرة، وأُخذت إلى المستشفى لوضع جبيرة.

[2 ←]

بينما يتفق الجميع بأنه لم يكن عند والديّ هاتف منذ سنوات عدة، ثمة خلاف بين أفراد الأسرة حول تلك السنوات، ومع أنني سألت إخوتي وخالاتي وأخوالي، فلم أتمكن من تحديد الوقت الذي جُلب فيه الهاتف إلى البيت بالتحديد، فاعتمدت على ذاكرتي.

[← 3]

اختصار اسم الرئيس فرانكلين ديلا نوروزفلت.

[4 ←]

□ كان تعرض شون لهذه العملية المؤلمة والمكلفة هي السبب الذي جعل والديّ يأخذاني إلى اختصاصي في تقوم الأسنان لإصلاح نفس العيب في أسناني الذي كان وراثيًا. باختصار، بينما فقد شون أسنانه النابّية، احتفظت أنا بها.

تستند روايتي حول سقوط شون إلى القصّة التي سمعتها آنذاك. وقد سمع تايلر القصّة نفسها. في الواقع، فإن الكثير من التفاصيل الواردة في هذه القصة من ذاكرته. وعندما سألت عنها بعد خمس عشرة سنة، تذكرها الآخرون بطرائق مختلفة. فقد قالت أمّي إنّ شون لم يكن واقفًا على سقالة، وإنما كان واقفًا فوق أسنان الرافعة الشوكية. ويتذكر لوك السقالة، لكنه يستبدل القضبان الفولاذية بأنبوب تصريف، بعد أن أزيل عنه الشبك، وقال إنه سقط من ارتفاع اثني عشر قدمًا، وعندما استعاد شون وعيه بدأ يتصرّف بشكل غريب. ولا يتذكر لوك من الذي اتصل بالإسعاف (على الرقم ٩١١)، لكنه قال إنه كان هناك رجال يعملون في ورشة قريبة، ويطن أنّ أحدهم اتصل بهم فور سقوط شون.

[← 6]

□ عندما سألته بعد خمس عشرة سنة، لم يتذكّر دوين أنه كان موجودًا هناك. لكنّي أتذكر بوضوح شديد أنه كان موجودًا هناك.

[7 ←]

ربما كان التسلسل الزمني الذي أقدمه هنا ناقصًا يومًا أو يومين. فاستنادًا إلى بعض الذين كانوا موجودين هناك، لم يكن يبدو أن أبي، على الرغم من حرقه الشديد، في خطر حقيقي حتى اليوم الثالث عندما بدأ الجلد يتقشر، وأصبح يتنفس بصعوبة لأن الجفاف فاقم من خطورة الأمر. وهنا خافوا على حياته، واتصلت أختي بي، وظننت أن الانفجار وقع في اليوم السابق.

[← 8]

□ الأحرف المائلة المستخدمة هنا تشير إلى إعادة صياغة الكلمات الواردة في الرسالة الإلكترونية، ولم أوردتها بحذافيرها، لكنني احتفظت بالمعنى.

[9 ←]

□ الأحرف المائلة المستخدمة هنا تشير إلى إعادة صياغة الكلمات الواردة في الرسالة الإلكترونية، ولم أوردتها بحذافيرها، لكنني احتفظت بالمعنى.

[10 ←]

□ أتذكّر أن الندبة التي على ساعد لوك كانت بسبب المقصّ، لكن قد تكون بسبب حادث آخر أثناء تركيب أحد الأسطح.

[11 ←]

□ الأحرف المائلة المستخدمة هنا تشير إلى إعادة صياغة الكلمات الواردة في الرسائل المتبادلة، ولم أوردتها بحذافيرها، لكنني احتفظت بالمعنى.

[12 ←]

□ الأحرف المائلة المستخدمة هنا تشير إلى إعادة صياغة الكلمات الواردة في الرسالة الإلكترونية، ولم أوردتها بحذافيرها، لكنني احتفظت بالمعنى.